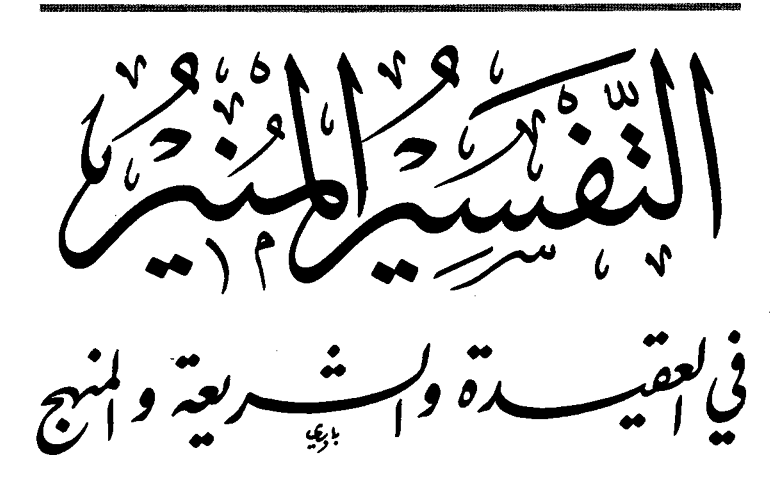
﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾
(الأنفال ٨/ ٢٤)



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد الثامن

الجزءان ١٥ - ١٦





دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الثامن

الرقم الاصطلاحي: ٨- ١١ ,٠١١ ,١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

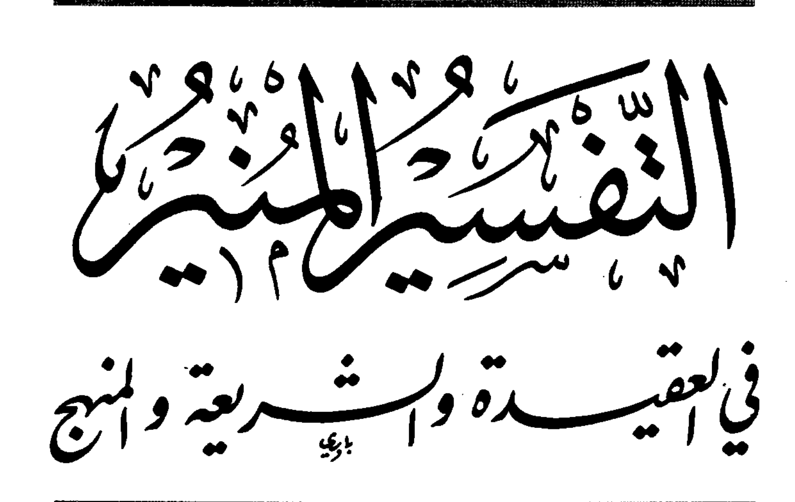
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٨٠ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الثامن

الجزءان ١٥ ـ ١٦



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

مكية، وهي مئةٌ وإحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الإسراء لافتتاحها بمعجزة الإسراء للنبي ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ليلاً، كما سميت أيضاً سورة بني إسرائيل، لإيرادها قصة تشردهم في الأرض مرتين بسبب فسادهم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [٤-٨].

فضلها:

أخرج أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يقرأكل ليلة بني إسرائيل والزُّمَر».

وأخرج البخاري وابن مردويه عن ابن مسعود «أنه قال في بني إسرائيل - أي هذه السورة - والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: هن من العِتاق الأُوَل، وهن من تِلادي» أي فهي مشتركة في قدم النزول، وكونها مكيات، واشتمالها على القصص.

مناسبتها لما قبلها:

يظهر وجه ارتباطها بسورة النحل من عدة نواحٍ:

١ً - إنه تعالى بعد أن قال في آخر سورة النحل: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ فسَّر في هذه السورة شريعة أهل السبت وشأنهم، وذكر جميع ماشرعه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل».

٢ً - بعد أن أمرالله نبيه ﷺ بالصبر على أذى المشركين في ختام سورة النحل بنسبته إلى الكذب والسحر والشعر، سلّاه هنا، وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربه بالإسراء، وافتتح السورة بذكره تشريفاً له، وتعظيماً للمسجد الأقصى الذي أشير إلى قصة تخريبه.

٣ً - في السورتين بيان نعم الله الكثيرة على الإنسان، حتى سُمِّيت سورة النحل «سورة النعم» وفصلت هنا أنواع النعم العامة والخاصة، كما في الآيات [٩- ١٢] و[٧٠].

٤ً - في سورة النحل أبان تعالى أن القرآن العظيم من عنده، لامن عند بشر، وفي هذه السورة ذكر الهدف الجوهري من ذلك القرآن.

٥ً - في سورة النحل ذكر تعالى قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية، وفي هذه السورة ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من برالأبوين، وإيتاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل حقوقهم من غير تقتير ولاإسراف، وتحريم القتل والزنى وأكل مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط، وإبطال التقليد من غير علم.

ما اشتملت عليه السورة:

١ - تضمنت السورة الإخبار عن حدث عظيم ومعجزة لخاتم الأنبياء والمرسلين وهي معجزة الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى في جزء من الليل، والتي هي دليل باهر على قدرة الله عز وجل، وتكريم إلهي لهذا النبي ﷺ.

٢ - وأخبرت عن قصة بني إسرائيل في حالي الصلاح والفساد، بإعزازهم حال الاستقامة وإمدادهم بالأموال والبنين، وتشردهم في الأرض مرتين بسبب عصيانهم وإفسادهم، وتخريب مسجدهم. ثم عودهم إلى الإفساد باستفزازهم النبي ﷺ، وإرادتهم إخراجه من المدينة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [٧٦].

٣ - وأبانت بعض الأدلة الكونية على قدرة الله وعظمته ووحدانيته، مثل آية ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ [١٢].

٤ - وضعت هذه السورة أصول الحياة الاجتماعية القائمة على التحلي بالأخلاق الكريمة والآداب الرفيعة، وذلك في الآيات: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [٢٣-٣٩].

٥ - نددت السورة بنسبة المشركين البنات إلى الله زاعمين أن البنات من الملائكة: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [٤٠] ثم أنكرت عليهم وجود آلهة مع الله [٤١-٤٤] ثم فندت مزاعمهم بإنكار البعث والنشور [٤٩-٥٢] [٩٨-٩٩] وحذرت النبي ﷺ من موافقته المشركين في بعض معتقداتهم [٧٣-٧٦].

٦ - أوضحت السورة سبب عدم إنزال الأدلة الحسية الدالة على صدق النبي ﷺ [الآ ية ٥٩]، ومدى تعنت المشركين في إنزال آيات اقترحوها غير القرآن من تفجيرالأنهار، وجعل مكة حدائق وبساتين، وإسقاط قطع من السماء، والإتيان بوفود الملائكة، وإيجاد بيت من ذهب، والصعود في السماء [الآيات ٨٩-٩٧].

٧ - أنبأت السورة عن قدسية مهمة القرآن وسمو غاياته: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [٩] ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [٨٢] وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله [٨٨] مما يدل على إعجازه.

٨ - أعلنت السورة مبدأ تكريم الإنسان بأمرالملائكة بالسجود له وامتناع إبليس [٦١-٦٥] وتكريم بني آدم ورزقهم من الطيبات [٧٠].

٩ - عددت أنواعاًجليلة من نعم الله على عباده: [١٢-١٧] ثم لوم الإنسان على عدم الشكر: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [٨٣] ومن أخص النعم: هبة الروح والحياة [٨٥].

١٠ - عقدت مقارنة بين من أراد العاجلة ومن أراد الباقية [١٨-٢١].

١١ - ذكرت أمر النبي ﷺ بإقامة الصلاة والتهجد في الليل [٧٨-٧٩] ودخوله المدينة وخروجه من مكة [٨٠].

١٢ - أشارت إلى جزء من قصة موسى مع فرعون وبني إسرائيل [١٠١-١٠٤].

١٣ - أبانت حكمة نزول القرآن منجَّماً (مفرقاً بحسب الوقائع والحوادث والمناسبات) [١٠٥-١٠٦].

١٤ - ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد، والناصر والمعين، واتصاف الله بالأسماء الحسنى التي أرشدنا إلى الدعاء بها [١١٠-١١١].

والخلاصة: إن السورة اهتمت بترسيخ أصول العقيدة والدين كسائر السور المكية، من إثبات التوحيد، والرسالة والبعث، وإبراز شخصية الرسول ﷺ، وتأييده بالمعجزات الكافية للدلالة على صدقه، وتفنيد شبهات كثيرة للمشركين.

الإسراء وإنزال التوراة على موسى

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾

القراءات:

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾:

وقرأ أبو عمرو: (ألا يتخذوا).

الإعراب:

﴿سُبْحَانَ﴾ منصوب بفعل مضمر متروك إظهاره، تقديره: أسبح الله سبحان، ثم نزَّل ﴿سُبْحَانَ﴾ منزلة الفعل، فسدَّ مسدَّه.

﴿لَيْلًا﴾ منصوب على الظرف.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ أي قلنا لهم: لا تتخذوا، وحذف القول كثير في كلامهم، وتكون «أن» على هذا زائدة، ويجوز أن تجعل «أن» بمعنى «أي» فيكون تقديره: وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا، أي لا تتخذوا، فيكون ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ تفسيراً لهدىً. ولا يمتنع أن يكون التقدير: وجعلناه هدىً لبني إسرائيل بألا تتخذوا. وقرئ بالياء، ويكون المعنى: جعلناه لهم هدى، لئلا يتخذوا وكيلاً من دوني.

﴿ذُرِّيَّةَ﴾ بالنصب إما بدل من ﴿وَكِيلًا﴾ أو منصوب على النداء، أو

منصوب على أنه مفعول أول لتتخذوا، و﴿وَكِيلًا﴾: المفعول الثاني، أو منصوب بتقدير: أعني، أو على الاختصاص. ومن قرأ بالرفع فهو بدل من واو ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾.

البلاغة:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ براعة استهلال؛ لأنه لما كان الإسراء أمراً خارقاً للعادة، بدأ السورة بما يشير إلى كمال القدرة وتنزهه تعالى عن صفات النقص.

﴿بِعَبْدِهِ﴾ إضافة تشريف وتكريم.

﴿لِنُرِيَهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى التكلم، لتعظيم تلك البركات الدينية والدنيوية والآيات.

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى﴾ التفات أيضاً عن الغيبة إلى الحضور.

المفردات اللغوية:

﴿سُبْحَانَ﴾ اسم علم كعثمان للرجل بمعنى التسبيح (المصدر) الذي هو التنزيه عن كل صفات العجز والنقص، مما لا يليق بجلال الله وكماله ﴿أَسْرَى﴾ وسرى: سار بالليل خاصة، وكان ذلك قبل الهجرة بسنة، وحكمة الإسراء لبيت المقدس: أنه مجمع أرواح الأنبياء، وموطن نزول الوحي على الرسل والأنبياء، فشرفه الله بزيارته، وصلى بالأنبياء إماماً. ﴿بِعَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ، والعبد يشمل الروح والجسد معاً، وقد وصفه الله هنا بالعبودية؛ لأنه أشرف المقامات، كما وصفه في مقام الوحي بالوصف نفسه: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ١٠] وكذلك وصفه بالوصف ذاته في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ٧٢/ ١٩] .

﴿لَيْلًا﴾ فائدة ذكره: الإشارة بتنكيره إلى تقليل مدته ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي مسجد مكة بعينه؛ لما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجْر عند البيت بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق». أو المراد به الحرم المكي كله أي مكة، وسماه المسجد الحرام؛ لأن كله مسجد، لما روي أنه ﷺ كان نائماً في بيت أم هانئ، بعد صلاة العشاء، فأُسري به ورجع من ليلته، وقص القصة عليها، وقال: «مُثِّل لي النبيون، فصليت بهم».

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ بيت المقدس، ووصف بالأقصى، لبعده بالنظر لمن هو في الحجاز ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ ببركات الدين والدنيا؛ لأنه مهبط الوحي، ومتعبد الأنبياء من لدن موسى عليه السلام، ومحفوف بالأنهار والأشجار والثمار ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ عجائب قدرتنا، كذهابه في برهة من الليل، مسيرة شهر، ومشاهدته بيت المقدس، وتمثل الأنبياء عليهم السلام له، ووقوفه على مقاماتهم ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال النبي ﷺ ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بأفعاله، فيكرمه ويقربه على حسب ذلك، فاجتمع بالأنبياء، وعرج إلى السماء، ورأى عجائب الملكوت، وناجى ربه تعالى.

وقال ابن عطية: هذا وعيد من الله للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء، أي هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ أي لئلا تتخذوا، أو بألا تتخذوا، أو على ألا تتخذوا، ومن قرأ بالياء فهو بمعنى: لئلا يتخذوا ﴿وَكِيلًا﴾ رباً أو كفيلاً يفوضون إليه أمرهم، دون غيره ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ كثير الشكر، يحمد الله تعالى في جميع أحواله.

سبب نزول آية الإسراء:

ذكر رسول الله ﷺ لقريش الإسراء به وتكذيبهم له، فأنزل الله ذلك تصديقاً له.

فبعد أن عاد النبي ﷺ من الإسراء والمعراج، خرج إلى المسجد الحرام، وأخبر به قريشاً، فتعجبوا منه لاستحالة ذلك في نظرهم، وارتد ناس ممن آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: إن كان قال، لقد صدق، فقالوا: تصدقه على ذلك؟ قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك، فسمي «الصديق». واستنعته طائفة سافروا إلى بيت المقدس، فجُلِّي له، فطفق ينظر إليه، وينعته لهم، فقالوا: أما النعت فقد أصاب، فقالوا: أخبرنا عن عِيرنا، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها، وقال: تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس، يقدمها جمل أوْرَق[١]، فخرجوا ينشدون العير إلى الثنية، فصادفوا العير، كما أخبر، ثم لم يؤمنوا، وقالوا: ما هذا إلا سحرٌ مبين.

رأي العلماء في الحادث:

الأكثر على أنه أسري بجسده إلى بيت المقدس، ثم عُرج به إلى السماوات، حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، ولذلك تعجبت قريش واستحالوه.

قال أبو حيان: والظاهر أن هذا الإسراء كان بشخصه، ولذلك كذبت قريش، وشنعت عليه، وحين قص ذلك على أم هانئ قالت: لا تحدِّث الناس بها، فيكذبوك، ولو كان مناماً، ما استنكر ذلك، وهو قول جمهور أهل العلم، وهو الذي ينبغي أن يعتقد. وحديث الإسراء مروي في المسانيد عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، وذكر أنه رواه عشرون من الصحابة[٢].

(١) الجمل الأورق من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد، وهو أطيب الإبل لحماً، وليس بمحمود عندهم في عمله وسيره.

(٢) البحر المحيط: ٦/ ٥

وما روي عن عائشة ومعاوية: أنه كان مناماً فلم تثبت صحته، ولو صح لم يكن في قولهما حجة؛ لأنهما لم يشاهدا الحادث، لصغر عائشة، وكفر معاوية إذ ذاك، ولأنهما لم يسندا ذلك إلى الرسول ﷺ، ولا حدثا به عنه.

ومناسبة آية ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ لما قبلها: أنه لما ذكر تشريف النبي ﷺ وإكرامه بالإسراء، وإراءته الآيات، ذكر تشريف موسى وإكرامه بإيتائه التوراة من قبله.

التفسير والبيان:

أنزِّه الله تنزيهاً من كل سوء، الذي أسرى بعبده محمد ﷺ في جزء من الليل، من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وعاد إلى بلده في ليلته، وأبرئه تبرئة تامة عن كل صفات العجز والنقص وعما يقوله المشركون من وجود شريك أو ولد له، وأثبت له القدرة الكاملة الفائقة، فهو القادر على تحقيق ماهو أغرب من الخيال والتصور، فلا غرابة إن أسرى بعبده تلك المسافة البعيدة في جزء من الزمن غير طويل، تشريفاً لنبيه، ورفعاً لقدره وإعلاء لمجده، ليكون معجزة دائمة له مع مرور الزمان.

والمراد ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ بإجماع المفسرين محمد عليه الصلاة والسلام، وأتى بقوله ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء، وأنه أسرى به في بعض الليل؛ لأن التنكير يدل على معنى البعضية، والمسافة من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة بحسب وسائط النقل القديمة، وذلك قبل الهجرة بسنة، كما قال مقاتل[(١)]، وذكر الحربي: أنه أسري به ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة

(١) وهو قول الزهري وعروة، فيكون الإسراء في شهر ربيع الأول. وأورد الحافظ عبد الغني بن سرور المقدسي في سيرته حديثاً لا يصح سنده أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب (البداية والنهاية لابن كثير: ٣/١٠٨ - ١٠٩).

بسنة. وروى ابن سعد في طبقاته أن الإسراء كان قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً.

والمكان الذي أسري به منه: هو المسجد الحرام بعينه، كما يدل عليه ظاهر لفظ القرآن، وما روي عنه ﷺ أنه قال: «بينا أنا في المسجد الحرام في الحجْر عند البيت، بين النائم واليقظان، إذ أتاني جبريل بالبراق».

وقال الأكثرون: المراد بالمسجد الحرام: الحرم؛ لإحاطته بالمسجد، والحرم كله مسجد، كما قال ابن عباس، وقد أسري به من دار أم هانئ بنت أبي طالب سنة ٦٢١م.

والمسجد الأقصى بالاتفاق: هو بيت المقدس، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة في الأرض يعظم بالزيارة.

والأكثرون من المسلمين اتفقوا على أنه أسري بجسد رسول الله ﷺ. وفي رأي ضعيف: أنه ما أسري إلا بروحه، وذلك محكي عن حذيفة وعائشة ومعاوية. والأصح هو الرأي الأول وأنه تعالى أسرى بروح محمد ﷺ وجسده، من مكة إلى بيت المقدس، لأن كلمة العبد في قوله: ﴿بِعَبۡدِهِۦ﴾ اسم للجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح، ولأن الخبر المروي عن أنس بن مالك وهو الحديث المشهور المروي في الصحاح عن المعراج والإسراء يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس، ثم منه إلى السماوات العلا.

والخلاصة: إن الآية هنا دالة قطعاً على إثبات الإسراء، وآية سورة النجم دالة على المعراج: وهو العروج والصعود إلى السماوات، إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام، بعد وصوله إلى بيت المقدس.

وقد وصف الله المسجد الأقصى بأنه مبارك ما حوله، والبركة تشمل بركات الدين والدنيا، أما الأولى فهو أنه مهبط الأنبياء، وأما الثانية فهو إحاطته بخيرات الدنيا، لما اشتمل عليه من أنهار وأشجار وأثمار تكون سبباً في توفير المعايش والأقوات.

والهدف من الإسراء: أن يري الله عبده آياته الكبرى، وأدلته العظمى على وجوده ووحدانيته وعظم قدرته، فكانت فائدة الإسراء مختصة بالله تعالى وعائدة إليه على سبيل التعيين.

ولا عجب في ذلك كله، فالله سبحانه هو السميع لكل قول، البصير بكل نفس، الذي يضع الأمور في مواضعها على وفق الحكمة، وبمقتضى الحق والعدل. ومن ذلك: سماعه أقوال المشركين وتعليقاتهم على حادث الإسراء واستهجانهم لوقوعه، واستهزاؤهم بالنبي ﷺ في إسرائه من مكة إلى القدس. وبصره بما يفعل أولئك المشركون، وبما يكيدون لنبي الله ورسالته[١].

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ بعد أن ذكر الله إكرام محمد ﷺ من نسل إسماعيل بالإسراء وإمامة الأنبياء في المسجد الأقصى، ذكر في هذه الآية إكرام موسى عليه السلام قبل محمد ﷺ بالكتاب الذي آتاه وأعطاه إياه، وهو التوراة، الذي جعله الله هدى وهداية، ليخرج بني إسرائيل بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والدين الحق، وقلنا: لا تتخذوا من دوني وكيلاً، أي لا تتخذوا من دون الله وكيلاً تفوضون إليه أموركم، فقوله: ﴿وَكِيلًا﴾ معناه: رباً تكلون إليه أموركم.

---

(١) يلاحظ أن الآية انتقل فيها من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، فقوله ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ في ذكر الله على سبيل الغيبة، وقوله: ﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ انتقال إلى الحضور، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يدل على الغيبة. ثم انتقل إلى الحضور بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يدل على الحضور أي الخطاب. وهذا يسمى الالتفات.

وبين الإسراء بمحمد ﷺ إلى بيت المقدس، وإيتاء موسى التوراة بمسيره إلى الطور تناسب واضح.

ثم أبان الله تعالى تشريفه لبني إسرائيل وإتمام نعمته عليهم، لحملهم على اتباع الرسل، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية أو نسل وحفدة أولئك الذين نجاهم الله من الغرق مع نوح، وهداهم إلى طريق التوحيد والحق والخير، تشبَّهوا بأصولكم، فأنتم أولى الناس بالتوحيد واتباع سيرة الأنبياء والمرسلين، وفي مقدمتهم أبوكم نوح عليه السلام الذي كان عبداً مبالغاً في الشكر لنعم الله وعرفان قدره وعظمته، وإنما يكون العبد شكوراً إذا كان موحداً لا يرى حصول شيء من النعم إلا من فضل الله، فاقتفوا أثره، واتبعوا منهجه وسنته، واقتدوا به كما أن آباءكم اقتدوا به.

ووصف نوح بكونه ﴿عَبْدًا﴾ ووصف نبينا محمد بأنه «عبد» دليل واضح على مرتبة الأنبياء، وهي مرتبة العبودية الخالصة لله، فإن معجزة الإسراء والمعراج الخارقة لا يصح وصفها بغير حقيقتها، ولا وضع النبي ﷺ في منزلة تتجاوز موضعه الحقيقي وهو كونه عبداً لله، أي خاضعاً لعزة الله وسلطانه، خلافاً لما وصفت به النصارى المسيح، ووضعوه في غير موضعه الصحيح.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايأتي:

أ - ثبوت حادثة الإسراء بنص القرآن الكريم بدلالة قطعية، وثبت الإسراء أيضاً في جميع مصنفات الحديث، وروي عن عشرين صحابياً، فهو من المتواتر.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبُراق - وهو دابة، أبيض طويل فوق الحمار، ودون البغل،

يضع حافره عند منتهى طَرْفه - قال: فركبتُه حتى أتيتُ بيت المقدس، فربطتُه بالحلْقة التي يربطُ بها الأنبياء، ثم دخلتُ المسجد، فصليتُ فيه ركعتين، ثم خرجتُ، فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل عليه السلام: اخترتَ الفطرة، ثم عُرج بنا إلى السماء..» الحديث.

وروى مسلم أيضاً حديثاً آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى بالأنبياء عليهم السلام وفيه: «.. فأمَمْتُهم، فلما فرغتُ من الصلاة، قال لي قائل: يامحمد، هذا مالِكٌ صاحب النار، فسلِّمْ عليه، فالتفتُّ إليه، فبدأني بالسلام».

٢ - كان الإسراء بالروح والجسد يقظة راكباً البراق، لا في الرؤيا والمنام، بدليل نص الآية ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ وهو مجموع الروح والجسد، ولو كان مناماً لقال: «بروح عبده» ولم يقل: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ٥٣/١٧] يدل على ذلك، ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما قالت له أم هانئ: لا تحدِّث الناس فيكذبوك، ولا فضّل أبو بكر بالتصديق، ولما أمكن قريشاً التشنيع والتكذيب، وقد كذبته قريش فيما أخبر به، حتى ارتدّ أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر[1].

وأما المعراج أو العروج إلى السماوات وإلى ما فوق العرش، فلا تدل هذه الآية عليه، وإنما تدل عليه أوائل سورة النجم[2].

والخلاصة: إن تلك الرؤيا لمحمد ﷺ كانت رؤيا عيان، لا رؤيا منام.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/٢٠٨ - ٢٠٩

(٢) تفسير الرازي: ٢٠/١٥٣

وتاريخ الإسراء مختلف فيه، والظاهر أنه كان قبل الهجرة إلى المدينة بسنة.

ولا خلاف بين العلماء وأهل السير أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عرج بالنبي ﷺ إلى السماء، وذلك منصوص عليه في صحيحي البخاري ومسلم وغيرهما[١]. وإنما اختلفوا في هيئتها حين فرضت، فروى البخاري ومسلم ومالك وأبو داود والنسائي عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فرض الله الصلاة - حين فرضها - ركعتين، ثم أتمها في الحضَر، وأُقِرَّت صلاة السفر على الفريضة الأولى».

وروى مسلم وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضَر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة».

٣ً - إن المقصود من الإسراء والمعراج أن يري الله نبيه الآيات العظمى الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته، ومن تلك الآيات: الجنة والنار وأحوال السماوات والكرسي والعرش، فيصبح العالم في عينه حقيراً أمام عظمة الكون، وتقوى نفسه على احتمال المكاره والجهاد في سبيل الله. ومن تلك الآيات التي أراه الله العجائب التي أخبر بها النبي ﷺ الناس، وإسراؤه في ليلة، وعروجه إلى السماء، ووصفه الأنبياء واحداً واحداً، كما ثبت في صحيح مسلم وغيره.

كما أن في الإسراء من مكة إلى بيت المقدس الإشارة إلى وحدة الأنبياء في الرسالة والهدف والتوجه إلى الله تعالى وحده، وإن اختلفت القبلتان، وتمايزت الشرائع، وتمادى الزمان في فترات إرسال الأنبياء عليهم السلام، فهم من أولهم آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد ﷺ دعاة إلى توحيد الله وعبادته وإلى

(١) جامع الأصول: ٦/ ١٣١

إصلاح الإنسان والمجتمع، وإسعاد الفرد والجماعة، وتصحيح مسيرة الناس قاطبة على أساس من الحق والعدل والاستقامة والأخلاق السوية.

٤ - كرَّم الله محمداً ﷺ بالإسراء والمعراج، وكرم موسى عليه السلام بالكتاب وهو التوراة الذي جعله الله هدى وهداية لبني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان بالله تعالى وحده، وتحريم اتخاذ ربّ سواه يتوكلون عليه في أمورهم. والوكيل: من يوكل إليه الأمر.

٥ - ثم نادى الله سبحانه البشرية قاطبة بأن ينضموا جميعاً تحت راية واحدة هي راية الإيمان بالله تعالى وحده، قائلاً: ياذرية من حملنا مع نوح، وهم جميع من على الأرض، ومنهم موسى وقومه من بني إسرائيل: لا تشركوا مع الله إلهاً آخر.

وذكر الله تعالى نوحاً لتذكير البشرية بنعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم.

ومقصود الآية: إنكم أيها البشر من ذرية نوح، وقد كان عبداً شكوراً موحداً الله تعالى، مقراً بآلائه ونعمه عليه، ولا يرى الخير إلا من عنده، فأنتم أحق بالاقتداء به، دون آبائكم الجهال.

ويمكن مما ذكر تلخيص العظات والحقائق التالية:

أولاً - أدى حادث الإسراء والمعراج في ليلة واحدة إلى تمحيص المؤمنين، وتبيان صادق الإيمان، ومريض القلب منهم.

ثانياً - كان إطلاع الله رسوله ﷺ على آيات الكون الأرضية والسماوية ذات العجائب درساً واقعياً لتعليم الرسول بالمشاهدة والنظر، ومن المعلوم أن التعليم المحسوس أوقع في النفس، وأرسخ في الذهن.

ثالثاً - إن بشرية النبي ﷺ واحتياجه إلى الهواء في طبقات الجو والسماوات

العليا والملأ الأعلى لم تمنع من إتمام تلك الرحلة، لأن قدرة الله تعالى كفيلة بتوفير حاجياته ومتطلباته، كما يزود الآن رواد الفضاء بالأكسجين.

وإن في غزو الفضاء الآن لدليلاً مؤكداً على صحة الإسراء والمعراج، وأن محمداً ﷺ هو أول رواد الفضاء، وأنه تجاوز أسرع ما توصلت إليه محطات الفضاء.

رابعاً - إن جمع الأنبياء في المسجد الأقصى وإمامة نبينا بهم دليل واضح على وحدة رسالاتهم وختمها برسالة النبي ﷺ، وبلورتها وانصبابها في شريعته التي ختمت الشرائع السالفة.

أحوال بني إسرائيل في التاريخ

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿بَأْسٍ﴾، ﴿أَسَأْتُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باس، أساتم).

﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟﴾:

وقرأ الكسائي (لنسوءَ).

الإعراب:

﴿خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ ظرف مكان منصوب، وعامله ﴿فَجَاسُواْ﴾ وقرئ: جاسوا وداسوا وهما بمعنى واحد، وحاسوا.

﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي المرة الآخرة، فَحُذِف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ﴾ ﴿مَا﴾: مصدرية ظرفية زمانية، أي وليتبّروا مدّة علوهم، فحذف المضاف، كقولك: أتيتك مَقْدِم الحاج، أي زمن مقدم الحاج، فحذف المضاف.

البلاغة:

﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا﴾ جناس اشتقاق.

﴿أَحۡسَنتُمۡ﴾ ﴿أَسَأۡتُمۡ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَضَيۡنَآ﴾ أعلمناهم وأخبرناهم بذلك من طريق الوحي .﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التوراة .﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرض الشّام بالمعاصي، وهو جواب قسم محذوف .﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ من الإفساد، أولاهما - مخالفة أحكام التوراة وقتل أشعيا، وثانيتهما - قتل زكريا ويحيى وقصد قتل عيسى .﴿وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾ لتستكبرنّ عن طاعة الله تعالى، وتبغون بغياً عظيماً، وتظلمون الناس.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أولى مرّتي الفساد، ووعد عقاب أولاهما .﴿بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ﴾ أصحاب قوة في الحرب والبطش، وهم

بختنصّر وجنوده، وقيل: جالوت الخزري، وقيل: سنحاريب ملك بابل وجنوده. ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ تردّدوا وسط دياركم لطلبكم وقتلكم وسبيكم، فقتلوا الكبار، وسبوا الصغار، وأحرقوا التوراة، وخرَّبوا المسجد الأقصى وبيت المقدس. ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ وكان وعد عقابكم نافذاً، لا بدّ منه.

﴿ٱلْكَرَّةَ﴾ الدّولة والغلبة. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بعد مئة سنة بقتل جالوت. ﴿نَفِيرًا﴾ عشيرة. ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ بالطاعة. ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ لأن ثوابه لها. ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ بالفساد. ﴿فَلَهَا﴾ إساءتكم، ووبالها عليها. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي جاء وعد المرة الآخرة. ﴿لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ أي بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، أي ليجعلوها بادية آثار السوء فيها، بأن يحزنوكم بالقتل والسَّبي حزناً يظهر في وجوهكم. وحذف (بعثناهم) لدلالة ما ذكر أولاً عليه. ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ﴾ بيت المقدس فيخربوه، وهو متعلِّق بمحذوف هو: بعثناهم. ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ كما خربوه أول مرة. ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾ يهلكوا. ﴿مَا عَلَوْا۟﴾ ما غلبوا عليه أو استولوا عليه من بلادكم، أو مدة علوهم. ﴿تَتْبِيرًا﴾ هلاكاً، وذلك بأن سلَّط الله عليهم الفرس، مرة أخرى، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف، اسمه: جوذرز أو خردوس، وقتل منهم ألوفاً، وسبى ذريّتهم، وخرَّب بيت المقدس.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي وقلنا في الكتاب: عسى ربّكم، بعد المرة الثانية، إن تبتم. ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى الفساد. ﴿عُدْنَا﴾ إلى العقوبة، وقد عادوا بتكذيب محمد ﷺ، فسلَّط عليهم بقتل قريظة، ونفي بني النضير، وفرض الجزية عليهم. ﴿حَصِيرًا﴾ محبساً وسجناً، لا يقدرون على الخروج منها أبداً، وقيل: بساطاً، كما يبسط الحصير.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى إنعامه على بني إسرائيل بإنزال التوراة عليهم، لتكون لهم هدى يهتدون بها، ذكر أنهم ما اتبعوا هداها، بل أفسدوا في الأرض بقتل الأنبياء وسفك الدِّماء، فسلَّط الله عليهم البابليين بقيادة بختنصّر، فقتلوهم ونهبوا أموالهم، وخربوا بيت المقدس، وسبوا أولادهم ونساءهم، وذلك أول الفسادَيْن وعقابه.

ثم لما تابوا، أعاد الله لهم الدولة والغلبة، وأمدّهم بالأموال والبنين، ثم عادوا إلى فسادهم وعصيانهم، فقتلوا زكريا ويحيى عليهما السّلام، فسلَّط الله عليهم الفرس، فقتلوهم، وسلبوهم، وخربوا بيت المقدس مرة أخرى، ثم وعدهم الله بالنصر إن أطاعوا، وبالعقاب بنار جهنم إن عصوا وأفسدوا.

التفسير والبيان:

هذه الآيات بيان لتاريخ بني إسرائيل وإخبار عما يرتكبون من وقائع وأحداث دامغة، ومفاسد عظيمة، والمعنى: وأعلمنا بني إسرائيل وأخبرناهم وأوحينا إليهم وحياً مقضيّاً مقطوعاً بحصوله فيما أنزلناه في التوراة على موسى أنهم سيفسدون في الأرض: أرض الشام وبيت المقدس أو أرض مصر، أو في كل أرض يحلّون فيها مرتين، ويعصون الله، ويخالفون شرع ربّهم في التوراة مخالفتين لا مخالفة واحدة، وهما:

الأولى - مخالفة التوراة وتغييرها، وقتل بعض الأنبياء، مثل شعيا عليه السّلام، وحبس إرْمِيا حين أنذرهم سخط الله تعالى.

والثانية - قتل زكريا ويحيى ومحاولة قتل عيسى عليهم السّلام.

ثم إنهم يتجبَّرون ويطغون ويفجرون ويستعلون على الناس بغير الحق استعلاءً عظيماً، ويظلمونهم ظلماً شديداً، فقوله تعالى: ﴿عَلَوًا كَبِيرًا﴾ أراد به التّكبر والبغي والطغيان.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا﴾ أي فإذا حان موعد أولى المرتين من الإفساد، وجاء وعد الفساق ووقت العقاب الموعود به على المرة الأولى، سلّطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد، أي قوة وشدّة وأصحاب عدّة في الحروب وعدد، وهم أهل بابل بقيادة بُخْتَنَصَّر، حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه، كما قال ابن عباس وغيره. وقال قتادة: أرسل عليهم جالوت فقتلهم، فهو وقومه أولو بأس شديد. وقال مجاهد: هم جند من فارس، والظاهر الرأي الأول، والمهم العبرة والعظة من تسلُّط فئة قوية على فئة باغية، ولا يهم بيان الأشخاص والجماعات.

﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، أي أوغلوا في البلاد وتملكوها، وتردّدوا فيها وفي أوساطها ذهاباً وإياباً، لا يخافون أحداً، يقتلون ويسلبون وينهبون، ويقتلون العلماء والكبراء، وكان من آثارهم إحراق التوراة، وتخريب بيت المقدس، وسبي عدد كثير من بني إسرائيل، وكان ذلك وعداً منجزاً نافذاً، وقضاءً كائناً لا خلف فيه، أو قضاء حتماً جزماً لا يقبل النقض والنسخ؛ لأنهم تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء.

وكان هذا الدَّرس القاسي البليغ محقّقاً الثّمرة والغاية، فاتّعظ بنو إسرائيل مما حدث، وثابوا لرشدهم، وعدلوا عن غيِّهم وضلالهم، وتمسَّكوا بمبادئ كتابهم ودينهم، فكان ذلك مؤذناً بنصر جديد كما قال تعالى:

﴿رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي ثم أعدنا لكم الدولة والغلبة عليهم، ورددنا لكم القوة، وأهلكنا أعداءكم، وجعلناكم أكثر نفيراً، أي عدداً من الرجال، وأمددناكم بالأموال والأولاد والسّلاح بفضل طاعة الله والاستقامة على أمره: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٠] ولذا قال تعالى:

﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ أي إن أحسنتم العمل، فأطعتم الله

واتَّبعتم أوامره واجتنبتم نواهيه، أو إن أحسنتم بفعل الطاعات، فقد أحسنتم إلى أنفسكم؛ لأنكم بالطاعة تنفعونها، فيفتح الله عليكم أبواب الخيرات والبركات، ويدفع عنكم أذى أهل السوء في الدُّنيا، ويثيبكم في الآخرة، وإن أسأتم بفعل المحرّمات أسأتم إلى أنفسكم؛ لأنكم بالمعصية تضرّونها، فبشؤم تلك المعاصي يعاقبكم الله بالعقوبات المختلفة، من تسليط الأعداء في الدُّنيا، وإيقاع العذاب المهين في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿فَلَهَاۚ﴾ أي فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَاۗ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦].

وهذه سنّة الله في خلقه، إن عصوا سلّط الله عليهم القتل والنّهب والسَّبي، وإن تابوا أزال عنهم تلك المحنة، وأعاد لهم الدولة، ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٧٨/٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦].

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي فإذا حان موعد المرة الأخيرة، وجاء وقت العقاب على الكرة الثانية من الإفساد والإقدام على قتل زكريا ويحيى عليهما السّلام، أرسلنا أعداءكم ليسوءوا وجوهكم، أي ليظهروا المساءة في وجوهكم بالإهانة والقهر، وليدخلوا المسجد، أي بيت المقدس قاهرين، كما دخلوه في أول مرة للتخريب والتدمير وإحراق التوراة، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟﴾، أي يدمّروا ويخرّبوا، ﴿مَا عَلَوْا۟﴾، أي ظهروا عليه، ﴿تَتْبِيرًا﴾، أي تخريباً وهلاكاً شديداً، فلا يبقون شيئاً من آثار الحضارة والعمران، ويبيدون الأرض ومن عليها، ويهلكون الحرث والزرع والثمر، وقد سلّط الله عليهم في هذه المرة الفرس، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف المسمى بيردوس أو خردوس، كما ذكر البيضاوي.

والخلاصة: إن بُخْتُنَصَّر هو الذي أغار على بني إسرائيل أولاً فخرَّب بيت المقدس، وكان ذلك في زمن إرْميا عليه السّلام، وهذا موافق لتاريخ اليهود، أما في المرة الثانية فإن المغير هو بيردوس ملك بابل، كما ذكر البيضاوي، وهو

أسبيانوس، قيصر الروم كما ذكر اليهود في تاريخهم، وكان بين الإغارتين نحو من خمس مئة سنة.

ثم فتح الله تعالى باب الأمل أمامهم مرة أخرى، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ أي لعل ربّكم أن يرحمكم يا بني إسرائيل، ويعفو عنكم بعد انتقامه منكم في المرة الثانية من تسليط الأعداء عليكم، إن تبتم وأقلعتم عن المعاصي، فيصرفهم عنكم، وقد وفى الله بوعده، فأعزّهم بعد الذّلة، وأعاد لهم الملك، وجعل منهم الأنبياء.

ثم أنذرهم الله بقوله: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾، أي وإن عدتم إلى الإفساد والمعاصي في المرة الثالثة، عدنا إلى إذلالكم، وتسليط الأعداء عليكم وعقوبتكم بأشدّ مما مضى في الدُّنيا، مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنّكال، ولهذا قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾، أي مستقرّاً وسجناً لا محيد عنه، كما قال ابن عباس، وقال الحسن البصري: فراشاً ومهاداً وبساطاً، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٤١] ولأن العرب تسمِّي البساط الصغير حصيراً.

والخلاصة: إن لبني إسرائيل بسبب عصيانهم ذلّ الدُّنيا وعذاب جهنّم في الآخرة. وهذا عبرة لكل مخالف أوامر الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمة إلى ما يأتي:

١ - صدق إخبار الله لبني إسرائيل أنهم سيقدمون على الفساد والمعاصي، لما علم الله منهم في علمه السابق الأزلي أنهم أرباب انحراف وفساد وتخريب، والمراد بالفساد: مخالفة أحكام التوراة.

٢ً - تكرر العقاب مرتين والإنقاذ من العذاب والذّلّ مرتين أيضاً فيه رحمة من الله بعباده؛ لأن العقاب قد يكون سبيلاً للإصلاح والتّربية والتّهذيب، ولأن التّغلّب على الأزمات والتّخلّص من المهانة والإذلال فيه تجديد للنّفس، وعون على فتح باب الأمل، وطرد اليأس من النّفوس.

وقد عوقب اليهود أولاً على يد بختنصّر، وثانياً على يد ملك بابل: بيردوس الفارسي، أو قيصر الروم؛ لأنهم في المرة الأولى قتلوا إرْميا أو شَعْيا نبي الله عليه السّلام وجرحوه وحبسوه، وفي المرة الثانية قتلوا يحيى وزكريا عليهما السّلام قتلهما هيردوس أو لاخت أحد ملوك بني إسرائيل، وعزموا على قتل عيسى عليه السّلام، وكان العقاب شديداً في الحالتين، ومن أهم صنوفه إحراق التوراة وهدم بيت المقدس.

وكانت النّجاة بإعادة العزّة والدّولة لبني إسرائيل كما كانت بالإمداد بالأموال والبنين، وجعلهم أكثر عدداً ورجالاً من عدوّهم؛ لأنهم صاروا بعد الهزيمة الأولى أكثر التزاماً للطاعة وأصلح أحوالاً، جزاء من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة.

٣ً - إن نفع الإحسان والاستقامة على الطاعة لله عائد للإنسان نفسه، وكذلك سوء الإساءة ومخالفة أوامر الله مردود للإنسان ذاته: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٣١] ، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمًا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠٨].

٤ً - تشير آية ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ إلى أن رحمة الله تعالى غالبة على غضبه؛ لأنه تعالى لما حكى عنهم الإحسان أعاده مرتين فقال: ﴿إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ﴾ ولما حكى عنهم الإساءة اقتصر على ذكرها مرة

واحدة فقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ ولو لم يكن جانب الرّحمة غالباً، لما فرق بين التعبيرين[١].

أكّد تعالى ذلك بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ فهو وعد من الله بكشف العذاب عنهم إن تابوا وأنابوا إليه.

٥ً - إن عدل الله يقضي بأن من عاد إلى العصيان عاد الله إلى عقابه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ ومن عاد إلى التوبة والرّشد والهداية والاستقامة عادت رحمة الله إليه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾.

٦ً - ليس عذاب العصاة مقصوراً على الدُّنيا بالإذلال والإهانة والقتل والنّهب والسَّبي، وإنما هناك عذاب آخر ادّخره الله لهم في جهنّم، بإحاطة نارها بهم، وجعلها مقرّاً ومَحْبساً وسجناً لهم، أو مهاداً وفراشاً وبساطاً.

٧ً - إن ذكر ما قضي إلى بني إسرائيل دليل على نبوة محمد ﷺ، لمطابقة ما أخبر به القرآن الواقع الحادث.

أهداف القرآن الكريم

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

(١) تفسير الرازي: ٢٠/١٥٨

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

﴿وَيُبَشِّرُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (ويَبْشُر).

الإعراب:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ فيه حذف، أي ويدعو الإنسان بالشّر دعاءً مثل دعائه بالخير، ثم حذف المصدر وصفته، وأقيم ما أضيفت الصفة إليه مقامه.

المفردات اللغوية:

﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ يهدي إلى الطريقة التي هي أعدل وأصوب. ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطفاً على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي يبشّر المؤمنين ببشارتين: ثوابهم وعقاب أعدائهم، أو عطفاً على ﴿وَيُبَشِّرُ﴾ بإضمار: ويخبر أن ﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا. ﴿أَلِيمًا﴾ مؤلماً هو النار. ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ أي يدعو عند غضبه بالشّر على نفسه وأهله وماله. ﴿دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ أي كدعائه له. ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ جنس الإنسان. ﴿عَجُولًا﴾ بالدعاء على نفسه، وعدم النّظر في عاقبته.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى ما أكرم به محمداً ﷺ وهو الإسراء وأكرم موسى عليه السّلام بالتوراة، وأنها هدى لبني إسرائيل، وما سلط عليهم بذنوبهم من عذاب الدُّنيا والآخرة، مما يستدعي ردع العقلاء عن معاصي الله، ذكر ماشرَّف الله به رسوله أيضاً من القرآن الناسخ لحكم التوراة وكل كتاب إلهي، وأبان أهدافه من الهداية للطريقة أو الحالة التي هي أقوم، والتَّبشير بالثواب العظيم لمن أطاعه، وإنذار الكافرين بالعذاب الأليم.

التفسير والبيان:

لم لا تؤمنون بالقرآن يا بني إسرائيل، والقرآن كالتوراة أنزله الله على رسوله محمد ﷺ، وهو متَّصف بثلاث صفات:

الصفة الأولى:

أنه يرشد للسبيل التي هي أقوم، فهو يهدي لأقوم الطرق وأوضح السُّبل، وإلى الطريقة المثلى التي هي الدِّين القيِّم، والملَّة الحنيفية السمحة التي تقوم على أساس التوحيد الخالص لله، وأنه الفرد الصمد، صاحب الملك، والعزّة والجبروت، المعزّ المذلّ الذي يحيي ويميت، وتدعو إلى فضائل الأعمال، وإلى خيري الدُّنيا والآخرة. فقوله تعالى: ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ معناه: الطريقة التي هي أسدّ وأعدل وأصوب.

الصفة الثانية:

أنه يبشِّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً يوم القيامة، جزاء عملهم.

الصفة الثالثة:

أنه ينذرُ الذين لا يصدقون بوجود الله ووحدانيته، ولا بالمعاد والثواب والعقاب، ولا يعملون الخير بأن لهم عذاب جهنم، جزاء ما قدمت أنفسهم.

والمعنى أنه تعالى بشَّر المؤمنين بنوعين من البشارة بثوابهم وبعقاب أعدائهم، وإطلاق البشارة على البشارة بالعذاب من قبيل التهكُّم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢١] ، أو من إطلاق اسم الشيء على ضدّه، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠].

وبعد أن بيَّن الله تعالى لبني إسرائيل وغيرهم صفات الهادي وهو القرآن، بيَّن حال المهدي وهو الإنسان، ليقوي الترابط بينهما، ويدلّ على وحدة المهديين بالكتب السماوية، فقال تعالى:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ أي إن صفة الإنسان العجلة، فيدعو في بعض الأحيان حين الغضب على نفسه أو ولده أو ماله بالشّر، أي بالموت أو الهلاك والدَّمار واللعنة، كما يدعو ربَّه بالخير، أي بالعافية والسّلامة والرزق، ولو استجيب دعاؤه لهلك، ولكن الله بفضله ورحمته لا يستجيب دعاءه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١/١٠] ، وروى أبو داود عن جابر أن النَّبي ﷺ قال: «لا تدْعوا على أنفسكم، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة، يستجيب فيها».

والذي يحمل الإنسان على ذلك قلقه وعجلته، ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ أي يتعجَّل تحصيل المطلوب دون تفكير في عواقبه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

أ - إن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على محمد ﷺ سبب اهتداء للبشرية قاطبة، يرشدها لأقوم الطرق، وأصح المناهج، وأعدل المسالك، وهي توحيد الله والإيمان برسله، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وأفضل مناهج الحياة.

٢ - وللقرآن هدف آخر وهو التَّبشير والإنذار، تبشير المؤمنين الذين يعملون الأعمال الصالحة بالجنّة، وإنذار أعدائهم الكفار بالعقاب في نار جهنم، والقرآن معظمه وعد ووعيد.

٣ - إن طبع الإنسان القلق والعجلة، فيَعْجَلُ بسؤال الشّرّ كما يعجل بسؤال الخير، فيدعو على نفسه وولده وماله عند الضجر بما لا ينبغي، قائلاً: اللهم أهلكه ونحوه، كما يدعو ربَّه أن يهب له العافية ويوسِّع له في الرِّزق، فلواستجاب الله تعالى دعاءه على نفسه بالشَّرّ، هلك، لكن بفضله لا يستجيب له في ذلك. ونظير الآية آية: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ [يونس: ١٠/ ١١]. كما تقدّم، نزلت في النّضر بن الحارث، كان يدعو ويقول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢].

التذكير بنعم الله في الدنيا ودلائل القدرة الإلهية

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿يَلْقَىٰهُ﴾:

وقرأ ابن عامر (يُلَقَّاه).

الإعراب:

﴿مَنشُورًا﴾ حال. ﴿بِذُنُوبِ﴾ متعلق بقوله: ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

البلاغة:

﴿ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مجاز عقلي؛ لأن النهار لا يُبْصِر، بل يُرى فيه، فهو مجاز من إسناد الشيء إلى زمانه.

﴿طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان؛ لأن العرب الذين كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير، سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة.

﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي يقال له يوم القيامة: اقرأ كتابك، وكذلك ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا.

﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ ﴿ضَلَّ﴾ بينهما طباق.

﴿تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿ءَايَتَيْنِ﴾ علامتين دالتين على قدرة الله تعالى، بتعاقبهما على نسق واحد. ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ أي جعلنا الآية التي هي الليل ممحوَّة لا نور فيها، والإضافة فيها للتبيين، كإضافة العدد إلى المعدود .﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ مضيئة أو مبصرة للناس .﴿لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ لتطلبوا في بياض النهار أسباب معاشكم، وتتوصلوا به إلى استبانة أعمالكم .﴿وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي ولتعلموا باختلافهما أو بحركتهما عدد السنوات وجنس الحساب. والفرق بين العدد والحساب: أن العدد إحصاء أمثال الشيء المكونة له، والحساب: إحصاء طائفة معينة يتكون منها الشيء، فالسنة بالنظر إلى أنها أيام (٣٦٥ يوماً) فقط فذلك العدد، وبالنظر إلى تكونها من اثني عشر شهراً، وكل شهر ثلاثون يوماً، وكل يوم ٢٤ ساعة، فذلك هو الحساب، كما ذكر الشوكاني في فتح القدير ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا﴾ أي وكل شيء تحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا، بيَّناه بياناً غير ملتبس.

﴿طَـٰٓئِرَهُۥ﴾ عمله من خير أو شر. ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ لزوم الطوق في عنقه؛ إذ اعتادوا التفاؤل بالطير، ويسمونه زجراً، فإن مرَّ بهم من اليسار إلى اليمين، تيمنوا به، وسموه سانحاً، وإن مرّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه، وسموه بارحاً، وسموا نفس الخير والشر بالطائر تسمية للشيء باسم لازمه. ﴿كِتَـٰبًا﴾ هو صحيفة عمله. ﴿مَنشُورًا﴾ أي غير مطوي. ﴿حَسِيبًا﴾ محاسِباً عادّاً يعد عليه أعماله.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي أن ثواب اهتدائه له. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي أن إثمه عليها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ أي لا تحمل نفس آثمة وزر نفس أخرى، والوزر: الإثم. ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ أحداً ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يبين له ما يجب عليه. ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ وإذا تعلقت إرادتنا بإهلاك قوم، لإنفاذنا قضاءنا السابق. ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ منعميها أي رؤساءها، بالطاعة على لسان رسلنا. ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فخرجوا عن أمرنا. ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ بالعذاب. ﴿فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾ أي أهلكناها بإهلاك أهلها وتخريبها.

﴿وَكَمْ﴾ أي كثيراً. ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم. ﴿خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ عالماً ببواطنها وظواهرها.

سبب النزول:

نزول الآية (١٥):

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ قالت فرقة: نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبد الأسود، وفي الضلال إلى الوليد بن المغيرة. وقيل: نزلت في الوليد هذا قال: يا أهل مكة، اكفروا بمحمد، وإثمكم علي.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى ما أنعم به من نعم الدين على الناس وهو القرآن،

أتبعه ببيان ما أنعم عليهم من نعم الدنيا، وهو في ذاته استدلال بالدلائل الواضحة على قدرة الله وحكمته.

وبعد أن أبان تعالى دلائل التوحيد والنبوة والمعاد، وأوضح أحوال الوعد والوعيد والترغيب والترهيب، ذكر مبدأ رفيعاً ومهماً جداً، وهو مبدأ المسؤولية الفردية أو الشخصية عن أعمال الإنسان؛ وأن ذلك المبدأ قد تقرر بعد إرسال الرسل وبيان معالم الهدى، فلا تكليف قبل الشرع، ولا عقاب ولا عذاب قبل البيان والإنذار؛ وأن العقاب العام للقرى والأمم لا يكون إلا بعد الأمر بالطاعات والخيرات، ومخالفة ذلك الأمر، والفسق.

التفسير والبيان:

وجعلنا الليل والنهار علامتين دالتين على قدرتنا وبديع صنعنا، وفي تعاقبهما واختلافهما تحقيق لمصالح الإنسان، ففي الليل سكنه وهدوءه وراحته، وفي النهار حركته وشغله وتقلبه في أنحاء الدنيا للمعيشة والكسب، والصناعة والعمل.

وجعلنا ظرف كل من الليل والنهار مناسباً للهدف المنشود والغاية المقصودة، ففي الليل ظلام دامس ومحو للضوء يتلاءم مع راحة النفس والعين والسمع، وفي النهار ضوء ونور يناسب الحركة والعمل وإبصار الأشياء.

فهذا امتنان من الله تعالى على خلقه بجعل الليل ممحو الضوء مطموساً مظلماً لا يستبان فيه شيء، وجعل النهار مبصراً، أي تبصر فيه الأشياء وتستبان.

﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي جعلنا تعاقب الليل والنهار لتتمكنوا كيف تتصرفون في أعمالكم، وتطلبون الرزق من الله ربكم الذي يربيكم ويمدكم من فضله وإحسانه شيئاً فشيئاً، وعلى وفق الزمان الدائر بكم صيفاً وشتاء.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي ولتعرفوا بتعاقب الليل والنهار عدد الأيام والشهور والأعوام، وتعلموا بحساب الأشهر والليالي والأيام أوقات مصالحكم من الدورات الزراعية، وآجال الديون والإجارات والمعاملات، وأزمان العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة، فلو لم يتغاير الليل والنهار، لما تمكن الإنسان من الراحة التامة ليلاً واكتساب المعايش والأرزاق نهاراً، ولو كان الزمان كله نسقاً واحداً لما عرف الحساب على نحو صحيح يسير.

ونظير الآية قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص: ٢٨/ ٧١-٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٢] وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)﴾ [يونس: ١٠/ ٥].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ أي وكل شيء لكم به حاجة في مصالح دينكم ودنياكم قد بيناه وشرحناه بياناً نافعاً، وشرحاً كاملاً وافياً، كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٨٩].

وبعد ذكر الزمان وما يقع فيه من أعمال الناس، ذكر تعالى مبدأ التبعية أي المسؤولية عن الأعمال من خير أو شر فقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي

﴿عُنُقِهِۦ﴾ أي وجعلنا عمل كل إنسان ملازماً له لزوم القلادة للعنق إن كان خيراً، ولزوم الغُلّ للعنق لا يفك عنه إن كان شرّاً. فالمراد بالطائر: العمل الصادر من الإنسان. والعرب تعبر عن تلازم الشيء بالشيء بما يوضع في العنق، يقال: جعلت هذا في عنقك، أي قلدتك هذا العمل، وألزمتك الاحتفاظ به.

وجعل العمل ملازماً للإنسان أمر محتوم وقضاء معلوم، على وفق علم الله الأزلي السابق بالأشياء وبما يصدر عن الناس، وهذا لا يعني الإجبار ونفي الاختيار الذي هو مناط الثواب والعقاب، فكل إنسان مخير في اختيار ما هو خير يقتضي ثواباً حسناً وما هو شرّ يقتضي عقاباً سيئاً.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا﴾ أي سنخرج لكل إنسان يوم القيامة كتاباً يراه ويستقبله منشوراً أمامه، فيه جميع أعماله خيرها وشرها. ذكر الحسن البصري حديثاً قدسياً: «قال الله: يا بن آدم، بسطنا لك صحيفة، ووُكِّل بك مَلَكان كريمان: أحدهما عن يمينك، والآخر عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن شمالك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مِتَّ طويت صحيفتك، فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج لك يوم القيامة».

﴿ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ ويقال لك حين تلقى كتابك: اقرأ كتابك أي كتاب عملك في الدنيا، كفى بنفسك حاسباً تحسب أعمالك وتحصيها. كان الحسن إذا قرأها قال: يا بن آدم، أنصفك - والله - من جعلك حسيب نفسك. والقائل: هو الله تعالى على ألسنة الملائكة.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي إذا كان كل واحد مختصاً بعمل نفسه، فمن اهتدى إلى الحق والصواب واتبع شرع الله وهدي النبوة، فإنما ينفع نفسه، ومن ضلَّ في عمله وحاد عن شرع الله وكفر به وبرسله، فإنما يضرّ

نفسه؛ لأن ثواب العمل الصالح مختص بفاعله، لا يتجاوزه إلى غيره، وعقاب العمل السَّيِّئ ملازم صاحبه، لا يفارقه.

ثم أكد تعالى معنى الشق الثاني بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تتحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها، أو لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه.

وهذا ردّ واضح على الذين يحرضون غيرهم على ارتكاب المنكر، واقتراف الكفر، ويزعمون أنهم يتحملون عاقبة ذلك. روي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال: اكفروا بمحمد وعلي أوزاركم.

وهو ردّ أيضاً على الجاهليين الذين كانوا يقولون: نحن لا نعذب في شيء، وإن كان هناك عقاب فهو على آبائنا، إذ نحن مقلدوهم فقط، ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٥].

وتقرير مبدأ المسؤولية الشخصية من مفاخر الإسلام ومبادئه التي صححت مفهوم العقاب عند الرومان والعرب وغيرهم، إذ كانوا يعاقبون غير المجرم.

ويتضاعف العقاب والإثم على دعاة الضلال بسبب تأثيرهم في الآخرين، دون إعفاء من يتبعونهم في ضلالهم من الوزر والعقاب، لقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ١٦/ ٢٥] وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ١٣] فعلى الدعاة إثم ضلالتهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب إضلالهم غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ أي لكن مقتضى العدل والحكمة والرحمة أننا لا نعذب أحداً في الدنيا أو الآخرة على فعل شيء أو تركه إلا بعد

إنذار، ولا نعاقب الناس إلا بعد إعذار وبعث الرسل إليهم، لإقامة الحجة عليهم بالآيات المبينة للأحكام والحلال والحرام والثواب والعقاب، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ، قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٦٧/ ٨-٩] وقال عز وجل: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧١] ونحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه، ودعوته إلى الخير، وتحذيره من الشرّ.

وأما كيفية وقوع العذاب بعد إرسال الرسل فهي كما أخبر تعالى:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا دنا وقت إهلاك قوم بعذاب الاستئصال أمرنا مترفيها بالطاعات والخيرات، أي الأمر بالفعل، فإذا خالفوا ذلك الأمر وفسقوا وخرجوا عن الطاعة وتمردوا، حق أو وجب عليهم العذاب جزاء وفاقاً لعصيانهم، فدمرناهم تدميراً وأبدناهم إبادة تامة، شملت جميع أهل تلك البلدة. والمترف: هو المتنعم، وهو أولى بالشكر من غيره وأوجب عليه. ودمرناها: استأصلناها بالهلاك.

والإبادة الشاملة بسبب الأمر العام لجميع المكلفين، أغنياء كانوا أو فقراء، مترفين كانوا أو غير مترفين، لكن خصّ الأمر بالمترفين؛ لأنهم القادة وغيرهم تبع لهم، وشأن العامة والأتباع تقليد الكبراء والزعماء دائماً. قال ابن عباس في قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ أي سلطنا أشرارها، فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب، وهو كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ [الأنعام: ٦/ ١٢٣] .

ثم أنذر الله تعالى كفار قريش وأمثالهم في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأن كثيراً من الأمم وجب عليهم العذاب بذنوبهم، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ

ٱلْقُرُونِ﴾ أي وكثيراً ما أهلكنا أمماً من بعد نوح عليه السلام إلى زمانكم لما بغوا وعصوا، وجحدوا آيات الله، وكذبوا رسله، كما أنتم الآن، وأنتم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وهذا وعيد وتهديد لمكذبي الرسول ﷺ في كل زمان بشديد العقاب، وفيه دلالة على أن القرون التي مضت بين آدم ونوح كانت على الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي وكفى بالله خبيراً بذنوب خلقه مطلعاً عليها، يحصي عليهم أعمالهم ومعاصيهم، فلا يخفى عليه شيء من أفعال المشركين وغيرهم، وهو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية. والخبير: العليم بهم، والبصير: الذي يبصر أعمالهم. وفي هذا تنبيه على أن الذنوب هي أسباب الدمار والهلاك لا غير، وأن الله عالم بها، ومعاقب عليها.

وكل ما ذكر حثّ للعقلاء على العمل الصالح النافع في الدنيا والآخرة، ودفع إلى الجد وعدم الكسل.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقص، وتعاقبهما، وضوء النهار وظلمة الليل، دليل على وحدانية الله تعالى ووجوده وكمال علمه وقدرته.

٢ - ودورة الليل والنهار تعرفنا بعدد السنوات والأشهر والأيام المتماثلة، وتعلمنا حساب المدة المكونة من طوائف ومجموعات، كالسنة المكونة من اثني عشر شهراً، والشهر من ثلاثين يوماً، واليوم من أربع وعشرين ساعة.

٣ً - النهار وقت مناسب للعمل والحركة والتقلب في الأرض لكسب المعايش وتحصيل الأرزاق.

٤ً - كل إنسان معلّق بعمله، وعمله مختص به ولازم له، خيراً أو شراً.

٥ً - إن كتاب الإنسان وسجله الذي يلقاه أمامه يوم القيامة حافل بكل ما قدم وما أخر. وكفى بالإنسان محاسباً لنفسه. قال الحسن البصري: يقرأ الإنسان كتابه أمّياً كان أو غير أمّي.

٦ً - كل أحد إنما يحاسب عن نفسه لا عن غيره، فمن اهتدى فثواب اهتدائه له، ومن ضلَّ فعقاب كفره عليه.

٧ً - إقرار مبدأ المسؤولية الشخصية عدلاً من الله ورحمة بعباده، فلا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه. قال ابن عباس عن آية: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: نزلت في الوليد بن المغيرة قال لأهل مكة: اتبعوني، واكفروا بمحمد، وعلي أوزاركم، فنزلت هذه الآية. ومعناها: أن الوليد لا يحمل آثامكم، وإنما إثم كل واحد عليه.

أما ما روي عن عائشة رضي الله عنها في الرد على ابن عمر حيث قال النبي في حديث رواه الشيخان: «إن الميت ليعذَّب ببكاء أهله» فلا وجه لإنكارها وتخطئتها؛ إذ لا معارضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محمول على ما إذا كان النَّوْح من وصية الميت وسنته وبسببه، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طرفة:

إذا مِتُّ فانعيني بما أنا أهله ... وشُقِّي علي الجيب يا ابنة مَعْبَدِ

وقال:

إلى الحول، ثم اسمُ السلام عليكما ... ومن يَبْكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذر

٨ً - لم يترك الله الخلق سدىً، بل أرسل الرسل، وفي هذا دليل على أن

الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، وهذا في رأي الجمهور، في حكم الدنيا، بمعنى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار، ولا يهلك الله القرى قبل ابتعاث الرسل.

وقالت المعتزلة بأن العقل يقبّح ويحسّن ويبيح ويحظر.

٩ً - تدل آية ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ على أن أهل الفترة (فترة انقطاع الرسل) الذين لم تصلهم رسالة، وماتوا ولم تبلغهم الدعوة وهم أهل الجاهلية وأمثالهم في الجزر النائية الذين لم يسمعوا بالإسلام في زماننا هم ناجون، من أهل الجنة. ومثلهم أولاد المشركين والكفار الذين ماتوا وهم صغار قبل التكليف، وآباؤهم كفار، وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف.

أما الناس بعد البعثة - بعثة الرسول ﷺ - فهم كما أبان الغزالي رحمه الله أصناف ثلاثة:

الأول - من لم تبلغهم دعوته، ولم يسمعوا به أصلاً، فهؤلاء في الجنة.

الثاني - من بلغتهم دعوته ومعجزاته ولم يؤمنوا به كالكفار في زماننا، فهؤلاء في النار.

الثالث - من بلغتهم دعوته ﷺ بأخبار مكذوبة أو بنحو مشوه، فهؤلاء يرجى لهم الجنة.

١٠ً - إن عذاب الاستئصال لا يكون إلا بشيوع المعاصي والذنوب والمنكرات، فإذا أراد الله إهلاك قرية أمر مترفيها وغيرهم بالطاعة والرجوع عن المعاصي، ففسقوا وظلموا وبغوا، أي آثروا الفسوق على الطاعة، خلافاً للأمر، فحق عليها القول بالتدمير والهلاك.

وعلى قراءة (أَمَّرْنَا) بالتشديد يكون المعنى: سلطنا شرارها، فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم.

وذكر قتادة والحسن أن معنى (أَمِرنا) بكسرالميم: أكثرنا، يقال: أَمِر القوم - بكسرالميم -: إذا كثروا، ومنه الحديث الذي رواه أحمد والطبراني عن سويد بن هبيرة: «خير مال المرء: مَهْرةٌ مأمورة، أوسِكَّةٌ مأبُورة[١]» أي مهرة كثيرة النتاج والنَّسْل، وصف من النخل مأبورة. وفي حديث هِرَقْل - الحديث الصحيح: «لقد أَمِر أمرُ ابنِ أبي كَبْشة[٢]، ليخافه ملك بني الأصفر» أي كثر.

١١ً - كم من قوم كثيرين كفروا، فحلَّ بهم الهلاك أو البَوار، وهذا إنذار ووعيد وتهديد بالعقاب الشديد لكل من كفر بالله وبرسوله محمد ﷺ.

١٢ً - إن المعاصي إذا ظهرت ولم تُغيَّر، كانت سبباً لهلاك الجميع.

١٣ً - دلَّ قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، راءٍ لجميع المرئيات، فلا يخفى عليه شيء من أحوال الخلق. وثبت أنه تعالى قادر على كل الممكنات، فكان قادراً على إيصال الجزاء إلى كل أحد بقدرِ استحقاقه، وأيضاً أنه منزه عن العبث والظلم، وهذه الصفات الثلاث (العلم التام، والقدرة الكاملة، والبراءة عن الظلم) أمان لأهل الطاعة، وخوف لأهل الكفر والمعصية.

---

(١) السِّكَّة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: الملقحة.

(٢) يريد: رسول الله ﷺ، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ: «ابن أبي كبشة» شبهوه بأبي كبشة: رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان.

جزاء من أراد الدنيا ومن أراد الآخرة

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

القراءات:

﴿مَحْظُورًا ، ٱنظُرْ﴾:

بكسر التنوين وصلاً قرأ: حمزة، وأبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم.

وقرأ الباقون بضمه.

الإعراب:

﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من ﴿لَهُۥ﴾ بدل البعض من الكل بإعادة حرف الجر، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ٧/ ٧٥] فقوله: ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بدل من قوله ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حال

﴿كُلًّا نُّمِدُّ﴾ كلاً: مفعول به لـ ﴿نُّمِدُّ﴾ و﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل من كل ومعناه: إنا نرزق المؤمنين والكافرين.

﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا﴾ ﴿كَيْفَ﴾: منصوب بفضلنا، وليس العامل فيه ﴿ٱنظُرْ﴾

لأن ﴿كَيْفَ﴾ معناها الاستفهام، والاستفهام له صدر الكلام، فلا يعمل فيه ما قبله.

﴿دَرَجَٰتٍ﴾ تمييز منصوب، وكذلك ﴿تَفْضِيلًا﴾.

المفردات اللغوية:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ بعمله. ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي الدنيا، مقصوراً عليها همه، والمراد الدار العاجلة، فعبر بالنعت عن المنعوت. ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قيد المعجَّل والمعجَّل له بالمشيئة والإرادة؛ لأنه لا يجد كل متمنّ ما يتمناه، ولا كل واحد جميع ما يهواه. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ﴾ في الآخرة. ﴿يَصْلَىٰهَا﴾ يدخلها. ﴿مَذْمُومًا﴾ ملوماً. ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله تعالى.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي عمل عملها اللائق بها، وهو الإتيان بما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، لا التقرب بما يخترعون بآرائهم. وفائدة لام ﴿لَهَا﴾ اعتبار النية والخلوص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إيماناً صحيحاً لاشرك فيه ولا تكذيب. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الجامعون للشروط الثلاثة: إرادة الآخرة، والسعي لها بحق، والإيمان. ﴿كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ عند الله تعالى، أي مقبولاً عنده، مثاباً عليه، فإن شكر الله: الثواب على الطاعة.

﴿كُلًّا﴾ من الفريقين. ﴿نُّمِدُّ﴾ نعطي مرة بعد أخرى. ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ من معطاه في الدنيا. ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ﴾ فيها. ﴿مَحْظُورًا﴾ ممنوعاً عن أحد، لا يمنعه في الدنيا من مؤمن ولا كافر، تفضلاً.

﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الرزق والجاه. ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أعظم. ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ من الدنيا، أي إن التفاوت في الآخرة أكبر؛ لأن التفاوت فيها بالجنة ودرجاتها، والنار ودركاتها، فينبغي الاعتناء بالآخرة دون الدنيا.

المناسبة:

الآيات مرتبطة بما قبلها بنحو واضح، فبعد أن بيَّن الله تعالى ارتباط كل إنسان بعمله، قسم العباد قسمين: قسم يريد الدنيا ويعمل لها، وعاقبته النار، وقسم يريد الآخرة، ومآله إلى الجنان.

وكل من الفريقين يرزقهم ربهم في الدنيا؛ لأن عطاءه ليس ممنوعاً عن أحد، ولكنهم متفاضلون في الرزق، ومراتب التفاوت في الآخرة أكثر من مراتب تفاوت الدنيا.

التفسير والبيان:

هذه الآيات تصنيف عام لأحوال الناس في الدنيا، فهم فريقان: فريق يعمل للدنيا، وفريق يعمل للآخرة. أما الفريق الأول فهو: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي من كان طلبه الدنيا العاجلة، وكانت الدنيا أكبر همه ومبلغ علمه، فخصها بكل جهده وعمله، ونسي الآخرة، عجل الله فيها تحقيق أمله حسبما يشاء ويريد، من سعة الرزق وترف الحياة، فليس كل من طلب الدنيا ونعمها يحصل له مراده، بل إنما يحصل لمن أراد الله وما يشاء، فالعطاء الدنيوي مقيد بالإرادة والمشيئة الإلهية، والقيد يشمل أمرين: ما يشاؤه الله لا ما يحبه العبد، ولمن يشاء الله، لا لكل من أراد الدنيا، فهؤلاء الماديون لا يعطون كل ما يريدون، وإنما يعطون بعض أمانيهم، والكثير من الماديين لا يعطون شيئاً أبداً، فيجمعون بين فقر الدنيا وفقر الآخرة، وبين الحرمان من الدنيا والدين.

ولكل من هؤلاء الماديين، سواء أعطوا مرادهم أم لا جهنم يصلونها أي يقاسون حرها بصفة دائمة، مذمومين من الله والملائكة والناس أجمعين على قلة الشكر وسوء العمل والتصرف، مطرودين من رحمة الله تعالى.

فهذا العقاب ذو أوصاف ثلاثة في الآية: الدوام والخلود، والإذلال والإهانة، والطرد من رحمة الله. وهذا تهديد للماديين الكفرة وزجر شديد، فإنهم يحصرون همهم في الدنيا، وربما لم ينلهم شيء منها. روى أحمد عن عائشة مرفوعاً: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له».

وأما الفريق الثاني وهم المؤمنون الأتقياء فهم الذين أخبر الله تعالى عنهم: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي ومن طلب الآخرة، وكانت هي هَمَّهُ ومقصدَهُ، فعمل لها ما استطاع من القُرَب والطاعات، وهو مؤمن مصدق بالله وبكتبه ورسله واليوم الآخر، فأولئك أهل الكمال المشكورون على طاعاتهم، المثابون على أعمالهم من قبل الله تعالى.

فلا يثاب هؤلاء ولا ينالون هذا الجزاء الحسن إلا بشروط ثلاثة:

الأول - إرادة ثواب الآخرة وما فيها من النعيم والسرور، جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن عمر: «إنما الأعمال بالنيات».

الثاني - أن يكون العمل من القرب والطاعات ومتابعة الرسول ﷺ، لا من الأعمال الباطلة، فإن الكفار يتقربون إلى الله تعالى بعبادة الأوثان، والكواكب والملائكة وبعض البشر من الأنبياء، فقوله: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ أي أعطاها حقها من السعي بالأعمال الصالحة.

الثالث - أن يكون العمل في دائرة الإيمان والتصديق بالثواب والجزاء، فلا ينفع العمل بغير الإيمان الصحيح. وهذه هي الشرائط الثلاثة في كون السعي مشكوراً.

قال بعض السلف: من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله: إيمان ثابت، ونية صادقة، وعمل مصيب، وتلا هذه الآية.

هؤلاء المؤمنون الصلحاء الذين اختاروا غنى الآخرة لا يبالون بشيء بعدها، فإن أوتوا حظاً من الدنيا شكروا ربهم، وإن حرموا منه صبروا، ورضوا؛ لأن ما عند الله خير وأبقى.

ثم أبان الله تعالى أن الرزق في الدنيا مضمون مكفول لكلا الفريقين، فقال: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ أي إنه تعالى يمد الفريقين: مريدي الدنيا ومريدي الآخرة بالأموال والأرزاق والأولاد وغيرها من مظاهر العز والزينة في الدنيا، فإن عطاءه لا يمنع عن أحد، مؤمناً كان أو كافراً؛ لأن الكل مخلوقون في دار العمل، فاقتضى عدل الله ورحمته ألا يترك لأحد مجالاً للعذر، وأبان أن عطاءه ليس بمحظور، أي غير ممنوع، لتوفير متطلبات الحياة ومقوماتها.

ثم أوضح الله تعالى أن عطاءه لكلا الفريقين متفاوت فقال:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي انظر بعين الاعتبار كيف جعلنا الفريقين متفاوتين في عطاء الدنيا، وكيف فضلنا بعضهم على بعض في الرزق ومتاع الدنيا، فمنحناه مؤمناً، وحجبناه عن مؤمن آخر، وأعطيناه كافراً، ومنعناه عن كافر آخر، وذلك لحكمة بالغة نحن أعلم بها، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢] وفي آية أخرى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٦٥] وقال سبحانه أيضاً: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٤٢/ ٢٧].

﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ﴾ أي والتفاوت في الآخرة أكبر وأعظم، والتفاضل في درجات منافع الآخرة أكبر من التفاضل في درجات منافع الدنيا، فالدرجات أكبر، والتفاضل أعظم؛ لأن الآخرة ثواب وأعواض وتفضل

وكلها متفاوتة، فأهل النار في دركات سفلى متفاوتة، وأهل الجنة في درجات عليا متفاضلة، فإن الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين، كما بين السماء والأرض، جاء في الصحيحين: «إن أهل الدرجات العلا ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء» وقال بعضهم: أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة، وهي أكبر وأفضل».

وهذه واقعة طريفة معبرة مناسبة للآية، رواها ابن عبد البر عن الحسن البصري قال: حضر جماعة من الناس فيهم الأشراف ومن دونهم من العامة باب عمر رضي الله عنه، وفيهم سُهيل بن عمرو القرشي (أحد أشراف مكة) وأبو سفيان بن حَرْب، ومشايخ من قريش، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر، وكان يحبهم، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط، إنه ليُؤذَن لهؤلاء العبيد، ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا، فقال سهيل وكان أعقلهم: أيها القوم، إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، إنهم دُعُوا ودُعينا - يعني إلى الإسلام - فأسرعوا وأبطأنا، وهذا باب عمر، فكيف التفاوت في الآخرة؟ ولئن حسدتموهم على باب عمر، لما أعد الله لهم في الجنة أكبر.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ - الناس في مجال العمل في الدنيا صنفان: صنف يريد الدنيا، وصنف يريد الآخرة، أما الصنف الأول: فلا يعطيه الله من الدنيا إلا ما يشاء، ولمن يشاء، ثم يؤاخذه بعمله، وعاقبته دخول النار حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه، إذ اختار الفاني على الباقي، مدحوراً مطروداً مبعَداً من رحمة الله. قال القرطبي: وهذه صفة المنافقين الفاسقين، والمرائين المداجين، يلبسون

الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم في الآخرة، ولا يُعطون في الدنيا إلا ما قُسم لهم[١].

وأما الصنف الثاني وهو الذي يريد الدار الآخرة، ويعمل لها عملها من الطاعات، وكان مؤمناً؛ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن، فيكون عمله مقبولاً غير مردود.

٢ً - اقتضت حكمة الله ورحمته أن يرزق المؤمنين والكافرين، فلا يكون عطاؤه محبوساً ممنوعاً عن أحد، غير أن الناس في الدنيا متفاوتون في الرزق، بين مُقلّ ومُكْثر، ولا يرتبط التفاوت في الرزق بالإيمان والكفر، فقد يكون مؤمن غنياً وآخر فقيراً، وقد يكون كافر موسراً مترفاً وآخر معسراً معدماً.

أما في الآخرة فدرجات تفاضل المؤمنين أكبر وأكثر، فالكافر وإن وُسِّع عليه في الدنيا مرة، وقُتِّر على المؤمن مرة، فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم، فمن فاته شيء منها لم يستدركه فيها.

٣ً - إن هذه الآية: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ مقيدة لإطلاق آية هود: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ [١٥] وآية الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [٢٠].

٤ً - في الآية نفسها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ فوائد ثلاث:

الأولى - العقاب مضرة مقرونة بالإهانة والذم الدائمين.

الثانية - إن الرفاهية في الدنيا لا ينبغي أن يستدل بها على رضا الله تعالى؛

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٢٣٥

لأن الدنيا قد تحصل مع أن عاقبتها المصير إلى عذاب الله وإهانته، وهذا تنبيه للجهال الذين يغترون بالدنيا إذا أقبلت عليهم، ويظنون أن ذلك لأجل كرامتهم على الله تعالى.

الثالثة - قوله تعالى ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ يدل على أنه لا يحصل الفوز بالدنيا لكل أحد، بل كثير من الكفار والضلال بطلبون الدنيا، ويبقون محرومين منها ومن الدين، وفي هذا زجر عظيم لهم، فهم الأخسرون أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

٥ً - إن قبول الأعمال عند الله مشروط بشرائط ثلاث: الإيمان الصحيح، والنية الطيبة الحسنة، والعمل الصالح الذي يرضي الله تعالى.

٦ً - إن رزق الله وعطاءه مكفول لكل إنسان بشرط السعي والعمل، وليس الرزق محظوراً عن أحد من المؤمنين والكفار.

٧ً - ليس الرزق معطى بدرجة متساوية ونسبة واحدة، وإنما هناك تفاوت في الأرزاق، لا يرتبط ذلك بالإيمان والكفر، وإنما يقسمه الله تعالى بين الخلائق على وفق ما يراه من الحكمة والمصلحة.

٨ً - إن التفاوت في الدركات للكفار والفساق في نار جهنم وفي الدرجات للمؤمنين الأخيار الأتقياء في الجنة أشد بكثير من التفاوت في الدنيا، فالجنة مثلاً مئة درجة، ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض.

أصول تنظيم المجتمع المسلم
التوحيد أساس الإيمان
وترابط الأسرة المسلمة دعامة المجتمع

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَبْلُغَنَّ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يَبْلُغَانِّ).

﴿أُفٍّ﴾: قرئ:

١- (أفٍّ) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (أفَّ) وهي قراءة ابن كثير، ونافع.

٣- (أفّ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ قرئ: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾: وحدَّ الفعل لمجيء الفاعل بعده واحداً، فإن الفعل متى تقدم توحَّد، والفاعل: أحدُهما. ومن قرأ: (يبلُغانِّ): فيكون ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بدلاً من ألف (يبلغانِّ) أو تكون الألف لمجرد التثنية ولا حظَّ للاسمية فيها، فيرتفع ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بالفعل الذي قبلهما على لغة من قال: قاما أخواك، وأكلوني البراغيث. و﴿إِمَّا﴾: هي إن الشرطية زيدت عليها ما تأكيداً.

﴿أُفٍّ﴾ اسم من أسماء الأفعال، فكانت مبنية، والبناء إما على الكسر لالتقاء الساكنين، أو على الفتح لأنه أخف الحركات، أو على الضم لأنه أتبع الضمَّ الضمَّ. ومن نون ﴿أُفٍّ﴾ أراد به التنكير، ومن لم ينوِّن أراد التعريف. وفي ﴿أُفٍّ﴾ إحدى عشرة لغة، مثل «هيهات».

﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مصدر منصوب في موضع الحال، أي: وإما تعرضنَّ عنهم مبتغياً رحمة من ربك ترجوها. وجملة ﴿تَرْجُوهَا﴾ حال منصوب، أي راجياً إياها.

البلاغة:

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ استعارة مكنية، شبّه الذل بطائر ذي جناح، ثم حذف الطائر، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الجناح، فهذه استعارة في الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلل الرعية للأمير والخدم للسادة.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾: استعارة تمثيلية، مثَّل للبخيل الذي حبس يده عن العطاء بمن شُدَّت يده إلى عنقه، بحيث لا يستطيع مدّها، وشبّه السرف ببسط الكف، حيث لا تمسك شيئاً.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ لف ونشر مرتب، أعاد لفظ ﴿مَلُومًا﴾ إلى البخيل، ولفظ ﴿مَّحْسُورًا﴾ إلى الإسراف.

﴿يَبْسُطُ﴾ ﴿وَيَقْدِرُ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته، أو الخطاب لكل أحد. ﴿فَتَقْعُدَ﴾ إما بمعناها الأصلي، أي فتعجز عن تحصيل الخيرات، أو بمعنى: تصير، مأخوذ من قولهم: شحذ الشفرة حتى قعدت كأنها حربة، أي صارت مثل الحربة. ﴿مَذْمُومًا﴾ يذمك الملائكة والمؤمنون. ﴿مَّخْذُولًا﴾ يخذلك الله تعالى، وتصير: لا ناصر لك؛ لأنك أشركت معه إلهاً آخر. وهذا بناء على المفهوم يدل على أن الموحد يكون ممدوحاً منصوراً.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ حكم وأمر أمراً مقطوعاً به. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ بألا تعبدوا. ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حصر العبادة بنفسه تعالى؛ لأن غاية التعظيم لا يستحقها إلا لمن له غاية العظمة وغاية الإنعام ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وبأن تحسنوا لهما إحساناً، بأن تبروهما، أو وأحسنوا بالوالدين إحساناً؛ لأنهما السبب الظاهر للوجود والمعيشة. ولا يجوز أن تتعلق الباء بالإحسان؛ لأنه صلته وهي لا تتقدم عليه. ﴿أُفٍّ﴾ اسم صوت يدل على التضجر والاستثقال، أي تباً وقبحاً. ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ تزجرهما، والنهر: الزجر بغلظة. ﴿قَوْلًا كَرِيمًا﴾ جميلاً ليناً.

﴿جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ ألن لهما جانبك الذليل، والمراد به التواضع والتذلل، أو حسن الرعاية والعناية. ﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي لرقتك عليهما وفرط رحمتك بهما. ﴿ٱرْحَمْهُمَا كَمَا﴾ رحماني حين. ﴿رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أو رحمة مثل رحمتهما علي. ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ﴾ من إضمار البر والعقوق. ﴿إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ﴾ طائعين لله، قاصدين للصلاح. ﴿لِلْأَوَّٰبِينَ﴾ للتوابين أو الرجاعين إلى طاعته.

﴿غَفُورًا﴾ لما صدر منهم في حق الوالدين من بادرة، وهم لا يضمرون عقوقاً.

﴿وَءَاتِ﴾ أعط .﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ القرابة .﴿حَقَّهُۥ﴾ من البر والصلة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ التبذير: إنفاق المال في غير موضعه الموافق للشرع والحكمة .﴿إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ أي قرناءهم وعلى طريقتهم ﴿كَفُورًا﴾ شديد الكفر لنعمه. فكذلك قرينه المبذر .﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ﴾ أي وإن أعرضت عن المذكورين من ذي القربى والمسكين وابن السبيل، حياء من الرد، فلم تعطهم .﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي لطلب رزق تنتظره يأتيك، فتعطيهم منه ﴿قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ليناً سهلاً، بأن تعدهم بالإعطاء عند مجيء الرزق.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أي لا تمسكها عن الإنفاق تماماً، والمغلولة: المقيدة بالغل: وهو القيد الذي يوضع في اليدين والعنق، وهو تمثيل لمنع الشح وكناية عن البخل .﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ أي تتوسع في الإنفاق، وهو تمثيل وكناية لمنع الإسراف .﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ فتصير ملوماً عند الله وعند الناس بالبخل، فهو راجع للأول: البخل .﴿مَّحْسُورًا﴾ نادماً، أو منقطعاً لا شيء عندك، وهو راجع للثاني: الإسراف .﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه لمن يشاء .﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه لمن يشاء .﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ عالماً بسرهم وعلنهم، فيرزقهم على حسب مصالحهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٦):

﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾: أخرج الطبراني وغيره عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فأعطاها فَدَك. قال ابن كثير: هذا مشكل، فإنه يشعر بأن الآية مدنية، والمشهور خلافه. لكن ذكر في مطلع السورة أن هذه الآية مدنية. وروى ابن مردويه عن ابن عباس مثله.

نزول الآية (٢٨):

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾: أخرج سعيد بن منصور عن عطاء الخراساني قال: جاء ناس من مُزَيْنة يستحملون رسول الله ﷺ فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينُهم تفيض من الدمع حزناً، ظنوا ذلك، من غضب رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ الآية. والرحمة: الفيء.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال: نزلت في كل من كان يسأل النبي ﷺ من المساكين. قال ابن زيد: نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ، فيأبى أن يعطيهم؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد.

نزول الآية (٢٩):

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ﴾: أخرج سعيد بن منصور عن سيار أبي الحكم قال: أتى رسولَ الله ﷺ بزّ (ثياب) وكان معطياً كريماً، فقسمه بين الناس، فأتاه قوم، فوجدوه قد فرغ منه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه وغيره عن ابن مسعود قال: جاء غلام إلى النبي ﷺ فقال: إن أمي تسألك كذا وكذا، قال: ما عندنا شيء اليوم، قال: فتقول لك: اكسني قميصاً، فخلع قميصه، فدفعه إليه، فجلس في البيت حاسراً، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ الآية.

وأخرج ابن مردويه أيضاً عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال لعائشة: أُنفق ما على ظهر كفي، قالت: إذن لا يبقى شيء، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ الآية. قال السيوطي: وظاهر ذلك أنها مدنية.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أن الناس فريقان: فريق يريد بعمله الدنيا فقط،

وعاقبتهم العذاب والعقاب، وفريق يريد بعمله طاعة الله، وهم أهل الثواب بشروط ثلاثة: هي إرادة الآخرة، والسعي بحق لطلب الآخرة، وأن يكون مؤمناً، أتبعه ببيان حقيقة الإيمان وأن جوهره التوحيد ونفي الشركاء والأضداد.

وبعد أن ذكر الركن الأعظم في الإيمان، أتبعه بذكر شعائر الإيمان وشرائطه، ودعائم بنيان المجتمع الإسلامي، مبتدئاً بأصول نظام الأسرة، وتقوية الروابط بين أفرادها.

التفسير والبيان:

يخاطب الله تعالى الرسول ﷺ لبيان حقيقة الإيمان وهو التوحيد ونفي الشركاء، والمراد بالخطاب: المكلفون من الأمة، إذ لم يكن له ﷺ في ذلك الوقت أبوان.

ومضمونه: لا تجعل أيها الإنسان المكلف شريكاً مع الله تعالى في ألوهيته وعبادته، وإنما أفرد له الألوهية والربوبية، فلا إله غيره، ولا رب سواه، ولا معبود بحق إلا هو، فإن جعلت مع الله إلهاً آخر، صرت ملوماً على إشراكك به، مخذولاً لا ينصرك ربك، بل يتركك إلى من عبدته معه، وهو لا يملك ضراً ولا نفعاً. روى أحمد وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله، فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل». والخلاصة: إن أول دعامة للمجتمع المسلم: توحيد الله وعدم الشرك به.

وبعد بيان الركن الأعظم في العقيدة والإيمان وهو التوحيد، ذكر تعالى شعائر الإيمان ومظاهره، وهي ما يأتي:

أولاً - عبادة الله تعالى وحده: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي أمر

الله تعالى ألا تعبدوا غيره، وهذا يتضمن أمرين: الاشتغال بعبادة الله تعالى، والتحرز عن عبادة غير الله تعالى؛ لأن العبادة نهاية التعظيم، ولا يستحق ذلك غير الله عز وجل؛ لأنه مصدر النعم والإنعام من إعطاء الوجود والحياة والقدرة والعقل.

ثانياً - الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قرن الله في كثير من الآيات الأمر بعبادته بالأمر ببر الوالدين والإحسان لهما إحساناً تاماً في المعاملة؛ لأنهما بعد الله الذي هو السبب الحقيقي لوجود الإنسان، كانا السبب الظاهري في وجود الأولاد وتربيتهم في جو مشحون بالحنان واللطف والعطف والإيثار، والمعنى: وأمر بالوالدين إحساناً، أو وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبروهما، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤] وذلك لشفقتهما على الولد، وإنعامهما عليه، وبذل أقصى الجهد في تربيته وصونه حتى يصبح رجلاً سوياً، فكان من الوفاء والمروءة رد شيء من الجميل والمعروف لهما، إما بالمعاملة الحسنة والأخلاق المرضية، وإما بالإمداد المادي إذا كانا بحاجة وكان الولد موسراً، لذا أبان تعالى بعض وجوه الإحسان إليهما، فقال:

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ﴾ أي إذا بلغ الوالدان أو أحدهما سن الكبر، وصارا عندك في آخر العمر بحال من الضعف والعجز، كما كنتَ عندهما في بدء حياتك، فعليك اتباع الواجبات الخمسة التالية:

الأول - ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً فيه أدنى تبرّم، حتى ولا التأفف وهو التضجر والتألم الذي هو أدنى مراتب القول السيِّئ، وذلك في أي حال، ولا سيما حال الضعف والكِبَر والعجز عن الكسب، لأن الحاجة إلى الإحسان حينئذ أشد وأولى وألزم، لذا خص حالة الكِبَر؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى البر، للضعف والكِبَر.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنفه، رغم أنفه، رغم أنفه» قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكِبَر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة».

الثاني - ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح. والفرق بين النهي عن التأفف والنهي عن الانتهار: أن الأول للمنع من إظهار الضجر بالقليل أو الكثير، وأن الثاني للمنع من إظهار المخالفة في القول، بالرد أو التكذيب، فالتأفف: الكلام الرديء الخفي، والنهر: الزجر والغلظة.

الثالث - ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي وقل لهما قولاً ليناً طيباً حسناً مقروناً بالتوقير والتعظيم والحياء والأدب الجم. ويلاحظ أنه تعالى قدم النهي عن المؤذي، ثم أمر بالقول الحسن والكلام الطيب؛ لأن التخلي مقدم على التحلي، ومنع الأذى أولى من إحسان القول والفعل. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه مفسراً القول الكريم: هو أن يقول له: يا أبتاه يا أماه، أي لا يدعوهما بأسمائهما، ولا يرفع الصوت أمامهما، ولا يحملق بنظره فيهما، وسئل سعيد بن المسيِّب عن القول الكريم فقال: هو قول العبد المذنب للسيد الفظّ.

الرابع - ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع لهما بفعلك، والمقصود منه المبالغة في التواضع وإلانة الجانب، فإن خفض الجناح كناية عن فعل التواضع، وتشبيه بحال الطائر إذا ضم إليه فرخه، فيخفض له جناحه. والتواضع ينبغي أن يكون رحمة بهما وشفقة عليهما، لا لأجل امتثال الأمر وخوف العار والنقد فقط.

الخامس - ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ أي اطلب لهما الرحمة من الله في حال كبرهما وعند وفاتهما. قال القفال رحمه الله تعالى: إنه لم يقتصر في تعليم البر بالوالدين على تعليم الأقوال، بل أضاف إليه تعليم الأفعال، وهو

أن يدعو لهما بالرحمة، فيقول: ﴿رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ ولفظ الرحمة جامع لكل الخيرات في الدين والدنيا. وقوله ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ أي أحسن إليهما كما أحسنا إلي في تربيتهما إياي، والتربية: هي التنمية، وخصها بالذكر ليتذكر العبد شفقة الأبوين وتعبهما في التربية، فيزيده ذلك إشفاقاً لهما وحناناً عليهما.

وقد جاء في بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ صعد المنبر، ثم قال: «آمين آمين آمين، قيل: يا رسول الله، علامَ أمَّنتَ؟ قال: أتاني جبريل، فقال: يا محمد، رغم أنف رجل ذكرتَ عنده، فلم يصل عليك، قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، ثم خرج، فلم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما، فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين».

والبر يكون في حال الحياة وبعد الموت أيضاً بدليل ما أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن مالك بن ربيعة الساعدي قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذا جاءه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، هل بقي علي من برّ أبوي شيء بعد موتهما أبرُّهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما».

فإذا كان الوالدان كافرين فللولد أن يدعو لهما حال الحياة بالهداية والإرشاد، وأن يطلب لهما الرحمة بعد حصول الإيمان. أما بعد الموت فقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات، ولو كانوا أولي قربى في الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٣] . فيعامل المسلم أبويه الذميين معاملة حسنة إلا الترحم لهما بعد موتهما على الكفر.

ويكفي في العمل بمقتضى هذه الآية طلب الرحمة لهما مرة واحدة؛ لأن ظاهر الأمر للوجوب، وظاهر الأمر لا يقتضي التكرار. سئل سفيان: كم يدعو الإنسان لوالديه؟ أفي اليوم مرة أو في الشهر، أو في السنة؟ فقال: نرجو أن يجزئه إذا دعا لهما في أواخر التشهدات.

وكفى بالشريعة التي جعلت عقوق الوالدين من الكبائر، أخرج الترمذي عن عبد الله بن عمر حديثاً: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد».

ثم حذر الله تعالى من التهاون في بر الوالدين فقال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي أن العبرة بما في القلب وما تضمرونه في أنفسكم من الإخلاص في الطاعة وعدم الإخلاص فيها، فإن الله تعالى مطلع على مافي نفوسكم، بل هو أعلم بتلك الأحوال منكم بها؛ لاختلاطها بالسهو والنسيان وعدم الإحاطة بالكل، فمن بدرت منه بادرة غير مقصودة، فلا يعاقبه الله عليها ما دامت نيته حسنة وهو من الصالحين، فإنه سبحانه غفور للتائبين الراجعين إلى الخير، النادمين على ما فرط منهم من غير قصد. والتائب من الذنب: هو الرجّاع من المعصية إلى الطاعة، مما يكره الله، إلى ما يحبه ويرضاه. والمقصود من الآية: التحذير من ترك الإخلاص.

ثالثاً - الإحسان إلى ذوي القربى والمساكين وابن السبيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، والمعنى: وأعط أيها الإنسان المكلف القريب والمسكين والمسافر المنقطع في الطريق إلى بلده حقه، من صلة الرحم والود، والزيارة وحسن المعاشرة، والنفقة إن كان محتاجاً إليها، وإعانة المسكين ذي الحاجة، ومساعدة ابن السبيل بالمال الذي يكفيه زاده وراحلته إلى أن يبلغ مقصده. والخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته من بعده. جاء في

الحديث الذي أخرجه أبو داود عن بكر بن الحارث الأنماري: «أمك وأباك، ثم أدناك أدناك» أو «ثم الأقرب فالأقرب» وأخرج الشيخان عن أنس عن النبي ﷺ قال: «من أحبَّ أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسأ له في أثره، فليصل رَحِمَهُ».

والأمر في رأي أبي حنيفة بالنسبة للأقارب المحارم كالأخت والأخ والوالدين للوجوب، وفي رأي الشافعي للندب، ولا تجب عند الجمهور إلا نفقة الأصول والفروع دون غيرهما من الأقارب، وعند الحنابلة: تجب لكل الأقارب حتى الحواشي.

أما مساعدة المساكين وأبناء السبيل فهي من الصدقات المندوبة.

رابعاً - منع التبذير: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾: لما أمر الله تعالى بالإنفاق والبذل نهى عن الإسراف وبيَّن سياسة الإنفاق، أي لا تنفق المال إلا باعتدال وفي غير معصية وللمستحقين، بالوسط الذي لا إسراف فيه ولا تبذير، والتبذير لغة: إفساد المال وإنفاقه في السرف، والوسطية والاعتدال هي سياسة الإسلام المالية والاجتماعية والدينية، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٧] .

ثم نبّه الله تعالى على قبح التبذير بإضافته إلى أفعال الشياطين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي إن المبذرين المنفقين أموالهم في معاصي الله يشبهون في هذا الفعل القبيح الشياطين، فهم قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة، وأشباههم في ذلك في الصفة والفعل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٦] وقال تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ٣٧/٢٢]. أي قرناءهم من الشياطين.

قال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق في غير حق، وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً في غير حق، كان مبذراً. وعن علي كرم الله وجهه قال: ما أنفقتَ على نفسك وأهل بيتك في غير سرف

ولا تبذير، وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة، فذلك حظ الشيطان. وأنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر، فقيل له: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير.

﴿وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ أي وكان الشيطان لنعمة ربه جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة الله عليه، ولم يعمل بطاعته، بل أقبل على معصيته ومخالفته، فاستعمل نفسه في المعاصي والإفساد في الأرض، وإضلال الناس.

قال الكرخي: وكذلك من رزقه الله جاهاً أو مالاً، فصرفه إلى غير مرضاة الله، كان كفوراً لنعمة الله؛ لأنه موافق للشيطان في الصفة والفعل.

وفي صفة الشيطان أنه كفور لربه دلالة على كون المبذر أيضاً كفوراً لربه.

وقال بعض العلماء: خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب، وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة، ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله، وإعانة أعدائه، فنزلت هذه الآية تنبيهاً على قبح أعمالهم.

خامساً - الوعد الجميل بالعطاء أو القول الميسور: ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٍ﴾ أي إن أعرضت عن ذي القربى والمسكين وابن السبيل حياء من التصريح بالرد بسبب الفقر والقلة، بعد أن سألوك، فقل لهم قولاً سهلاً لطيفاً ليناً، وعدهم وعداً بسهولة ولين بالصلة والعطاء إذا جاء رزق الله، واعتذر بعذر مقبول.

سادساً - القصد في الإنفاق: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ لما أمر الله تعالى بالإنفاق ذكر هنا أدب الإنفاق، والاقتصاد في العيش، بذم البخل، والنهي عن السرف، أي لا تمسك عن الإنفاق بحيث تبخل على نفسك وأهلك

في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات، ولا تسرف ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً، فتعطي فوق طاقتك، وتنفق أكثر من دَخْلك، بحيث لا يبقى في يدك شيء.

والخلاصة: إن أصول الإنفاق هو الاقتصاد في العيش، والتوسط في الإنفاق، دون بخل ولا سرف، فالبخل إفراط في الإمساك، والتبذير إفراط في الإنفاق، وهما مذمومان، وخير الأمور أوساطها، والفضيلة وسط بين رذيلتين.

روى أحمد عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد» وأخرج البيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة». وروى الديلمي في مسند الفردوس عن أنس مرفوعاً: «التدبير نصف العيش، والتودد نصف العقل، والهمّ نصف الهرم، وقلة العيال أحد اليسارين»[١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه، إلا وملَكان ينزلان من السماء، يقول أحدهما: اللهم أعطِ مُنْفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً». وروى مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً أنفق إلا عزاً، ومن تواضع لله رفعه الله». وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إياكم والشح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا».

ثم أبان الله تعالى ربط الرزق بمشيئته وإرادته، ليدرك الناس أن تضييق الرزق أحياناً على بعضهم ليس لسوء حالهم عند الله، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ

(١) ورواه القضاعي عن علي رضي الله عنه، وهو حديث حسن.

﴿ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي إن ربك أيها الرسول هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف في خلقه بما يشاء، فيغني من يشاء، ويفقر من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة، لذا قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي أنه تعالى عالم بأن مصلحة كل إنسان في أن لا يعطيه إلا ذلك القدر، فهو خبير بصير بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر، فالتفاوت في أرزاق العباد ليس لأجل البخل، بل لأجل رعاية المصالح، جاء في الحديث الذي ذكره السيوطي في المسانيد (الجامع الكبير): «إن من عبادي المؤمنين لَمن لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه، وإن من عبادي لمن لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه». وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً، والفقر عقوبة.

والمقصود بالآية أنه تعالى عرف رسوله ﷺ كونه رباً، والرب: هو الذي يربي المربوب ويقوم بإصلاح مهماته ودفع حاجاته على مقدار الصلاح والصواب، فيوسع الرزق على البعض، ويضيقه على البعض.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم مما ذكر أن الآيات ترشد إلى الأحكام التالية:

١ - التوحيد أساس الإيمان، والإشراك رأس الكفر والضلال.

٢ - الإحسان إلى الوالدين فرض لازم واجب، وقد أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل بر الوالدين مقروناً بذلك، كما قرن شكرهما بشكره، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ وقال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [لقمان: ٣١/ ١٤].

٣ - من البر بالأبوين والإحسان إليهما ألا يتعرض لسبِّهما ولا لعقوقهما؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف.

٤ً - عقوق الوالدين: مخالفتهما في أغراضهما الجائزة لهما، كما أن برَّهما موافقتهما على أغراضهما، فتجب طاعتهما في المباح المعروف غير المعصية، ولا تجب طاعتهما في المعصية.

روى الترمذي عن ابن عمر قال: كانت تحتي امرأة أحبّها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أن أطلّقها فأَبَيْت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا عبد الله ابن عمر، طلِّق امرأتك» .

٥ً - لا يختص بِرّ الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل يجب برهما ولو كانا كافرين، ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨] . وفي صحيح البخاري عن أسماء قالت: «قدِمت أمّي وهي مشركة في عهد قريش ومُدّتهم، إذ عاهدوا النبي ﷺ، مع أبيها فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت، وهي راغبة[١]، أفأصلها؟ قال: نعم، صِلي أمَّك» .

٦ً - من الإحسان إلى الأبوين والبِرّ بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد الولد إلا بإذنهما. روى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك» ؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد» .

أما الوالدان المشركان فكان الثوري يقول: لا يغزو إلا بإذنهما، وقال الشافعي: له أن يغزو بغير إذنهما.

٧ً - من تمام برّ الوالدين: صلة أهل وُدّهما، ففي صحيح مسلم عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن من أبرّ البرّ: صلة الرجل أهل وُدِّ أبيه، بعد أن يُولِّي» وقد ذكر حديث أبي أُسيد الساعدي البدري.

---

(١) أي راغبة في بري وصلتي.

٨ً - هناك رقابة خاصة من الله تعالى على معاملة الأبوين؛ لقوله سبحانه: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك من العقوق، أو من جعل ظاهر برهما رياءً.

٩ً - وكما أمر الله بالإحسان إلى الوالدين ومراعاة حقهما، أمر أيضاً بصلة الرحم، وبالتصدق على المسكين وابن السبيل.

١٠ً - يحرِّم الإسلام التبذير، والتبذير كما قال الشافعي رضي الله عنه: إنفاق المال في غير حقه، ولا تبذير في عمل الخير. وهذا قول الجمهور. وقال مالك: التبذير: هو أخذ المال من حقه ووضعه في غير حقه، وهو الإسراف، وهو حرام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي أنهم في حكمهم؛ إذ المبذر ساعٍ في إفساد كالشياطين.

١١ً - من أنفق ماله في الشهوات زائداً على قدر الحاجات، وعرَّضه بذلك للنفاد فهو مبذر، ومن أنفق درهماً في حرام فهو مبذر، ويحجر عليه. ومن أنفق ربح ماله في شهواته، مع المحافظة على أصل رأس المال، فليس بمبذر.

١٢ً - الأدب الرفيع هو رد ذوي القربى بلطف ووعدهم وعداً جميلاً بالصلة عند اليسر، والاعتذار إليهم بما هو مقبول وفيه تطييب الخاطر، ولا يعرض الشخص عنهم إعراض مستهين وهو في حال الغنى والقدرة، فيَحْرِمهم حقهم. لقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾ أي إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يد، فأحسن القول، وابسط العذر، وادع لهم بسعة الرزق، وقل: إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ، فإن ذلك يعمل في مَسَرَّة نفسه عمل المواساة.

١٣ً - الإنفاق في الإسلام: هو التوسط والاعتدال من غير بخل ولا إسراف، ولا تضييع المنفق عياله في المستقبل، أو ألا يبقى من يأتي بعد ذلك لا شيء له، فإن الإسراف وإتلاف المال بغير حق يوقع المسرف في الحسرة والندامة والملامة. والملوم: الذي يلام على إتلاف ماله، أو يلومه من لا يعطيه.

١٤ً - إن الله أعلم بمصالح عباده وبأحوالهم، فيرزق من يشاء، ويمنع من يشاء على وفق الحكمة والمصلحة.

أصول أخرى لنظام المجتمع الإسلامي

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا (٣٤) وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩)﴾

القراءات:

﴿خِطْـًٔا﴾ : قرئ:

١- (خِطَاءً) وهي قراءة ابن كثير.

٢- (خَطَأً) وهي قراءة ابن ذكوان.

٣- (خِطْأً) وهي قراءة الباقين.

﴿فَلَا يُسْرِف﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (فلا تسرف).

﴿ بِٱلْقِسْطَاسِ﴾: قرئ:

١- (بالقِسْطَاس) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (بالقُسْطَاس) وهي قراءة الباقين.

﴿سَيِّئُهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (سَيِّئَةً).

الإعراب:

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز، التقدير: وساء سبيله سبيلاً، أي لأنه يؤدي إلى النار.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ الهاء إما أن تعود على القتل أو على المقتول أو على الولي.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ منصوب على المصدر، ومن قرأ: (مَرِحاً) بكسر الراء كان منصوباً على الحال.

﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال من الجبال أو من الفاعل.

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، و﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى المذكور المتقدم من قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى هذا الموضع. و﴿سَيِّئُهُۥ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، و﴿مَكْرُوهًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾. و﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ ظرف حشو، أو أنه خبر ﴿كَانَ﴾ أي كائناً عند ربك مكروهاً، و﴿مَكْرُوهًا﴾: حال من المضمر في الظرف. ومن قرأ: (سيئةً) بالتنوين، جعل اسم ﴿كَانَ﴾

ضميراً يعود إلى ﴿كُلُّ﴾ و(سيئةً): خبرها، و﴿مَكْرُوهًا﴾: صفة. وقال: مكروهاً لا مكروهة؛ لأن تأنيث السيئة مجازي غير حقيقي، أو أنه خبر آخر لكان، وذكّره لأن ضمير ﴿كُلُّ﴾ مذكر، ويكون ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿مَكْرُوهًا﴾.

البلاغة:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ أبلغ من القول: لا تأتوه، أو لا تزنوا.

﴿كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ عبر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك؛ لأنها حواس لها إدراك، وجعلها مسؤولة، فهي حالة من يعقل، فعبر عنها بأولئك.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ﴾ بالوأد ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ خوف الفقر ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ قدّم هنا رزق الأبناء على رزق الآباء؛ لأن قتل الأولاد كان خشية وقوع الفقر بسببهم، فقدم رزقهم، وفي سورة الأنعام ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [١٥١] قدم رزق الآباء على رزق الأولاد، لأن قتلهم كان بسبب فقر الآباء ﴿خِطْـًٔا﴾ إثماً ﴿كَبِيرًا﴾ عظيماً.

﴿فَٰحِشَةً﴾ فعلة قبيحة ظاهرة القبح ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ بئس طريقاً هو، لأنه اعتداء على الأعراض، وغصب الأبضاع المؤدي إلى اختلاط الأنساب وقطعها، وتهييج الفتن ﴿لِوَلِيِّهِۦ﴾ لوارثه ﴿سُلْطَٰنًا﴾ تسلطاً على القاتل بمؤاخذته على القتل، بإشراف الحاكم وحكمه، أو بالقصاص من القاتل، فإن قوله تعالى: ﴿مَظْلُومًا﴾ يدل على أن القتل قتل عمد عدوان؛ لأن الخطأ لا يسمى ظلماً ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ يتجاوز الحد المشروع ﴿فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ بأن يقتل غير القاتل، أو بغير ما قتل به، أو أكثر من شخص، منعاً لعادة الأخذ بالثأر في الجاهلية.

﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي الطريق التي هي أحسن ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ عهد الله أي تكاليفه، أو عهد الناس الذي تبرمونه معهم إبراماً موثقاً مؤكداً ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ عنه، ومطلوباً من المعاهد ألا يضيعه ويفي به ﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾ أتموه ﴿بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ﴾ الميزان السوي أو العدل ﴿تَأۡوِيلٗا﴾ مآلاً أو عاقبة ﴿وَلَا تَقۡفُ﴾ لا تتبع مالا تعلم ﴿وَٱلۡفُؤَادَ﴾ القلب ﴿مَسۡـُٔولٗا﴾ صاحبه: ماذا فعل به؟ فكل هذه الأعضاء يسأل صاحبها عما فعل بها، وأجراها مجرى العقلاء، لما كانت مسؤولة عن أحوالها، شاهدة على صاحبها.

﴿مَرَحًاۖ﴾ فخراً وتكبراً، أو ذا مرح بالكبر والخيلاء ﴿لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ تثقبها حتى تبلغ آخرها بكبرك أو لن تجعل فيها طرقاً بشدة وطأتك ﴿وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ أي لا تبلغ هذا المبلغ، فكيف تختال؟! ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ إلى هذا الموضع ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ يامحمد ﴿مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ هي معرفة الحق سبحانه لذاته، والخير والموعظة للعمل بهما .﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرره للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه، فإن من لا قصد له لا يقبل عمله، ومن قصد بفعله أو تركه غير التوحيد، ضاع سعيه، وأنه - أي التوحيد - رأس الحكمة وملاكها ﴿مَلُومًا﴾ تلام نفسك ﴿مَّدۡحُورًا﴾ مطروداً من رحمة الله. ثم رتب على الشرك نتيجته في الآخرة، وهو الإلقاء في جهنم.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بخمسة أشياء أولاً هي (التوحيد، والاشتغال بعبادة الله بإخلاص والاحتراز عن عبادة غير الله، والإحسان إلى الوالدين والتواضع لهما، وإيتاء ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل، والقول الميسور) ثم ذكر أدب الإنفاق وهو التوسط دون إسراف ولا تقتير، أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء وهي (النهي عن الزنى، وعن القتل إلا بالحق، وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن).

ثم أتبعه بأوامر ثلاثة: هي الوفاء بالعهد، وإيفاء الكيل، ووزن الميزان بالقسط أو العدل. ثم نهى عن ثلاثة أشياء: اتباع ما لا علم له به، والتكبر والخيلاء، واتخاذ الشركاء آلهة مع الله.

والخلاصة: إنه تعالى جمع في هذه الآيات وما قبلها خمسة وعشرين نوعاً من التكاليف وهي ما يأتي، مبتدئاً بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، مختتماً به أيضاً، للتنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذكر يجب أن يكون ذكر التوحيد[1]:

١ - نبذ الشرك: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

٢ - الأمر بعبادة الله، والنهي عن عبادة غير الله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

٣ - الإحسان إلى الوالدين: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

٤-٨- نواحي الإحسان للوالدين وهي خمسة: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾.

٩-١١ - إيتاء المستضعفين الثلاثة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾.

١٢ - عدم التبذير: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾.

١٣ - القول الميسور: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

١٤ - عدم البخل والتقتير: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾.

١٥-١٦ - تحريم وأد البنات أو قتل الأولاد: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾، وتحريم الزنا.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠/٢١٣

١٧، ١٨ - تحريم القتل إلا بالحق: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، ومنع الاقتراب من مال اليتيم إلا بالحق.

١٩ - حق الولي في القصاص: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾.

٢٠ - تحريم الإسراف في القصاص: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾.

٢١ - الوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾.

٢٢ - إيفاء الكيل: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾.

٢٣ - الوزن بالعدل: ﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾.

٢٤ - عدم اتباع الظن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

٢٥ - تحريم التكبر والخيلاء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

مكرر مع الأول - تحريم الشرك: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾.

التفسير والبيان:

هذا هو **النوع الخامس** من الطاعات المذكورة في هذه الآيات التي تبين دعائم المجتمع الإسلامي[1]، **وهو تحريم وأد البنات**، فبعد أن بيَّن تعالى كيفية البر بالوالدين، بيَّن كيفية البر بالأولاد.

والمعنى: ولا تقتلوا بناتكم خوف الفقر أو العار، فنحن نرزقهم لا أنتم، ونرزقكم أيضاً، إن قتلهم خوف الفقر أو العار كان إثماً وذنباً عظيماً، وخطأ جسيماً. وقدم الإخبار برزق الأولاد هنا؛ لأنه خاطب الموسرين منهم وذكر

(١) والأنواع الأربعة السابقة: هي الأمر بالتوحيد، والاشتغال بعبادة الله تعالى دون غيره، والأمر ببر الوالدين، وإيتاء القريب والمسكين وابن السبيل حقه دون بخل ولا تبذير. وحق الوالدين خمسة أشياء: عدم التأفيف، وعدم الانتهار بكلام زاجر، والقول الكريم الطيب، والمبالغة في التواضع، والدعاء لهما بالرحمة.

الاهتمام برزقهم، وقدم الإخبار برزق الآباء في سورة الأنعام ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [١٥١] لأنه خاطب الفقراء، ونهاهم عن قتلهم من فقر، فالأرزاق للآباء والأولاد بيد الله، وقتل الأولاد خوف الفقر من سوء الظن بالله، وإن كان خوف العار، والغيرة على البنات، فهو سعي في تخريب العالم.

والآية دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه نهى عن قتل الأولاد، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث. وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات دائماً، ويقتلون البنات أحياناً بوأدهن أحياء في التراب؛ لعجزهن عن الكسب، وقدرة البنين عليه بالغارة والنهب والسلب، وأيضاً كانوا يخافون من أن فقر البنات ينفر الأكفاء عن الرغبة فيهن، فيحتاجون إلى تزويجهن من غير الأكفاء.

جاء في الصحيحين عن ابن مسعود: «قلت: يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك».

النوع السادس - تحريم الزنى: وبعد أن أمر الله تعالى بالأشياء الخمسة المتقدمة، أتبعه بالنهي عن ثلاثة أشياء هي الزنى والقتل وأكل مال اليتيم، وبدأ بتحريم الزنى، لأنه نوع من الإسراف، عقب النهي عن قتل الأولاد الذي هو مظهر من مظاهر البخل، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ أي لا تقتربوا من الزنى، ولا من أسبابه ودواعيه؛ لأن تعاطي الأسباب مؤد إليه، والزنى فعلة فاحشة شديدة القبح، وذنب عظيم، وساء طريقاً ومسلكاً؛ لأن فيه هتك الأعراض، واختلاط الأنساب، واقتحام الحرمات، والاعتداء على حقوق الآخرين، وتقويض دعائم المجتمع بهدم الأسرة، ونشر الفوضى، وفتح باب الاضطراب، وانتشار

الأمراض الفتاكة، والوقوع في الفقر والذل والهوان. قال القفال: إذا قيل للإنسان: لا تقرب هذا، فهذا آكد من أن يقول له: لا تفعله، ثم إنه تعالى علل هذا النهي بكونه ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

أخرج ابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «مامن ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له».

وقد علَّم النبي ﷺ في حديث أخرجه أحمد فتى شاباً درساً بليغاً واقعياً في أن الزنى كما هو مبغوض مكروه في أمهات الإنسان وبناته وأخواته وعماته وخالاته، فكذلك هو مبغوض لا يحبه الناس لأمهاتهم وبناتهم وأخواتهم وعماتهم وخالاتهم، ثم وضع يده عليه، وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وأحصن فرجه» فلم يكن ذلك الفتى بَعْدُ يلتفت إلى شيء.

أما بلاد الشرق والغرب التي تبيح الزنى ولو علانية، فإنها لا تهتم باختلاط الأنساب، ولا بما يسمى بالعرض، فقد رُفع هذا من القيم الأخلاقية عندهم، وجعلوا الاستمتاع بالمرأة كالطعام والشراب، وهذا نذير سوء، وقلب للأوضاع، ونكسة في الفطرة الإنسانية.

وقد وصف الله تعالى الزنى بصفات ثلاث: كونه فاحشة، ومقتاً في آية أخرى، وساء سبيلاً. أما كونه فاحشة: فلاشتماله على فساد الأنساب الموجبة لخراب العالم، ولاشتماله على التقاتل والتواثب على الفروج، وهو أيضاً يوجب خراب العالم. وأما المقت: فلأن الزانية تصير ممقوتة مكروهة، حتى في الأوساط المتحللة، وذلك يوجب عدم السكن والازدواج، وأن لا يعتمد الإنسان عليها في شيء من مهماته ومصالحه. وأما أنه ساء سبيلاً: فلأنه لا

يبقى فرق بين الإنسان وبين البهائم في عدم اختصاص الذكور بالإناث، وأيضاً يبقى ذل هذا العمل وعيبه وعاره على المرأة، من غير أن يصير مجبوراً بشيء من المنافع[1].

النوع السابع - تحريم القتل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ﴾ هذا هو ثاني الأمور المنهي عنها، وسابع أحكام المجتمع، وناسب ذكره بعد الزنى؛ لأن الزنى يؤدي إلى عدم وجود الإنسان، ويقلل من النسل البشري، أما القتل فيهدم وجود الإنسان، وهو إعدام الناس بعد وجودهم، وهو حرام لكونه اعتداء على خلق الله، وهدم له؛ لأن الإنسان ليس ملكاً لنفسه، إنما هو ملك لخالقه، وثروة لمجتمعه ودولته، ولذلك حُرِّم الانتحار وحُرِّم قتل النفس إلا بالحق، فمن قتل نفسه فهو آثم معتد، ومن قتل غيره فهو أيضاً معتد أثيم.

ومعنى الآية: ولا تقتلوا النفس الإنسانية التي حرم الشرع قتلها إلا إذا كان بحق شرعي، وهو أحد أمور ثلاثة: كفر بعد إيمان (ردة) وزنى بعد إحصان، وقتل معصوم الدم عمداً، ثبت في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة». وثبت في السنن للترمذي والنسائي عن ابن عمرو: «لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم».

فالقتل بغير حق جريمة عظمى؛ لأنه إفساد والله تعالى لا يحب الفساد، وضرر واعتداء، وإخلال بالأمن، وإحداث للاضطراب في المجتمع، وسبيل لانقراض الإنسانية.

وبعد أن استثنى الله تعالى من تحريم القتل حالة القتل بالحق بقوله: ﴿إِلَّا

(١) تفسير الرازي: ٢٠/١٩٨ - ١٩٩

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أثبت الحق في تنفيذ القصاص بإشراف الدولة لولي الدم، مع تقييده بحصر القتل في القاتل نفسه دون غيره، فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي ومن قتل ظلماً وعدواناً بغير حق يوجب قتله، فقد جعلنا لمن يلي أمره من وارث أو سلطان حاكم عند عدم الوارث سلطة على القاتل ومنحه الخيار بأحد أمرين: إما القصاص (القَوَد) منه بعد حكم قضائي وبإشراف القاضي، وإما العفو عنه على الدية أو مجاناً كما ثبت في السنة، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٢]. وقوله ﷺ فيما رواه أبو داود والنسائي عن أبي شُريح الخُزاعي: «من قُتِل له قتيلٌ بعد مقالتي هذه، فأهله بين خِيَرَتين: إما أن يأخذوا العَقْل - الدية - أو يَقْتلوا».

وهذا السلطان لولي الدم مقيد بألا يسرف في القتل، أي فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به، أو يقتص من غير القاتل، كعادة أهل الجاهلية والجاهلين اليوم الذين يقتلون الجماعة في الواحد تشفياً واستعلاء، قال مهلهل بن أبي ربيعة حين قُتل بُجَير بن الحارث بن عباد: بُؤْ بشِسْع نعل كليب أخي، أي أنت تساوي نعل كليب، ولا يكفيني في كليب إلا قتل آل مُرَّة جميعاً.

لا تسرف أيها الولي في استيفاء القتل، فإنك معانٌ منصورٌ على القاتل شرعاً وقدراً، حيث وجب لك القصاص، ويعوضك الله خيراً في الدنيا والآخرة، بتكفير الخطايا، وتعذيب القاتل في النار.

والمقصود بذلك: أن الأولى ألا يقدم ولي الدم على استيفاء القتل، وأن يكتفي بأخذ الدية، أو يعفو مجاناً؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٨] وقوله سبحانه: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٧].

النوع الثامن - تحريم أكل مال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ بعد أن

حرم الله تعالى إتلاف الأنفس حرم إتلاف الأموال، والمعنى لا تتصرفوا في مال اليتيم ولا تقربوا منه أكلاً وإتلافاً إلا بما يحقق الفائدة أو المصلحة الظاهرة لليتيم، وهي الطريقة الحسنى بحفظ ماله وتثميره حتى يبلغ رشيداً، ويبلغ أشده مبلغ الرجال، ويكتمل عقله، فالمراد بالأشد: بلوغه إلى سن يتمكن فيه بسبب عقله ورشده القيام بمصالح ماله، وعند الرشد تزول ولاية غيره عنه، وهو حد البلوغ رشيداً. فإن بلغ غير عاقل أو غير رشيد، بقيت الولاية السابقة عليه. وبلوغ العقل: هو أن يكمل عقله وقواه الحسية والحركية.

ونظير الآية: ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٤/٦] . فيجوز لولي اليتيم إذا كان فقيراً أن يأخذ شيئاً من مال اليتيم للحاجة بقدر المعروف.

ولما نزلت آية ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ شق ذلك على الصحابة، فكانوا لا يخالطون اليتامى في طعام ولا غيره، مما أدى إلى إهمال شؤون الأيتام، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٠] .

النوع التاسع - الوفاء بالعهد: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ :
بعد أن أمر الله تعالى بخمسة أشياء أولاً، ثم نهى عن ثلاثة أشياء (الزنى، والقتل إلا بالحق، وقربان مال اليتيم) أمر بأوامر ثلاثة: أولها - الوفاء بالعهد، والمعنى: وفّوا بالعهد الذي تعاهدون عليه الناس، وبالعقود التي تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد، كل منهما يسأل صاحبه عنه، ونظير الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ٥/١] فالعهد فضيلة وميثاق، والعقد التزام وارتباط، والإخلال بالعهد خيانة ونفاق، والتحلل من العقد إهدار للثقة وتضييع للحقوق، فيجب شرعاً الوفاء بالعهد، وتنفيذ مقتضى

العقد، فمن أخلف بوعده، ولم يوف بعهده، ولم ينفذ التزام عقده، وقع في الإثم والمعصية، وأخل بمقتضى الإيمان والدين، والعهد: أمر عام يشمل كل مابين الإنسان وبين الله والنفس والناس. والعقد: كل التزام يلتزمه الإنسان، كعقد اليمين والنذر، وعقد البيع والشركة والإجارة والصلح والزواج.

وكل عقد لأجل توثيق الأمر وتوكيده، فهو عهد.

لذا تواردت الآيات الدالة على وجوب الوفاء بالعهود والعقود، كقوله تعالى: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة: ٢/١٧٧] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/٨ والمعارج ٧٠/٣٢] وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٥] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٤/٢٩].

والوفاء بالعهد أو بالعقد: تنفيذ مقتضاه، والحفاظ عليه على الوجه الشرعي، وعلى وفق التراضي الذي لا يصادم الشرع.

النوع العاشر - إيفاء الكيل والوزن بالعدل: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ هذا هو الأمر الثاني من الأوامر الثلاثة المذكورة في هذه الآية، وهو إتمام الكيل وإتمام الوزن، أي أتموا الكيل من غير تطفيف ونقص، وأتموا الوزن بالعدل دون جور أو حيف، فإن كلتم لأنفسكم أو وزنتم فلا تزيدوا في الكيل أو الوزن، ولا مانع إن نقصتم عن حقكم. ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي فإن عاقبة الوفاء بالعهد وإيفاء الكيل والوزن بالعدل خير لكم في الدين والدنيا في معاشكم ومعادكم، وأحسن مآلاً ومنقلباً في آخرتكم، فلا تؤاخذون أو تعاقبون يوم القيامة، ويرغب الناس في معاملتكم، ويثنون عليكم، ولا تتعرضون لإساءة السمعة، أو عقاب السلطة، فقد ثبت بالتجربة أن التاجر الثقة الصدوق هو المحبوب الرابح الذي يقبل عليه الناس، وأن التاجر الذي يطفف الكيل أو الوزن هو المنبوذ المبغوض الخاسر الذي يعرض الناس عنه.

وقد وردت آيات كثيرة في معنى هذه الآية، منها ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٩] ومنها: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٧/٨٥] ومنها: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: ٨٣/١-٣].

وكل من الوفاء بالعقود والعهود وإتمام الكيل والميزان قاعدة حضارية اجتماعية سامية، وأساس راسخ ضروري في صرح التعامل بين الناس، يؤدي إلى توفير الثقة والطمأنينة، ويكون سبباً لتنمية العلاقات وزيادة الكسب والأرباح.

النوع الحادي عشر - التخمين وسوء الظن: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي أنه تعالى بعد بيان الأوامر الثلاثة عاد إلى ذكر النواهي، فنهى عن ثلاثة أشياء:

أولها - القول بالحدس والتخمين وسوء الظن، فهذا عيب في السلوك، وتشويه للحقائق، وطعن في الآخرين بغير حق، وإهدار لقدسية العلم والحقيقة. والمعنى: ولا تتبع ولا تقتف مالا علم لك به من قول أو فعل، والمقصود النهي عن الحكم على الأشياء بما لا يكون معلوماً علماً صحيحاً، ولا دليل عليه. وهذا يشمل نهي المشركين عن الاعتقاد الفاسد في القضايا الإلهية والنبوات، بسبب تقليد أسلافهم، واتباع الهوى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٥٣/٢٣].

ويشمل أيضاً شهادة الزور وقول الزور، والقذف ورمي المحصنين والمحصنات (العفائف) بالأكاذيب، والكذب والبهتان والافتراء، والطعن في الآخرين بالظن وتتبع العورات، وتزييف الحقائق العلمية والأخبار وغير ذلك، فلا يصح لإنسان أن يقول مالا يعلم، أو يعمل بما لا علم له به، أو أن يذم أحداً بما لا يعلم.

وقد شاع هذا الخلق المذموم بين المسلمين، وصار التحدث بغير علم ولا معرفة ولا ثقة ظاهرة منتشرة بسبب ضعف الدين والإيمان، وتفسخ الأخلاق، وانحلال القيم، واتباع الأهواء، وضعف النفوس والانغماس في المادة، وتحلل القيم.

لذا حذر القرآن من تلك الظاهرة المرضية، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾ أي إن مفاتيح العلوم والمعارف من السمع والبصر وهما واسطة العلوم الحسية والتجريبية، والفؤاد وبه تتحصل العلوم العقلية، يسأل عنها صاحبها يوم القيامة، وتسأل عنه، فإذا سمع الإنسان مالا يحل له سماعه، وأبصر أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه، وعزم على مالا يحل العزم عليه، كان مسؤولاً عنه، معاقباً عليه؛ لأن أدوات المعرفة هذه ينبغي استعمالها في الطاعة لا في المعصية. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢/٤٩] وقال ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث».

بل إن هذه الأدوات تسأل عن صاحبها بأن يخلق الله فيها الحياة، ثم تشهد على الإنسان، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤/٢٤].

قال ابن عباس: لا تشهد إلا بما رأت عيناك، وسمعته أذناك، ووعاه قلبك. وقال قتادة: لا تقل: سمعتُ ولم تسمع، ولا رأيتُ ولم تر، ولا علمتُ ولم تعلم.

النوع الثاني عشر - تحريم التكبر والخيلاء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا هو الأمر الثاني المنهي عنه هنا، وهو تحريم الكبر والتجبر والتبختر في المشية، والمعنى: ولا تمش في الأرض مَرَحاً أي متبَختراً متمايلاً مشي الجبارين، فذلك المشي يدل على الكبرياء والعظمة، إنك لن تخرق الأرض أي

تنقبها أو تقطعها بمشيك إذا سرت عليها، ولن تبلغ الجبال طولاً، أي لن تصل بتطاولك وتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك إلى قمم الجبال، وهذا تهكم بالمتكبر والمختال.

بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده، كما ثبت في صحيح مسلم: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدان يتبَختر فيهما، إذ خُسف به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة» وأخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته، فخسف الله به وبداره الأرض. وفي الحديث الحسن الذي رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة «من تواضع لله رفعه الله» فهو في نفسه حقير، وعند الله كبير.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٣] وقوله سبحانه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ٣١/١٩].

خاتمة معبرة:

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ كل ما تقدم من الخصال القبيحة المفهومة من الأوامر والنواهي، وهي خمس وعشرون، من قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلى هنا، كان سيئه أي قبيحه مكروهاً عند ربك، أي مبغوضاً عنده، ومنهياً عنه، ومعاقباً عليه، وإن كان مراداً له تعالى بالإرادة التكوينية التي لا تستدعي الرضا منه سبحانه، كما قال ﷺ: «ما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن».

وكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تصلح للواحد والجمع والمؤنث والمذكر.

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ أي ذلك الذي أمرناك به من الأخلاق الحميدة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، هو مما أوحينا إليك يا

محمد من أصول الشريعة والدين، والحكم به، لتأمر به الناس، والمراد بالحكمة: التكاليف المذكورة.

﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ لا تتخذ إلهاً آخر شريكاً مع الله، فتعاقب بالإلقاء في جهنم ملوماً: تلومك نفسك، ويلومك الله والخلْق، مدحوراً، أي مطروداً مبعداً من رحمة الله تعالى ومن كل خير.

والخطاب في هذه الآية للأمة، بواسطة الرسول ﷺ، فإنه معصوم فيكون المراد به: كل من سمع الآية من البشر. وقد بدأ الله تعالى هذه التكاليف بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وختمها بعين هذا المعنى. والمقصود منه التنبيه على أن أول كل عمل وقول وفكر وذِكْر وآخره يجب أن يكون مبتدئاً ومقترناً بالتوحيد، وأن المقصود من جميع التكاليف هو معرفة التوحيد والتعمق فيه.

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل، ثم تلا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ الآية. أو إن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه السلام، وأولها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وقد رتب الله تعالى على الإشراك وترك التوحيد في البداية كون الشخص مخذولاً، وفي آخر الآيات كونه ملوماً مدحوراً، فثبت أن أول الأمر يصير مخذولاً، وآخره أن يصير مدحوراً. والمخذول: ترك إعانته وتفويضه إلى نفسه، والمدحور: إهانته والاستخفاف به.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ - تحريم وأد البنات خشية الفقر أو العار أو غير ذلك مطلقاً.

٢ً - تحريم الاقتراب من الزنى ودواعيه وأسبابه التي تؤدي إليه عادة.

٣ً - تحريم قتل النفس بغير حق شرعي. وللولي الوارث سلطة استيفاء القصاص من القاتل وحده دون غيره، بغير تمثيل ولا قتل غير القاتل، فإنه معان عليه بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعها ثالثة، فأيها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى.

٤ً - تحريم قربان مال اليتيم إلا بالطريقة الحسنى التي تؤدي إلى الحفاظ عليه وتحقيق مصلحته الظاهرة، إلى أن يبلغ رشده.

٥ً - وجوب الوفاء بالعهد فالإنسان مسؤول عنه، قال الزجاج: كل ما أمر الله به ونهى عنه فهو من العهد.

٦ً - إيفاء الكيل وإتمام الوزن بالحق والعدل دون بخس ولا زيادة ولا نقص، فذلك خير للإنسان عند ربه وأبرك، وأحسن عاقبة. قال الحسن البصري: ذُكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقدر رجل على حرام، ثم يَدَعُه، ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك».

٧ً - عدم اتباع مالا يعلم به الإنسان ولا يعنيه، قال مجاهد: لا تَذُمّ أحداً بما ليس لك به علم. لكن يجوز الحكم بالقيافة؛ لأن الآية ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ دل على جواز مالنا به علم، فكل ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه، جاز أن يحكم به.

ويجوز أيضاً إثبات الشيء بالقرعة، والخرْص (التقدير والتخمين) لأنه نوع من غلبة الظن، فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما، كما يلحق الفقيه الفرع بالأصل من طريق الشبه. وقد أقر النبي ﷺ العمل بالقيافة في إثبات نسب أسامة وكان أسود، من زيد بن حارثة وكان أبيض، ثبت في

صحيح مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل علي مسروراً، تبرق أسارير وجهه، فقال: «ألم تَرَيْ أن مُجَزِّزاً - وكان قائفاً - نظر إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد، عليهما قطيفة، قد غطَّيا رؤوسهما، وبدت أقدامهما، فقال: «إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض». واستدل جمهور العلماء على القيافة عند التنازع في الولد بسرور النبي ﷺ بقول هذا القائف.

ولم يأخذ الحنفية بالقيافة متمسكين بإلغاء النبي ﷺ الشبه في حديث اللعان.

٨ً - يسأل كل واحد من السمع والبصر والفؤاد عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه الإنسان واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع.

٩ً - النهي عن الخيَلاء وتحريمه، والأمر بالتواضع والحض عليه. وذكر القرطبي أن إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفّعاً دون حاجة إليه داخل في هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان.

١٠ً- استدل العلماء بهذه الآية: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ على ذم الرقص وتعاطيه، قال الإمام أبو الوفاء بن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص، فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ﴾ وذمَّ المختال. والرقص أشد المرح والبطر. قال القرطبي: أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمر لاتفاقهما في الإطراب والسكر، فما بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشِّعْر معه على الطُّنبور والمِزْمار والطبل لاجتماعهما[١].

١١ً - هذه الآداب والقصص والأحكام التي تضمنتها الآيات المتقدمة التي نزل بها جبريل تقتضيها حكمة الله عز وجل في عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٢٦٣

تقريع على نسبة الولد والشريك إلى الله تعالى

﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنَـٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾

القراءات:

﴿ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً : (القران).

﴿ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: (لِيَذْكروا).

﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ : قرئ:

١- (كما يقولون) وهي قراءة ابن كثير، وحفص.

٢- (كما تقولون) وهي قراءة الباقين.

﴿ عَمَّا يَقُولُونَ ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عما تقولون).

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (يسبح له).

البلاغة:

﴿أَفَأَصْفَٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾؟ الهمزة للإنكار والتوبيخ.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ وارد على سبيل الفرض والاحتمال.

المفردات اللغوية:

﴿أَفَأَصْفَٰكُمْ﴾ اختاركم وخصكم يا أهل مكة، والإصفاء: جعله خالصاً له ﴿إِنَٰثًا﴾ بنات لنفسه بزعمكم ﴿لَتَقُولُونَ﴾ بذلك ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ عظيم الإنكار، بإضافة الأولاد إليه ﴿صَرَّفْنَا﴾ بيّنا ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ من الأمثال والوعد والوعيد ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ يتعظوا ويتذكروا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ وما يزيدهم ذلك إلا نفوراً عن الحق وقلة طمأنينة إليه، والنفور: البعد عن الشيء.

﴿قُل﴾ لهم أي للمشركين ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ﴾ أي مع الله ﴿لَّٱبْتَغَوْا۟﴾ طلبوا ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي الله ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً، وللكلام معنيان: الأول - هو أنا لو فرضنا وجود آلهة مع الله تعالى، لغلب بعضهم بعضاً، والثاني - لو كانت هذه الأصنام كما تقولون أيها الكفار من أنها تقربكم إلى الله زلفى، لطلبت لأنفسها أيضاً قربة إلى الله تعالى، وسبيلاً إليه، وأعدت لأنفسها المراتب العالية، فلما لم تقدر على اتخاذ سبيل لأنفسها إلى الله، فكيف يعقل أن تقربكم إلى الله؟!

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ تعاظم ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشركاء .﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ تعالياً متباعداً غاية البعد عما يقولون، فإنه في أعلى مراتب الوجود، وهو كونه واجب الوجود والبقاء لذاته، وأما اتخاذ الولد فمن أدنى مراتبه، فإنه من خواص ما يمتنع بقاؤه.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ تنزهه ﴿وَإِن﴾ ما ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ من المخلوقات ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ إلا ينزهه تنزيهاً مقترناً بحمده، فيقول: سبحان الله وبحمده ﴿لَّا تَفْقَهُونَ﴾ لا

تفهمون ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ لأنه ليس بلغتكم ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وشرككم، غفوراً لمن تاب منكم.

المناسبة:

بعد أن حذر الله تعالى من الشرك، نبَّه إلى جهل من أثبت لله شريكاً، وندّد بالمشركين وقرّع الذين أثبتوا لله ولداً، وجعلوا البنين لأنفسهم، مع علمهم بعجزهم ونقصهم، ونسبوا البنات لله، مع علمهم بأن الله تعالى هو الموصوف بالكمال الذي لا نهاية له، والجلال الذي لا غاية له، مما يدل على نهاية جهلهم.

ثم أبان أنه ضرب في القرآن الأمثال للناس ليتدبروا ويتأملوا فيها، وذكر أنه لو كانت هذه الأصنام تقرب إلى الله زلفى، لطلبت لنفسها القربة إلى الله، ولكنها لم تفعل ذلك، فبان خطؤهم في ادعائهم أن الملائكة بنات الله، وتبين إبطال تعدد الآلهة، وإثبات الوحدانية لله، والتنزيه له؛ لأن كل مافي الكون تدل أحواله على توحيد الله وتقديسه وعزته، ولكنكم بسبب الجهل والغفلة لا تدركون دلالة تلك الأدلة.

التفسير والبيان:

بعد أن فند الله تعالى زعم من نسب لله شريكاً، شنع هنا على من نسب له الولد، وردَّ الله تعالى في هذه الآية على المشركين الذين جعلوا الملائكة إناثاً، ثم ادعوا أنهن بنات الله، ثم عبدوهن، مقرعاً لهم ومنكراً عليهم، ومبيناً خطأهم العظيم قائلاً: أيكرمكم ربكم فيخصكم بالذكور من الأولاد، ويختار لنفسه على زعمكم البنات، وأنتم تئدونهن ولا ترضونهن لأنفسكم. ثم يشدد الإنكار عليهم قائلاً: إنكم في زعمكم أن لله ولداً، وهو من الإناث اللاتي تأنفون أن يكن لكم، لَتفترون على الله الكذب، وتقولون على الله قولاً عظيماً إثمه،

موجباً العذاب عليكم، منافياً لأبسط مبادئ العقول بنسبة الضعيف للقوي، والقوي للضعيف. ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/٢٢] أي جائرة.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ١٩/٨٨-٩٥].

ثم نبّه الله تعالى إلى كون هذه المناقشة وذلك الكلام غاية في الوضوح بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي ولقد بينا في هذا القرآن الحجج والبينات والمواعظ، وأوضحنا الأمثال لهم، وحذرنا وأنذرنا ليتعظوا وينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، وهم مع ذلك ما يزيدهم التذكير إلا نفوراً عن الحق وبعداً عنه.

ثم رد الله تعالى على المشركين الذين يتخذون شريكاً لله، فقال:

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ﴾ قل يامحمد لهؤلاء المشركين الذين يزعمون أن لله شريكاً من خلقه، ويتخذون مع الله إلهاً آخر: لو كان الأمر كما تقولون، وأن الله معه آلهة تُعْبَد لتقرب إليه وتشفع لديه، لكان أولئك المعبودون المتخَذون آلهة يعبدونه، ويتقربون إليه، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة بعبادتهم، فاعبدوه أنتم وحده، كما يعبده من تدعونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه تعالى لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه، وقد نهى عن ذلك على ألسنة أنبيائه ورسله، ثم نزه نفسه الكريمة عن ذلك فقال:

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ أي تنزه الله تعالى عما لا يليق به، وتعالى، أي ارتفع وعلا عما يقول هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون في

زعمهم أن معه آلهة أخرى، تعالياً كبيراً، بل هو الله الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

وفي وصف العلو بالكبر إشارة إلى وجود التغاير المطلق بين ذاته وصفاته تعالى، وبين نسبة الصاحبة والولد والشركاء والأضداد والأنداد إليه، لوجود المنافاة بين القديم والمحدَث، وبين الغني والمحتاج، منافاة لا يتصور الزيادة عليها، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٠-٩١] ..

ثم أبان الله تعالى مبلغ عظمته فقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ﴾ أي تقدسه وتنزهه السماوات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته، وما من شيء من المخلوقات (الحيوانات والجمادات والنباتات) إلا يسبح بحمد الله تعالى، أي يشهد ويدل بخلقه من غيره على وجوب وجود الله تعالى الخالق لكل الأكوان، فالتسبيح من الناس هو قولهم: سبحان الله، وهذا حقيقة، ومن الجمادات وغيرها: معناه الدلالة على تنزيه الله تعالى، وهذا مجاز. وقال بعضهم: إنه حقيقة أيضاً.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي ولكن لا تفهمون أيها البشر تسبيحهم؛ لأنه بخلاف لغاتكم، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وقال قتادة: كل شيء فيه روح يسبح، من شجر أو غيره.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إنه تعالى كان وما يزال حليماً لا يعاجل بالعقوبة من عصاه، وإنما يمهل ويؤجل، ويغفر لمن تاب منكم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - إن نسبة الملائكة بجعلها بنات الله افتراء كبير وقول عظيم الإثم عند الله عز وجل. وهذا تنديد بقول بعض العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله.

٢ - بالرغم من بيان القرآن الشافي للحجج والبينات الدالة على توحيد الله ووحدانيته المطلقة، والاتعاظ بما فيها، فإن المشركين المعاندين الظالمين لا يزدادون بعد هذا البيان إلا التباعد عن الحق، والغفلة عن النظر والاعتبار، لسوء نظرهم وخلل تفكيرهم، واعتقادهم في القرآن أنه حيلة وسحر، وكهانة وشعر.

٣ - لو كان هناك آلهة شفعاء مع الله كما يزعم المشركون، لكانت هذه الآلهة بحاجة إلى التقرب إلى الله، بالعبادة والتعظيم، لتجعل لنفسها مكانة عند الله، وتلتمس الزُّلْفة عنده؛ لأنهم دونه، والمشركون اعتقدوا أن الأصنام تقرّبهم إلى الله زلفى، فإذا اعتقدوا في الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى، فقد بطل أنها آلهة، وكان الأحرى بعبدتها أن يعبدوا الإله الحقيقي وهو الله جل جلاله.

وهذا ردّ على عباد الأصنام، كما أن الآية الأولى ردّ على الذين يجعلون الملائكة بنات الله.

٤ - ما من مخلوق في السماوات والأرض إلا يسبح بحمد الله تعالى، وتسبيح البشر العقلاء هو حقيقة بأن يقولوا: سبحان الله أي تنزيهاً لله تعالى وتمجيداً وتقديساً، وتسبيح غير البشر مجاز، والمراد به تسبيح الدلالة أي دلالة هذه المخلوقات بذاتها على وجود الإله الخالق، فكل مُحْدَث يشهد على نفسه بأن الله عز وجل خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسبيح أيضاً حقيقة، وكل شيء بصفة عامة يسبح تسبيحاً لا يسمعه البشر ولا يفقهه؛ لأن الآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يفقه. وثبت في السنة أنه يخفف على الأموات بالأشجار في حديث الصحيحين عن ابن عباس مرفوعاً المتضمن تعذيب صاحبي القبرين بسبب

عدم الاستنزاه من البول والنميمة. قال القرطبي: وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن؟! فالثابت أنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهدى إليه. وهو رأي المذاهب الأربعة.

أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر: أن النبي ﷺ قال: «إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه: آمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرْزَق كل شيء».

والخلاصة:

إن الرازي وجماعة يرون أن تسبيح الجمادات مجاز وهو تسبيح الدلالة، وأن القرطبي وآخرين يرون أن كل شيء من الموجودات على الصحيح يسبح؛ للأخبار الدالة عليه، ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأي تخصيص لداود؟ كما حكى القرآن: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ٣٨/١٧-١٨] وإنما ذلك تسبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح، وقد نصت السنة على ما دلّ عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شيء، فالقول به أولى. قال رسول الله ﷺ - فيما رواه ابن ماجه ومالك عن أبي سعيد الخدري -: «لا يسمع صوت المؤذن جِنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة».

٥ - من صفات الله السامية أنه حليم عن ذنوب عباده في الدنيا، غفور للمؤمنين في الآخرة إذا تابوا وأنابوا إليه، وحلمه أنه لا يعاجل المشركين بالعقوبة على غفلتهم وسوء نظرهم وجهلهم بالتسبيح والشرك.

حماية النبي ﷺ من أذى المشركين إذا قرأ القرآن

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

القراءات:

﴿قَرَأْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (قرات).

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

﴿مَّسْحُورًا ، ٱنظُرْ﴾:

بكسر التنوين وصلاً، قرأ حمزة، وأبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم.

وقرأ الباقون بضمه كذلك.

الإعراب:

﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ أي ذا سِتْر، على النَّسَب، مثل: امرأة حائض وطالق وطامث أي ذات حيض وطَمْث وطلاق، أو بمعنى ساتر، فيجيء مفعول بمعنى فاعل، كما يجيء فاعل بمعنى مفعول، مثل: سرّ كاتم، وماء دافق، أي سر مكتوم، وماء مدفوق .﴿وَحْدَهُۥ﴾ مصدر وقع موقع الحال، أي واحداً.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾إما جمع نَجِيّ، كجريح وجرحى، وقتيل وقتلى، وإما مصدر، مثل قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٥٨/٧] .

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ قبله.

المفردات اللغوية:

﴿حِجَابًا﴾ وحجباً: أي منعاً من الوصول إلى الشيء، والمراد: حاجباً. ﴿مَّسْتُورًا﴾ أي ساتراً لك عنهم، فلا يرونك .﴿أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كنان .﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي منعناهم أن يفهموه، أو كراهة أن يفهموه .﴿وَقْرًا﴾ ثقلاً وصمماً يمنعهم عن استماعه استماع تأمل في لفظه، وتدبر في معناه .﴿وَحْدَهُۥ﴾ واحداً غير مشفوع به آلهتهم، قال الزمخشري: وحد يحد وحداً وحدة نحو وعد يعد وعداً وعدة، ووحده هنا: مصدر سادّ مسدّ الحال، أصله: يحد وحده بمعنى واحداً وحده.

﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ بسببه من الهزء .﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إلى قراءتك. ﴿نَجْوَىٰٓ﴾ يتناجون بينهم، أي يتحدثون .﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ في تناجيهم. ﴿إِن﴾ ما تتبعون .﴿مَّسْحُورًا﴾ مخبول العقل، كقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٢٥] .﴿كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بالمسحور والكاهن والشاعر .﴿فَضَلُّوا۟﴾ جاروا عن طريق الهدى .﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ طريقاً إليه.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٥):

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ الآية: أخرج ابن المنذر عن ابن شهاب الزهري قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا القرآن على مشركي قريش، ودعاهم إلى

الكتاب قالوا يهزؤون به: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٤١/٥] ، فأنزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الآيات.

وروى ابن عباس: أن أبا سفيان، والنضر بن الحارث، وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي ﷺ، ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدري ما يقول محمد، غير أني أرى شفتيه تتحرك بشيء، وقال أبو سفيان: إني لأرى بعض ما يقوله حقاً، وقال أبو جهل: هو مجنون، وقال أبو لهب: هو كاهن، وقال حويطب بن عبد العُزَّى: هو شاعر، فنزلت هذه الآية.

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد تلاوة القرآن، قرأ قبلها ثلاث آيات، وهي قوله في سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [٥٧] وفي النحل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [١٠٨] وفي حم الجاثية: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [٢٣] إلى آخر الآية، فكان الله تعالى يحجبه ببركات هذه الآيات عن عيون المشركين[1].

فهذه الآية نزلت في قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن على الناس. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان كلما قرأ القرآن، قام عن يمينه رجلان، وعن يساره آخران من ولد قصي يصفّقون ويصْفِرون، ويُخَلِّطون عليه بالأشعار.

نزول الآية (٤٦):

﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ : قيل: دخل ملأ قريش على أبي طالب يزورونه، فدخل رسول الله ﷺ، فقرأ، ومرَّ بالتوحيد، ثم قال: يا معشر

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠/٢٢١

قريش، قولوا: لا إله إلا الله، تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، فولّوا، فنزلت هذه الآية.

قال أبو حيان: والظاهر أن الآية في حال الفارّين عند وقت قراءته القرآن، ومروره بتوحيد الله تعالى، والمعنى: إذا جاءت مواضع التوحيد، فرَّ الكفار إنكاراً له، واستبشاعاً لرفض آلهتهم، واطراحها[1].

المناسبة:

بعد أن تكلم الله تعالى في المسائل الإلهية، وجادل المشركين بضرب الأمثال لهم، تكلم في هذه الآية فيما يتعلّق بتقرير النّبوة، والنّعي عليهم بعدم فهمهم للقرآن ونفورهم منه وهزئهم به، وإيذائهم النَّبي ﷺ، واتّهامهم له بأنه كاهن أو ساحر أو مجنون أو شاعر.

التفسير والبيان:

وإذا قرأت يا محمد القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالبعث ولا بالثواب والعقاب، جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً، أي حائلاً مانعاً يمنع قلوبهم عن فهم معاني القرآن وتدبُّر آياته، وجعلنا على قلوبهم أغطية بحيث لا يتسرّب إليها فهم مدارك القرآن ومعرفة أحكامه وأسراره وغاياته، وفي آذانهم ما يمنع من سماع صوته. فمعنى قوله تعالى: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن، والوقر: هو الثقل الذي يمنع من سماع القرآن سماع انتفاع واهتداء به.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٤١/٥].

---

(١) البحر المحيط: ٦/٤٢

والحجاب المستور أي الساتر، فهو يستر البصائر عن أن تبصر حقائق الأشياء، ومعنى جعل الأكنة على القلوب: أي جعل القلوب في الأكنّة، والأكنّة جمع كنان: الذي يغشى القلب، فصار التغليف والحيلولة دون الفهم من الظاهر والباطن والأعلى والأسفل، وأوصد الله الآذان وصمها عن السّماع سماع وعي وفهم وتدبُّر، فهم كانوا عقلاء سامعين فاهمين، والمراد بالآية منعهم عن الإيمان، ومنعهم عن سماع القرآن بحيث لا يقفون على أسراره، ولا يفهمون دقائقه وحقائقه، وذلك لتأصُّل الشرك في نفوسهم، وعدم إعمال أفكارهم في حقائق الدِّين.

وقد تقدّم ما روي أنه ﷺ كان إذا قرأ القرآن، قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قُصَيّ يصفّقون، ويصْفِرون، ويخلّطون عليه بالأشعار.

﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ﴾ أي وإذا وحّدت الله في تلاوتك وقلت: لا إله إلا الله، ولم تقل: واللّات والعُزّى، ولّوا أي أدبروا راجعين على أدبارهم نافرين نفوراً، تكبُّراً من ذكر الله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٥] وذلك لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتّوحيد نفروا.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ نحن يا محمد أعلم بالنّحو الذي يستمعون به حين يستمعون إليك هزءاً وسخريةً وتكذيباً، وأعرف بما يتناجى به رؤساء كفار قريش، ويتسارّون، حين جاؤوا يستمعون قراءتك سرّاً قائلين: إنك رجل مسحور، أو مجنون، أو كاهن، لذا قال تعالى:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي تأمل يا محمد كيف مثّلوا لك الأمثال، وأعطوك الأشباه، فقالوا: هو مسحور، وهو شاعر مجنون، فحادوا عن سواء السَّبيل، ولم يهتدوا إلى الحقّ لضلالهم، ولم يجدوا إليه مخلصاً يتخلّصون من متاهة ما هم فيه من الضَّياع. وهذا وعيد لهم وإيناس لرسول الله ﷺ.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - الثَّابت الذي دلَّ عليه القرآن والسِّيرة أن الله تعالى حجب رسوله ﷺ عن أبصار كفار قريش عند قراءة القرآن، فكانوا يمرّون به ولا يرونه.

٢ً - حجب الله القرآن عن أبصار المشركين وعقولهم وأفهامهم، وجعل على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوه أو كراهية أن يفقهوه، أي أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنّواهي، والْحِكَم والمعاني، وجعل أيضاً في آذانهم وَقْراً أي صمماً وثقلاً أن يسمعوه، وإذا ذكر النَّبي ﷺ ربه عند تلاوة القرآن فقال: لا إله إلا الله وحده، ولّى المشركون نافرين نفوراً من سماع كلمة الحقّ والتّوحيد.

٣ً - الله تعالى أعلم بالنّحو الذي يستمع فيه المشركون إلى القرآن حين يقول الظالمون منهم كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأمثالهما للناس لتنفيرهم عن النَّبي: ما تتبعون إلا رجلاً مسحوراً، قد خَبَله السِّحر، فاختلط عليه أمره، يقولون بينهم متناجين: هو ساحر وهو مسحور، بعد أن قرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التّوحيد، وقال: «قولوا: لا إله إلا الله لتطيعكم العرب، وتدين لكم العجم» فأبوا.

٤ً - تعجيب من الله لرسوله من صنع المشركين كيف يقولون تارة: ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، فضلوا الطريق، فأصبحوا لا يستطيعون حيلة في صدّ النّاس عن النَّبي ﷺ، وضلّوا عن الحقّ، فلا يجدون سبيلاً إلى الهدى.

إنكار المشركين البعث والرّد عليهم

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا﴾: قرئ:

١- (أئذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٢- (إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ عامل (إذا) مقدّر، أي أئذا كنّا عظاماً ورُفاتاً بُعثنا؟ ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿لَمَبۡعُوثُونَ﴾ لأن ما بعد (إن) لا يعمل فيما قبلها. ﴿أَوۡ خَلۡقًا﴾ مصدر أو حال أي بعثاً جديداً.

﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ﴾: ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: اذكروا يوم يدعوكم، أو نعيدكم يوم يدعوكم، دلّ عليه قوله تعالى: ﴿من يُعِيدُنَاۖ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥١] فعلى التقدير الأول يكون مفعولاً، وعلى التقدير الثاني يكون ظرفاً، وهو أوجه الوجهين.

والباء في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للحال أي تستجيبون حامدين له.

البلاغة:

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ استفهام إنكاري .﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كرر الهمزة لتأكيد الإنكار، ثم أكَّده بإنّ واللام، لإفادة قوة الإنكار.

﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴾ تعجيز وإهانة.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوٓا۟﴾ أي قال المشركون منكرين للبعث .﴿وَرُفَٰتًا﴾ بقايا ما تكسّر وبلي من كل شيء .﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ ﴾ أي قل لهم يا محمد: كونوا أي شيء، حجارةً أو حديداً، ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم، والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة، وإلى رطوبة الحيّ وغضاضته، بعدما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحيّ، بل هي عمود خلْقه الذي يبنى عليه سائره، فالله قادر على أن يردّها إلى حالتها الأولى. ولو كنتم أبعد شيء عن الحياة ورطوبة الحي، بأن تكونوا حجارة يابسة، أو حديداً، مع أنها تتصف بالصّلابة، لكان الله قادراً على أن يردّكم إلى حال الحياة.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ يعني: أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة، ويعظم في زعمكم على الخالق إحياؤه، فإنه يحييه، وينفخ فيه الرّوح .﴿من يُعِيدُنَا﴾ إلى الحياة؟ ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم .﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ ولم تكونوا شيئاً؛ لأن القادر على البدء قادر على الإعادة، بل هي أهون .﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ سيحرّكون رؤوسهم تعجُّباً واستهزاء .﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاء. ﴿مَتَىٰ هُوَ﴾ أي البعث .﴿أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ خبر أو ظرف أي في زمان قريب. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يناديكم من القبور على لسان إسرافيل .﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ أي

تجيبون الداعي. ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم، أي حامدين الله تعالى على كمال قدرته، أو منقادين لبعثه انقياد الحامدين عليه. ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وتستقصرون مدة لبثكم في القبور كالذي مرّ على قرية، أو مدّة حياتكم، لما ترون من الهول.

المناسبة:

بعد أن تكلم الله تعالى في الإلهيّات، ثم أتبعه بذكر شبهات المشركين في النبوّات، ذكر في هذه الآية شبهاتهم في إنكار البعث والمعاد والقيامة، وردّ عليها بما ينقضها.

ومن المعلوم أن مدار القرآن على المسائل الأربعة، وهي: الإلهيّات، والنّبوّات، والمعاد، والقضاء والقدر.

التفسير والبيان:

وقال المشركون منكرو البعث والمعاد استفهام إنكار لذلك حين سماع القرآن وسماع أمر البعث: أئذا كنّا عظاماً بالية في قبورنا، ورفاتاً أي تراباً بسبب تكسر العظام وصيرورتها كالتّراب، أئنا لمبعوثون عائدون يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً لا نذكر خلقاً صحيحاً جديداً كما كنّا قبل الممات، كما أخبر عنهم القرآن في موضع آخر: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ١٠-١٢]. وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٨-٧٩].

فأمر الله تعالى نبيّه أن يجيبهم بقوله:

﴿۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾﴾ أي قل يا محمد لهم: إن إعادة الميت

إلى الحياة أمر يسير سهل، وهو أهون على الله من الخلق أول مرة، أي أهون في تصورنا وحكمنا على الأشياء وإلا فالخلق لأي شيء على الله يسير في أي حال؛ لأن المادة المركبة إذا وجدت عناصرها وعرفت خواصها يسهل إحداث أشياء مماثلة لها، ولو فرض أنكم أيها المشركون كنتم أبعد شيء من الحياة، وأشدّ الأشياء صلابة من حجارة أو حديد؛ إذ هما أشدّ امتناعاً من العظام والرّفات عن قبول الحياة، أو أي خلق يعظم في تصوّركم وعقولكم كالسّماء والأرض والجبال عن قبول الحياة، فإن الله قادر على إحيائه وبعثه من جديد؛ لأن المواد الجامدة متساوية في قبولها ما يطرأ عليها من حياة أو عقل؛ إذ لو لم يكن هذا القبول والاحتمال قائماً حاصلاً، لما حصل العقل والحياة لها في أول الأمر، والله قادر على كل الممكنات، وعالم بجميع الجزئيات، فإعادة الحياة إلى تلك الأجزاء المادية ممكن قطعاً، سواء صارت عظاماً ورفاتاً، أو صارت شيئاً أبعد في تصور الحياة وقبولها، وهي أن تصير حجارةً أو حديداً.

وهذا من قبيل المبالغة وربط الأشياء بأقصى ما يمكن تصوره في الدّلالة على قدرة الله تعالى على الإحياء والإعادة.

وبعد استبعاد الإعادة استبعدوا حدوثها كما قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا﴾ أي فسيقولون لك يا محمد: من يعيدنا إلى الحياة إذا كنّا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً، فقل لهم: المعيد هو الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، ثم صرتم بشراً عديدين منتشرين في الدُّنيا، فإنه سبحانه وتعالى قادر على إعادتكم، ولو صرتم إلى أي حال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] .

والمتوقع حين سماع ذلك هو كما قال تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي لتأصل إنكار البعث في نفوسهم سيحركون رؤوسهم استهزاءً وتكذيباً.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ أي يقولون: متى هذا البعث والإعادة؟ قاصدين

استبعاد حصوله ووقوعه، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٥].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي إن ذلك قريب منكم سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آتٍ قريب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ٦-٧]. وقال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى. فقوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ معناه أنه هو قريب؛ لأن ﴿عَسَىٰٓ﴾ واجب، نظيره: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٧].

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي يكون ذلك البعث يوم يدعوكم الرّب تبارك وتعالى، فتستجيبون له من قبوركم حامدين طائعين منقادين، وتقومون كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته، وهذا مبالغة في انقيادهم للبعث فقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي بأمره، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٥]، أي إذا أمركم بالخروج من الأرض فأمره لا يخالف.

روى أنس مرفوعاً: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم، ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: لا إله إلا الله» وفي رواية الطبراني عن ابن عمر: يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٤] وهي رواية ضعيفة، والمراد من الحمد في الأصح كما نحا الطبري: هو حمد الله من النبي ﷺ على صدق خبره بحدوث القيامة.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وتحسبون عند البعث يوم تقومون من قبوركم أنكم ما لبثتم في الدار الدنيا إلا زمناً قليلاً، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٤٦]، وقوله تعالى:

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٤] ، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٣٠/٥٥] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

١ً - لم يقتصر فساد عقيدة المشركين على الشرك واتخاذ آلهة أخرى مع الله تعالى، وإنما أنكروا وقوع البعث والمعاد، وكانت هذه الآية مبيّنة غاية الإنكار منهم.

٢ً - لا داعي للعجب من قدرة الله تعالى، فإن البشر إذا عجبوا من إعادة الحياة للعظام البالية والرّفات الفانية، فلقصور إدراكهم، وضعف قدراتهم، ونقص قواهم، وأما الله تعالى فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، حتى لو فرض أنهم حجارة أو حديد في غاية الشدة والقوة، لأعادهم كما بدأهم، بل لو كانوا ما شاؤوا فسيعادون إلى الحياة مرة أخرى؛ لأن القدرة التي أنشأهم بها يعيدهم بها.

٣ً - لا يسع البشر حين دعوتهم بالخروج من قبورهم إلا الامتثال والطاعة والانقياد، وذلك يحصل بلحظة سريعة جداً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ١٦/٧٧] .

ويستجيب الناس بأمر الله وقدرته ودعائه إياهم، وبحمده، أي باستحقاقه الحمد على الإحياء. ورجح المالكية أن المراد بقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ : بدعائه إياهم.

٤ً - يقدِّر الناس بعد البعث أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا زمناً قليلاً لطول لبثهم في الآخرة.

مجادلة المخالفين باللين وبالتي هي أحسن

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

وقرأ نافع: (والنبيئين).

﴿زَبُورًا﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (زُبُوراً).

الإعراب:

﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ ﴿يَقُولُوا۟﴾: جواب «قولوا» المقدرة، أي قل لعبادي: قولوا التي هي أحسن، يقولوها.

البلاغة:

﴿يَرْحَمْكُمْ﴾ و﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ المؤمنين. ﴿يَقُولُوا۟﴾ للكفار الكلمة الحسنى وباللين، ولا يخاشنوا المشركين. ﴿يَنزَغُ﴾ يفسد بينهم بالوسوسة، ويَهِيجُ الشّر. ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ بيّن العداوة.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ بالتوبة والإيمان. ﴿أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ أي وإن يشأ يعذِّبكم تعذيباً بالموت على الكفر، وهذه الآية: تفسير للتي هي أحسن، وما بينهما اعتراض، أي قولوا لهم هذه الكلمة، ولا يصرحوا بأنهم من أهل النار، فإنه يهيجهم على الشّر، مع أن ختام أمرهم غيب لا يعلمه إلا الله. ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ موكولاً أو مفوضاً إليك أمرهم، تقسرهم على الإيمان، وإنما أرسلناك مبشِّراً ونذيراً، فدارهم، وأمر أصحابك بالاحتمال منهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ فيخصّهم بما شاء على قدر أحوالهم، ويختار منهم لنبوّته وولايته من يشاء. وهو ردّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيم أبي طالب نبيّاً، وأن يكون العراة الجياع أصحابه.

﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ﴾ بتخصيص كل منهم بفضيلة، كموسى بالكلام، وإبراهيم بالخُلّة، ومحمد بالإسراء ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ الزّبور: الكتاب الذي أُنزل على داود عليه السّلام.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٣):

﴿وَقُل لِّعِبَادِي﴾: روي أن المشركين أفرطوا في إيذائهم رسول الله ﷺ، فنزلت. وقيل: شتم عمرَ رجل منهم، فهمَّ به، فأمره الله بالعفو.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الحجة اليقينية في إبطال الشرك وهو قوله تعالى: ﴿لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾ [٤٢]، وذكر الحجة اليقينية في صحة البعث والمعاد بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ أمر تعالى بمجادلة المخالفين باللين وبالطريق الأحسن وألا يخاشن المشركون، وألا

يكون ذكر الحجة مخلوطاً بالشّتم والسَّب حتى لا يقابلوكم بمثله، وتحدث النّفرة، فيقال لهم: ربّكم العليم بكم، إن شاء عذَّبكم، وإن شاء رحمكم، ولا يصرَّح لهم بأنهم من أهل النّار، فلا يحاولون الإيمان أو الإسلام.

ثم بيَّن تعالى مهمة رسوله وهي التّبشير والإنذار، وأنه ليس مفوضاً في حمل الناس على الإسلام أو إجبارهم عليه، وأنه تعالى العليم بكل شيء وبمن في السماوات والأرض، فيختار للنّبوة من يراه أهلاً لها.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى رسوله بأن يبلِّغ عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبات الناس من المشركين وغيرهم ومحاوراتهم معهم الكلام الأحسن للإقناع، والكلمة الطَّيبة، وهو ألا يكون بيان الحجة مخلوطاً بالشّتم والسَّب والأذى، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦] .

وعلّة ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي إن لم يقولوا الكلام الأحسن والكلمة الطيبة، فإن الشيطان يفسد الأمور بين المؤمنين والمشركين، ويثير الفتنة والشّر، ويوقع المخاصمة والمقاتلة ويغري بعضهم؛ لأنه عدو لآدم وذريَّته عداوة ظاهرة بيِّنة، ولهذا نهى الشرع أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، فربّما أصابه بها، روى أحمد والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده، فيقع في حفرة من النار».

وسبب نزغ الشيطان للإنسان ما قاله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾ أي إن الشيطان عدوٌّ ظاهر العداوة للإنسان، وقد أعلن عداوته

منذ القدم كما حكى القرآن: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧] .

ثم فسّر الله تعالى الطريق الأحسن الألين الذي لا مخاشنة فيه بقوله: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ أي ربّكم أيها الناس أعلم بمن يستحق منكم الهداية والتوفيق للإيمان ومن لا يستحق، فإن شاء رحمكم فأنقذكم من الضلالة ووفقكم للطاعة والإنابة إليه، وإن شاء عذَّبكم فلا يهديكم للإيمان، فتموتوا على شرككم، فهذه هي الكلمة ونحوها التي تقال لهم، ولا يقال لهم: إنكم من أهل النار، وإنكم معذبون، وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشّر. وقوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ﴾ بمعنى عليم، نحو قولهم: «الله أكبر» بمعنى كبير، فلا مجال للمقارنة أو الموازنة بينه وبين غيره.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ أي وما أرسلناك يا محمد عليهم حفيظاً ورقيباً ووكيلاً موكولاً إليك أمرهم، تحاسبهم على أعمالهم، وتقرّهم على الإسلام وتجبرهم عليه، إنما أرسلناك نذيراً وبشيراً فقط، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار، فتلطّف في دعوتهم ولا تغلظ عليهم، ودارهم، ومر أصحابك بالمداراة والاحتمال.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ أي وربّك الأعلم بكل من هو في السماوات والأرض، وأعلم بأحوالهم ومقاديرهم كلها علم إحاطة وانكشاف: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: ٦٧/ ١٤] فهو أدرى وأعرف بما يستأهل كل واحد منهم.

وفي هذا ردّ على المشركين في جعل النّبوة والرِّسالة بمن اصطفاهم وتفنيد لقولهم حين قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١] وحين تضايقوا من تقريب الفقراء كصهيب وبلال وخبَّاب وإبعاد السّادة وزعماء قريش.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي ولقد فضّلنا بعض الأنبياء والرُّسل على بعض بالمزايا والكتب والخصائص، كاتّخاذ إبراهيم عليه السّلام خليلاً، وموسى عليه السّلام كليماً، ومحمد ﷺ خاتم النَّبيين، ونظير الآية: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٣] وفي الآية إشارة إلى تفضيل رسول الله ﷺ على جميع الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم والإسراء والمعراج، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السّلام على المشهور.

ولا خلاف أنّ الرُّسل أفضل من بقية الأنبياء، وأنّ أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون في آيتين من القرآن هما: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٧]. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ٤٢/ ١٣].

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ أي فضلناه بإنزال الزّبور عليه، لا بالملك والسلطان، ومما ورد في الزّبور أنّ محمداً ﷺ خاتم النّبيين، وأن أمته خير الأمم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥] وفيه تنبيه على فضله وشرفه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية:

أ - أمر الله تعالى في الآية الأولى جميع المؤمنين فيما بينهم بخاصة بحسن الأدب، وإلانة القول، وخفض الجناح، واطراح نزغات الشيطان، وفيما بينهم وبين الكفار أثناء المحاورة والنقاش بالكلمة الطيبة، والكلام الأحسن للإقناع؛ لأن الشيطان يفسد بين الناس، ويلقي العداوة والبغضاء بينهم؛ لأنه شديد العداوة للإنسان.

وتفويتاً للفرصة عليه، وادِّخاراً للجهد في سبيل إبلاغ الدَّعوة، ونشر الإسلام، وتوصُّلاً إلى الغاية المرجوة، يلزم أن يكون النقاش منطقياً عقلياً هادئاً، بعيداً عن السَّبّ والشَّتم والأذى.

٢ً - الآية الثانية ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ خطاب للمشركين مضمونه: إن يشأ الله يوفقكم للإسلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشّرك فيعذِّبكم. وهذا قول ابن جريج.

وقال الكلبي: الخطاب للمؤمنين مضمونه: إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذِّبكم بتسليطهم عليكم.

٣ً - ليس أمر المشركين موكولاً إلى النَّبي ﷺ لقسرهم على الإسلام وإجبارهم عليه، ومنعهم من الكفر، وإنما مهمته محصورة في التبليغ والتَّبشير والإنذار، تبشير من أطاعه بالجنّة، وإنذار من عصاه بالنّار.

٤ً - قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ لبيان أن الله خالقهم، وأنه جعلهم مختلفين في أخلاقهم وصورهم وأحوالهم وما لهم.

٥ً - ليس كل الأنبياء في درجة واحدة متساوية، وإنما يوجد تفاضل بينهم، فقد فضلَ الله بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم، كما بيَّنا في التّفسير.

٦ً - أنزل الله تعالى الزَّبور على داود عليه السّلام، والزّبور: كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود، وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد، والقصد من الإشارة إليه في الآية محاجّة اليهود، وإعلامهم أنه كما آتينا داود الزَّبور، فلا تنكروا أن يؤتى محمد ﷺ القرآن الكريم.

تفنيد آخر لشبهات المشركين

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾

القراءات:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ﴾: قرئ:

١- (قلِ ادعوا) وصلاً قرأ عاصم، وحمزة.

٢- (قلُ ادعوا) وهي قراءة الباقين.

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

﴿ٱلرُّءْيَا﴾:

وقرأ السوسي: (الرُّويا).

الإعراب:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفته،

و﴿يَدۡعُونَ﴾: صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والعائد محذوف، أي يدعونهم. و﴿ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾: صفة المبتدأ. و﴿يَبۡتَغُونَ﴾: خبر المبتدأ. و﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة منصوبة بفعل مقدر، أي ينتظرون. ويحتمل أن تكون «أي» بمعنى الذي بدل من واو ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ فتكون «أي» مبنية.

﴿أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ﴾: ﴿أَن﴾ الأولى: منصوبة بتقدير حذف حرف الجر، أي من أن نرسل، فلما حُذف حرف الجر انتصب بـ «منع». و﴿أَن﴾ الثانية: فاعل منع، أي وما منعنا الإرسال بالآيات إلا تكذيب الأولين بمثلها. والمعنى أن تكذيب الأولين كان سبباً لهلاكهم، فلوأرسلنا بالآيات إلى قريش، فكذبوها، لأهلكناهم، كما أهلكنا من تقدّمهم، وقد سبق في العلم القديم تأخير عقوبتهم إلى يوم القيامة، فلم نرسل بالآيات لذلك.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ﴾ منصوبة بالعطف على ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ وهي مفعول أول لـ ﴿جَعَلۡنَا﴾ والثاني ﴿فِتۡنَةً﴾.

﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنًا كَبِيرًا﴾ فاعل ﴿يَزِيدُهُمۡ﴾ مقدر، أي التخويف، دلّ عليه ﴿وَنُخَوِّفُهُمۡ﴾. و﴿طُغۡيَٰنًا﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يَزِيدُهُمۡ﴾؛ لأنه يتعدى إلى مفعولين.

البلاغة:

﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي ولا تحويل الضّرّ عنكم، حُذف لدلالة ما سبق.

﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ بينهما طباق.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ المنع محال في حق الله تعالى إذ لا يمنعه شيء، فالمنع مجاز عن الترك، أي سبب ترك الإرسال هو التكذيب.

﴿ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ﴾ مجاز عقلي علاقته السببية، أي أنه لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحقّ والهدى، نسب إليها الإبصار.

المفردات اللغوية:

﴿زَعَمۡتُم﴾ أنهم آلهة، أي كذبتم، والزعم في الأصل: القول المشكوك في صدقه، وقد يستعمل بمعنى الكذب، قال ابن عباس: كل موضع في كتاب الله تعالى ورد فيه (زعم) فهو كذب[1]. ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ كالملائكة وعيسى وعزير. ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ﴾ لا يستطيعون. ﴿كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾ إزالته. ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ ولا تحويله عنكم إلى غيركم.

﴿يَدۡعُونَ﴾ أي يدعونهم آلهة أو ينادونهم. ﴿يَبۡتَغُونَ﴾ يطلبون. ﴿ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ القربة بالطاعة والعبادة، أي هؤلاء الآلهة يبتغون إلى الله تعالى القربة بالطاعة. ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي يبتغي القربة أو الوسيلة الذي هو أقرب منهم إلى الله تعالى، فكيف بغير الأقرب؟ ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كسائر العباد، فكيف تزعمون أنهم آلهة؟ أو كيف تدعونهم آلهة؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ مخوّفاً، حقيقاً بأن يحذره كل أحد، حتى الرُّسل والملائكة.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ ما من قرية، والمراد أهلها. ﴿مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالموت. ﴿أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ بالقتل وغيره. ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ اللوح المحفوظ. ﴿مَسۡطُورٗا﴾ مكتوباً. ﴿بِٱلۡأٓيَٰتِ﴾ التي اقترحها أهل مكة، فهي ما اقترحته قريش، مثل جعل الصّفا ذهباً. ﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ﴾ أي لما أرسلنا الآيات وكذبوا بها أهلكناهم، ولوأرسلناها إلى هؤلاء، لكذبوا بها، واستحقوا الإهلاك وعذاب الاستئصال، وقد كنّا حكَمنا بإمهالهم، لإتمام نشر دعوة محمد ﷺ.

---

(١) تفسير الرّازي: ٢٠/ ٢٣١

﴿مُبْصِرَةً﴾ آية بيِّنة واضحة، أو ذات إبصار لمن يتأملها ويفكر فيها. ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ فكفروا بها فأهلكوا، أو فظلموا أنفسهم بسبب عقرها. ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ﴾ المعجزات أو الآيات المقترحة. ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ للعباد من نزول العذاب المستأصل، فيؤمنوا.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ واذكر إذ قلنا. ﴿أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علماً وقدرة، والمراد أنهم في قبضته وتحت قدرته، فبلغهم الرسالة ولا تخف أحداً، فهو يعصمك منهم، ولا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا. ﴿الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ﴾ عياناً ليلة الإسراء، و﴿الرُّؤْيَا﴾: هي ما عاينه النَّبي ﷺ ليلة الإسراء من العجائب، والمراد بها هنا خلافاً للغالب: الرؤية البصرية، قال ابن عباس: «هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به»، ولو كانت رؤيا منام، لما كانت فتنة للناس، ولما ارتدّ بعضهم عن الإسلام. ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ أهل مكة، إذ كذّبوا بها، وارتدّ بعضهم، لما أخبرهم بها. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم، جعلناها فتنة لهم، إذ قالوا: النار تحرق الشجر، فكيف تنبته؟ ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بها. ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ تخويفنا. ﴿إِلَّا طُغْيَانًا﴾ الطغيان: تجاوز الحدّ في الفجور والضلال.

سبب النزول:

نزول الآية (٥٦):

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ﴾: أخرج البخاري وغيره عن ابن مسعود قال: كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجنّ، فأسلم الجنيّون، واستمسك الآخرون بعبادتهم، فأنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية.

وروي أنه لما أصاب القحط قريشاً، وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، أنزل الله هذه الآية.

نزول الآية (٥٩):

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ﴾: أخرج أحمد والنسائي والحاكم والطّبراني عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النّبي ﷺ أن يجعل لهم الصّفا ذهباً، وأن يُنحّي عنهم الجبال، فيزرعوا، فقيل له: إن شئتَ أن تستأني بهم، وإن شئتَ نؤتهم الذي سألوا، فإن كفروا أُهلكوا، كما أهلكتُ من قبلهم، قال: «بل أستأني بهم» فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْآيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾.

نزول الآية (٦٠):

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا﴾: أخرج أبو يعلى عن أم هانئ أنه ﷺ لما أُسري به أصبح يحدِّث نفراً من قريش يستهزئون به، فطلبوا منه آية، فوصف لهم بيت المقدس، وذكر لهم قصة العير، فقال الوليد بن المغيرة: هذا ساحر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾. وأخرج ابن المنذر عن الحسن نحوه.

وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي أن رسول الله ﷺ أصبح يوماً مهموماً، فقيل له: مالك يا رسول الله؟ لا تهتم، فإنها رؤيا تنالهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾.

نزول الآية (٦٠) أيضاً:

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في البعث عن ابن عباس قال: لما ذكر الله الزّقوم، خوّف به هذا الحي من قريش، قال أبو جهل: هل تدرون ما هذا الزّقوم الذي يخوفكم به محمد؟ قالوا: لا، قال: الثّريد بالزّبد، أما لئن أمكننا منها لنزقمنها زقماً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾، وأنزل تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٣-٤٤] .

المناسبة:

بعد أن ندَّد الله تعالى بإنكار المشركين البعث، عاد إلى الرّدّ عليهم في عبادتهم الملائكة والجنّ والمسيح وعزيراً، فهؤلاء يتوسَّلون إلى الله بالطاعة والعبادة، ويخافون عذابه، فالمستحق للعبادة هو مالك هؤلاء، والقادر على النفع والضّر دونهم. وليس المراد الأصنام؛ لأن ابتغاء الوسيلة إلى الله تعالى لا يليق بالأصنام ألبتة.

ثم ذكر تعالى وعيده لهم وهو أن مصير قرى الكافرين إما الإبادة والاستئصال، وإما العذاب دون ذلك، كالقتل والسَّبي واغتنام الأموال.

ثم ردّ تعالى على المشركين طالبي آيات حسيّة ومعجزات عظيمة قاهرة، مثل قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠]، بأن تلبية اقتراحهم يهددهم، فلو جاء بالآيات، ثم كذبوا بها، عذبوا بعذاب الاستئصال، على وَفْق سنّة الله فيمن قبلهم، مثل آية ثمود البيِّنة الواضحة.

وبالرغم من أن إظهار المعجزات ليس بمصلحة، فقد تجرأ أولئك الكفار بالطّعن بالنَّبي ﷺ قائلين له: لو كنت رسولاً حقّاً من عند الله تعالى، لأتيت بهذه المعجزات التي طلبناها منك، كما أتى بها موسى وغيره من الأنبياء، فعندئذ أبان الله تعالى أنه ناصره بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾.

ثم أردف ذلك بأن ليلة الإسراء كانت فتنة للناس وامتحاناً لإيمانهم، كما أن شجرة الزّقوم في نار جهنم فتنة وامتحان أيضاً.

التفسير والبيان:

قل أيّها الرّسول لهؤلاء المشركين الذين يعبدون غير الله: ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهة من دون الله، وهي الأصنام والأنداد، هل يجيبونكم،

وارغبوا إليهم حين وقوع الضّرّ بكم من فقر ومرض وقحط وعذاب ونحوها، وانتظروا هل يستطيعون كشف الضّرّ عنكم أو تحويله أو تبديله من مكان أو من واحد إلى آخر؟ إنهم لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، فلا يقدرون على ذلك لغيرهم.

وإنما الذي يقدر عليه هو الله وحده لاشريك له، الذي له الخَلْق والأمر. قال ابن عباس: كان أهل الشّرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يُدْعَون، يعني الملائكة والمسيح وعزيراً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ هؤلاء الذين عبدتموهم من دون الله كعزير والمسيح يدعون ربّهم، يقصدون ويطلبون التّوسل إليه والتّقرُّب منه بالطاعات والقربات، ويخصونه بالعبادات، والوسيلة: هي القربة.

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي ويطلب من هو أقرب منهم الوسيلة إلى الله تعالى، فكيف بغير الأقرب؟ أو أن معنى يبتغون الوسيلة: يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله تعالى، وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح، ويرجون رحمة الله ويخافون عذابه كغيرهم من عباد الله، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟

أخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله: «سلوا الله الوسيلة، قالوا: وما الوسيلة؟ قال: القرب من الله، ثم قرأ هذه الآية».

وأما رجاء الرّحمة وخوف العذاب، فلأن العبادة لاتتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يبتعد الإنسان عن المعاصي، وبالرجاء يكثر من الطاعات.

والعلّة في الخوف من العذاب هي كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾ أي إن عذاب ربّك كان مخوّفاً لاأمان لأحد منه، فينبغي أن يحذره

ويخاف من وقوعه وحصوله العباد من الملائكة والأنبياء وغيرهم، فكيف أنتم؟!

ثم أبان الله تعالى مصير الظالمين، فقال:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ أي وما من قرية في علم الله المكتوب عنده في اللوح المحفوظ، من قرى الظالمين بالكفر والمعاصي إلا سيهلكها الله، بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم عذاب استئصال، إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، لاظلماً، وإنما بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾[هود: ١١/١٠١].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ أي كان ذلك حكماً عاماً ثابتاً مسجّلاً في علم الله أو في اللوح المحفوظ. أخرج الترمذي عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله (يقول: «إن أول ماخلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ماأكتب؟ قال: اكتب المقدّر وما هو كائن إلى يوم القيامة».

ثم أوضح الله تعالى سبب عدم تلبية طلبات أهل مكة فقال:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأٓيَٰتِ﴾ أي وما صرفنا عن الإتيان بما يقترحونه من الآيات إلا تكذيب المتقدّمين الأولين بأمثالها، فإن أتينا بها وكذّب بها أهل مكة وأمثالهم، عجّلنا لهم العذاب، ولم يؤخّروا، كما هي سنّة الله في خلقه.

والآيات التي اقترحها أهل مكة -كما بيّنا في سبب النزول - مثل جعل الصّفا ذهباً، وتنحية الجبال عنهم، وجعل أراضيهم صالحة للزراعة.

وأما الآيات التي اقترحها الأولون ثم كذَّبوا بها لما أُرسلت، فأهلكوا جميعاً، مثل ناقة صالح لثمود، فلما عقروها أخذتهم الصيحة، وبقيت آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم، يبصرها الذاهب والعائد كما قال تعالى هنا: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ أي وأعطينا قبيلة ثمود الناقة

حجّة واضحة دالّة على وحدانية من خلقها، وصدق رسوله الذي لبى الله دعاءه فيها. وقوله تعالى: ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي بيِّنة أو ذات إبصار يدركها الناس، وإنما خصّت بالذّكر هنا دون غيرها؛ لأن آثار هلاك ثمود قريبة من بلاد العرب وفي طريقهم. وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي كفروا بها ومنعوها شربها وقتلوها، فأبادهم الله عن آخرهم وانتقم منهم.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي ولا نبعث بالآيات إلا تخويفاً للناس من نزول العذاب العاجل لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، فإن لم يخافوا وقع عليهم.

ذكر ابن كثير أن الكوفة رُجفت (زلزلت) على عهد ابن مسعود رضي الله عنه، فقال: ياأيها الناس، إن ربّكم يستعتبكم فأعتبوه، وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات، فقال عمر: أحدثتم والله، لئن عادت لأفعلنّ ولأفعلنّ، وفي الحديث المتّفق عليه بين الشيخين: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عزّ وجلّ يخوّف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره، ثم قال: يا أمّة محمد، والله ما أحد أغيَر من الله أن يزني عبدُه أو تزني أَمَتُه، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً».

ثم حرَّض الله تعالى رسوله على إبلاغ رسالته، وأخبره بأنه قد عصمه من الناس، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ أي واذكر إذ أوحينا إليك أن الله هو القادر على عباده، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته، وقد عصمك من أعدائك قريش وغيرهم، وأن الله سينصرك عليهم كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٥/ ٦٧] ، وقال مبشّراً بالنّصر في بدر: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٥] ، ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٢] .

ولما بيّن تعالى أن إنزال آيات القرآن تتضمن التّخويف، ذكر آية الإسراء، فقال:

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي وما جعلنا ماأطلعناك عليه ليلة الإسراء إلا اختباراً وامتحاناً للنّاس، لمعرفة المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذِّبين، معرفة ينكشف بها حالهم أمام الناس، لا بالنّسبة إلينا، فنحن على علم سابق بكل ماسيحصل، وقد كذّب بها قوم وكفروا، وصدّق بها آخرون.

ذكر البخاري عن ابن عباس في هذه الآية قال: هي رؤيا عين أُريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به. ويقال في العربية: رأيته بعيني رؤية ورؤيا.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه تقديم وتأخير أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلا فتنةً للناس، أي اختباراً لهم، مثل حادث الإسراء والمعراج. وتلك الشجرة هي شجرة الزّقوم، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٣-٤٤] . وقد اختلف الناس فيها، فمنهم من ازداد إيماناً، فكثير من الأشياء لاتحرقها النار، ومنهم من ازداد كفراً كأبي جهل وعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وقالوا: وما الزَّقُّوم إلا التّمر والزُّبْدُ، فجعلوا يأكلون ويتزقّمون منهما.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ أي ونخوّف الكفار بالوعيد والعذاب والنّكال في الدُّنيا والآخرة، فما يزيدهم التّخويف إلا تمادياً في الطُّغيان وفيما هم فيه من الكفر والضّلال، فكيف يؤمن قوم هذه حالهم بإرسال مايقترحون من الآيات؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

أفهمت الآيات المبادئ والأحكام التالية:

١ً- لايملك أحد غير الله عزّ وجلّ كشف الضّر من فقر أو مرض أو بلاء أو غيره، أو تحويله وتبديله من مكان إلى مكان أو من شخص إلى آخر. وقد تحدّى الله المشركين في مكة بآية ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ﴾ بأن يَدْعوا مايعبدون من دون الله، ويزعمون أنهم آلهة لكشف ماأحدق بهم من قحط سبع سنين.

٢ً- لافائدة ولا جدوى من الاستعانة بغير الله من الآلهة المزعومة، فإن تلك المخلوقات كالملائكة وعيسى وعزير يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرّعون إلى الله تعالى في طلب الجنة. والوسيلة هي القربة.

وهذا إخبار من الله تعالى بأن المعبودين يبتغون القربة إلى ربّهم، فهم بأنفسهم بحاجة إلى ربّهم، فكيف يؤمل منهم الخير ودفع الضّرّ والشّرّ لأتباعهم وعابديهم؟!

٣ً- مامن قرية ظالمة إلا وسيهلكها وأهلَها الله أو يعذّبها عذاباً شديداً قبل مجيء يوم القيامة، فليتّق الله المشركون، فإنه مامن قرية كافرة إلا سيحلّ بها العذاب، قال ابن مسعود: إذا ظهر الزّنى والرّبا في قرية أذن الله في هلاكهم. ولا يكون الإهلاك إلا بظلم من الناس، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٢٨/٥٩] .

٤ً- لامانع يمنع الله سبحانه من الإرسال بالآيات التي اقترحها مشركو مكة إلا أن يكذّبوا بها، فيهلكوا كما فُعل بمن كان قبلهم، لذا أخّر الله تعالى العذاب عن كفار قريش، لعلمه أن فيهم من يؤمن، وفيهم من يولد مؤمناً.

٥ً- كان إيتاء ثمود الناقة آية دالّة مضيئة نيّرة على صدق صالح عليه السّلام، وعلى قدرة الله تعالى. ولما ظلموا أنفسهم بتكذيبها، أو جحدوا بها، وكفروا بأنها من عند الله تعالى، استأصلهم الله بالعذاب.

٦ً- لايكون الإرسال بآيات الانتقام إلا تخويفاً من المعاصي والكفر.

٧- بشّر الله نبيّه عليه الصّلاة والسّلام بأنه أحاط بالناس، أي أهل مكة، وإحاطته بهم: إهلاكه إياهم، أو أحاطت قدرته بجميع الناس، فهم في قبضته لايقدرون على الخروج من مشيئته.

٨- إن آية الإسراء وشجرة الزّقّوم اختبار للناس وامتحان لهم، ليكفر من سبق عليه الكفر، ويصدّق من سبق له الإيمان.

والثابت والأصح أن حادث الإسراء رؤيا عين أُريها النّبي ﷺ ليلة أُسري به إلى بيت المقدس.

والشجرة الملعونة هي شجرة الزّقّوم، وهي في أبعد مكان من الرّحمة.

والله تعالى يخوف المشركين وغيرهم بالزّقوم، فما يزيدهم التّخويف إلا الكفر.

قصة آدم مع إبليس - أمر الملائكة بالسّجود

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

القراءات:

﴿أَرَءَيْتَكَ﴾:

وقرأ الكسائي (أَريْتك).

﴿وَرَجِلِكَ﴾ :

قرأ حفص (وَرَجِلِكَ).

وقرأ الباقون (وَرَجْلِكَ).

الإعراب:

﴿لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ : ﴿طِينًا﴾ : إما تميز منصوب، أو حال من هاء ﴿خَلَقْتَ﴾ المحذوفة، وإما منصوب بحذف حرف الجرّ (منصوب بنزع الخافض)، وتقديره: خلقت من طين، فلما حذف حرف الجرّ، اتّصل الفعل به، فنصبه.

﴿لَئِنْ﴾ اللام: لام القسم .﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا﴾ الكاف لتأكيد الخطاب، لا محل له من الإعراب، وهذا مفعول به أول، و﴿ٱلَّذِى﴾ صفته. والمفعول الثاني محذوف، لدلالة صلته عليه، أي أخبرني عن هذا الذي كرمته علي بأمري بالسّجود له، لِمَ كرمته علي.

﴿جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾ منصوب على المصدر بإضمار فعله، أو حال موطئة لقوله تعالى: ﴿مَّوْفُورًا﴾.

البلاغة:

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ استعارة تمثيلية، شبَّه حال الشيطان في تسلُّطه على الغاوين بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء، للغلبة عليهم.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ واذكر حين قلنا .﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود تحيّة بالانحناء

﴿ءَأَسۡجُدُ﴾ استفهام إنكار وتعجُّب. ﴿أَرَءَيۡتَكَ﴾ أخبرني. ﴿كَرَّمۡتَ﴾ فضَّلت. ﴿عَلَيَّ﴾ بالأمر بالسّجود له، وأنا خير منه، خلقتني من نار. ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥ﴾ لأستأصلنّهم بالإغواء إلا قليلاً، لاأقدر أن أقاوم شكيمتهم، كأنه أصبح يملكهم. والظاهر أنه قال ذلك قبل أكل آدم من الشجرة. ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ منهم، ممن عصمته.

﴿قَالَ﴾ تعالى له. ﴿ٱذۡهَبۡ﴾ امضِ لشأنك، منظَراً إلى وقت النّفخة الأولى، فقد خلّيتك وما سولت لك نفسك. ﴿جَزَآءٗ مَّوۡفُورٗا﴾ وافراً كاملاً. ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ﴾ واستخف وأزعج. ﴿بِصَوۡتِكَ﴾ بدعائك إلى معصية الله أو الفساد. ﴿وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم﴾ وصِحْ عليهم، من الْجَلَبَة: وهي الصياح. ﴿بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ وهم الفرسان الركاب، والمشاة في المعاصي. ﴿وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ﴾ المحرمة كالرِّبا والغصب. ﴿وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ من الزّنى. ﴿وَعِدۡهُمۡۚ﴾ بأن لابعث ولا جزاء، وغير ذلك من المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة، والاتّكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة لطول الأمل. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بذلك. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ باطلاً. وهو اعتراض لبيان مواعيده، والغرور: تزيين الخطأ أو الباطل بما يوهم أنه صواب أو حقّ.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين المخلصين. ﴿سُلۡطَٰنٞۚ﴾ تسلُّط وقوة على إغوائهم. ﴿وَكِيلٗا﴾ حافظاً لهم منك، ورقيباً، فهم يتوكَّلون على الله في الاستعاذة منك على الحقيقة.

المناسبة:

مناسبة هذه الآية لما قبلها من وجهين:

أحدهما: عقد مشابهة بين محنة النَّبي ﷺ ومحنة آدم عليه السّلام من إبليس، فلما نازع المشركون النَّبي ﷺ في النّبوة، وكذَّبوه حين أخبرهم عن الإسراء وشجرة الزَّقُّوم، واقترحوا عليه الآيات، كبراً منهم وحسداً له على النّبوة،

ناسب ذكر قصة آدم عليه السّلام وإبليس، حيث حمله الكبر والحسد على الامتناع من السجود، فالحسد داء قديم.

والثاني: أنه لما قال تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ بيّن ماسبب هذا الطغيان، وهو قول إبليس: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هذا.. وقد ذكرت قصة آدم في سبع سور: البقرة، الأعراف، الحجر، الإسراء، الكهف، طه، ص.

التفسير والبيان:

واذكر أيّها الرسول للنّاس عداوة إبليس لآدم وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خُلِق آدم، والدليل أنه تعالى أمر الملائكة بالسّجود لآدم سجود تحيّة ومحبّة وتكريم، لاسجود عبادة وخضوع، فسجدوا كلّهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له، افتخاراً عليه واحتقاراً له، قائلاً: أأسجد له وهو طين، وأنا مخلوق من النار، كما أخبر تعالى عنه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٧٦] .

وقال هنا جرأةً وكفراً: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ أي أخبرني عن هذا الذي فضّلته: لِمَ كرَّمته علي، وأنا خير منه؟ فإنه نسب الجور إلى ربّه في زعمه أنه أفضل من آدم بسبب عنصر الخلق، فإن عنصر النار أسمى وأرفع، وعنصر الطين أدنى وأقرب للخمول، والحقيقة أن العناصر كلها من جنس واحد، أوجدها الله، بل إن الطين أنفع من النار، فبالأول البناء والعمران، وبالثاني الخراب والهدم والدّمار.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي قسماً لئن أبقيتني إلى يوم القيامة لأستأصلنّ ذريته بالإغواء، ولأستولينّ عليهم بالإضلال جميعاً، أو لأُضلنّ ذريته إلا قليلاً منهم، وهم العباد المخلصون

الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٢] ، أي إن عبادي الصالحين لاتقدر أن تغويهم.

فأجابه الله إلى طلبه حين سأل التأخير وأخّره:

﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي امض لشأنك الذي اخترته لنفسك خذلاناً وتخليةً، فمن أطاعك واتَّبعك منهم، فإن جهنم مقرّكم ومأواكم وجزاؤكم جميعاً تجازون فيها جزاءً وافراً أو موفراً أي محفوظاً كاملاً لاينقص لكم منه شيء، ونظير الآية: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ، إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٣٧-٣٨] .

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ أي استخف واستنفر بدعوتك إلى معصية الله، بكلّ ماأوتيت من قوة وإغراء ووسوسة، وصوته: دعاؤه إلى معصية الله تعالى.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي واجمع عليهم جندك فرساناً ومشاةً، وهذا تمثيل، والمراد به: تسلّط عليهم بكلّ ماتقدر عليه، واجمع لهم كلّ مكايدك، ولا تدّخر وسعاً في إغوائهم، مستخدماً كلّ الأتباع والأعوان.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي بتحريضهم على كسب الأموال وإنفاقها في معاصي الله تعالى من ربا وسرقة وغصب وغش وخديعة، وعلى إنجاب الأولاد بالزّنى أو التّخلّص منهم بالقتل أو الوأد أو إدخالهم في غير الدّين الذي ارتضاه الله تعالى، وغير ذلك من تسميات غير شرعية، وتجاوز حدود الشّرع في الزّواج والطّلاق والرّضاع والنّسب والنّفقة وغيرها.

﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي عدهم المواعيد الكاذبة الباطلة من شفاعة الآلهة المزعومة، والكرامة على الله بالأنساب الشريفة، أو بالتّسويف في التوبة ومغفرة الذّنوب بدونها، والاتّكال على الرّحمة، وشفاعة

الرّسول في الكبائر، وإيثار العاجل على الآجل، وألا جنّة ولا نار، ونحو ذلك، مما سيظهر بطلانه حينما يقول إبليس يوم القضاء بالحقّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٢] .

وقوله تعالى هنا:

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي لايعدهم الشيطان إلا كذباً وباطلاً وإظهاراً للباطل في صورة الحقّ، فمواعيده كلها خُدعة وتزيين كاذب، وهذه الأوامر للشيطان واردة على سبيل التّهديد والخذلان والتّخلية، كما يقال للعصاة: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/٤٠] .

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي إن عبادي المخلصين الصالحين لاتقدر أن تغويهم، فهم محفوظون محروسون من الشيطان الرّجيم.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أي كفى بالله حافظاً ومؤيّداً ونصيراً للمؤمنين الصالحين المتوكّلين عليه، الذين يستعينون به على التّخلُّص من وساوس الشيطان.

وهذا دليل على أن المعصوم من عصمه الله، وأن الإنسان بحاجة إلى عون الله جلّ جلاله.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على مايلي:

١- إن تمادي المشركين وعتوهم على ربّهم يذكّر بقصة إبليس حين عصى ربَّه وأبى السّجود، وقال: إن آدم من طين، وهو من نار، وجوهر النار خير من جوهر الطين، مع أن الجواهر متماثلة، وقال مخاطباً ربَّه: أخبرني عن هذا الذي فضَّلته عليّ، لِمَ فضَّلته؟ وقال أيضاً متحدِّياً: لأستأصلنّ ذرية آدم بالإغواء والإضلال،

ولأجتاحنَّهم ولأُضلنَّهم إلا القليل المعصومين منهم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٢].

وإنما قال إبليس ذلك ظنّاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٣٤/ ٢٠]، أو علم من طبع البشر تركب الشهوة فيهم، أو بنى كلامه على قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٢/ ٣٠].

والظاهر أن المأمور بالسجود لآدم هم جميع الملائكة في الأرض والسماء، وسجد الملائكة لآدم من أول ماكملت حياته.

٢- كان جواب الحقّ تبارك وتعالى في غاية الإهانة والتّحقير، فقال له: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ﴾ الآية، أي اجهد جهدك فقد أنظرناك، فمن أطاعك من ذرية آدم، فجزاؤكم جميعاً جهنم.

واستزلّ واستخفّ بدعوتك إلى معصية الله تعالى، واجمع عليهم كل ماتقدر عليه من مكايدك، واجعل لنفسك شركة في الأموال بإنفاقها في معصية، وفي الأولاد بجعلهم أولاد الزّنى، وعدهم الأماني الكاذبة، وأنه لاقيامة ولا حساب.

ولكن عبادي المؤمنين الصالحين لاسلطان ولا تسلُّط لك عليهم. وكفى بالله عاصماً من القبول من دعاوى إبليس، وحافظاً من كيده وسوء مكره.

٣- قال القرطبي: دلّت آية ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ على تحريم المزامير والغناء واللهو؛ لأن صوته: كلُّ داعٍ يدعو إلى معصية الله تعالى، وكلّ ماكان من صوت الشيطان أو فعله وما يستحسنه فواجب التّنزه عنه. وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمَّارة، فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول: يانافع، أتسمع؟ فأقول: نعم، فمضى

حتى قلت له: لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله ﷺ سمع صوت زمّارة راعٍ، فصنع مثل هذا[1].

بعض نِعَم اللَّه تعالى على الإنسان

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَخْسِفَ﴾، ﴿يُرْسِلَ﴾، ﴿يُعِيدَكُمْ﴾، ﴿فَيُرْسِلَ﴾، ﴿فَيُغْرِقَكُم﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (نخسف، نرسل، نعيدكم، فنرسل، فَنُغرقكم).

الإعراب:

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ﴾ ﴿بِكُمْ﴾ حال أو صلة ليخسف. ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الظاهر أنه استثناء منقطع؛ لأنه لم يندرج في قوله: ﴿مَن تَدْعُونَ﴾ إذ المعنى: ضلت آلهتهم أي معبوداتهم، وهم لايعبدون الله.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٢٩٠

البلاغة:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ تذييل كالتعليل لما سبق من تسيير السفن بقصد التجارة وطلب الرزق.

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كالتعليل للإعراض عن الإيمان والتوحيد.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف، تقديره: أنجوتم فأمنتم، فحملكم ذلك على الإعراض.

المفردات اللغوية:

﴿يُزۡجِي﴾ يجري ويسيّر، والأصل فيه أنه يسوق حيناً بعد حين. ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفن. ﴿لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ تطلبوا من فضله تعالى بالتجارة و﴿فَضۡلِهِۦٓ﴾: هو رزقه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾ في تسخيرها لكم، وتهيئة ماتحتاجون إليه، وتسهيل ماتعسر من الأسباب. ﴿ٱلضُّرُّ﴾ الشدة أو خوف الغرق بتقاذف الأمواج. ﴿ضَلَّ﴾ غاب عنكم وعن ذاكرتكم. ﴿مَن تَدۡعُونَ﴾ تعبدون من الآلهة، فلا تدعونه ﴿إِلَّآ إِيَّاهُۖ﴾ تعالى، فإنكم تدعونه وحده؛ لأنكم في شدة لايكشفها إلا هو. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ﴾ من الغرق. ﴿أَعۡرَضۡتُمۡۚ﴾ عن الإيمان والتوحيد ﴿كَفُورًا﴾ جحوداً للنعم، والمراد بالإنسان الكفار.

﴿أَفَأَمِنتُمۡ﴾ أي أنجوتم فأمنتم، فأعرضتم، فإن من قدر أن يهلككم في البحر بالغرق، قادر أن يهلككم في البر بالخسف وغيره. ﴿أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ﴾ أي يقلبه الله وأنتم عليه، أو يقلبه بسببكم، كما فعل بقارون، والخسف: انهيار الأرض. وفي ذكر الجانب تنبيه على أنهم لما وصلوا الساحل، كفروا وأعرضوا، وأن الجوانب والجهات في قدرته سواء، لامعقل يؤمن فيه من أسباب الهلاك.

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ أي يرميكم بالحصباء والحجارة كقوم لوط،

والمراد: الريح الشديدة الحاصبة، وهي التي ترمي بالحصى الصغيرة. ﴿وَكِيلًا﴾ حافظاً منه .﴿أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ في البحر .﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة ثانية .﴿قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾ أي ريحاً شديدة لاتمر بشيء إلا قصفته فهي تكسر الشجر وغيره.

والخلاصة: إن الحاصب: الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء، والقاصف: الريح التي تقصف الشجر وغيره وتكسره أو هي الريح الشديدة الصوت .﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بكفركم .﴿تَبِيعًا﴾ ناصراً ومعيناً وتابعاً يطالبنا بما فعلنا بكم.

﴿كَرَّمْنَا﴾ فضلنا .﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ بحسن الصورة والمزاج الأعدل واعتدال القامة، والتمييز بالعقل والعلم، والإفهام بالنطق والإشارة، والاهتداء إلى أسباب المعاش والمعاد، والتسلط على مافي الأرض، والتمكن من الصناعات، والطهارة بعد الموت، أي إن التكريم بالخلق في أحسن تقويم، وبالعقل أداة العلم والمعرفة والتقدم والتمدن .﴿وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ﴾ أركبناهم في الماضي والحاضر على الدواب، وفي الحاضر على السيارات والطائرات ونحوها .﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ على السفن .﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ المستلذات .﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ كالبهائم والوحوش، ومن: بمعنى ما، أو بمعناها الأصلي وتشمل الملائكة، والمراد تفضيل الجنس، ولا يلزم منه تفضيل أفراده، إذ الملائكة أفضل من البشر غير الأنبياء. والمراد: فضلناهم بالغلبة والاستيلاء، أو بالشرف والكرامة.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى وصف المشركين في اعتقادهم آلهتهم، وأنها تضر وتنفع، وأتبع ذلك بقصة إبليس مع آدم، وتمكينه من وسوسة ذريته، ذكر مايدل من أفعاله على وحدانيته، وأنه هو النافع الضارّ، المتصرف في خلقه بما

يشاء، وتلك المخلوقات هي نعم إلهية على الإنسان، سواء في البر والبحر، ودلائل القدرة الإلهية، فهو تعالى الذي يزجي الفلك في البحر، وينجي من الغرق، ومن تمام نعمته: تكريم الناس ورزقهم وتفضيلهم على جميع الخلق، مما يستوجب الإفراد بالعبادة.

التفسير والبيان:

ربكم اللطيف بعباده هو الذي يوفر مصالح خلقه ويسهل لهم سبل الحياة، فيجري ويسيّر لكم السفن في البحر بمختلف القوى كالريح أو الطاقة البخارية أو الكهربائية أو الذرية، لنقل الأشخاص للسياحة أو للارتزاق بين بلاد الدنيا، ونقل البضائع والسلع التجارية من إقليم إلى إقليم، وطلب الرزق من فضل الله، إنه كان بكم رحيماً، أي إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم.

ومن رحمته تعالى وفضله ماأخبر به: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ أي وإذا أصابكم أيها الناس ضر أو شدة وجهد في البحر، ذهب عن تصوراتكم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم وتعبدونه من دون الله من صنم أو ملك أو بشر إلا إياه سبحانه، فلا تتذكرون إلا الله، ولا تلجؤون لسواه لكشف الضر عنكم.

وذلك كما حدث لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارّاً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، وركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتها ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لايغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لاينفع في البحر غيره، فإنه لاينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي فلما أمنتم وأنقذكم، وأوصلكم إلى شاطئ البر والسلامة، واستجاب دعاءكم، أعرضتم، أي نسيتم ماعرفتم من توحيده في البحر، وأعرضتم عن دعائه، وعُدْتم إلى الإشراك به.

وعلة ذلك ماقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أي وكانت سجية الإنسان وطبعه أن ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله تعالى.

ثم ناقشهم تعالى محذراً من جحود النعمة فقال:

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أي أفحسبتم بخروجكم إلى البر أنكم أمنتم من انتقام الله وعذابه، بأن يخسف بكم جانب البر الذي تقطنون فيه بتغييبه في باطن الأرض، أو أن يرسل عليكم حاصباً، وهو المطر الذي فيه حجارة من السماء أو الريح التي تحصب أي ترمي بالحصباء وهي الحصى الصغار، كما فعل بقوم لوط ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أي لا تجدون بعدئذ ناصراً تكِلون إليه أموركم، وينقذكم منه، ومن يتوكل بصرف ذلك عنكم؟! وجانب البر: ناحية الأرض.

والحاصب أخبر تعالى عنه في آيات، مثل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤)﴾ [القمر: ٥٤/ ٣٤] ومثل ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٤] .

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾ أي أم أمنتم أيها المعرضون عنا، بعدما اعترفتم في البحر بتوحيدنا، وخرجتم إلى البر، أن يعيدكم في البحر مرة ثانية، فيرسل عليكم وأنتم راكبون في السفن ريحاً قاصفاً تقصف السواري، وتغرق المراكب، فالقاصف: ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها، ولها قصيف أي صوت شديد، كأنها تتقصف أي تتكسر.

﴿فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي نفعل مانفعل بكم، ثم لاتجدوا أحداً يطالبنا بما فعلنا، انتصاراً منا، ودَرْكاً للثأر من جهتنا، أي لاتجدوا أحداً يأخذ بثأركم بعدكم. وقوله ﴿تَبِيعًا﴾ أي نصيراً يأخذ بالثأر، أو يطالب بالحق. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ٩١/ ١٥]. وفي قوله وعيد شديد وتهديد بسوء العاقبة.

ومن تمام نعمة الله وفضله ورحمته تكريم الإنسان في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ أي ولقد كرمنا بني آدم، أي جعلنا لهم كرماً أي شرفاً وفضلاً[(١)]، بخلقهم على أحسن صورة وهيئة، ومنحناهم السمع والبصر والفؤاد للفقه والفهم، وجملناهم وميزناهم بالعقل الذي يدركون به حقائق الأشياء، ويهتدون به إلى الصناعات والزراعات والتجارات، ومعرفة اللغات، ويفكرون في اكتشاف خيرات الأرض، والإفادة من الطاقات، وتسخير ما في العالم العلوي والسفلي، وما في الكون من وسائل النقل وأسباب الحياة والمعيشة، والتمييز بين الأشياء وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية.

وحملناهم في البر على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفي الوقت الحاضر على القطارات والطائرات وغيرها، وفي البحر أيضاً على السفن الكبيرة والصغيرة، وهو حمل لايصح لغير بني آدم بإرادته وقصده وتدبيره.

ورزقناهم من الطيبات، أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة.

والخلاصة: إن الطيبات هي لذيذ المطاعم والمشارب، وتشمل تبعاً سائر أنواع الزينة المستطابة.

---

(١) وهذا كرم نفي النقصان، لا كرم المال.

وفضلناهم على كثير ممن خلقنا وهو ما سوى الملائكة، أو فضلناهم على أصناف المخلوقات وسائر أنواع الحيوانات بالغلبة والاستيلاء والحفظ والتمييز والثواب والجزاء.

وعلى التفسير الثاني استدل بهذه الآية الكريمة كما ذكر ابن كثير على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، روى الطبراني عن عبد الله بن عمرو، وعبد الرزاق عن زيد بن أسلم موقوفاً، وابن عساكر عن أنس بن مالك مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبّح بحمدك، ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا، فاجعل لنا الآخرة، قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فيكون». وقد عرفنا أن الحق تفضيل الملائكة على البشر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً - لله تعالى على الإنسان أفضال ونِعَم كثيرة غير الرزق والحياة، منها تسخير السفن في البحار، لركوب الركاب وتيسير وسائل المواصلات ونقل التجارات، مما يقتضي شكر تلك النعم، وعدم الإشراك به شيئاً آخر.

٢ً - من نعمه تعالى ورحمته إنقاذ الإنسان من مخاطر البحر وأهواله أثناء هياجه واضطرابه، فلا يجد المضطر ملجأ غير الله يلجأ إليه لكشف الضر عنه. وكل واحد يعلم بالفطرة علماً يقينياً أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام.

لكن الإنسان ظلوم كفار للنعم إلا من عصمه الله، والمراد بالإنسان في قوله: ﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ هو الجنس الشامل للمؤمن والكافر.

والله قادر على إهلاك الناس في البر، وإن سلموا من البحر، ولن يجدوا من دون الله حافظاً ونصيراً يمنع من بأس الله، والله تعالى إما أن يهلك الناس بالزلزال (خسف جانب من الأرض) أو بإرسال ريح شديدة وهي التي ترمي بالحصباء.

وإذا تم الإنجاء من الغرق، فربما يعود الإنسان إلى ركوب البحر، فيتم الإغراق بقاصف من الريح: وهو الريح الشديدة التي تَكْسر بشدة، بسبب الكفر والضلال، دون أن يجد الناس من يثأر لهم أو يوجد نصير يطلب لهم بثأر أو غيره.

٣ً- ومن نعم الله تعالى الجليلة على الإنسان: الأشياء الأربعة التي بها فضل الإنسان على غيره: وهي تكريم بني آدم بخلقهم في أحسن تقويم وبالعقل والتفكير، والحمل في البر على الخيل والبغال والحمير والإبل وغيرها من الوسائل الحديثة، وفي البحر على السفن، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات، لا على الكل.

والفرق بين التكريم والتفضيل: أن الأول يكون بالأمور الخَلْقية الطبيعية الذاتية مثل العقل والنطق والتخطيط والصورة الحسنة والقامة المديدة، والثاني يكون بتمكينه بالعقل والفهم من اكتساب العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة[١]

وهل الإنسان أفضل أو الملائكة؟

يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل العكس، ويحتمل التساوي، وليس في الآية نص على التفضيل بين الصنفين، كالآية التي تصرح بتفضيل بعض الأنبياء على بعض.

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/١٦

فقال بعض العلماء بتفضيل المؤمنين على الملائكة، محتجين بالحديث المتقدم عن عبد الله بن عمرو أو أنس أو زيد بن أسلم، وبما قال أبو هريرة: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده».

وقال آخرون بأن الملائكة أفضل من البشر على الإطلاق، عملاً بهذه الآية، وهو دليل الخطاب: وهو أن تخصيص الكثير بالذكر يدل على أن الحال في القليل بالضد.

والظاهر هو الرأي الثاني، فإن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ هو ما سوى الملائكة، قال الزمخشري: وحسب بني آدم تفضيلاً أن ترفع عليهم الملائكة ذوو المنزلة العالية عند الله[1].

أحوال الناس مع قادتهم يوم القيامة

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

الإعراب:

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: ظرف منصوب متعلق بفعل دل عليه: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ فكأنه قال: لا يظلمون فتيلاً يوم ندعو كل أناس بإمامهم، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿نَدْعُوا﴾ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل فيما قبله وهو المضاف، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿فَضَّلْنَا﴾ في الآية المتقدمة؛ لأن الماضي لا يعمل في المستقبل.

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٤٠

وباء ﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ متعلقة بـ ﴿نَدۡعُواْ﴾؛ لأن كل إنسان يُدعى بإمامه يوم القيامة، أو متعلقة بمحذوف في موضع الحال، أي يوم ندعو كل أناس مختلطين بإمامهم.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ﴾ هو من عَمَى القلب، ولو كان من عَمَى العين، لقال: فهو في الآخرة أشد عمى؛ لأن عمى العين شيء ثابت كاليد والرجل، فلا يتعجب منه إلا بأشد أو نحوه من الثلاثي. وأفعل: الذي للتفضيل يجري مجرى التعجب.

البلاغة:

﴿كُلَّ أُنَاسِۭ بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ استعارة، استعار الإمام الذين يتقدم الناس في الصلاة لكتاب الأعمال، لملازمته الإنسان وتقدمه يوم القيامة.

﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلٗا﴾ استعارة تمثيلية، أي لا ينقصون من ثواب أجورهم ولو بمقدار خيط شق النواة، وهو مثل للقلة.

﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ﴾ ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ﴾ تفصيل بعد إجمال، بعد ذكر كتاب الأعمال.

المفردات اللغوية:

﴿يَوۡمَ نَدۡعُواْ﴾ اذكر يوم ندعو، وهو يوم القيامة. ﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾ بمن ائتموا به من نبي أو مقدم في الدين، أو كتاب، أو دين، فيقال: يا أتباع فلان، يا أهل دين كذا، وكتاب كذا. وقيل: بكتاب أعمالهم، فيقال: يا أصحاب كتاب الخير، ويا أصحاب كتاب الشر، كقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ [يس: ٣٦/١٢] ﴿فَمَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ أي فمن أوتي منهم كتابه بيمينه، وهم السعداء أولو البصائر في الدنيا. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقۡرَءُونَ﴾ قيل أولئك؛ لأن من أوتي في معنى الجمع، وخص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم

لشعورهم بالسعادة، فهم يقرؤون كتابهم أحسن قراءة وأبينها ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم، حتى يقول القارئ لأهل المحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩/٦٩] وأما أصحاب الشمال فكأنهم لا يقرؤون كتابهم، لعجزهم عن النطق السوي والقول الصحيح، بسبب ما ينتابهم أمام العقاب من حياء وخجل وانخزال وحبس لسان وتعتعة.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ ولا ينقصون من ثواب أعمالهم أدنى شيء، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٠] ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ٢٠/١١٢] والفتيل: الخيط المستطيل في شَقِّ النواة. وهو يضرب به المثل في الشيء الحقير التافة القليل، ومثله: النقير والقطمير.

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي ومن كان في الدنيا أعمى فليس المراد بالعمى الحقيقة، وإنما المجاز هو عمى البصيرة، فقد استعير الأعمى لأعمى القلب أو البصيرة عن حجة الله وبيناته، أو من لا يهتدي إلى طريق النجاة، وهو دليل على وقوع المجاز في القرآن .﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أبعد طريقاً عنه.

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى أنواعاً من كرامات الإنسان وأفضاله عليه في الدنيا، ذكر شيئاً من أحوال الآخرة وما فيها من تفاوت شديد بين أهل السعادة وأهل الضلال والانحراف عن معالم الهدى الإلهي وأنه تعالى يحاسب كل أمة بإمامهم، أي بنبيهم فيقال: يا أمة إبراهيم، يا أمة موسى، يا أمة عيسى، يا أمة محمد؛ أو بكتابهم الذي أنزل على نبيهم؛ أو بكتبهم التي فيها رصد أعمالهم، وهو الأرجح.

التفسير والبيان:

اذكر يا محمد ذلك اليوم الذي نحاسب فيه كل أمة بإمامهم أي بكتاب

أعمالهم، وهو القول الأرجح كما ذكر ابن كثير؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٣٦/ ١٢] وقوله سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٩] فالكتاب يسمى إماماً لأنه يُرجع إليه في تعرّف أعمالهم.

ويحتمل أن المراد ﴿بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أي بقائدهم الذي يأتمون به، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٨/ ٤١] . إلا أن الراجح هو ما ذكر ابن كثير، بدليل قوله تعالى بعده:

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ أي فمن أعطي من هؤلاء المدعوين كتابه بيمينه، فأولئك يقرؤونه بفرح وسرور بما فيه من العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٩] .

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، والفتيل: هو الخيط المستطيل في شق النواة، ونحو الآية: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ١٩/ ٦٠] وآية ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٢] .

أخرج الترمذي والحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم، فيعطى كتابه بيمينه، ويُمَدُّ له في جسمه، ويُبَيَّض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فيسودُّ وجهُه، ويُمَدُّ له في جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من هذا أو من شر هذا، اللهم لا تأتنا به، فيأتيهم فيقولون: اللهم أخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإن لكل رجل منكم مثل هذا».

وعاقبة الحساب معروفة في الدنيا قبل الآخرة، فقال سبحانه:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ أي ومن كان في الحياة الدنيا أعمى عن حجج الله وبيناته وآياته التي أبانها في الكون، فهو يكون كذلك أعمى في الآخرة، لا يجد طريق النجاة، بل وأضل سبيلاً من الأعمى في الدنيا. وليس المراد بالأعمى عمى البصر، بل المراد منه عمى القلب.

والأعمى مستعار لمن لا يهتدي إلى طريق النجاة، أما في الدنيا فلفقد النظر، وأما في الآخرة فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيتان إلى ما يلي:

١ - الحساب بين الخلائق يوم القيامة يكون مدعماً بالوثائق والمستندات، فكل إنسان يدعى للحساب بكتابه الذي فيه عمله، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٢٨].

والدعوة تكون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، خلافاً لمن قال كمحمد ابن كعب أن الدعوة تكون بأسماء أمهاتهم؛ لأن في ذلك ستراً على آبائهم، بدليل حديث الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، فيقال: هذه غَدْرة فلان ابن فلان» فقوله: «هذه غَدْرة فلان بن فلان» دليل على أن الدعوة تكون بأسماء الآباء لا بأسماء الأمهات.

٢ - ليس هناك فرحة بعد أهوال الحساب أشد وأغبط للنفس من فرحة تَلَقِّي الكتاب باليمين؛ لأنه دليل النجاة والفوز والسعادة الأبدية، فاللهم اجعلنا من أهل اليمين.

٣ - إن الأعمى في الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق والاستدلال بآيات الله في الكون الدالة على وجوده ووحدانيته هو في الآخرة أعمى، وأضل سبيلاً، لا يهتدي إلى طريق النجاة، ولا يجد طريقاً إلى الهداية، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ٢٠/ ١٢٤] وقال سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٧].

محاولة المشركين فتنة النبي ﷺ وطرده من مكة

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

القراءات:

﴿خِلَـٰفَكَ﴾: قرئ:

١- (خِلافك) وهي قراءة ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (خلفك) وهي قراءة الباقين.

﴿رُّسُلِنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

الإعراب:

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ ﴿وَإِن﴾: مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة، وكذلك في قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ﴾ ﴿سُنَّةَ﴾: منصوب على المصدر المؤكد لما قبله، والتقدير: أهلكناهم إهلاكاً مثل سنة من قد أرسلنا قبلك، أو سن الله ذلك سنة، فحذف المصدر وصفته، وأقيم ما أضيفت إليه الصفة مقامه.

البلاغة:

﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ قاربوا. ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ ليستنزلونك وليخدعونك في ظنهم، لا أنهم قاربوا ذلك، إذ هو معصوم ﷺ أن يقاربوا فتنته عما أوحي الله إليه. ﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من الأحكام. ﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ غير ما أوحينا إليك. ﴿وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي لو فعلت ذلك، واتبعت مرادهم لاتخذوك بافتتانك ولياً لهم، بريئاً من ولايتي.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتنا إياك على الحق بالعصمة. ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ لقاربت أن تميل إلى اتباع مرادهم اتباعاً قليلاً، لشدة احتيالهم وإلحاحهم، ولكن أدركتك عصمتنا، فمنعت أن تقرب من الركون، فضلاً عن أن تركن إليهم. وهو صريح في أنه ﷺ لم يركن إليهم ولا قارب ولا هَمَّ بإجابتهم، مع قوة الداعي إليها، وهو دليل أيضاً على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ﴾ أي لو قاربت لأذقناك. ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة، أي مثلي ما يعذب غيرك في الدنيا والآخرة. ﴿نَصِيرًا﴾ مانعاً منه، يدفع العذاب عنك.

﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ليزعجونك ويثيرونك بمعاداتهم ومكرهم لإخراجك من أرض مكة، وقال السيوطي: أرض المدينة. قال قتادة: هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك، ما أمهلوا، ولكن الله تعالى منعهم من الخروج، حتى أمره بالخروج[1]. ﴿وَإِذًا﴾ لو أخرجوك. ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ لا يمكثون أو لا يبقون فيها بعدك أي بعد خروجك. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا زماناً قليلاً، ثم يُهلكون.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي سنتنا بك سنة الرسل قبلك، أي كسنتنا فيهم من إهلاك من أخرجهم. ﴿تَحْوِيلًا﴾ أي تبديلاً وتغييراً.

سبب النزول:

نزول الآية (٧٣):

﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم وابن إسحاق وغيرهم عن ابن عباس قال: خرج أُمية بن خَلَف، وأبو جهل بن هشام، ورجال من قريش، فأتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، تعالَ تمسّح بآلهتنا، وندخل معك في دينك، وكان يحب إسلام قومه، فرقَّ لهم، فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿نَصِيرًا﴾.

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان الأنصاري عن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر، فقالوا: لا ندعك تستلم حتى تلم بآلهتنا، فحدَّث نفسه وقال: ما علي أن أُلمَّ بها بعد أن يَدَعوني أستلم الحجر، والله يعلم، إني لها كاره، فأبى الله ذلك، وأنزل عليه هذه الآية. وأخرج نحوه عن ابن شهاب الزهري.

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/٢٣

وقيل: نزلت الآية في ثقيف وقد سألوه ﷺ أن يحرِّم واديهم، وألحوا عليه.

نزول الآية (٧٦):

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عبد الرحمن بن غنم: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: إن كنت نبياً فالحق بالشام، فإن الشام أرض المحشر، وأرض الأنبياء، فصدّق رسول الله ﷺ ما قالوا، فغزا غزوة تبوك يريد الشام، فلما بلغ تبوك، أنزل الله آيات من سورة بني إسرائيل، بعدما ختمت السورة: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ وأمره بالرجوع إلى المدينة، وقال له جبريل: سل ربك، فإن لكل نبي مسألة، فقال: ما تأمرني أن أسأل قال: قل: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٠] فهؤلاء نزلن في رجعته من تبوك. قال السيوطي: هذا مرسل ضعيف الإسناد، وله شاهد من مرسل سعيد بن جبير عند ابن أبي حاتم، ولفظه: قال المشركون للنبي ﷺ: كانت الأنبياء تسكن الشام، فمالك وللمدينة؟ فهَمَّ أن يشخَصَ، فنزلت. وله طريق أخرى مرسلة عند ابن جرير: أن بعض اليهود قال له. والمراد أن هذه الروايات يقوي بعضها بعضاً، فتصبح مقبولة، أي إن هذه الآية نزلت لما قال اليهود للنبي ﷺ: إن كنت نبياً، فالحق بالشام فإنها أرض الأنبياء. روي أنه لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين» .

المناسبة:

لما عدّد الله تعالى نعمه على بني آدم، وذكر حالهم في الآخرة من إيتاء الكتاب باليمين لأهل السعادة، ومن عَمَى أهل الشقاوة، أتبع ذلك بما يهمّ به الأشقياء في الدنيا من المكر والخداع والتلبيس على النبي ﷺ سيد أهل السعادة، المقطوع له بالعصمة.

وسبب هذه المساومات والخديعات: رجاؤهم أن يفتري على الله غير ما أوحى الله إليه من تبديل الوعد وعيداً، وبالعكس، وما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزل عليه.

التفسير والبيان:

المعنى وإن همَّ المشركون وقاربوا بمكائدهم وخداعهم أن يصرفوك عما أوحينا إليك من الشرائع والأحكام من أوامر ونواه ووعد ووعيد، لتفتري علينا غير الذي أوحيناه إليك، وتتقول علينا مالم نقل، وتخترع غيره وتبدل فيه كما أرادوا من تبديل الوعد وعيداً، والوعيد وعداً، وما اقترحته ثقيف من أن تضيف إلى الله مالم ينزل عليك.

﴿وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ أي وحينئذ لو اتبعت ما يريدون، وفعلت ما يطلبون لاتخذوك صديقاً لهم، وأظهروا للناس أنك موافق لهم على ما هم عليه من الشرك، ولكنت لهم ولياً مناصراً، وخرجت من ولايتي.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ أي ولولا تثبيتنا لك على الحق وعصمتنا إياك، لقاربت أن تميل إلى خداعهم ومكرهم، ميلاً وركوناً قليلاً.

وهذا تهييج من الله لنبيه، وبيان فضل تثبيته له، ولطف بالمؤمنين، أي إنه ربما هادنتهم، لا لضعف إيمانك، بل لشدة مبالغتهم في المكر والحيلة والخداع، ولكن عنايتنا منعتك من الركون إليهم. وهو تصريح بأن النبي ﷺ لم يصدر منه همّ بمجاملتهم ومجاراتهم، بل ولم يقترب من ذلك.

وهو دليل على تأييد الله لرسوله وتثبيته وعصمته وتسليمه من مكائد الكفار، وأنه تعالى هو المتولي أمره وحافظه وناصره، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه، ومظهر دينه على من عاداه وخالفه.

قال قتادة: لما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

وإمعاناً في العصمة والصون توعده الله على ماقد يكون على سبيل الاحتمال والافتراض، وإن لم يحصل فقال:

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ أي لو فعلت ذلك لعاقبناك بعقوبة مضاعفة في الدنيا والآخرة ويكون المراد بالآية ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات أي عذاب الدنيا وعذاب الآخرة؛ لأن ذنب القائد أو العظيم يستحق عقاباً أشد وأعظم، لذا يعاقب العالم القدوة أشد من عقوبة العامي التابع له، قال ﷺ فيما أخرجه مالك وأحمد ومسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود عن أبي جحيفة وواثلة بن الأسقع: «من سنَّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». والضعف: أن يضم إلى الشيء مثله.

وهذا وارد أيضاً في عقوبة نساء النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٠] .

ومن مكائد أهل مكة محاولة إخراج النبي ﷺ من مكة، كما قال تعالى:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي ولقد قارب أهل مكة أيضاً أن يزعجوك بعداوتهم ومكرهم، ويخرجوك من أرضهم التي أنت فيها أي أرض مكة.

﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإذا أخرجوك لا يبقون بعد إخراجك إلا زماناً قليلاً، فإن الله مهلكهم، وحدث هذا الوعيد كما قال، فقد أهلكهم الله ببدر بعد إخراجه بقليل، وهو ثمانية عشر شهراً بعد الهجرة أو الإخراج.

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذَوْهم أن يأتيهم العذاب، بخروج الرسول من بينهم، فكل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم، فسنة الله أن يهلكهم، ولولا أنه ﷺ الرحمة المهداة، لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٣].

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ أي لا تغيير لسنة الله ونظامه وعادته، ولا خُلْف في وعده.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى العبر والعظات والأحكام التالية:

١ - تعرض النبي ﷺ لأنواع شتى من مكائد المشركين في مكة وألوان خداعهم ومساوماتهم، ومن أخطرها محاولات افتراء تغيير الوحي وتبديله، وإخراجه وطرده من مكة موطنه الأصلي.

أما محاولة تبديل الوحي وإقرارهم على شيء من قواعد شركهم وجاهليتهم فباءت بالفشل والخيبة، ولم يتم لهم ما أرادوا، لا قليلاً ولا غيره بتأييد الله وعصمته.

وأما محاولة الإخراج من مكة فتم لهم مرادهم حينما أمره الله بالخروج، ولكنهم بعدها تعرضوا للقتل في بدر، وإلى فتح مكة موطنهم، وإسلام بعض زعمائهم، وانتشار الإسلام فيها وفي أنحاء الجزيرة العربية، فتداعت معاقل الشرك، وتهدمت حصون الوثنية، وحل الإسلام محلها.

٢ - لا يشكن أحد في أن النبي ﷺ معصوم، وأنه لم يهادن الكفر والكفار والشرك والمشركين، بل ولم يهمّ في ذلك، وإنما كانت الآيات تهييجاً له، وتهديداً على مجرد الاحتمال والافتراض.

فقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ﴾ يدل على قرب وقوعه في الفتنة، لا على الوقوع في تلك الفتنة، فلو قلنا: كاد الأمير أن يضرب فلاناً، لا يفهم منه أنه ضربه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ﴾ لا يدل على قرب ركونه إلى دينهم والميل إلى مذهبهم؛ لأن كلمة ﴿وَلَوْلَآ﴾ تفيد انتفاء الشيء لثبوت غيره، تقول: لولا علي لهلك عمر، معناه أن وجود علي منع من حصول الهلاك لعمر، فكذلك معنى الآية: أنه حصل تثبيت الله تعالى لمحمد ﷺ، فكان حصول ذلك التثبيت مانعاً من حصول ذلك الركون.

والوعيد الشديد في قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ﴾ لا يدل على سبق وجود جرم وجناية؛ لأن التهديد على المعصية لا يدل على الإقدام عليها، كما في آيات أخرى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٦] ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦٥] . ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٨] .

٣ً - احتج أهل السنة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ على أنه لا عصمة عن المعاصي إلا بتوفيق الله تعالى، فالله عاصمه وناصره ومؤيده ومُثبّته.

٤ً - منع الله أهل مكة من إخراج النبي ﷺ من مكة، ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا، ولكن الله منعهم من إخراجه، حتى أمره الله بالخروج، ثم إنه قلَّ لبثهم بعد خروج النبي ﷺ من مكة، حتى قتلوا يوم بدر.

فالأصح الذي عليه المفسرون هو قول قتادة ومجاهد: أن هذه الآية ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ نزلت في هَمِّ أهل مكة بإخراج النبي ﷺ، ولو أخرجوه لما أمهلوا، ولكن الله أمره بالهجرة فخرج؛ لأن السورة مكية، ولأن ما قبلها خبر عن أهل مكة. فقوله ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ يريد أرض مكة، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن

﴿قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣/٤٧] يعني مكة، ومعناه: همّ أهلها بإخراجه.

٥ - سنة الله الثابتة الدائمة تعذيب كل قوم أخرجوا رسولهم من بلده، فإذا أخرجوه أهلكوا ودمّروا.

أوامر وتوجيهات وتعليمات للنبي ﷺ

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (وقران).

﴿وَنُنَزِّلُ﴾:

وقرأ أبو عمرو (ونُنْزِل).

﴿وَنَـَٔا﴾:

وقرأ ابن ذكوان (وناء).

الإعراب:

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ اللام لام الوقت والأجل؛ لأن الوقت سبب الوجوب.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ معطوف منصوب على قوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أقم الصلاة وقرآن الفجر، أو منصوب بفعل مقدّر، أي واقرؤوا قرآن الفجر.

﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ منصوب على الظرف بإضمار فعله، أي فيقيمك مقاماً، أو بتضمين يبعثك معناه، أو حال أي أن يبعثك ذا مقام.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره: قم، و ﴿من﴾ للتبعيض، والمعنى قم بعض الليل.

البلاغة:

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ مجاز مرسل من إطلاق الجزء على الكل، أي قراءة الفجر، وهي صلاة الفجر؛ لأن القراءة جزء منها.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ إظهار محل الإضمار لمزيد العناية والاهتمام، بعد قوله: ﴿قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ بينهما مقابلة، وكذا بين ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ فيه إسناد الخير إلى الله والشر لغيره، لتعليم الأدب مع الله تعالى.

﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ ﴿مِنَ﴾: للتبيين أو للتبعيض.

المفردات اللغوية:

﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ هو زوال الشمس عن منتصف كبد السماء نصف

النهار، وتحولها من جهة المشرق إلى جهة المغرب ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ إقبال ظلمته، وقدوم سواد الليل وشدة الظلمة، وهذا يشمل أربع صلوات: الظهر والعصر والمغرب والعشاء ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ صلاة الصبح ﴿كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، أو شواهد القدرة من تبدل بالظلمة الضياء، وبالنوم اليقظة والحركة، وبهذا تكون الآية جامعة الصلوات الخمس.

﴿فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ﴾ فصل صلاة التهجد، والضمير للقرآن. والتهجد: ترك الهجود أي النوم للصلاة، أي الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة، أو فضيلة لك، لاختصاص وجوبه بك، دون أمتك ﴿أَن يَبۡعَثَكَ﴾ يقيمك ﴿رَبُّكَ﴾ في الآخرة ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ يحمدك فيه الأولون والآخرون، وهو مقام الشفاعة العظمى في فصل القضاء؛ لما روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي».

﴿أَدۡخِلۡنِي﴾ المدينة ﴿مُدۡخَلَ صِدۡقٖ﴾ إدخالاً مرضياً لا أرى فيه ما أكره ﴿وَأَخۡرِجۡنِي﴾ من مكة ﴿مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ إخراجاً لا ألتفت بقلبي إليه ﴿سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ قوة تنصرني بها على أعدائك، والسلطان: الحجة البينة، والنصير: الناصر والمعين ﴿وَقُلۡ﴾ عند دخولك مكة ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ﴾ الإسلام ﴿وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ ذهب أو بطل وزال، أو اضمحل الشرك والكفر ﴿زَهُوقٗا﴾ مضمحلاً زائلاً. روى الشيخان عن ابن مسعود أنه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح، وفيها ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول ذلك - أي ﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ - حتى سقطت، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة، وكان من صُفْر - نحاس - فقال: يا علي، ارم به، فصعد، فرمى به وكسره.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ ﴿مِنَ﴾: لبيان الجنس وقيل: للتبعيض ﴿مَا هُوَ

﴿شِفَآءٌ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، والمعنى على أن ﴿مِنَ﴾ للبيان فإن كله كذلك: ننزل القرآن الذي فيه تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم، كالدواء الشافي للمرضى، والمعنى على أن ﴿مِنَ﴾ للتبعيض: أن منه ما يشفي من المرض كالفاتحة وآيات الشفاء .﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ولا يزيد الكافرين إلا خسارة، لتكذيبهم وكفرهم به.

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ بالصحة والسعادة على جنس الإنسان، وقيل: الكافر ﴿أَعْرَضَ﴾ عن الشكر وعن ذكر الله ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ لوى جانبه (عِطْفه) عن الطاعة وولاه ظهره متبختراً ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ من مرض أو فقر أو شدة ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ قنوطاً من رحمة الله أو شديد اليأس من روح الله.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ قل يا محمد: كل منا ومنكم ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ مذهبه وطريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضلالة، فالشاكلة: الطبيعة والعادة والدين ﴿أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أسدّ طريقاً وأقوم منهجاً، فيكافئه حسبما يستحق.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي اليهود ﴿عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أي عن ماهيتها وحقيقتها وهي ما يحيى به البدن، وهو اسم جنس على الظاهر ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي من الإبداعات الكائنة بكن من غير مادة ولا تولد من أصل، وقيل: مما استأثره الله بعلمه، لما روي أن اليهود قالوا لقريش: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الروح، فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض، فهو نبي، فبين لهم القصتين، وأبهم أمر الروح، وهو مبهم في التوراة ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ بالنسبة إلى علمه تعالى، وهو ما تستفيدونه بحواسكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٨٠):

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ الآية: أخرج الترمذي وابن مردويه عن ابن عباس

قال: كان النبي ﷺ بمكة، ثم أمر بالهجرة، فنزلت عليه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

نزول الآية (٨٥):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾: أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ بالمدينة، وهو متوكئ على عسيب، فمر بنفر من قريش، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حَدِّثنا عن الروح، فقام ساعة، ورفع رأسه، فعرفت أنه يوحى إليه، حتى صعد الوحي، ثم قال: ﴿ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيـلًا﴾.

وأخرج الترمذي عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: علمونا شيئاً نسأل هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّى﴾ لكن حديث البخاري يدل على أن الآية مدنية، مع أن السورة كلها مكية، وأن سؤال قريش يدل على أنها مكية.

قال ابن كثير: يجمع بين الحديثين بتعدد النزول، أي قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحي بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهي آية: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾[1]. وكذا قال الحافظ ابن حجر. قال السيوطي: أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقع مزيد بيان في ذلك، وإلا فما في الصحيح أصح، ويرجح ما في الصحيح بأن راويه حاضر القصة، بخلاف ابن عباس.

والحقيقة، كما سنذكر في سبب نزول قصة أصحاب الكهف أن النفر من قريش قدموا إلى المدينة، واستشاروا اليهود، كما ذكر ابن إسحاق، وتظل الآية مكية.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٠

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى كيد الكفار واستفزازهم للرسول ﷺ، وما كانوا يرومون به، أمره تعالى بالإقبال على عبادة ربه، وألا يشغل قلبه بهم. وقد تقدم القول في الإلهيات والمعاد والنبوات، فأردف ذلك بالأمر بأشرف العبادات والطاعات بعد الإيمان، وهي الصلاة.

ثم وعده ربه في الآخرة بالمقام المحمود وهو الشفاعة العظمى باتفاق المفسرين، ولما أمره تعالى بإقامة الصلاة والتهجد ووعده بالمقام المحمود، أمره بأن يدعوه بما يشمل الأمور الدينية والأخروية بقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى﴾ والظاهر - كما قال أبو حيان - أنه عام في جميع موارده ومصادره دنيوية وأخروية. والصدق هنا: لفظ يقتضي رفع المذامّ، واستيعاب المدح.

ثم أبان الله تعالى أن ما أنزل عليه من القرآن فيه شفاء النفوس والقلوب من الداء الحسي والمعنوي وهو مرض الاعتقاد، ثم عرّض بما أنعم به، وما حواه من لطائف الشرائع على الإنسان، وإعراضه عنه تكبراً، ثم رد على اليهود والمشركين المعرضين عن الإيمان، السائلين عن الروح تعنتاً وتعجيزاً.

التفسير والبيان:

يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في الآية الأولى بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها، والمعنى: أيها الرسول، أدّ الصلاة المفروضة عليك وعلى أمتك تامة الأركان والشروط، من بعد زوال الشمس إلى ظلمة الليل، وذلك يشمل الصلوات الأربع: الظهر والعصر، والمغرب والعشاء. والدلوك: ميل الشمس وزوالها عن كبد السماء ووسطها وقت الظهر. وإنما وجه الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته أيضاً لمكانة المأمور به وهو الصلاة.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ أي وأقم صلاة الفجر، وتلك هي الصلاة الخامسة.

وقد أبانت السنة المتواترة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله مقادير أوقات الصلاة بدءاً وانتهاءً، على النحو المعروف اليوم.

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ أي إن صلاة الفجر تشهدها ملائكة الليل والنهار، ينزل هؤلاء ويصعد هؤلاء في وقت تبادل المهام والوظائف. وسميت صلاة الصبح قرآناً وهو القراءة؛ لأنها ركن، كما سميت الصلاة ركوعاً وسجوداً وقنوتاً. ويجوز أن يكون ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ حثاً على طول القراءة في صلاة الفجر، ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة[١].

روى أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار».

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح، وفي صلاة العصر، فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».

وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان في صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء.

وقد يكون المراد بقوله ﴿مَشْهُودًا﴾ الترغيب في أن تؤدى هذه الصلاة بجماعة، والمعنى كونها مشهودة بالجماعة الكثيرة، أو شهود كمال قدرة الله تعالى، من اختلاط الظلمة بالضوء، والظلمة مناسبة للموت والعدم، والضوء

(١) الكشاف: ٢/ ٢٤٣

مناسب للحياة والوجود، وينتقل العالم من الظلمة إلى الضوء، ومن الموت بالمنام إلى الحياة، ومن السكون إلى الحركة، ومن العدم إلى الوجود[١].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ هذا فرض آخر خاص بالنبي ﷺ وهو صلاة التهجد، والمعنى: قم للصلاة في جزء من الليل وهو أول أمر للنبي ﷺ بقيام الليل، زيادة على الصلوات المفروضة (المكتوبة). روى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل» ولهذا أمر الله تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. وثبت عن جماعة من الصحابة أن النبي ﷺ كان يتهجد بعد نومه.

وقوله ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس، مخصوصة بك دون الأمة، وهي فريضة عليك خاصة، دون غيرك، وأما أمتك فهي لهم مندوبة أو تطوع لهم. وهذا هو الراجح. وقيل: المراد أن قيام الليل في حقه ﷺ نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وأما غيره من أمته فإن النوافل تُكفِّر ذنوبهم. ورد ابن جرير هذا القول؛ لأنه ﷺ كان مأموراً بالاستغفار ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١١٠/٣] وكان ﷺ يزيد في الاستغفار في اليوم على مئة مرة، وكلما اشتد قرب العبد من ربه، كلما زاد خوفه منه، وإن كان السيد قد أمَّنه، وذلك مقام يعرفه أهله.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً، يحمدك فيه الخلائق كلهم، وخالقهم تبارك وتعالى، كما قال ابن كثير.

وأجمع المفسرون - كما ذكر الواحدي - على أنه مقام الشفاعة العظمى في

(١) تفسير الرازي: ٢١/٢٨

إسقاط العقاب. وهو - كما ذكر ابن جرير - مقام النبي ﷺ يوم القيامة للشفاعة بالناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

وكلمة ﴿عَسَىٰٓ﴾ في كلام العرب تفيد التوقع، وهي هنا للوجوب؛ لأنها تفيد الإطماع، ومن أطمع إنساناً في شيء ثم حرمه، كان غارًّاً، وهذا المعنى مستحيل على الله تعالى، فهذه الكلمة من الكريم إطماع محقق الوقوع، وهي من الله باتفاق المفسرين واجب.

والمقام المحمود: هو المكان المرموق، والمركز المعلوم المعدّ للنبي ﷺ، وهو كما بينا مقام الشفاعة التي يتخلى عنها كل نبي ورسول، أما الرسول ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع بالخلق جميعاً لتقديمهم للحساب، وتخليصهم من وهج الشمس الشديد التي تدنو من الرؤوس، ويتمنون الانصراف ولو إلى النار.

روى مسلم بسنده عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ قال: «هو المقام الذي أشفع لأمتي فيه».

وروى النسائي والحاكم عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يجمع الله الناس في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، حُفَاة عُراةً كما خلقوا، قياماً لا تَكلم نفس إلا بإذنه، فينادِي: يا محمد، فيقول: لبَّيك وسَعْديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، والمهديُّ: من هَديتَ، وعبدُك بين يديك، وبك وإليك، لا ملجأ ولا مَنْجى منك إلا إليك، تباركتَ وتعاليتَ، سبحانك ربَّ البيت، فهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله عز وجل».

وروى البخاري عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آتِ محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة».

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم، غير فخر».

وبمناسبة أمر النبي ﷺ بالهجرة أنزل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ أي وقل يا محمد داعياً: ربّ أدخلني في الدنيا والآخرة إدخالاً مرضياً حسناً، لا يكره فيه ما يكره، يوصف صاحبه بأنه صادق في قوله وفعله، وأخرجني إخراجاً مرضياً حسناً، مكللاً بالكرامة، آمناً من السخط، يستحق الخارج منه أن يوصف بأنه صادق.

وهذا يشمل كل مدخل للنبي وكل مخرج كدخوله المدينة وخروجه من مكة، ودخوله القبر وخروجه منه للبعث، ودخوله مكة فاتحاً وخروجه منها آمناً.

وخصص بعضهم الآية بأنها نزلت حين أمر النبي ﷺ بالهجرة، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة، أو إدخاله مكة منتصراً فاتحاً وإخراجه منها آمناً من المشركين.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ أي واجعل لي حجة بينة تنصرني على من خالفني، أو ملكاً وعزاً قوياً، ناصراً للإسلام على الكفر، ومظهراً له عليه، قال الحسن البصري: وعده ربه لينزعن ملك فارس وعز فارس، وليجعلنه له، وملك الروم وعز الروم وليجعلنه له.

وقد أنجز له وعده، وأجيبت دعوته، فتحقق له العصمة الشخصية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧/٥] وانتشار الإسلام وتفوقه على الأديان كلها: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣/٩] وانتصار الدولة والملك: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦/٥] ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥/٢٤].

وطلبه السلطة والملك ليس لشهوة السلطة وإنما لحماية حرمات الإسلام؛ لأنه لابد للحق من قهر لمن عاداه وناوأه، وناصر وحام له، لذا قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥/٥٧] فقرن الله بين الرسالة والبيان وبين الحديد والقوة، وفي الأثر عن عثمان: «إن الله لَيَزَعُ بالسلطان مالا يَزَعُ بالقرآن» أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

ثم هدد كفار قريش وأوعدهم بقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي وقل للمشركين: جاء الحق من الله الذي لا مرية فيه، وهو الإسلام، وما بعثه الله به من القرآن والإيمان، والعلم النافع، واضمحل وهلك الباطل وهو الشرك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء، كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨/٢١] .

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي إن الباطل كان مضمحلاً لا قرار له، غير ثابت في كل وقت.

وقد تلا النبي ﷺ هذه الآية حين كسر الأصنام، وهو يفتح مكة.

روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عبد الله بن مسعود، قال: دخل النبي ﷺ مكة، وحول البيت ستون وثلاث مئة نصب، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩/٣٤] . وقال الحافظ أبو يعلى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاث مئة وستون صنماً تُعبد من دون الله، فأمر بها رسول الله ﷺ، فأُكبّت على وجوهها، وقال: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

ثم أخبر الله عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ أنه شفاء ورحمة، فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وننزل عليك أيها النبي قرآناً فيه شفاء، فكل شيء نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يزدادون به إيماناً، ويستصلحون به دينهم، فهو يذهب ما في القلوب من أمراض الشك والنفاق، والشرك والزيغ والإلحاد، والجهل والضلالة، فالقرآن يشفي من ذلك كله؛ وهو أيضاً رحمة لمن آمن به وصدقه واتبعه؛ لأنه يرشد إلى الإيمان والحكمة والخير، فيؤدي إلى دخول الجنة والنجاة من العذاب، وعن النبي ﷺ فيما رواه الديلمي في الفردوس: «من لم يستشف بالقرآن، فلا شفاه الله».

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا يزيد سماع القرآن الكافر الظالم نفسه إلا بعداً عن الإيمان وكفراً بالله؛ لتأصل الكفر في نفسه.

ونظير الآية: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٤] وأيضاً قوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ، وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤-١٢٥] .

قال قتادة: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصمه الله فقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ أي وإذا أمددنا الإنسان بنعمة من مال وعافية ورزق ونصر ونال ما يريد، أعرض عن طاعة الله وعبادته، ونأى بجانبه، وهذا تأكيد للإعراض؛ لأن الإعراض: التولي بالوجه، والنأي

بالجانب: لوي الجانب وتولية الظهر، والمراد بذلك الاستكبار والتباعد؛ لأن ذلك عادة المتكبرين.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا﴾ أي وإذا أصابه الشر وهو المصائب والحوادث، كان يؤوساً قنوطاً من رحمة الله ومن الخير بعدئذ. والآية مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس: ١٠/١٢] . وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ١١/٩-١٠] .

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قل يا محمد: كل أحد يعمل على مذهبه وطريقته التي تشاكل وتشبه حاله من الهدى والضلالة.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ أي فالله ربكم الذي ربّاكم وأوجدكم وأنعم عليكم أعلم من كل أحد بمن هو أسدّ مذهباً وأوضح طريقاً واتباعاً للحق، وسيجزي كل عامل بعمله. وفي الآية تهديد ووعيد للمشركين.

والآية مثل قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: ١١/١٢١-١٢٢] .

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أي ويسألك المشركون عن حقيقة الروح التي تحيى بها الأبدان، فقل: الروح من شأن ربي، يحدث بتكوينه وإيجاده، وقد استأثر بعلمه، فلا يعلمه إلا هو، ولا يستطيعه إلا هو، وما أوتيتم أيها الناس من العلوم والمعارف إلا علماً قليلاً، مصدره إحساس الحواس وملاحظة المرئيات، أما ما وراء ذلك فلا قدرة لكم عليه، ولا اطلاع لأحد على حقيقته.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - دلت آية ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ على فرضية الصلوات الخمس المفروضة، وعلى أوقاتها في الجملة التي فصلتها وحددتها السنة النبوية.

٢ - في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ فوائد وهي أن الصلاة لا تتم إلا بالقراءة، ووجوب إقامة صلاة الفجر من أول طلوعه. وأبانت السنة أن تكون القراءة في هذه الصلاة أطول من القراءة في سائر الصلوات، فالمقصود من قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ الحث على تطويل القراءة فيها، ووصف قرآن الفجر بأنه مشهود معناه أن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون في صلاة الصبح خلف الإمام، وهو دليل قوي على أن التغليس (الصلاة وقت الظلمة) أفضل، وهذا قول مالك والشافعي.

وقال أبو حنيفة: الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار، فإن فاته ذلك فالإسفار أولى من التغليس.

واجتماع ملائكة الليل والنهار في صلاة الصبح وكذا في صلاة العصر، كما جاء في الحديث المتقدم لا يعني أن هاتين الصلاتين ليستا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار، كما فهم بعض العلماء، وإنما هما من النهار، بدليل الصيام فيه.

٣ - كانت صلاة التهجد (قيام الليل) مطلوبة من النبي ﷺ نافلة زيادة وكرامة له، واختلف العلماء في تخصيص النبي ﷺ بالذِّكْر دون أمته، فقال جماعة: كانت صلاة الليل فريضة واجبة عليه؛ لقوله ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة، ثم نسخت، فصارت نافلة، أي تطوعاً وزيادة على الفرائض.

وقال آخرون: صلاة الليل تطوع في حق النبي ﷺ وفي حق أمته، فيكون الأمر بالتنفل على جهة الندب، ويكون الخطاب للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فكل طاعة يأتي بها سوى المكتوبة تكون زيادة في الدرجات، وأما غيره من الأمة فتطوعهم كفارات لذنوبهم، وتدارك الخلل الذي يقع في الفرض.

٤ً - للنبي ﷺ المقام المحمود وهو الشفاعة العظمى للناس يوم القيامة، ولأجل ذلك قال فيما رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر» قال النقَّاش: لرسول الله ﷺ ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة في السبق إلى الجنة، وشفاعة في أهل الكبائر.

وقال ابن عطية: والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة في إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية ثابتة أيضاً للأنبياء وللعلماء. وذكر أبو الفضل عياض خمس شفاعات: العامة، ولإدخال قوم الجنة دون حساب، ولإخراج عصاة الأمة من النار، وللحيلولة دون إدخال بعض المذنبين من موحِّدي الأمة النار، ولزيادة الدرجات في الجنة لأهلها.

وقال القاضي عياض: وعرف بالنقل المستفيض سؤال السلف الصالح لشفاعة النبي ﷺ ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال: إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبي ﷺ؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات.

ومع الشفاعة لواء الحمد، روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدمٍ فمن سواه إلا تحت لوائي».

٥ً - وللنبي ﷺ المقام السامي المرضي الحسن في الدنيا والآخرة، فيشمل كل دخول وخروج كإدخاله المدينة مهاجراً، ومكة فاتحاً، وفي القبر مغفوراً له

آمناً، وإخراجه من مكة مهاجراً، وإخراجه من القبر للبعث مطمئناً موصوفاً بالصدق.

٦ً - ومن خصائص النبي عليه الصلاة والسلام قوة الحجة، والسلطان والقهر والقدرة والعصمة من الناس، فكانت له حجة بينة ظاهرة ينتصر بها على جميع من خالفه، ورزقه الله السلطة والتفوق والنصر على أعدائه، وأظهر دينه على الدين كله أي على الأديان والشرائع، وعصمه من أذى الناس ومكرهم.

٧ً - أيد الله تعالى نبيه ﷺ بما أنزله عليه من القرآن والإيمان والحق الذي لا مرية ولا جدال فيه، فبه جاء الحق، وهو الإسلام والقرآن، واضمحل الباطل وهو الشرك والشيطان.

٨ً - في آية ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ دليل على كسر نُصُب المشركين والأصنام وجميع الأوثان. قال القرطبي: ويدخل بالمعنى: كسر آلة الباطل ومالا يصلح إلا لمعصية الله، كالطنابير والعيدان والمزامير التي لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى[1].

قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام الصُّوَر المتخذة من المدَر (الطين المتحجر) والخشب وشبهها، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهي عنه. ولا يجوز بيع شيء منه إلا الأصنام التي تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هي عليه وصارت سبيكة أو قطعاً، فيجوز بيعها والشراء بها.

٩ً - القرآن الكريم شفاء ورحمة للمؤمنين، ولا يزيد سماعه الكافرين الظالمين أنفسهم إلا خساراً لتكذيبهم وزيادتهم غيظاً وغضباً وحقداً وحسداً.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٣١٤

قال قتادة: ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية.

وللعلماء قولان في كونه شفاء:

أحدهما - إنه شفاء للقلوب: بزوال الجهل عنها وإزالة الرّيب، وكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى.

الثاني - شفاء من الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحوه.

وقد أقر النبي ﷺ - فيما رواه الأئمة - الاستشفاء بالقرآن، والرقية بالفاتحة بقراءتها سبع مرات على لديغ، وإعطاء قارئها عوضاً عن الرقية ثلاثين شاة. وأجاز سعيد بن المسيب ما يسمى بالنَّشرة: وهي أن يكتب شيئاً من أسماء الله تعالى، أو من القرآن، ثم يغسله بالماء، ثم يمسح به المريض، أو يسقيه.

وقال الإمام مالك: لا بأس بتعليق الكتب التي فيها أسماء الله عزَّ وجلّ على أعناق المرضى على وجه التبرك بها، إذا لم يُرِد معلّقها بتعليقها مدافعة العين، أي قبل أن ينزل به شيء من العين. ووافقه على ذلك جماعة من أهل العلم.

وكره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال، قبل نزول البلاء وبعده. قال القرطبي: والقول الأول أصح في الأثر والنظر إن شاء الله تعالى.

وعلى كل حال، إن الفاعل الحقيقي المؤثر هو الله تعالى، أما الأدعية المأثورة، وتلاوة آيات الشفاء، والفاتحة والمعوذات وغير ذلك فهي من وسائل الفرج والبرء بإذن الله تعالى، بشرط تعظيم القرآن في الصدور، والإيمان الصادق به، والبعد عما لا يتناسب مع تعظيم آيات الله تعالى. ولا يعني هذا الاكتفاء بالرقى عن المداواة والعلاج بالأدوية الناجعة، فذلك كله من الوسائل التي أذن الشرع بها، بل وأوجبها لصيانة حق الحياة. أما ما يفعله بعض العوام

من إهمال علاج المريض المحموم أو المبتلى بداء خطير مثلاً، اعتماداً على مجرد التلاوة لشيء من القرآن أو التميمة، فهذا جهل بحقائق الدين، وإهدار لقدسية العلم الذي عظمه الله، ورفع شأن علمائه وأتباعه.

وأما ما روي عن ابن مسعود: «إن التمائم والرقى والتِّوَلَة من الشرك، قيل: ما التِّوَلَة؟ قال: ما تحبَّبت به لزوجها» فيجوز أن يريد بما ذكره تعليق غير القرآن أشياء مأخوذة عن العَرَّافين والكُهَّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلَّقاً وغير معلَّق لا يكون شِرْكاً.

١٠ً- إن هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خساراً صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه. وكذلك شأن الإنسان عموماً النسيان وكفران النعم إلا من عصمه الله، فتراه إذا كان منعماً مترفاً بَعُد عن القيام بحقوق الله عزَّ وجلّ، وإذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط؛ لأنه لا يثق بفضل الله تعالى.

١١ً - إذا أفلس نداء العقل والقلب والوجدان، لتعطيل الفكر والبصر بآيات الله كالمشركين، فلم يبق معهم إلا التهديد والوعيد، وإهمال هؤلاء المعطلين عقولهم، وتركهم يعملون على شاكلتهم من الهدى والضلال وما هو الأولى بالصواب في اعتقادهم. والله تعالى أعلم بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران.

١٢ً - سأل المشركون عن الروح الذي هو سبب الحياة، فأجابهم القرآن جواباً مبهماً يدل على أن خلق الروح من الله، وهو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى، تاركاً تفصيله، ليعرف الإنسان يقيناً عجزه عن علم حقيقة

نفسه، مع العلم بوجودها، وإذا كان الإنسان في معرفة نفسه جاهلاً حقيقتها، كان عجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى، وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك ومعرفة مخلوق مجاور له، للدلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز، وبذلك ثبت أن أكثر الماهيات والحقائق مجهولة للإنسان، ولكن لا يلزم من كونها مجهولة نفيها.

وأما حقيقة الروح فللعلماء فيها قولان:

القول الأول للرازي وابن القيم في كتاب الروح: إن الروح جوهر بسيط مجرد، وجسم نوراني مخالف بطبعه للجسم المحسوس، سار فيه سريان الماء في الورد، لا يحدث إلا بمحدث، وهو قوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

والقول الثاني للغزالي وأبي القاسم الراغب الأصفهاني: الروح ليس بجسم ولا جسماني، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف.

١٣ً - لم يؤت العالَم كله من العلم إلا القليل، ويظل الكثير مختصاً بعلم الله تعالى، قال القرطبي: والصحيح أن المراد بالخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ العالَم كله، وليس المراد: السائلين فقط، أو اليهود بجملتهم، كما قال بعضهم.

فالله تعالى لم يطلع الناس من علمه إلا على القليل، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

والخلاصة: إن علم الناس في علم الله قليل، والذي يسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى.

إعجاز القرآن

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

القراءات:

﴿شِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شينا).

﴿الْقُرْآنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿وَلَئِن شِئْنَا﴾ اللام لام القسم، أو الموطئة للقسم، و﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾: جوابه النائب مناب جواب الشرط، أي إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور.

﴿لَئِنِ اجْتَمَعَتِ﴾ اللام لام القسم أو الموطئة للقسم، وإن: حرف شرط، وجوابه محذوف قام مقامه قوله: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ وليس هذا جواباً للشرط، لإثبات نون ﴿يَأْتُونَ﴾ وإنما هو جواب قسم مقدر هيّأته لام ﴿لَئِنِ﴾. والتقدير: قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فوالله لا يأتون بمثله.

﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ الاستثناء منقطع، أي لكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به، ويجوز أن يكون متصلاً.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ﴾ أي إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه من المصاحف والصدور ﴿وَكِيلًا﴾ يتوكل ويلتزم استرداده محفوظاً مسطوراً، بعد الذهاب به ﴿إِلَّا رَحۡمَةً﴾ استثناء متصل، أي إلا إن نالتك رحمة الله، فلعلها تسترده عليك، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً بمعنى: لكن رحمة من ربك أبقيناه، فيكون ذلك امتناناً بإبقائه بعد المنة في تنزيله ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرًا﴾ عظيماً، بإبقائه في حفظه، كإرساله وإنزاله، وكذلك بإعطائك المقام المحمود، وغير ذلك من الفضائل.

﴿عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وكمال المعنى ﴿لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ﴾ وفيهم العرب العرباء، وأرباب البيان، وأهل النثر والنظم. وهو جواب قسم محذوف، دل عليه اللام الموطئة للقسم. ﴿ظَهِيرًا﴾ معيناً في تحقيق المراد. وهو رد لقولهم: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣١].

﴿صَرَّفۡنَا﴾ بينا، وكررنا ورددنا بوجوه مختلفة، زيادة في التقرير والبيان. ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعاً في الأنفس أو هو صفة لمحذوف أي مثلاً من جنس كل مثل، ليتعظوا ﴿أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ أهل مكة وغيرهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ جحوداً للحق.

سبب النزول:

نزول الآية (٨٨):

﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ﴾ الآية: أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن

ابن عباس قال: أتى النبيَّ ﷺ سلامُ بن مشكم في عامة من يهود سماهم، فقالوا: كيف نتّبعك وقد تركت قبلتنا؟ وإن هذا الذي جئت به، لا نراه متناسقاً، كما تتناسق التوراة، فأنزل علينا كتاباً نعرفه، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به، فأنزل الله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن امتن الله تعالى على نبيه ﷺ بالنبوة وبإنزال وحيه عليه، وبتنزيل القرآن شفاء للناس، امتن عليه أيضاً ببقاء القرآن محفوظاً، رحمة بالناس، وذكَر ما منحه تعالى من الدليل على نبوته الباقي بقاء الدهر، وهو القرآن الذي عجز العالم عن الإتيان بمثله، مع اشتماله على أصح القواعد، وأقوم الحكَم والأحكام والآداب المفيدة للدنيا والآخرة، بل إن فصحاء اللسان الذي نزل به، وبلغاءهم عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثله، ولو تعاون الثقلان عليه. ويحتمل اندراج الملائكة تحت لفظ (الجن) لأنه قد يطلق عليهم هذا الاسم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٥٨] وإن كان الأكثر استعماله في غير الملائكة من الأشكال الجنية المستترين عن أبصار الإنس.

التفسير والبيان:

بعد أن ذكر الله تعالى أنه ما آتى الناس من العلم إلا قليلاً، أبان أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل، فقال:

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي ولو شاء ربك لذهب بهذا القليل، وسلب هذا القرآن الذي أوحينا به إليك يامحمد من الصدور والمصاحف، ولم نترك له أثراً، فهو تعالى قادر على أن يمحو حفظه من القلوب، وكتابته من الكتب.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ أي ثم لا تجد بعدئذ من تتوكل عليه وتستنصر به في رد شيء منه وإعادته محفوظاً.

أخرج الحاكم والبيهقي والطبراني وسعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: «إن هذا القرآن الذي بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم، قيل: كيف ينزع منا، وقد أثبته الله في قلوبنا، وثبتناه في مصاحفنا؟! قال: يُسْرَى عليه في ليلة واحدة، فينزع مافي القلوب، ويذهب مافي المصاحف، ويصبح الناس منه فقراء» ثم قرأ: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾.

﴿إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، بمعنى: ولكن رحمة من ربك تركته ولم أذهب به، قال الرازي: وهذا امتنان من الله تعالى على جميع العلماء ببقاء القرآن بنوعين من المنة: أحدهما - تسهيل ذلك العلم عليهم. والثاني - إبقاء حفظه لهم[1].

﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرًا﴾ أي إن فضل الله عليك أيها الرسول عظيم وكبير بإرسالك للناس بشيراً ونذيراً، وبإنزال القرآن عليك وبحفظه في صدرك وفي المصاحف، وبحفظ أتباعك، وبسبب جعلك سيد ولد آدم، وختم النبيين بك، وإعطائك المقام المحمود.

والخلاصة: إن الله تعالى يذكر في هذه الآية نعمته وفضله على عبده ورسوله الكريم فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وأما بقية النعم والأفضال فهي تبع لذلك، فالقرآن الكريم مصدر العلوم والمعارف، ومنبع الحضارات والثقافات التي ظهرت في ربوع المسلمين.

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ٥٣ - ٥٤، وقال في الكشاف (٢/ ٢٤٥): وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً، بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه.

ثم نبه الله تعالى على شرف هذا القرآن العظيم وأهميته وخطورته، فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ قل يامحمد متحدياً: والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا وتعاونوا وتظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن المنزل، في بلاغته، وحسن نظمه وبيانه، ومعانيه وأحكامه، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان والفصاحة، لعجزوا عن الإتيان بمثله، حتى ولو كان الجميع متعاونين متآزرين فيما بينهم لتلك الغاية، فإن هذا أمر غير مستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا نظير له ولا مثيل؟!

ثم أبان تعالى مضمون القرآن، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي لقد بينا للناس، ورددنا البيان وكررناه على وجوه مختلفة، وألوان متعددة، وعبارات متنوعة، مرة بالإيجاز، وأخرى بالإطناب، وذكرنا لهم الحجج والبراهين القاطعة، وأوضحنا الحق وشرحناه، وأتينا بالآيات والعبر، والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهي، والحِكَم والتشريع، وقصص الأولين، والجنة والنار والقيامة، للعظة والعبرة.

فقوله ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي من كل معنى، هو كالمثل في غرابته وحسنه ومع ذلك ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي فأبى أكثر الناس، أي أهل مكة وأمثالهم إلا جحوداً وإنكاراً للحق، ورداً للصواب، وبقاء على الكفر.

فقه الحياة أو الأحكام:

تبين الآيات مدى فضل الله ونعمته على نبيه بإنزال القرآن عليه وحفظه في صدره وتثبيته في المصاحف، وانتفاع أمته به إلى يوم القيامة. وكما أن الله قادر على إنزاله، قادر على إذهابه حتى ينساه الخلق، ولكن لم يشأ الله ذلك رحمة منه بعباده.

ومن فضل الله على نبيه أيضاً أن جعله سيد ولد آدم، وأعطاه المقام المحمود، كما أعطاه الكتاب العزيز.

والقرآن هو المعجزة الباقية، والحجة الدائمة التي تحدى الله بها العرب كلهم، فعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم فرسان الفصاحة، وأئمة البلاغة والبيان، ولم تنقصهم ثقافة الحياة بدليل المأثور عنهم في الجاهلية من الحكم والمعاني والقيم الإنسانية في النثر والخطابة والشعر.

فوالله لئن تعاونوا مع البشر قاطبة ومع الجن، وكان بعضهم لبعض معيناً ونصيراً، كما يتعاون الشعراء على بيت شعر، لا يستطيعون الإتيان بمثل القرآن، وهذا تكذيب للكفار حين قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣١].

فظل القرآن هو المعجزة الباقية الناطقة بأنه من عند الله تعالى، وأنه وحي منه لرسوله ﷺ، وأنه حجة الله على خلقه إلى يوم القيامة، فمن آمن به نجا، ومن كفر به خسر وهلك.

وكان بيان القرآن شاملاً لكل شيء من شؤون الحياة، شافياً بلسم كل معذب ومحروم، موضحاً كل ما يحتاجه البشر من قضايا الدين والدنيا والآخرة، مبيناً الحق الأبلج، فأبى أهل مكة وأشباههم إلا الكفر بعد بيان الحق وتمييزه من الباطل، مع قدرتهم على طلب الحق ومعرفة الصواب.

اقتراح المشركين إنزال إحدى آيات ست

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

القراءات:

﴿تَفْجُرَ﴾ قرئ:

١- (تفجِّر) وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (تَفْجُر) وهي قراءة الباقين.

﴿كِسَفًا﴾: قرئ:

١- (كِسَفاً) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم.

٢- (كِسْفاً) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تُنَزِّلَ﴾:

وقرأ أبو عمرو (تُنْزِل).

﴿قُلْ سُبْحَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن عامر (قال سبحان).

الإعراب:

﴿كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة، جمع تكسير، نحو كِسْرة وكِسَر، وقطعة وقطع، وسِدْرة وسِدَر.

وقرئ (كِسْفاً) فهو اسم جنس كثمرة وثَمر، ودُرَّة ودُرّ، وبرّة وبُرّ، ونحو ذلك مما يفرق بين واحده وجمعه التاء.

﴿قَبِيلًا﴾ مقابلاً فهو حال من الله، وحال الملائكة محذوفة، لدلالتها عليها، فإن كان بمعنى جماعة فيكون حالاً من الملائكة.

البلاغة:

﴿تَفْجِيرًا﴾ ﴿رَّسُولًا﴾ سجع.

المفردات اللغوية:

﴿تَفْجُرَ﴾ تجريها بقوة ﴿يَنۢبُوعًا﴾ عيناً ينبع منها الماء دون أن ينضب ﴿جَنَّةٌ﴾ بستان تغطي أشجاره الأرض ﴿خِلَٰلَهَا﴾ وسطها ﴿كِسَفًا﴾ جمع كِسْفة، كقطع وقطعة، لفظاً ومعنى ﴿قَبِيلًا﴾ مقابلة وعياناً، والمراد رؤيتهم عياناً، أو جماعة فيكون حالاً من الملائكة.

﴿زُخْرُفٍ﴾ ذهب، وأصله: الزينة ﴿تَرْقَىٰ﴾ تصعد ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ على السلم ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لو رقيت فيها ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا﴾ منها ﴿كِتَٰبًا﴾ فيه تصديقك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿سُبْحَانَ رَبِّى﴾ تعجب ﴿هَلْ﴾ ما ﴿كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ كسائر الرسل، فهم لم يكونوا يأتون بآية إلا بإذن الله تعالى.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس: أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة، فقالوا: ابعثوا إلى محمد، فكلموه وخاصموه، حتى تُعْذَروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا ليكلموك، فجاءهم سريعاً - وكان حريصاً على رُشدهم - فقالوا:

- يا محمد، إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلتَ

على قومك، لقد شتمتَ الآباء، وعبتَ الدين، وسَفَّهت الأحلام، وفرَّقت الجماعة، فإن كنتَ إنما جئت بهذا لتطلب مالاً، جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً.

- وإن كنت إنما تطلب الشَّرَف فينا، سوَّدناك علينا.

- وإن كان هذا الذي يأتيك رَئِيّاً[١]، بذلنا أموالنا في طلب الطِّب حتى نبرئك منه، أو نُعذَر فيك.

فقال رسول الله ﷺ: «مابي ما تقولون، ما جئتكم أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلْك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علي أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

فقالوا: يامحمد، إن كنت غير قابلٍ منا ما عرضنا، فقد علمتَ أنه ليس أحد من الناس أضيقَ بلاداً، ولا أشدَّ عيشاً منا، فسل ربك يسيّر لنا هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً، ويبعث من مضى من آبائنا، حتى نسألهم أحقٌّ ماتقول؟ وسلْه أن يجعل لك جناناً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، تغنيك عنا.

فأنزل الله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ الآيات[٢].

وفي لفظ: فأنزل عليه ما قال له عبد الله بن أبي أمية.

---

(١) رئياً: أي تابعاً من الجن.

(٢) أسباب النزول للواحدي ١٦٨ وما بعدها، بإيجاز وتصرف، وأسباب النزول للسيوطي بهامش تفسير الجلالين.

وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾: قال: نزلت في أخي أم سلمة: عبد الله بن أبي أمية، مرسل صحيح شاهد لما قبله، يجبر المبهم في إسناده.

المناسبة:

بعدما تحدى الله المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبعدما ألزمهم الحجة، وغُلبوا على أمرهم، ببيان إعجاز القرآن، مع ظهور معجزات أخرى غيره، فتبين عجزهم عن ذلك، وإعجاز القرآن، أخذوا يتعللون، ويقترحون آيات أخرى تعنتاً وحيرة، فطلبوا إحدى آيات ست.

التفسير والبيان:

بعد أن أثبت الله تعالى كون القرآن معجزاً؛ لأنه كلام الله، فأثبت بذلك كون محمد ﷺ نبياً صادقاً، وبعد أن أخرستهم الحجة، ولم يجدوا رداً مقنعاً، راوغ رؤساء قريش باقتراح إنزال إحدى ستة أنواع من المعجزات فقالوا:

١ - ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ أي وقال زعماء مكة وهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأمية بن خَلَف وأبو البَخْتَري: لن نصدق برسالتك حتى تخرج لنا من الأرض ينبوعاً يتدفق، وهو العين الجارية، فإننا في صحراء مجدبة قاحلة من أرض الحجاز، وذلك سهل على الله تعالى يسير.

٢ - ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ أو يكون لك بستان من نخيل وأعناب وغيرهما تتدفق فيه الأنهار تدفقاً بقوة، حتى يسقى الزرع والشجر وتخرج الأثمار.

٣ - ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ أو تسقط السماء علينا قطعاً قطعاً كما زعمت أن ربك يفعل ذلك إن شاء، ونظيره آية أخرى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] لأنك وعدتنا أن السماء تنشق يوم القيامة، وتتساقط أطرافها، فعجِّل ذلك في الدنيا، وأسقطها كِسَفاً، أي قطعاً. وهذا مشابه لما طلبه قوم شعيب إذ قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٨٧].

٤ً - ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ أو تأتي بالله والملائكة معاينة ومواجهة، فيحدثونا بأنك رسول من عند الله، والمعنى: أوتأتي بالله قبيلاً، وبالملائكة قبلاً أي بأصناف الملائكة قبيلاً قبيلاً. كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢١] والقبيل: الكفيل الضامن يضمنون لنا إتيانك به، أو الشاهد (الشهيد).

٥ً - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ أو أن يكون لك بيت من ذهب، كما في قراءة ابن مسعود، فإنك يتيم فقير.

٦ً - ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أو أن تصعد في السماء على سلّم تضعها، ثم ترقى عليه، ونحن ننظر، ثم تأتي بصك معه أربعة ملائكة يشهدون لك أن الأمر كما تقول، أو تأتي بكتاب فيه تصديقك أنك رسول من عند الله، ونقرؤه كعادتنا.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ قل يامحمد متعجباً من اقتراحاتهم: تنزه ربي وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته، فهو الفعال لما يشاء، وما أنا إلا رسول بشر كسائر الرسل أبلّغكم رسالات ربي، وأنصح لكم، وليس للرسل أن يأتوا بشيء إلا بما يظهره الله على أيديهم على وفق الحكمة والمصلحة، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل، إن شاء أجابكم وإن شاء لم يجبكم.

بل إنهم لن يؤمنوا ولو جاءت الآيات كما اقترحوا، كما ذكر تعالى في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٩٦-٩٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

إن ضعفاء العقول ومحدودي التفكير يظنون أن الإله يفعل لهم ما يريدون، كما يحاول زعماء البشر من استرضاء الأتباع، لتحقيق المصالح المادية وجلب المنافع، وتسيير الأمور.

ثم إن طلبهم مقرون بالتحدي والمراوغة والتعجيز، لا من أجل التوصل إلى التصديق والإيمان، ومعرفة حقيقة النبوة؛ إذ لو أرادوا معرفتها بحق لأقنعهم القرآن المعجزة ولكفاهم آية على تصديق هذا النبي.

إنهم طلبوا إحدى آيات ست:

إما تفجير الينابيع (العيون الغزيرة) بكثرة من الأرض - أرض مكة- وإما تملك الرياض والبساتين والحدائق الغناء تجري الأنهار وسطها، وإما إسقاط السماء عليهم قطعاً قطعاً، كما زعم محمد ﷺ، يعنون قول الله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [سبأ: ٣٤/٩]، وإما الإتيان بالله والملائكة معاينة ومواجهة، كفيلاً بما تقول، شاهداً بصحته، وإما أن يكون لك بيت أو قصر من ذهب، وإما الصعود في معارج السماء، ولن نؤمن من أجل رقيك أو صعودك، حتى تنزل علينا كتاباً من السماء فيه تصديقك، أي كتاباً من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٧٤/٥٢].

فرد الله عليهم بالجواب الحاسم: قل يامحمد: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي تنزيهاً لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء، وعن أن يُعترض عليه في فعل. وقيل: هذا كله تعجب من فرط كفرهم واقتراحاتهم.

فما أنا إلا بشر رسول أتبع ما يوحى إلي من ربي، ويفعل الله ما يشاء من هذه الأشياء التي ليست في قدرة البشر، فهل سمعتم أحداً من البشر أتى بهذه الآيات؟!

والخلاصة: إن التدبير ليس إلى الناس، وإنما التدبير إلى الله تعالى.

من شبهات المشركين
بشرية الرسل وإنكار البعث

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾

القراءات:

﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (ماواهم).

﴿أَءِذَا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾:

قرئ:

١- (أئذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا) وهي قراءة نافع والكسائي.

٢- (إذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (إئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا) وهي قراءة الباقين.

﴿رَبِّيَ إِذًا﴾

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ربيَ إذاً).

الإعراب:

﴿فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ ﴿مَلَٰٓئِكَةٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ المرفوع، و﴿يَمْشُونَ﴾: جملة فعلية صفة له. و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾: حال.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ جملة حالية من ﴿جَهَنَّمُ﴾ ولا يجوز أن تكون صفة؛ لأن ﴿جَهَنَّمُ﴾ معرفة، والجملة هنا نكرة، والمعرفة لا توصف بالنكرة. ويجوز ألا يكون لهذه الجملة موضع من الإعراب، وتكون الواو العاطفة مقدَّرة، أي: وكلما خبت.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم﴾ مبتدأ وخبر و﴿بِأَنَّهُمْ﴾ في موضع نصب؛ لأنه يتعلق بـ ﴿جَزَآؤُهُم﴾.

﴿لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾: مرفوع بفعل مقدر، يفسره ﴿تَمْلِكُونَ﴾ أي لو تملكون، فلما حذف الفعل، صار الضمير المرفوع المتصل في ﴿تَمْلِكُونَ﴾ ضميراً منفصلاً، وهو ﴿أَنتُمْ﴾ ولا يجوز أن يكون ﴿أَنتُمْ﴾ مبتدأ؛ لأن ﴿لَّوْ﴾ حرف يختص بالأفعال كإن الشرطية.

و ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ مفعول لأجله.

البلاغة:

﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ استفهام إنكاري.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم، اهتماماً بأمر الحشر.

﴿وَمَن يَهْدِ﴾ ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي وما منعهم الإيمان بعد نزول الوحي وظهور الحق ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ إلا قولهم منكرين ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ أي لم يبق لهم شبهة تمنعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن إلا إنكارهم أن يرسل الله بشراً، ولم يبعث ملكاً.

﴿قُل﴾ لهم جواباً لشبهتهم ﴿لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ﴾ بدل البشر ﴿مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ﴾ كما يمشي بنو آدم ﴿مُطْمَئِنِّينَ﴾ ساكنين فيها مقيمين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ لتمكنهم من الاجتماع به والتلقي منه، فلم يرسل الله إلى قوم رسولاً إلا من جنسهم يمكنهم مخاطبته والفهم عنه ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي وعلى أني رسول إليكم، بإظهار المعجزة على وفق دعواي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ عالماً ببواطنهم وظواهرهم. وفيه تسلية للرسول ﷺ وتهديد للكفار.

﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ يهدونهم من دونه، والمعنى: ومن يهديه الله إلى الخير فهو المهتدي الموفق؛ لأن نفسه ميّالة إلى ذلك، ومن يضلله الله ويخذله، لإعراضه عن هداية ربه، فلن تجد له أولياء من دون الله يتولون أمره، ويدافعون عنه.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي يسحبون عليها تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم، أو يمشون بها، روى الشيخان عن أنس أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إن الذي أمشاهم على أقدامهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وفيه التفات من الغيبة إلى التكلم.

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ قال البيضاوي: لا يبصرون ما يقر أعينهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، ولا ينطقون بما يقبل منهم؛ لأنهم في دنياهم لم يستبصروا بالآيات والعبر، وتصاموا عن استماع الحق، وأبوا أن ينطقوا بالصدق. ويجوز أن يحشروا بعد الحساب من الموقف إلى النار مَعطَّلي القوى والحواس.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سكن لهبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ توقداً وتلهباً واشتعالاً، بأن تبدل جلودهم ولحومهم، فتعود ملتهبة مستعرة ﴿وَرُفَاتًا﴾ ما بلي من الشيء.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعلموا فهي رؤية القلب، وهو استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ما كانوا يستبعدونه من الإعادة بعد الإفناء ﴿قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ فإنهم ليسوا أشد خلقاً منهم، وليست الإعادة أصعب عليه من الإبداء ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ للموت والبعث ﴿فَأَبَى ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ مع وضوح الحق ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ إلا جحوداً ﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ خزائن رزقه وسائر نعمه، والمطر من أهم المصادر ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ لبخلتم ﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ خوف نفادها بالإنفاق ﴿قَتُورًا﴾ بخيلاً.

المناسبة:

بعد أن أنكر المشركون الآية الباقية التي هي القرآن وسائر الآيات، وليست بدون ما اقترحوه، بل هي أعظم، أخبر الله تعالى عن السبب الواهي الضعيف الذي منعهم من الإيمان، وهو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الناس واحداً بشراً منهم، ولم يكن ملكاً. فهذه شبهة أخرى وهي استبعاد كون الرسل بشراً، بعد الرد عليهم بأن وظيفة الرسل إبلاغ الناس، وليس تلبية اقتراح الآيات، ثم الرد على شبهتهم بأن الرسول يكون عادة من جنس المرسل إليهم.

ثم ذكر شبهة أخرى أيضاً وهي إنكار البعث، ولما أنكروا البعث، نبّههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكمته، بخلق السماوات والأرض.

ولما طلب المشركون إجراء الأنهار والعيون في بلدهم لتكثر أقواتهم وتتسع عليهم، بيَّن تعالى أنهم لو ملكوا خزائن رحمة الله، لبقوا على بخلهم وشحهم، ولما أقدموا على نفع أحد.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ أي وما منع أكثر الناس ومنهم مشركو مكة أن يؤمنوا بالله، ويتبعوا الرسل، حين مجيء الوحي المعجز الذي يستهدف الهداية والإسعاد والنجاة إلا استغرابهم وتعجبهم من بعثة البشر رسلاً، غير متصورين كون الرسول من جنس البشر المرسل إليهم، وأنه كان لابد من أن يكون من الملائكة، وهذا تحكم فاسد وتعنت باطل. والآية مثل قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ١٠/٢] وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦٤/٦] . والآيات في هذا كثيرة.

ثم أجابهم الله تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده، وعلى منطق الأمور، فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ أي قل لهم يا محمد: إن مقتضى الحكمة ومنطق الأشياء والرحمة بالناس أن يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليناقشهم ويخاطبهم، ويفقهوا عنه ويفهموا منه، فليس إرسال الرسول لمجرد إلقاء الموحى به إليه، ولو كان الرسول ملَكاً لما استطاعوا مواجهته، ولا الأخذ عنه، فإن الشيء يألف لجنسه، ويأنس به، فطبيعة الملَك لا تصلح للاجتماع بالبشر، وعقد حوار معه حول أحكام التشريع وتبيان أصول العقيدة، وأداء الرسالة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٩] .

بل إن إرسال الرسول من البشر نعمة وحكمة ومنَّة عظمى، لذا قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٥١] وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٤] وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٨].

والخلاصة في معنى الآية: إنه لو كان في الأرض ملائكة يمشون عليها مطمئنين فيها، كما أنتم أيها البشر فيها، لنزلّنا عليهم من عالم السماء رسولاً من جنسهم، وأنتم البشر رسولكم منكم، لكن يمكن أن يكون البشر رسولاً لغير البشر، فإن النبي ﷺ رسول إلى الإنس والجن؛ لأنه يمكنهم تلقي الوحي عنه وفهم الخطاب منه. وأما تلقي النبي الوحي من جبريل عليه السلام فهذا يتطلب استعداداً خاصاً لا يتهيأ لغير نبي أو رسول.

ثم أرشد الحق تعالى إلى حجة أخرى هي:

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي إن القول الفصل بيني وبينكم، وإقامة الحجة الدامغة عليكم أن الله شاهد علي وعليكم، وحكم بيني وبينكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً لانتقم مني أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٤٤-٤٦] وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٦/ ٢١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ أي إن الله سبحانه عليم بأحوال عباده، يعلم ظواهرهم وبواطنهم، وخبير بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الضلالة، مطلع على مافي قلوبهم، فهم لا يذكرون هذه الشبهات إلا حسداً وحباً للزعامة، وإعراضاً عن قبول الحق. وفي ذلك تهديد ووعيد، وإيناس للنبي ﷺ فيما يلقاه من صدود قومه وعنادهم.

ثم يخبرالله تعالى عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له،

فقال: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يهده الله للإيمان فهوالمهتدي إلى الحق، ومن يضلل الله، فلن تجد لهم أنصاراً يهدونهم من دون الله إلى الحق والصواب.

والمقصود إيناس الرسول ﷺ، فمن سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية، لعلمه السابق بأنهم صائرون لذلك لميل نفوسهم إلى الحق، وجب أن يصيروا مؤمنين؛ لأن علم الله لا يتغير، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل، لما علم الله منهم سوء الاختيار، والإصرار على الغَواية والضلال، استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٨/ ١٧] .

ولا يقصد بوجود العلم والحكم السابق إجبار البشر على الإيمان والكفر، فإن الإنسان مختار في حدود ما اختاره الله له، أي إن الإنسان، وهو يختار بمشيئته فإنه في الحقيقة التي لا يعلمها لا يختار إلا ما اختاره الله له، فلا مشيئة للإنسان ولا لشيء إلا ما يشاؤه الله. وهذه المشيئة الكلية والشاملة لله في كل شيء كفلت للإنسان حرية الاختيار بين الأمرين، كفلت مشيئة الله للإنسان في عدله ورحمته أن يكون له «الخيار» بين الهدى والأمن مع الله، أو الضلال والشك، كما بيَّن تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٧٦/ ٣] ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠] .

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي ونجمعهم يوم القيامة في موقف الحساب بعد الخروج من القبور، مسحوبين على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٨] عمياً لا يبصرون، بكماً لا ينطقون، صُمّاً لا يسمعون، أي أنهم كما كانوا في الدنيا معطلين هذه الحواس عن الانتفاع الحقيقي بها، وإن كانوا في الظاهر مبصرين ناطقين سامعين، فهم في الآخرة لا يبصرون طريق النجاة الذي يقر أعينهم،

ولا ينطقون بما يقبل منهم، ولا يسمعون ما يلذ مسامعهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧٢/١٧] قال ابن كثير: وهذا يكون في حال دون حال، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا، بكماً وعمياً وصماً عن الحق، فجُوزوا في محشرِهم بذلك.

أخرج الشيخان وأحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «قيل: يارسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم، قادر على أن يمشيهم على وجوههم».

وأخرج الترمذي: «إن الناس يكونون ثلاثة أصناف في الحشر: مشاة، وركباناً، وعلى وجوههم» وفي معناه أخرج الإمام أحمد عن حذيفة بن أسيد، قال: قام أبو ذر فقال: يابني غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثني: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار».

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي منقلبهم ومصيرهم إلى جهنم، كلما سكن لهيبها زدناهم لهباً ووهجاً وجمراً، بأن تأكل جلودهم ولحومهم وتفنيها، فيسكن لهبها، ثم يبدلون غيرها، فترجع ملتهبة مستعرة، ويتكرر الإفناء والإعادة، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم بالبعث، كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٣٠] .

وعلة تعذيبهم ما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ أي إن ذلك الجزاء والعقاب الذي جازيناهم به من البعث عمياً وبكماً وصماً هو جزاؤهم الذي يستحقونه على كفرهم بالله تعالى، وتكذيبهم آياته أي أدلته وحجته على وجوده ووحدانيته وعلى البعث، وعلى قولهم منكرين وقوع البعث: أئذا كنا عظاماً نخرة ورفاتاً بالية وتراباً منتشراً، نعود خلقاً جديداً آخر؟ أَبَعْدَ ما صرنا

إلى ما صرنا إليه من البِلى والهلاك، والتفرق والذهاب في أنحاء الأرض، نعاد مرة ثانية؟

فنبههم الله على قدرته على البعث بأنه خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي ألم يعلموا ويتدبروا أن الذي أبدع خلق السماوات والأرض على غير مثال سبق، قادر على أن يخلق أمثالهم، ويعيد أبدانهم، وينشئهم نشأة أخرى، كما بدأهم، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٥٧] ، ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧)﴾ [النازعات: ٧٩/ ٢٧] فدل هذا على أن خلق الإنسان أو إعادته أهون وأيسر من خلق السماوات والأرض، وأن الإعادة أهون عليه من الابتداء.

لكن للبعث والقيامة أو الموت وقتاً محدداً، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي وجعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً معيناً، ومدة مقدرة، لا بدّ من انقضائها، وبعد مضي تلك المدة تكون القيامة أمراً محتماً لا شكّ فيه.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي وبالرغم من إقامة تلك الحجة الدامغة عليهم أبى الكافرون الظالمون أنفسهم إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم، وجحوداً للثابت الصحيح، وإنكاراً للبعث.

وسبب عدم إجابتهم لمطالبهم من القصور والجنات والعيون هو الشح، فقال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي قل لهم يا محمد: لوأنكم ملكتم التصرف في خزائن أرزاق الله لبقيتم على الشح والبخل، ولأمسكتم عن الإنفاق، أي الفقر، كما قال ابن عباس، أي خشية الزوال والذهاب والنفاد والفراغ، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ أي بخيلاً منوعاً، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ٥٣] . أي لو أن لهم نصيباً في ملك الله تعالى، لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، وهو الخيط في شق النواة، وقال الله تعالى أيضاً: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ٧٠/ ١٩-٢٢].

والآية دليل واضح على شح الإنسان وكرم الله تعالى وجوده وإحسانه، جاء في الصحيحين: «يد الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سَحَّاء، الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يده».

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - إن كفار قريش قوم متكبرون معاندون، فقالوا للنبي ﷺ: أنت مثلنا، فلا يلزمنا الانقياد لك، وغفلوا عن القرآن المعجزة الذي يثبت صدقه في رسالته.

وادعاؤهم أن الرسول لا يصلح أن يكون بشراً: ادعاء مردود عليهم؛ لأن أداء الرسالة وما تقتضيه من إقناع ونقاش، ومراعاة لموجب الحكمة والمصلحة أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم.

فالمَلَك إنما يرسل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسل الله تعالى مَلَكاً إلى بني آدم لم يقدروا أن يروه على الهيئة التي خلق عليها، وإنما أقدر الأنبياء على رؤيته، وخلق فيهم ما يقدرون به؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة.

٢ - كفى بالله شاهداً ومصدقاً يشهد أن محمداً ﷺ رسول الله، يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله تعالى: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٣] : فمن يشهد لك أنك رسول الله؟ فنزل ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾.

٣ً - لو شاء الله أن يهدي الكفار لاهتدوا، فإن لم يهتدوا بهدي الله تعالى، لا يهديهم أحد.

٤ً - يحشر الكفار يوم القيامة على وجوههم، وفيه وجهان:

أحدهما - أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، كما يقول العرب: قدِم القوم على وجوههم: إذا أسرعوا.

والثاني - أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم، كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه، قال القرطبي: وهذا هو الصحيح؛ لحديث أنسَ المتقدم. فإنهم يحشرون عمياً عما يسرّهم، بكماً عن التكلم بحجة مقبولة، صماً عما ينفعهم، وهذا يدل على أن حواسهم باقية على ما كانت عليه. وقيل: إنهم يحشرون على الصفة التي وصفهم الله بها، ليكون ذلك زيادة في عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم في النار، فأبصروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٣] ، وتكلموا؛ لقوله تعالى﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١٣] ، وسَمِعوا؛ لقوله تعالى﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١٢] .

٥ً - مأوى الكفار ومستقرهم ومقامهم جهنم، كلما سكنت نارها، زادها الله ناراً تلتهب، وسكون التهابها من غير نقصان في آلامهم ولا تخفيف عنهم.

٦ً - ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله تعالى وحججه الدالة على وجوده وتوحيده، وجزاء جحودهم وإنكارهم البعث إنكار تعجب من إعادة ما بلي من العظام، وتفتت من الجسد، وزالت معالمه، وغفلوا عن أن الله هو الذي خلقهم أول مرة، والإعادة أهون عليه من الابتداء، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٤] ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] .

ومع كل هذه الدلائل أبى المشركون الظالمون إلا جحوداً بأجَل القيامة وبآيات الله تعالى.

٧ - لو وسّع الله الرزق على العباد لبخلوا أيضاً، فإن قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ﴾ أي خزائن الأرزاق والنعم ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ من البخل، هو جواب قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٠] حتى نتوسع في المعيشة، والمعنى: لو توسعتم لبخلتم أيضاً، وكان الإنسان قتوراً أي بخيلاً مضيِّقاً، والآية على الصحيح عامة في المشركين وغيرهم.

الآيات التسع لموسى عليه السلام وصفة إنزال القرآن

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾

القراءات:

﴿فَسْـَٔلْ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي (فَسَلْ).

﴿عَلِمۡتَ﴾:

وقرأ الكسائي (علمتُ).

﴿جِئۡنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جينا).

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (وقراناً).

الإعراب:

﴿تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ ﴿بَيِّنَٰتٖۖ﴾ إما وصف مجرور لآيات، أو وصف منصوب لتسع.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ الباء في ﴿وَبِٱلۡحَقِّ﴾ في الموضعين: إما متعلقة بالفعلين على جهة التعدي، وإما أن الأولى حال من هاء ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ والثانية حال من ضمير ﴿نَزَلَۗ﴾.

﴿وَقُرۡءَانٗا﴾ إما منصوب بفعل مقدر، وتفسيره ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ أي فرقنا قرآنا فرقناه، أو معطوف على قوله: ﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ على تقدير: وصاحب قرآن، ثم حذف المضاف، فيكون ﴿فَرَقۡنَٰهُ﴾ وصفاً لقرآن. و﴿عَلَىٰ مُكۡثٖ﴾: حال، أي متمهلاً مُترفِّقاً.

البلاغة:

﴿مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ بينهما طباق.

﴿مَسۡحُورٗا﴾ ﴿مَثۡبُورٗا﴾ بينهما جناس ناقص لتغير بعض الحروف.

﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ بينهما مقابلة، وفيهما سجع.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي والله لقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على نبوته، وصحة ما جاء به من عند الله، وهي العصا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، وهذه سبع باتفاق، وأما الثنتان فقيل: انفلاق البحر، والسنون، وقيل: انفلاق البحر ونتق الطور على بني إسرائيل، وقيل: انفلاق البحر، وحل عقدة لسان موسى. وهما مرويان عن ابن عباس، وقيل عن مجاهد وآخرين: السنون، ونقص الثمرات. وقيل بغير ذلك كما ذكرنا في سورة الأعراف.

خمس منها ذكرت في سورة الأعراف: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [١٣٣] والباقي متفرقات.

وقيل: المراد بالآيات: الأحكام، أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه: «أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه: انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله، فأتياه ﷺ، فسألاه عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فقال: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تسرقوا، ولا تَسْحَروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تقذِفوا مُحْصَنة، وأنتم يا يهود عليكم خاصة ألا تَعْدوا في السبت، فقبَّلا يده ورجله، وقالا: نشهد إنك نبي، قال: فما يمنعكما أن تُسْلما؟ قالا: إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود» قال الشهاب الخفاجي: وهذا هو التفسير الذي عليه المعوّل في الآية.

﴿فَسْـَٔلْ﴾ يا محمد .﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عنه سؤال تقرير للمشركين على

صدقك، أو: فقلنا له: اسأل. ﴿مَسْحُورًا﴾ سحرت، فأصبحت متخبط العقل مخبولاً. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الآيات. ﴿بَصَآئِرَ﴾ بينات واضحات وعبراً، ولكنك تعاند. ﴿مَثْبُورًا﴾ هالكاً، أو مصروفاً عن الخير، مطبوعاً على الشر. ﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون. ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾ أن يخرج موسى وقومه وينفيهم من الأرض: أرض مصر، أو الأرض مطلقاً بالقتل والاستئصال.

﴿ٱسْكُنُواْ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزكم منها. ﴿وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي الساعة أو الدار الآخرة يعني قيام القيامة. ﴿لَفِيفًا﴾جميعاً أنتم وهم، واللفيف: الجمع العظيم المختلط من الطائعين والعصاة وغيرهم. ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ نزلناه مفرقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة. ﴿مُكْثٍ﴾ مَهْل وتؤدة وتأنٍ ليفهموه. ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ شيئاً بعد شيء على حسب المصالح والحوادث.

﴿قُلْ﴾ لكفار مكة. ﴿ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ﴾ تهديد لهم ووعيد. ﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ قبل نزوله، وهم مؤمنو أهل الكتاب. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ يسقطون على وجوههم تعظيماً لأمر الله، وشكراً لإنجازه وعده في تلك الكتب ببعثة محمد ﷺ على فترة من الرسل وإنزاله القرآن عليه. والمعنى: إن لم تؤمنوا به، فقد آمن به من هو خير منكم، وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب السابقة، وعرفوا حقيقة الوحي، وأمارات النبوة، وتمكنوا من التمييز بين المحق والمبطل، أو رأوا نعتك وصفة ما أنزل إليك في تلك الكتب. فالخرور: السقوط بسرعة، والأذقان جمع ذقن: وهو مجتمع اللحيين.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ تنزيهاً له عن خلف الوعد. ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة. ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ بإنزال القرآن وبعث النبي ﷺ. ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ عطف بزيادة صفة. ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ القرآن. ﴿خُشُوعًا﴾ تواضعاً لله.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى عن قريش تعنتهم في اقتراحهم وعنادهم للرسول

ﷺ، سلاه تعالى وذكّره بما جرى لموسى مع فرعون، وقومه من قولهم: أرنا الله جهرة، وقول قريش: أو تأتي بالله، أو نرى ربنا، وأنه أنزل آيات تسعاً على موسى مثلما اقترحوا، فلم تفد تلك الآيات فرعون وقومه بالإقبال على ساحة الإيمان، ويكفيكم ما أنزل على محمد ﷺ من آيات علمية غير مادية، فإن لم يؤمنوا، كانت عاقبتكم الدمار والهلاك، كما أهلك فرعون وقومه بالغرق.

وبعد أن ذكر تعالى إعجاز القرآن بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨] عاد إلى بيان صفة نزول القرآن منجماً، وأنه حق ثابت لا يزول. وهكذا طريقة كلام العرب وأسلوبها، تأخذ في شيء وتستطرد منه إلى شيء آخر ثم إلى آخر، ثم تعود إلى ما ذكرته أولاً[١]. وهدد تعالى من لم يؤمن به، وأنه قد آمن به علماء أهل الكتاب.

التفسير والبيان:

أجاب الله تعالى المشركين في هذه الآيات عن قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ حتى تأتينا بهذه المعجزات القاهرة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ أي لقد أمددنا موسى عليه السلام وأعطيناه تسع آيات بيِّنات، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه، فيما أخبر به، حين أرسله إلى فرعون وقومه، فلم يؤمنوا بها، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٣٣] وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/١٤] .

والآيات التسع هي كما ذكر ابن عباس فيما رواه عنه عبد الرزاق وسعيد ابن منصور وابن جرير وابن المنذر: «العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم آيات مفصلات».

---

(١) البحر المحيط: ٦/٨٧

لكن تخصيص التسع بالذكر لا يمنع ثبوت الزائد عليها؛ لأن القاعدة في أصول الفقه: أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد.

وقد ذكر القرآن المجيد ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام ذكرها الرازي[1] وهي: إزالة العقدة من لسانه؛ أي إذهاب العجمة وصيرورته فصيحاً، وانقلاب العصا حية، وتلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وشق البحر: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٠] والحجر: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٠] وإظلال الجبل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧١] وإنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه، والجدب، ونقص الثمرات: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٠] والطمس على أموالهم من النحل والدقيق والأطعمة والنقود.

وقال الرازي[2] بعد أن ذكر أن الروايات ظنية غير يقينية في بيان الآيات التسع: أجود الروايات في تفسير قوله تعالى: ﴿تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ ما روى صفوان بن عَسَّال المرادي أنه قال: إن يهودياً قال لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي نسأله عن تسع آيات، فذهبا إلى النبي ﷺ وسألاه عنها، فقال: «هن ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا، ولا تَسْحَرُوا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصَنة، ولا تولوا الأدبار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعدوا في السبت»، فقام اليهوديان، فقبَّلا يديه ورجليه، وقالوا: نشهد إنك نبي، ولولا نخاف القتل، وإلا اتبعناك»[3]. فالمراد بالآيات: الأحكام.

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ٦٤

(٢) المرجع السابق.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه.

﴿فَسْئَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي فاسأل أيها النبي بني إسرائيل المعاصرين لك كعبد الله بن سَلام وصحبه سؤال تأكد واستيثاق واطمئنان، لتعلم ثبوت ذلك في كتابهم.

﴿إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي فاسألهم حين جاءهم موسى بتلك الآيات، وبلغها فرعون، فقال فرعون: إني لأظنك يا موسى أن الناس سحروك وخبلوك، فصرت مختلط العقل.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ أي قال موسى لفرعون: لقد علمت علم اليقين أن هذه الآيات التسع ما أنزلها خالق الأرض والسماوات إلا حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به، فهي تهدي الإنسان إلى الطريق الحق، وأنها من عند الله لا من عند غيره.

﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ أي مغلوباً هالكاً مصروفاً عن الخير، ميالاً إلى الشر.

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي فأراد فرعون أن يخرج موسى وقومه بني إسرائيل من أرض مصر بالقتل، أو بالطرد.

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾ أي فأهلكناه وجنوده جميعاً بالإغراق في البحر.

﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ أي ونجينا موسى وقومه بني إسرائيل، وقلنا لهم بعد هلاك فرعون: اسكنوا الأرض التي أراد فرعون إخراجكم منها وهي أرض مصر، أو أرض الشام التي وُعِدتم بها.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم أنتم وعدوكم جميعاً، مختلطين أنتم وهم، ثم نحكم بينكم وبينهم. واللفيف: الجمع العظيم من أخلاط شتى من الشريف والدني، والمطيع والعاصي، والقوي والضعيف.

وبعد أن ردّ الله تعالى على الكفار بأنه لا حاجة للمعجزات؛ لأن قوم موسى آتاهم الله تسع آيات بينات، فلما جحدوا بها أهلكهم الله، ولأنه لو جاءهم بتلك المعجزات التي اقترحوها ثم كفروا بها، لأنزل بهم عذاب الاستئصال، فاقتضت الحكمة عدم تلبية مطالبهم لعلمه تعالى أن منهم من يؤمن، ومنهم من لا يؤمن. بعد هذا عاد الله تعالى إلى تذكيرهم بالمعجزة الخالدة وهي القرآن، وإلى تعظيم شأنه، والاكتفاء به، فقال:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي إننا أنزلنا القرآن متضمناً للحق من تبيان براهين الوحدانية والوجود، وحاجة الناس إلى الرسل، والأمر بالعدل ومكارم الأخلاق، والنهي عن الظلم وقبائح الأفعال والأقوال، والأحكام التشريعية والأوامر والنواهي المنظمة لحياة الفرد والجماعة والدولة وغير ذلك من أصول التشريع الرفيع.

ونزل إليك يا محمد هذا القرآن محفوظاً محروساً، لم يختلط بغيره، ولم يطرأ عليه زيادة فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك مع الحق وهو جبريل عليه السلام، الشديد القوي، الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى.

وبعد بيان خواص القرآن أبان تعالى مهام النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين بالجنة، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين بالنار.

ثم عاد إلى بيان كيفية نزول القرآن منجماً، أي مقسطاً بحسب الوقائع والمناسبات، فقال تعالى:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي وأنزلنا قرآناً مفرقاً منجماً في مدى ثلاث وعشرين سنة، فلم ينزل في يومين أو ثلاثة، وإنما أنزلناه بحسب الوقائع والحوادث وعلى ما تقتضيه الحكمة والمصلحة العامة النافعة في الدنيا والآخرة على وفق المناسبات، وقد ابتدأ نزوله في ليلة

مباركة هي ليلة القدر في رمضان، وقرئ (فرّقناه) بالتشديد، أي أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً.

وذلك لتبلغه للناس وتتلوه عليهم على مهل، ونزلناه تنزيلاً أي شيئاً بعد شيء، على الحد المذكور والصفة المذكورة. وفائدة قوله: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ بعد قوله ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾ بيان كون التنزيل على حسب الحوادث.

ثم هددهم الله محتقراً لهم غير مبال بشأنهم بقوله: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الذين لم يقتنعوا بكون القرآن معجزة كافية، وقالوا لك: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٠] آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا به، فهو حق في نفسه أنزله الله، وكتاب خالد إلى أبد الدهر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي إن علماء أهل الكتاب الصالحين الذين تمسكوا بكتابهم ولم يبدلوه ولم يحرفوه، إذا يتلى عليهم هذا القرآن يسجدون على وجوههم تعظيماً لله عز وجل، وشكراً على ما أنعم به عليهم، وعبر عن السجود بقوله ﴿لِلْأَذْقَانِ﴾ لأن الإنسان كلما ابتدأ بالخرور والإقبال على السجود فأقرب الأشياء من الجبهة إلى الأرض: الذقن، أو هو كناية عن المبالغة في الخضوع والخشوع والخوف من الله تعالى.

ويقولون في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد، لذا قال: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي منجزاً واقعاً آتياً لا محالة.

وهؤلاء كما قال مجاهد: ناس من أهل الكتاب، حين سمعوا ما أنزل على محمد ﷺ خرُّوا سجداً، منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل، وورقة بن نَوْفل، وعبد الله بن سَلام.

وهذا السجود من هؤلاء تعريض بأهل الجاهلية والشرك، فإنهم إن لم يؤمنوا بالقرآن، فإن خيراً منهم وأفضل علماء أهل الكتاب الذين قرؤوا الكتب، وعلموا ما الوحي، وما الشرائع، فآمنوا وصدقوا به، وثبت لديهم أنه النبي الموعود به في كتبهم، فإذا تلي عليهم خروا سجداً لله، تعظيماً لأمره، ولإنجاز ما وعد في الكتب المنزلة، وبشر به من بعثة محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في الآية: ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي بإنزال القرآن وبعثة محمد.

وصفة سجودهم ما قال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ أي ويخرون ساجدين باكين خاشعين خاضعين لله عز وجل من خشية الله، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله.

ويزيدهم السجود خشوعاً، أي إيماناً وتسليماً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/١٧].

وقد امتدح النبي ﷺ البكاء في أحاديث كثيرة منها: ما رواه الترمذي عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسُّهما النار: عينٌ بكت من خَشْية الله تعالى، وعينٌ باتت تحرُسُ في سبيل الله تعالى».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى التالي:

١ً - أيد الله نبيه موسى عليه السلام بمعجزات أو آيات تسع، كما ذكرت الآية هنا، وهي بدلالة آيات أخرى ست عشرة معجزة، كما بينا في التفسير، واخترنا ما اختاره الرازي وغيره أنها آيات الكتاب والأحكام.

ولم تكن الإحالة بالسؤال إلى بني إسرائيل عن هذه الآيات إلا من قبيل الاستفهام والإلزام، ليعرف اليهود صحة ما يقول محمد ﷺ.

وبالرغم من دعم موسى بهذه الآيات، فلم يؤمن فرعون برسالته، وإنما قال له: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ أي ساحراً بغرائب أفعالك، أو مسحوراً من غيرك مختلط العقل مخبولاً. والظن هنا على حقيقته المفيد رجحان الوقوع.

٢ - لم يجد موسى جواباً لفرعون إلا الاعتصام بربه، وإعلانه أن هذه الآيات منزلة من رب السماء والأرض بصائر، أي دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته وتصديقه موسى في نبوته، وقال له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ والظن هنا بمعنى التحقيق والتيقن، والثبور: الهلاك والخسران.

٣ - لم يجد الطاغية فرعون غير استخدام السلطة والقوة، وصمم على إخراج موسى وبني إسرائيل إما بالقتل أو بالإبعاد، فأهلكه الله عز وجل، وأسكن بني إسرائيل من بعد إغراقه أرض الشام ومصر. ثم يأتي الله بالجميع يوم القيامة من قبورهم مختلطين من كل موضع، قد اختلط المؤمن بالكافر دون تمييز ولا تحيز، ويحاسب كل امرئ على ما قدم.

٤ - أنزل الله القرآن متضمناً الحق والعدل والشريعة والحكم الأمثل، والجمع بين الإنزالين لمعنيين، فقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ أي أوجبنا إنزاله بالحق، وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أي ونزل وفيه الحق، أو أن الأول معناه: مع الحق، والثاني بالحق أي بمحمد ﷺ، أي نزل عليه.

٥ - كان إنزال القرآن منجماً مقسطاً على حسب الوقائع والمناسبات في مدى ثلاث وعشرين سنة، ليتمكن الناس من قراءته على مهل وتدبر وإمعان، وليعملوا به تفصيلاً، فإنهم لو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لنفروا.

٦ - هدد الله تعالى مشركي قريش وأبدى إعراضه عنهم، لا على وجه التخيير قائلاً لهم: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا﴾ فإن العلماء السابقين من أهل الكتاب وهم مؤمنو أهل الكتاب آمنوا به عن يقين، ولم يتمالكوا أنفسهم عند سماعه إلا السجود لله خاضعين خاشعين باكين من خشية

الله، قائلين: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي منجزاً بإنزال القرآن وبعث محمد ﷺ.

٧ - قوله ﴿يَبْكُونَ﴾ دليل على جواز البكاء في الصلاة من خوف الله تعالى، أو على معصيته في دين الله، وأن البكاء لايقطعها ولا يضرها. وقيد ذلك بعض الفقهاء بألا يكون مقروناً بصوت وكلام.

أما الأنين فلا يقطع الصلاة للمريض، ويكره للصحيح في رأي مالك. وكذلك التنحنح والنفخ لا يقطع الصلاة عند مالك. وقال الشافعي: إن كان له حروف تسمع وتفهم يقطع الصلاة. وقال أبو حنيفة: إن كان من خوف الله لم يقطع، وإن كان من وجع قطع.

دعاء الله بالأسماء الحسنى

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾

القراءات:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾: قرئ:

١- (قلِ ادعوا الله أوِ ادعوا الرحمن) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (قلُ ادعوا الله أوُ ادعوا الرحمن) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟﴾ ﴿أَيًّا﴾: شرطية، منصوب بـ﴿تَدْعُوا۟﴾، والتنوين في ﴿أَيًّا﴾

عوض عن المضاف إليه، و﴿مَّا﴾: زائدة للتأكيد، و﴿تَدْعُواْ﴾: مجزوم بأي، وفاء ﴿فَلَهُ﴾ جواب الشرط، وقوله ﴿ٱدْعُواْ﴾ يتعدى إلى مفعولين، تقول: دعوته زيداً.

البلاغة:

﴿تَجْهَرْ﴾ ﴿تُخَافِتْ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي سموه بأي واحد من هذين الاسمين، أو نادوه بأن تقولوا: يا الله، يا رحمن ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ أي هذين تدعوا فهو حسن، والدعاء هنا: التسمية ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فلله الأسماء الحسنى، وهذان منها، وكونها أسماء حسنى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام. وقوله: ﴿فَلَهُ﴾ للمسمى؛ لأن التسمية له، لا للاسم، وكان أصل الكلام: أيّاً ما تدعو فهو حسن، فوضع موضعه ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة والدلالة على ما هو الدليل على الله تعالى.

والأسماء الحسنى تسعة وتسعون، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «الله الذي لا إله إلا هو: الرحمن، الرحيم، المَلِك، القُدّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبَّار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفار، القهَّار، الوهَّاب، الرزَّاق، الفتَّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المُعِزّ، المُذِلّ، السميع، البصير، الحكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقُّ، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المُحْصِي، المُبْدِئ، المُعِيد، المُحْيِي، المُميت، الحيُّ، القيُّوم،

الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصمَد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعال، البَرّ، التواب، المنتقم، العفُوُّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِط، الجامع، الغني، المغني، المانع، الضارُّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور».

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ بقراءتك فيها، فيسمعك المشركون، فيسبوك ويسبوا القرآن ومن أنزله ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ ولا تسرّ بقراءتك، لينتفع أصحابك ﴿وَٱبْتَغِ﴾ اقصد ﴿بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً وسطاً.

﴿شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ في الألوهية ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ﴾ متولي أمره ينصره ﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ من أجل الذل، أي لم يذل، فيحتاج إلى ناصر، أي لم يكن له ولي يواليه من أجل مذلَّة به، ليدفعها بموالاته ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ عظّمه تعظيماً تاماً منزهاً عن اتخاذ الولد والشريك والذل وكل مالا يليق به.

وترتيب الحمد على ذلك للدلالة على أنه المستحق لجميع المحامد، لكمال ذاته وتفرده في صفاته. وفيه تنبيه على أن العبد، وإن بالغ في التنزيه والتمجيد، واجتهد في العبادة والتحميد، ينبغي أن يعترف بالقصور عن حقه في ذلك.

روى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ الجُهَني عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «آية العز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ إلى آخر السورة».

سبب النزول:

نزول الآية: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ﴾:

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم، فدعا الله تعالى، فقال في دعائه: يا الله، يا رحمن، فقال

المشركون: انظروا إلى هذا الصابئ، ينهانا أن ندعو إلهين، وهو يدعو إلهين، فنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية.

وقال ميمون بن مَهْران: كان رسول الله ﷺ يكتب في أول ما يوحى إليه: باسمك اللهم، حتى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال مشركو العرب: هذا الرحيم نعرفه، فما الرحمن؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال الضحاك: قال أهل التفسير: قيل لرسول الله ﷺ: إنك لتُقِلّ ذكر الرحمن، وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نزول الآية: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾:

أخرج أحمد والشيخان والترمذي وغيرهم عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ قال: نزلت ورسول الله ﷺ مُخْتَفٍ بمكة، وكانوا إذا سمعوا القرآن، سبّوا القرآن ومن أنزله، ومن جاء به، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا يسمعون ﴿وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

وروي أن أبا بكر رضي الله عنه كان يخفت في قراءته، ويقول: أناجي ربي، وقد علم حاجتي، وعمر كان يجهر بها ويقول: أطرد الشيطان، وأوقظ الوَسْنان، فلما نزلت الآية، أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلاً، وعمر أن يخفض قليلاً.

نزول الآية (١١١):

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أخرج ابن جريج عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ وقالت العرب: لبيك لا شريك

لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابئون والمجوس، لولا أولياء الله لذل، فأنزل الله: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن الله أثبت تعالى أنه أنزل القرآن على رسوله ﷺ، وأن العرب عجزوا عن معارضته، وأنه ﷺ قد جاءهم بتوحيد الله ورفض آلهتهم، عدلوا إلى رميه عليه الصلاة والسلام بأن ما نهاهم عنه رجع هو إليه، فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية.

ولما ذكر تعالى أنه واحد، وإن تعددت أسماؤه، أمر الله تعالى نبيه أن يحمده على ما أنعم به عليه من شرف الرسالة والاصطفاء، ووصف نفسه بأنه لم يتخذ ولداً، للرد على اليهود والنصارى والعرب الذين عبدوا الأصنام، وجعلوها شركاء لله، والعرب الذين عبدوا الملائكة واعتقدوا أنهم بنات الله، فنفى الولد أولاً، ثم نفى الشريك في ملكه، ثم نفى الولي وهو الناصر، والشريك أعم من الولد، والولي الناصر أعم من نسبة الولد والشريك، فهو أعم من أن يكون ولداً، أو شريكاً أو غير شريك.

التفسير والبيان:

هذا رد على المشركين الذين أنكروا إطلاق اسم الرحمن على الله عز وجل، فقال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين في مكة المنكرين صفة الرحمة لله تعالى، المانعين من تسميته بالرحمن: لا فرق في دعائكم لله باسم ﴿ٱللَّهَ﴾ أو باسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ فإنه ذو الأسماء الحسنى. قال في الكشاف: الله والرحمن المراد بهما الاسم، لا المسمى، وأو للتخيير، فمعنى ﴿ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا، واذكروا إما هذا وإما هذا، والدعاء بمعنى التسمية، لا بمعنى النداء[1].

---

(١) الكشاف: ٢/٢٤٩

وقوله ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التقدير: أيّ هذين الاسمين سميتم وذكرتم، فكل أسمائه حسنى، فيها تعظيمه وتقديسه، كما قال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٤] فأي اسم تدعونه به فهو حسن.

ثم أرشد الله إلى كيفية القراءة والدعاء، فقال:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي ولا تجهر بقراءة صلاتك، حتى لا يسمع المشركون فيسبوا القرآن، ويسبوا من أنزله، ومن جاء به، ولا تخافت بها عن أصحابك، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك، وابتغ بين الجهر والمخافته سبيلاً وسطاً، فهذه هي الطريقة المثلى في القراءة، وهي الحد الوسط بين الجهر بالصوت والإسرار والإخفات فيه، ففي الجهر حتى لا يتفرقوا عنه ويأبوا أن يسمعوا منه، أو يسبوا القرآن، وفي الإسرار ليسمع من أراد السماع فينتفع به.

ثم علَّمنا تعالى كيفية الحمد، فقال:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي وقل: لله الحمد والشكر على ما أنعم على عباده، وهو الموصوف بالصفات الثلاث التالية لتنزيه نفسه عن النقائص:

الأولى - إنه لم يتخذ ولداً: فهو غير محتاج إليه، واتخاذ الولد من صفات الحوادث، وهو منزه عنها. وفي هذا رد على اليهود القائلين: عزير ابن الله، والنصارى القائلين: المسيح ابن الله.

الثانية - ليس له شريك في المُلْك والسلطان: لأنه أيضاً غير محتاج إليه، ولو احتاج إلى شريك لكان عاجزاً، ولأن تعدد الآلهة يؤدي إلى الفساد والنزاع: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٢] . ولم يعرف المستحق للعبادة والحمد والشكر.

الثالثة: لم يكن له ولي من الذل: أي ليس بذليل حتى يوالي أحداً لمذلة، من ولي أو وزير أو مشير، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لاشريك له، ومدبرها ومقدرها بمشيئته[١].

ومجموع هذه الصفات في قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١١٢/ ١-٤].

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ أي عظمه وأجلّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً، فذلك التعظيم الذي يتناسب مع جلاله وعظمته وقدسيته، فهو الكبير المتعال في ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل الوجود؛ وفي صفاته فله صفات الكمال المنزه عن كل صفات النقصان؛ وفي أفعاله، فلا يحدث شيء في مُلكه إلا بمقتضى حكمته ومشيئته؛ وفي أحكامه، فله مطلق الأمر والنهي والعز والذل، لا معقب لحكمه، ولا اعتراض لأحد على شيء من أحكامه؛ وفي أسمائه فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية[٢].

روى أحمد عن مُعاذ الجهني أن رسول الله ﷺ كان يقول: «آية العز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية». وروى عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبي أمية قال: «كان رسول الله ﷺ يعلِّم الغلام من بني هاشم إذا أفْصَح: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية، سبع مرات».

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات أن دعاء الله وتسميته يكون بكل اسم من أسمائه الحسنى،

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ٧١

(٢) تفسير الرازي: ٢١/ ٧٢

التي منها الله والرحمن، وليس ذلك تعدداً في الآلهة كما فهم المشركون خطأ، وإنما التسمية بأسماء متعددة لمسمى واحد.

والدعاء أو القراءة في الصلاة يكون بطريقة متوسطة بين الجهر والإسرار، وإذا كان السبب الداعي لذلك وهو تفادي سماع المشركين وسبهم القرآن ومن أنزله ومن جاء به، أو نفرتهم عنه وإبائهم سماعه، فإننا نحتفظ بالتزام هذه الطريقة، تذكراً لحال التشريع وظروفه الأُولى التي صاحبته.

وقد عبر الله تعالى بالصلاة في الآية هنا عن القراءة، كما عبر بالقراءة عن الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧٨] لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهي من جملة أجزائها، فعبَّر بالجزء عن الجملة، وبالجملة عن الجزء على عادة العرب في المجاز، وهو كثير.

وقوله سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ رد على اليهود والنصارى والعرب في قولهم: عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه، فهو تعالى لا والد له ولا صاحبة ولا ولد، وهو واحد لاشريك له في ملكه وعبادته، وليس له ناصر مدافع عنه يجيره من الذل، لم يحالف أحداً، ولا ابتغى نصر أحد.

وهو تعالى يستحق التعظيم التام والإجلال، ويقال: أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال: الله أكبر، أي أنه أكبر من كل شيء، وكان النبي ﷺ إذا دخل في الصلاة قال: «الله أكبر». وقال عمر بن الخطاب: قول العبد: الله أكبر خير من الدنيا وما فيها.

وهذه الآية ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي خاتمة التوراة. قال عبد الله بن كعب: افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة.

وفي خبر معاذ بن جبل عن النبي ﷺ: «أنها آية العز»، كما بينا.

وقال عبد الحميد بن واصل: سمعت عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الآية، كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال؛ لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولداً: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ١٩/٩٠] .

وجاء في الخبر أن النبي ﷺ «أمر رجلاً شكا إليه الدَّيْن بأن يقرأ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ إلى آخر السورة، ثم يقول: توكَّلت على الحي الذي لايموت؛ ثلاث مرات».

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الكهف

مكية، وهي مئة وعشر آيات

تسميتها:

سميت سورة الكهف، لبيان قصة أصحاب الكهف العجيبة الغريبة فيها في الآيات [٩ -٢٦] مما هو دليل حاسم ملموس على قدرة الله الباهرة.

وهي إحدى سور خمس بدئت بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: وهي الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر. وهو استهلال يوحي بعبودية الإنسان لله تعالى، وإقراره بنعمه وأفضاله، وتمجيد الله عز وجل، والاعتراف بعظمته وجلاله وكماله.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة وضع هذه السورة بعد سورة الإسراء من نواحٍ: هي افتتاح الإسراء بالتسبيح، وهذه بالتحميد، وهما مقترنان في القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد، نحو: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨/١٥] وفي الحديث: «سبحان الله وبحمده». كما أن الإسراء اختتمت بالتحميد أيضاً، فتشابهت الأطراف أيضاً.

ولما أمر اليهود المشركين أن يسألوا النبي ﷺ عن ثلاثة أشياء: عن الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين، أجاب تعالى في آخر

سورة بني إسرائيل عن السؤال الأول، وقد أفرد فيها لعدم الجواب عن الروح، ثم أجاب تعالى في سورة الكهف عن السؤالين الآخرين، فناسب اتصالهما ببعضهما.

ولما ذكر تعالى في الإسراء: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [٨٥] ناسب ذكر قصة موسى مع العبد الصالح الخضر، كالدليل على ما تقدم. وقد ورد في الحديث: أنه لما نزل: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قال اليهود: قد أوتينا التوراة فيها علم كل شيء، فنزل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ [١٠٩].

ولما قال تعالى في الإسراء: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [١٠٤] أعقبه في سورة الكهف بالتفصيل والبيان بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ إلى قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ [٩٨ - ١٠٠][1].

والخلاصة: إنه تعالى لما قال في آخر الإسراء: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ وذكر المؤمنين به أهل العلم، وأنه يزيدهم خشوعاً، وأنه تعالى أمر بالحمد له وأنه لم يتخذ ولداً، أمره تعالى بحمده على إنزال هذا الكتاب السالم من العوج، القيم على كل الكتب، المنذر من اتخذ ولداً، المبشر المؤمنين بالأجر الحسن.

ثم استطرد إلى حديث كفار قريش، والتفت من الخطاب في قوله: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ لما في عبده من الإضافة المقتضية تشريفه.

ما اشتملت عليه السورة:

استهلت السورة ببيان وصف القرآن بأنه قيم مستقيم لا اختلاف فيه ولاتناقض في لفظه ومعناه، وأنه جاء للتبشير والإنذار.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي ٦٤ ومابعدها، طبع دار الكتاب العربي - دمشق.

ثم لفتت النظر إلى مافي الأرض من زينة وجمال وعجائب تدل دلالة واضحة على قدرة الله تعالى.

وتحدثت السورة عن ثلاث قصص من روائع قصص القرآن وهي قصة أصحاب الكهف، وقصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين. أما قصة أصحاب الكهف [٩-٢٦] فهي مثل عالٍ، ورمز سام للتضحية بالوطن والأهل والأقارب والأصدقاء والأموال في سبيل العقيدة، فقد فرّ هؤلاء الشباب الفتية المؤمنون بدينهم من بطش الملك الوثني، واحتموا في غار في الجبل، فأنامهم الله ثلاث مئة وتسع سنين قمرية، ثم بعثهم ليقيم دليلاً حسياً للناس على قدرته على البعث.

وأتبع الله تعالى تلك القصة بأمر النبي ﷺ بالتواضع ومجالسة الفقراء المؤمنين وعدم الفرار منهم إلى مجالسة الأغنياء لدعوتهم إلى الدين: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [٢٨].

ثم هدد الله تعالى الكفار بعد إظهار الحق، وذكر ما أعده لهم من العذاب الشديد في الآخرة: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [٢٩] وقارن ذلك بما أعده سبحانه من جنات عدن للمؤمنين الصالحين [٣٠-٣١].

وأما قصة موسى مع الخضر في الآيات [٦٠-٧٨] فكانت مثلاً للعلماء في التواضع أثناء طلب العلم، وأنه قد يكون عند العبد الصالح من العلوم في غير أصول الدين وفروعه ماليس عند الأنبياء، بدليل قصة خرق السفينة، وحادثة قتل الغلام، وبناء الجدار.

وأما قصة ذي القرنين في الآيات [٨٣-٩٩] فهي عبرة للحكام والسلاطين، إذ أن هذا الملك تمكن من السيطرة على العالم، ومشرق الأرض ومغربها، وبنائه السد العظيم بسبب ما اتصف به من التقوى والعدل والصلاح.

وتخللت هذه القصص أمثلة ثلاثة بارزة رائعة مستمدة من الواقع، لإظهار أن الحق لا يقترن بالسلطة والغنى، وإنما يرتبط بالإيمان، وأول هذه الأمثلة: قصة أصحاب الجنتين [٣٢-٤٤] للمقارنة بين الغني المغتر بماله، والفقير المعتز بإيمانه، لبيان حال فقراء المؤمنين وحال أغنياء المشركين.

وثانيها: مثل الحياة الدنيا [٤٥-٤٦] لإنذار الناس بفنائها وزوالها. وأردف ذلك بإيراد بعض مشاهد القيامة الرهيبة من تسيير الجبال، وحشر الناس في صعيد واحد، ومفاجأة الناس بصحائف أعمالهم [٤٧-٤٩].

وثالثها: قصة إبليس وإبائه السجود لآدم [٥٠-٥٣] للموازنة بين التكبر والغرور -وما أدى إليه من طرد وحرمان وتحذير الناس من شر الشيطان- وبين العبودية لله والتواضع، وما حقق من رضوان الله تعالى.

وأردف ذلك بيان عناية القرآن بضرب الأمثال للناس للعظة والذكرى، وإيضاح مهام الرسل للتبشير والإنذار، والتحذير من الإعراض عن آيات الله [٥٤-٥٧].

وأن سياسة التشريع اقتران الرحمة بالعدل، فليست الرحمة فوق العدل ولا العدل فوق الرحمة: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [٥٨-٥٩].

وختمت السورة بموضوعات ثلاثة: أولها - إعلان تبديد أعمال الكفار وضياع ثمرتها في الآخرة [١٠٠-١٠٦] وثانيها - تبشير المؤمنين الذين عملوا الصالحات بالنعيم الأبدي الأخروي [١٠٧-١٠٨] وثالثها - أن علم الله تعالى لا يحده حد ولا نهاية له [١٠٩-١١٠].

فضل هذه السورة:

ورد في فضائل سورة الكهف أحاديث صحاح ثابتة، منها: ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي والترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عصم من الدجال».

ومنها: ما رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي، عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، عصم من فتنة الدجال». وفي لفظ النسائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف..» الحديث.

ومنها: ماأخرجه النسائي في سننه عن ثوبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عِصْمة له من الدجال».

دلت هذه الأحاديث على أن قراءة الآيات العشر الأوائل أو الأواخر أو أي عشر آيات عصمة من فتنة الدجال.

والسنة أن يقرأ الشخص الكهف يوم الجمعة وليلتها، لما رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد عن النبي ﷺ: «من قرأ الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور مابين الجمعتين» وروى الدارمي والبيهقي: «من قرأها ليلة الجمعة، أضاء له من النور مابينه وبين البيت العتيق».

كيفية الحمد والثناء على الله تعالى ومهام القرآن العظيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾

القراءات:

﴿عِوَجَا ، قَيِّمًا﴾ :

قرأ حفص بالسكت على ألف (عوجاً) حالة الوصل سكتة لطيفة بدون تنفس، وقرأ الباقون بغير سكت.

﴿بَأْسًا﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باساً).

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي (ويَبْشُرَ).

الإعراب:

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ الواو للعطف على﴿أَنزَلَ﴾. والأولى جعل الواو للحال من الكتاب، على تقدير: أنزل الكتاب على عبده غير مجعول له عوج ﴿قَيِّمًا﴾. وهو أولى من جعل معطوفاً على ﴿أَنزَلَ﴾ لما فيه من الفصل بين بعض الصلة وبعض، فلو كان للعطف، كان المعطوف فاصلاً بين أبعاض المعطوف عليه، ولذلك قيل في الآية تقديم وتأخير، والتقدير: أنزل الكتاب قيماً، ولم يجعل له عوجاً.

﴿قَيِّمًا﴾ قال في الكشاف: الأحسن أن ينتصب بمضمر، ولا يجعل حالاً من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، منعاً من الفصل بين الحال وصاحبه. وقيل: حال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا﴾ اللام متعلقة بأنزل، و﴿بَأْسًا﴾: مفعول ثانٍ لينذر، والمفعول الأول محذوف، تقديره: لينذركم بأساً شديداً من لدنه.

﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ قرئ بضم الدال على الأصل، وبإسكانها على وزن عضُد حذف الضمة فيقال: عضْد ولدْن، وبإشمامها بالضم للتنبيه على أن أصلها هو الضم.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿لَهُمۡ﴾.

﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةً﴾ تمييز منصوب، أي: كبرت الكلمة كلمة. و﴿تَخۡرُجُ﴾ جملة فعلية صفة ﴿كَلِمَةً﴾.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا كذباً. و﴿كَذِبًا﴾ منصوب بـ﴿يَقُولُونَ﴾، مثل: قلت شعراً أو خطبة.

﴿أَسَفًا﴾ منصوب على المصدر، في موضع الحال، أو مفعول لأجله.

﴿زِينَةً لَّهَا﴾ مفعول ثانٍ لجعلنا بمعنى صيَّرنا. وإن جعل بمعنى خلقنا فهو مفعول به له.

البلاغة:

﴿وَيُبَشِّرَ﴾ ﴿وَيُنذِرَ﴾ بينهما طباق.

﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسًا شَدِيدًا﴾ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ فيه إطناب بذكر الخاص بعد العام. وفي كل منهما حذف بديع، فحذف من الجملة الأولى المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً، وحذف من الجملة الثانية المفعول الثاني، وهو عذاباً، فحذف لدلالة الأول عليه، وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه.

﴿بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ﴾ استعارة تمثيلية، شبه حاله ﷺ مع المشركين بحال من فارقته الأحباب، فهمّ بإهلاك نفسه حزناً عليهم.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ﴾ استفهام إنكاري بمعنى النهي، أي لا تبخع نفسك لإعراضهم عن الإيمان أسفاً.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: الوصف بالجميل ثابت لله تعالى، وهو تعليم للعباد كيف يثنون على الله ويحمدونه على أجزل نعمائه عليهم وهي نعمة الإسلام، وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ ولم يجعل له شيئاً من العوج قط، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه وألفاظه.

﴿قَيِّمًا﴾ مستقيماً معتدلاً، لا إفراط فيه ولا تفريط، فلا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف منعاً للمشقة والحرج، ولا تفريط فيه بإهمال ما يحتاج إليه. وفائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة هو التأكيد، فرب مستقيم لا يخلو من أدنى عوج عند التأمل. وقيل: قيماً على سائر الكتب، مصدقاً لها، شاهداً بصحتها، وقيل: قيماً بمصالح العباد، وما لابد لهم منه من الشرائع، فيكون وصفاً له بالتكميل بعد وصفه بالكمال.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ ليخوف بالكتاب الكافرين وهو متعلق بأنزل ﴿بَأۡسًا﴾ عذاباً في الآخرة ﴿مِّن لَّدُنۡهُ﴾ من قبله أو من عنده. حذف المفعول الأول لفعل (ينذر) - وهذا من بديع الحذف وجليل الفصاحة - لأن المنذر به هو الغرض المسوق إليه، فاقتصر عليه، ودل عليه ذكر المنذَرين في قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾﴾ من غير ذكر المنذر به لتقدم ذكره، كما ذكر المبشر به في قوله: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنًا﴾ والأجر الحسن: الجنة.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾ بهذا القول أو باتخاذ الولد ﴿وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ﴾ من قبلهم،

والمعنى: أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب، أو تقليداً لما سمعوه من أوائلهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ عظمت، والمخصوص بالذم محذوف أي مقالتهم المذكورة ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ما يقولون في ذلك إلا مقولاً كذباً.

﴿بَاخِعٌ﴾ مهلك نفسك أو قاتلها ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي من بعدهم، أي من بعد توليهم عن الإيمان ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن ﴿أَسَفًا﴾ غيظاً وحزناً منك، لحرصك على إيمانهم. والأسف: المبالغة في الحزن والغضب ﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحيوان والنبات والشجر والأنهار وغير ذلك ﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ لنختبر الناس، ناظرين إلى نتيجة الاختبار ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وهو من زهد فيه، ولم يغتر به، وصرفه على ما ينبغي من الإتقان ﴿صَعِيدًا﴾ تراباً ﴿جُرُزًا﴾ يابساً لا نبات فيه.

التفسير والبيان:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحمد الله تعالى نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه؛ إذ أخرج الناس من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، فمعنى قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً بل جعله معتدلاً مستقيماً.

والحمد معناه: الشكر والثناء بالجميل على الفعل الصادر بالاختيار من الله تعالى. والله تعالى محمود على كل حال، ويحمد نفسه أحياناً عند فواتح السور وخواتيمها، لتعليم العباد كيف يحمدونه على نعمه الجليلة التي أنعم بها عليهم، ومن أهمها نعمة الإسلام وما أنزل على عبده محمد ﷺ من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم.

﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي مستقيماً، وأتى بهذه الصفة بعد نفي الاعوجاج للتأكيد، فربَّ مستقيم مشهود له بالاستقامة لا يخلو من أدنى

عوج عند الفحص والاختبار. وقيل: معناه: قيماً على سائر الكتب، مصدقاً لها، شاهداً بصحتها، وقيل: قيماً بمصالح العباد، وما لا بد لهم منه من الشرائع.

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أي ليخوف الذين كفروا بالكتاب عذاباً شديداً، وعقوبة عاجلة في الدنيا وهو النكال، وآجلة في الآخرة وهو نار جهنم، وقوله: ﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾ أي صادراً من عند الله تعالى.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بهذا القرآن، الذين دعموا إيمانهم بالعمل الصالح، أن لهم مثوبة جميلة عند الله، وهي الجنة دار المتقين الأبرار، ودار الخلود أبداً للمحسنين الأخيار، فالأجر الحسن: الجنة.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾ أي مستقرين في ثوابهم عند الله وهو الجنة إلى الأبد، وخالدين فيه دائماً، لا زوال له ولا انقضاء.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ أي ويحذر الكفار الذين زعموا أن لله ولداً، وهم مشركو العرب الذين قالوا: نحن نعبد الملائكة بنات الله، واليهود الذين اتخذوا عزيراً ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله.

وإنما خصَّ هؤلاء مع دخولهم في الإنذار العام المتقدم للكافرين، للدلالة على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي ما لهم ولا لآبائهم أي أسلافهم علم ثابت بهذا القول الذي افتروه وهو اتخاذ الولد لله أو الوالد، وإنما هو صادر عن جهل مفرط وتقليد للآباء، ومن تسويل الشيطان. وانتفاء العلم بالشيء: إما للجهل بالطريق الموصل إليه، وإما لأنه في نفسه محال لا يصلح محلاً للعلم به.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي عظمت تلك الكلمة التي ينطقون

بها، ويخرجونها من أفواههم متجرئين على النطق بها، وهي كلمة الكفر، فليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم، ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون إلا قولاً مجرد كذب وزور، ولا حقيقة له أصلاً.

ثم سرّى الله تعالى عن رسوله عليه الصلاة والسلام وواساه في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه بقوله:

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ أي فلعلك قاتل نفسك ومهلكها لأن لم يؤمنوا بهذا القرآن، أسفاً وحسرة عليهم، ولعل هنا للاستفهام الإنكاري المتضمن معنى النهي، أي لا تهلك نفسك أسفاً لعدم إيمانهم، ولا تقتلها غضباً وجزعاً وحزناً عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها. والآثار جمع أثر أي على أثر توليهم وإعراضهم عنك.

وللآية نظائر كثيرة منها: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨/٣٥] ومنها: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء: ٣/٢٦] ومنها: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧/١٦].

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية زائلة، وأنها دار اختبار لا دار قرار، فقال:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ أي إنا جعلنا ما على الأرض من زخارف الدنيا من إنسان وحيوان ونبات ومعادن ومنازل ومباهج ومفاتن زينة زائلة لها ولأهلها، لنعاملهم معاملة المختَبَرين، ليعرف المحسن عمله من الفاسد، فنجازي المحسن بالثواب، والمسيء بالعقاب. وحسن العمل: الزهد في الدنيا، وترك الاغترار بها، وجعلها وسيلةً وجسراً للآخرة. أخرج مسلم عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون».

ثم ذكر الله تعالى سبب التوجيه بالإعراض عن الكفار، فقال:

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾ أي وإنا لنصير الأرض وما عليها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فقوله: ﴿صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ يعني كالأرض البيضاء التي لا نبات فيها ولا ينتفع بها، بعد أن كانت خضراء معشبة. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٦-١٠٧] . والصعيد: الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات. والجُرُز في اللغة: اليابسة التي لا تنبت، أو الأرض التي لا نبات فيها.

والمقصود من الآية تسلية الرسول ﷺ والقول له: لا تحزن فإنا سنهلكهم ونبيدهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات أن أعظم نعمة من الله على عباده إنزال القرآن الكريم، الدواء الناجع لمشكلات البشرية، والمنقذ من الظلمات إلى النور، والحق العدل المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء.

ومهمته أيضاً إنذار الكافرين وتخويفهم بالعذاب الشديد في نار جهنم والنكال في الدنيا، وخصوصاً المشركين الذين اتخذوا لله ولداً وهم كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله. ولا دليل لهم ولا لأسلافهم على ما يقولون، وتلك كلمة كبيرة الإثم، شديدة الشناعة، عظيمة الجرم.

وللقرآن مهمة أخرى هي تبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات من التصديق بما جاء به النبي ﷺ، والتزام الأوامر واجتناب النواهي بالأجر الحسن، وهو الجنة التي يخلد فيها أهلها، فهي دار الخلد التي لا يموتون فيها.

ولا يغترن أحد بالدنيا وما فيها من زينة وزخارف ومباهج، فتلك للاختبار

والامتحان، ليعرف الصالحون الأبرار من المفسدين الفجار، ثم مآلها إلى الفناء والزوال والدمار والخراب، والرجوع إلى الملك الإله الدَّيَّان، ليجزي كل إنسان بعمله.

وإذا كان هذا هو المصير المحتوم، فلا تأس ولا تحزن أيها الرسول على ما ترى وتسمع في الدنيا، ولا حاجة لإتعاب نفسك وإهلاكها وقتلها بسبب توليهم وإعراضهم عنك، وعدم إيمانهم بالقرآن، وأسفاً أي حزناً وغضباً على كفرهم.

قصة أصحاب الكهف

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) ۞ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ

لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

القراءات:

﴿فَأْوُۥٓا۟﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (فاووا).

﴿مِّرْفَقًا﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (مَرْفِقاً).

﴿تَّزَٰوَرُ﴾ : قرئ:

١- (تَزْوَرُّ) وهي قراءة ابن عامر.

٢- (تزاوَر) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (تزَّاور) وهي قراءة الباقين.

﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ﴾: قرئ:

١- (وتحسَبهم) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (وتحسِبهم) وهي قراءة الباقين.

﴿وَلَمُلِئۡتَ﴾: قرئ:

١- (ولَمُلِّئْت) وهي قراءة نافع، وابن كثير.

٢- (ولَمُليت) وهي قراءة السوسي، ووقفاً حمزة.

٣- (ولَمُلِئْتَ) وهي قراءة الباقين.

﴿رُعۡبٗا﴾:

وقرأ ابن عامر، والكسائي (رُعُباً).

﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وخلف (بَورْقِكُم).

﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ربيَ أعلم).

﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلُف (ثلاثَ مئةِ).

﴿وَلَا يُشۡرِكُ﴾:

وقرأ ابن عامر (ولا تشرك).

الإعراب:

﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ (٩) ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال، و﴿عَجَبًا﴾: خبر كان، وهو وصف بالمصدر، أو على ذات عجب.

﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١) ﴿سِنِينَ﴾: ظرف منصوب، و﴿عَدَدًا﴾: وصف لسنين منصوب، على معنى: ذات عدد، أو منصوب على المصدر.

﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾ (١٢): أي: مبتدأ مرفوع، ﴿أَحْصَىٰ﴾: فعل ماضٍ خبر المبتدأ، والجملة من المبتدأ والخبر سدت مسدَّ مفعولي (نعلم) و﴿أَمَدًا﴾: ظرف زمان منصوب، وعامله: ﴿أَحْصَىٰ﴾، وهو الأوجه، وقيل: ﴿لَبِثُوٓا۟﴾. و﴿لِمَا لَبِثُوٓا۟﴾: حال من ﴿أَمَدًا﴾ أو مفعول لأجله.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ (١٤): ﴿شَطَطًا﴾: صفة مصدر محذوف، فهو منصوب على المصدر، أي قولاً شططاً، أو منصوب بقلنا، مثل: قلنا شعراً.

﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ (١٥): أي هلا يأتون على دعواهم بأنها آلهة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وهؤلاء: مبتدأ، و﴿قَوْمُنَا﴾: عطف بيان، وجملة ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾: خبر.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (١٦): ﴿وَإِذِ﴾: تتعلق بفعل مقدر، أي واذكر إذ اعتزلتموهم. و﴿ما﴾: إما مصدرية (أي وإذ اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، فحذف المضاف) وإما اسماً موصولاً (أي وإذ اعتزلتموهم والذي يعبدونه) وإما نافية (أي وإذ اعتزلتموهم غير عابدين إلا الله، فتكون الواو واو الحال) و﴿ما﴾: في الوجهين الأولين: في موضع نصب بالعطف على الهاء والميم في ﴿ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وفي الوجه الثالث: في موضع نصب على الحال. وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ يجوز أن يكون استثاء متصلاً: لأنهم كانوا كأهل مكة يقرون بالخالق ويشركون معه، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ (١٧): ﴿ٱلشَّمْسَ﴾: مفعول ﴿ترى﴾، و﴿إِذَا طَلَعَت﴾ و﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾: ظرفان يتعلقان بترى، و﴿عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: يتعلق بترى. و﴿تَّزَٰوَرُ﴾: جملة فعلية حال من ﴿ٱلشَّمْسَ﴾. و﴿وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾: يتعلق بتقرضهم .﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: جملة اسمية حال.

﴿بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (١٨): ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾: منصوب بباسط، وإنما أعمل اسم الفاعل، وإن كان للماضي؛ لأنه أراد به حكاية الحال، مثل الإشارة للحاضر في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥/٢٨] ولم يكن المشار إليهما حاضرين حين قص القصة على النبي ﷺ، وإنما حكى تلك الحال. و﴿فِرَارًا﴾ و﴿رُعْبًا﴾: منصوبان على المصدر.

﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ (١٩): ﴿كَمْ﴾: هنا ظرفية في موضع نصب بـ﴿لَبِثْتُمْ﴾، أي كم يوماً لبثتم، ويوماً المحذوف: تمييز، ودليل التقدير: كم يوماً: أنه قال في الجواب: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ (١٩) ﴿أَيُّهَآ﴾: مبتدأ، و﴿أَزْكَىٰ﴾: خبر المبتدأ، و﴿طَعَامًا﴾: تمييز، والجملة مفعول ﴿فَلْيَنظُرْ﴾.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ (٢١): ﴿إذ﴾ ظرف زمان في موضع نصب: وعامله ﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ (٢٢): ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبر مبتدأ أي هم ثلاثة. و﴿رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: جملة اسمية صفة ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾. وكذلك التقدير في قوله: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. وإنما جاء بالواو في قوله: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ولم يجئ به على الصفة كالعدد قبله؛ لأن السبعة: أصل المبالغة في العدد، كما كانت السبعين كذلك

في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٨٠] ولو جاء بالواو في ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ لكان جائزاً و﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ مفعول لأجله.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (٢٤): في موضع نصب (بفاعل) بتقدير حذف حرف الجر، أي: ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا بأن يشاء الله، وأن وصلتها في تأويل المصدر، وتقديره: لمشيئة الله، إلا أنه حذف حرف الجر من ﴿أَن﴾ فاتصل الفعل به.

﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ (٢٥): بالتنوين تكون ﴿سِنِينَ﴾ منصوباً على البدل من ﴿ثَلَٰثَ﴾ أو عطف بيان على ﴿ثَلَٰثَ﴾ أو تكون بدلاً مجروراً ﴿مِاْئَةٍ﴾ لأن المئة في معنى ﴿سِنِينَ﴾. ومن لم ينون: أضاف ﴿مِاْئَةٍ﴾ إلى ﴿سِنِينَ﴾ تنبيهاً على الأصل الذي كان يجب استعماله. و﴿تِسْعًا﴾: مفعول به، مثل: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ١٢/ ٦٥] وليس بظرف، أي وازدادوا لبث تسع سنين، فحذف المضاف.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ (٢٦): أي ما أسمعه وأبصره، وتقديره: أسمع به، إلا أنه حذف اكتفاء بالأول عنه. وموضع ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ الرفع لإرادة التعجب.

البلاغة:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟﴾ استئناف مبني على سؤال من قبل المخاطب، وفيه التفات من التكلم إلى الغيبة.

﴿يَهْدِ﴾ و﴿يُضْلِلْ﴾، ﴿أَيْقَاظًا﴾ و﴿رُقُودٌ﴾ ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ و﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ ..﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ بينهما طباق معنوي؛ لأن معنى الأول: أنمناهم والثاني أيقظناهم.

﴿إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ﴾ بينهما جناس ناقص.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ صيغة تعجب.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ استعارة تبعية، شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الآذان، كما تضرب الخيمة على السكان.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ استعارة تبعية أيضاً؛ لأن الربط هو الشد، والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية.

المفردات اللغوية:

﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ ظننت، و﴿أَمْ﴾: للانتقال من كلام إلى آخر، بمعنى: بل وهمزة الاستفهام، أي بل أحسبت، والخطاب في الظاهر للنبي ﷺ، والمراد به كل مخاطب ﴿ٱلْكَهْفِ﴾ الغار أو النقب المتسع في الجبل ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ لوح حجري كتبت فيه أسماؤهم وأنسابهم وقيل: اسم الجبل أو الوادي الذي فيه كهفهم ﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ كانوا في قصتهم من جملة آياتنا محل تعجب، أي كانوا عجباً دون باقي الآيات، أو أعجبها.

﴿أَوَى﴾ اتخذه مأوى ﴿ٱلْفِتْيَةُ﴾ جمع فتى، وهو الشاب الكامل، وهم فتية من الأشراف أرادهم دقيانوس على الشرك فأبوا وهربوا إلى الكهف، خائفين على إيمانهم من قومهم الكفار ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ من قبلك ﴿رَحْمَةً﴾ توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ﴿وَهَيِّئْ﴾ يسّر، وأصل التهيئة: إحداث هيئة الشيء ﴿رَشَدًا﴾ هداية إلى الطريق الموصل للمطلوب، والمعنى: هيِّئ لنا من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار طريقاً نصير به راشدين مهتدين، أو اجعل أمرنا كله رشداً .﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أنمناهم نوماً ثقيلاً بحيث لايسمعون، وأصله: ضربنا على آذانهم حجاباً يمنع السماع ﴿سِنِينَ عَدَدًا﴾ معدودة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ﴾ علم مشاهدة ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ﴾ الفريقين المختلفين منهم أو من غيرهم في مدة لبثهم وهما الحزب القائل: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، والحزب القائل: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. ﴿أَحْصَىٰ﴾ فعل ماض، أو أفعل بمعنى أضبط ﴿لِمَا لَبِثُوٓاْ﴾ للبثهم ﴿أَمَدًا﴾ غاية ومدة لها حد ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ﴾ نخبرك ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿فِتْيَةٌ﴾ شبان جمع فتى ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قويناهم على قول الحق، والصبر على هجر الوطن والأهل والمال ﴿إِذْ قَامُواْ﴾ بين يدي ملكهم: دقيانوس الجبار، وقد أمرهم بالسجود للأصنام ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ من غيره ﴿شَطَطًا﴾ أي قولاً ذا شطط، أي إفراط في الكفر إن دعونا إلهاً غير الله على سبيل الفرض لقول الشطط: هو الخارج عن المعقول المفرط في الظلم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ﴾ إخبار في معنى الإنكار ﴿لَّوْلَا﴾ هلا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم﴾ على عبادتهم ﴿بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾ بحجة ظاهرة أو ببرهان ظاهر، فإن الدين لا يؤخذ إلا به، وفيه دليل على أن ما لا دليل عليه من الديانات مردود، وإن التقليد فيه غير جائز ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه تعالى.

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ خاطب بعض الفتية بعضهم الآخر بذلك ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ عطف على الضمير المنصوب في الفعل المتقدم، أي ولأجل أنكم اعتزلتم القوم ومعبودهم إلا الله، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ يبسط الرزق لكم، ويوسع عليكم من رحمته في الدارين ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ ما ترتفقون به أي تنتفعون، من غداء وعشاء. وقد جزموا بذلك لقوة ثقتهم بفضل الله تعالى.

﴿تَّزَٰوَرُ﴾ بتخفيف الزاي والتشديد أي تميل عنه، ولا يقع شعاعها عليهم، فيؤذيهم؛ لأن الكهف كان جنوبياً، أو لأن الله تعالى زورها عنه ﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ جهة اليمين ﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾ تتركهم وتتجاوز عنهم، فلا تصيبهم ألبته ﴿فَجْوَةٍ﴾ متسع من الكهف أي في وسطه، يناهم برد الريح ونسيمها ﴿ذَٰلِكَ﴾

المذكور وهو شأنهم أو تحول الشمس عنهم ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دلائل قدرته ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي من يهد الله بالتوفيق، فهو المهتدي الذي أصاب الفلاح، والمراد به إما الثناء عليهم، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكن المنتفع بها من وفقه الله تعالى للتأمل فيها والاستبصار بها ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ ومن يخذله، فلن تجد له من يليه ويرشده.

وبعبارة أخرى: من اهتدى بآيات الله واختار الإيمان بالدليل، فقد هداه الله ووفقه لاختياره، ومن لم يأخذ بأسباب الهدى فقد ضل وانحرف، ولن تجد له من يرشده ويهديه.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لو رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ أي منتبهين؛ لأن أعينهم منفتحة ﴿رُقُودٌ﴾ نيام، جمع راقد ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ لئلا تأكل الأرض لحومهم ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ يديه واسم كلبهم: قطمير ﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾ بفناء الكهف، وقيل: بباب الكهف، وكان يتقلب في النوم واليقظة مثلهم ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فنظرت إليهم ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ منعهم الله بالرعب من دخول أحد عليهم. والرعب: الخوف الذي يملأ الصدر. عن معاوية رضي الله عنه: أنه غزا الروم، فمرَّ بالكهف، فقال: لو كشف لنا عن هؤلاء، فنظرنا إليهم، فقال له ابن عباس رضي الله عنه: ليس لك ذلك، وقد منع الله تعالى من هو خير منك، فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ فلم يسمع، وبعث ناساً، فلما دخلوا، جاءت ريح، فأحرقتهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما فعلنا بهم ما ذكرنا ﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أيقظناهم ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ عن حالهم ومدة لبثهم ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لأنهم دخلوا عند طلوع الشمس، وبعثوا عند غروبها، فظنوا أنه غروب يوم الدخول، فقولهم مبني على غالب ظنهم؛ لأن النائم لا يحصي مدة لبثه، لذا أحالوا العلم

إلى الله تعالى، فقالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ ويجوز أن يكون ذلك قول بعضهم، وهذا إنكار الآخرين عليهم. ولما علموا أن الأمر ملتبس مجهول عليهم اتجهوا إلى ما يهمهم وقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ بفضتكم، الورق: الفضة، مضروبة كانت أو غيرها ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ هي طرسوس أو أفسوس ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ فلينظر أيّ أطعمة المدينة أحل وأطيب، وأكثر وأرخص ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ وليتكلف اللطف في المعاملة حتى لا يغبن أو في التخفي حتى لا يعرف ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ ولا يفعلن ما يؤدي إلى الشعور.

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ إن يطلعوا عليكم أو يظفروا بكم، والضمير لأهل المدينة ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يصيروكم إليها كرهاً، من العود بمعنى الصيرورة ﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ إن عدتم في ملتهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما بعثناهم ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قومهم والمؤمنين ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أي قومهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث ﴿حَقٌّ﴾ ثابت؛ لأن نومهم وانتباههم كحال من يموت، ثم يبعث، والقادر على إنامتهم المدة الطويلة، وإبقائهم على حالهم بلا غذاء، قادر على إحياء الموتى ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ﴾ لا شك فيها ﴿إِذْ﴾ معمول لأعثرنا أي أعثرنا عليهم حين يتنازعون ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ أي المؤمنون والكفار، والتنازع: التخاصم ﴿أَمْرَهُمْ﴾ أمر الفتية، في البناء حولهم ﴿فَقَالُوا﴾ أي الكفار ﴿ابْنُوا عَلَيْهِم﴾ أي حولهم ﴿بُنْيَانًا﴾ يسترهم .﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ جملة معترضة إما من الله ردّ على المتنازعين في زمانهم، أو من المتنازعين فيهم على عهد الرسول ﷺ، أو من المتنازعين للرد إلى الله، بعدما تذكروا أمرهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ هم رؤساء البلد أهل الرأي وهم المؤمنون

حين أماتهم الله ثانياً بالموت ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم﴾ حولهم ﴿مَّسْجِدًا﴾ معبداً يصلى فيه، وكانوا نصارى على المشهور، وفعل ذلك على باب الكهف.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي المتنازعون في عدد الفتية في زمن النبي ﷺ، أي يقول بعضهم: ﴿ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي هم ثلاثة ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يقول بعضهم ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والقولان لنصارى نجران ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ظناً ورمياً بالخبر الخفي الذي لا اطلاع لهم عليه، والرجم: القول بالظن، والغيب: ما غاب عن الإنسان، والمراد هنا: القول بالظن والتخمين ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباس: أنا من القليل، وذكرهم سبعة.

﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تجادل ﴿إِلَّا مِرَآءً﴾ المراء: المحاجة فيما فيه مِرْية وشك وتردد ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ لا تطلب الفتيا من أحد من أهل الكتاب: اليهود، أو لا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال مسترشد، فإن فيما أوحي إليك لمندوحة عن غيره، مع أنه لا علم لهم بها، بل ولا سؤال متعنت، تريد افتضاح وتزييف ما عنده، فإنه مخلّ بمكارم الأخلاق.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ لا تقل لأجل شيء: سأفعله غداً أو فيما يستقبل من الزمان ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي إلا متلبساً بمشيئة الله تعالى بأن تقول: إن شاء الله. وهذا نهي تأديب من الله تعالى لنبيه، حين قالت اليهود لقريش: سلوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي القرنين، فسألوه، فقال: ائتوني غداً أخبركم، ولم يقل: إن شاء الله، فأبطأ عليه الوحي بضعة عشر يوماً، حتى شقَّ عليه، وكذبته قريش، فنزلت الآية.

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ أي مشيئته، معلقاً الأمر بها ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ التعليق بها، ويكون ذكرها بعد النسيان كذكرها مع القول، ما دام في المجلس، كما قال الحسن وغيره، وعن ابن عباس: ولو بعد سنة ما لم يحنث ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا﴾ من خبر أهل الكهف في الدلالة على نبوتي ﴿رَشَدًا﴾ هداية، وقد تم المراد،

وهداه الله لأعظم من ذلك، كقصص الأنبياء الغابرين، والإخبار عن المغيبات في المستقبل إلى قيام الساعة.

﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ﴾ هي عند أهل الكتاب شمسية، وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين، فقال: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ أي تسع سنين، فالثلاث مئة الشمسية: ثلاث مئة وتسع قمرية ﴿أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ ممن اختلفوا فيه ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي علمه ﴿أَبْصِرْ بِهِۦ﴾ بالله، وهي صيغة تعجب ﴿وَأَسْمِعْ﴾ كذلك، بمعنى: ما أبصره وما أسمعه، وهما على جهة المجاز، والمراد: أنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه شيء ﴿مَا لَهُم﴾ لأهل السماوات والأرض ﴿وَلِيٍّ﴾ ناصر ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ ولا يشرك في قضائه أحداً منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً؛ لأنه غني عن الشريك.

سبب النزول:

سبق ذكر سبب نزول قصة أصحاب الكهف عند قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥] . وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مفصلاً موضحاً، فقال: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلَّم أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله، وحدَّث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلموا، فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس.

ثم إن قريشاً بعثوه، وبعثوا معه عتبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلوهم عن محمد وصفته، وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما إلى المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد، فقال أحبار اليهود:

سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإن حديثهم عجب، وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح وما هو؟ فإن أخبركم فهو نبي، وإلا فهو متقوِّل، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود، فجاؤوا رسول الله ﷺ وسألوه، فقال رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثن - لم يقل: إن شاء الله- فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ - فيما يذكرون - خمس عشرة ليلة، حتى أرجف أهل مكة به، وقالوا: وعدنا محمد غداً، واليوم خمس عشرة ليلة، فشقَّ عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف، وفيها معاتبة الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطوّاف[١].

نزول الآية (٢٤): ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾

أخرج ابن جرير عن الضحاك، وابن مردويه عن ابن عباس قال: حلَف النبي ﷺ على يمين، فمضى له أربعون ليلة، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أنه جعل الزينة على ظهر الأرض، وفي ذلك من العجائب والإبداع ما يفوق القصص وغرائبها، وأبان أن قصة أهل الكهف ليست بالعجب وحدها من بين آياتنا، وأنها أقل عجباً من تزيين الأرض بالنبات، والحيوان والبشر، والشجر والأنهار وغير ذلك.

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/٨٣، تفسير الألوسي: ١٥/٢١٦

التفسير والبيان:

إجمال القصة:

هذا هو الخبر اليقين عن قصة أصحاب الكهف الذين أبقوا أحياء ثلاث مئة وتسع سنوات في حال سبات (نوم) وهي من العجائب التي أشارت إليها الكتب السالفة.

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ تعجب القوم من قصة أصحاب الكهف، وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان، فقال تعالى: أم حسبت أنهم كانوا عجباً من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك، فإن آياتنا كلها عجب، فليست قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة أعجب من حال الدنيا، فإن زينة الأرض وعجائبها أعظم وأبدع من هذه القصة، فإن من قدر على تزيين الأرض ثم جعلها تراباً، وعلى خلق السماوات والأرض، قادر على كل شيء، ومن قدرته أن يحفظ طائفة من الناس دون طعام وشراب زماناً معلوماً.

وبعبارة أخرى موجزة: لا تحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم وهو اسم كلبهم أو واديهم أو كتاب بنيانهم كانوا آيةً عجباً من آياتنا، لا تظن ذلك فآياتنا كلها عجيبة وغريبة. والرقيم في الظاهر من الآية كما رجح ابن جرير وابن كثير: الكتاب.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ اذكر أيها الرسول حين لجأ أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم، لئلا يفتنوهم عنه، إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم عبدة الأصنام، فقالوا حين دخلوا سائلين الله تعالى الرحمة واللطف بهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها، وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي اجعل عاقبتنا رشداً، بأن توفر المصلحة لنا، وتجعلنا راشدين غير ضالين، مهتدين غير حائرين، أو اجعل أمرنا رشداً كله.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١﴾ أي ألقينا النوم الثقيل عليهم حين دخلوا إلى الكهف، فلم يعودوا يسمعون أي صوت، وناموا سنين كثيرة معدودة.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ۝١٢﴾ أي ثم بعثناهم من رقدتهم تلك، وأيقظناهم من نومتهم ليظهر للناس معلومه سبحانه، أي الطائفتين المتنازعتين فيهم أحصى مدة لبثهم وغاية بقائهم نياماً، فيظهر لهم عجزهم، ويعرفوا ما صنع الله بهم، فيتيقنوا من كمال قدرة الله على البعث وغيره.

تفصيل القصة:

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي نحن نخبرك خبرهم على وجه الصدق، وهذا يعني أن الأخبار المتداولة عنهم بين العرب لم تكن صحيحة.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي إنهم شباب صدقوا بتوحيد ربهم، وشهدوا أن لا إله إلا هو، وزدناهم توفيقاً للهداية بالإصرار على العقيدة والإقبال على الله وإيثار العمل الصالح.

وفي هذا إيماء إلى أن الشباب أقبل للحق وأهدى للسبل من الشيوخ الذين عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا - كما ذكر ابن كثير - كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً، وأما المشايخ من قريش فبقوا على دينهم، ولم يؤمن منهم إلا القليل. أخرج الطبراني وابن المنذر عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب، وقرأ: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٢١/٦٠] ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ١٨/ ٦٠] ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾.

واستدل بهذه الآية: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ على زيادة الإيمان وتفاضله بين

الناس، وأنه يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ٤٧/١٧] وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤] وقال عز وجل: ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح: ٤٨/٤].

زمنهم أو عصرهم:

ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى ابن مريم، ورجح ابن كثير أنهم كانوا قبل النصرانية، بدليل أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم، ويُعنون بها، كما تقدم في سبب النزول، وبدليل ما أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة، فجمعهم الله تعالى على غير ميعاد، فجعل بعضهم يقول لبعض: أين تريدون؟ أين تذهبون؟ فجعل بعضهم يخفي عن بعض؛ لأنه لا يدري هذا علام خرج هذا، ولا يدري هذا علام خرج هذا، فأخذوا العهود والمواثيق أن يخبر بعضهم بعضاً، فإن اجتمعوا على شيء، وإلا كتم بعضهم بعضاً، فاجتمعوا على كلمة واحدة، فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قوله: ﴿مِّرۡفَقٗا﴾.

ثم انطلقوا حتى دخلوا الكهف، فضرب الله تعالى على آذانهم، فناموا وفُقدوا في أهلهم، فجعلوا يطلبونهم، فلم يظفروا بهم، فرفع أمرهم إلى الملك، فقال: ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن ناس خرجوا لا ندري أين ذهبوا في غير جناية ولا شيء يعرف، فدعا بلوح من رصاص، فكتب فيه أسماءهم، ثم طرح في خزانته، ثم كان من شأن قصتهم ما قصه الله سبحانه وتعالى[١].

---

(١) تفسير الألوسي: ١٥/ ٢١٧

إصرارهم على توحيد الله:

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا﴾ أي صبرناهم على مخالفة قومهم، وثبتناهم على عقيدتهم، وألهمناهم قوة العزيمة، حتى تركوا ما كان عليه قومهم من العيش الرغيد والسعادة، وقالوا حين مثلوا أمام ملكهم الجبار الذي يدعى (دقيانوس) والذي كان يحث الناس على عبادة الأصنام والطواغيت، ويدعوهم إليها ويأمرهم بها: ربنا هو رب السماوات والأرض، لن ندعو إلهاً من دونه مطلقاً؛ إذ لا رب سواه، ولا معبود غيره، وأن الذي يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها لا ينبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض.

وقد أعلنوا في الجملة الأولى: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ توحيد الألوهية، وذلك يُقرُّ به عبدة الأصنام، وفي الجملة الثانية: ﴿لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ توحيد الربوبية، وذلك ما ينفيه عبدة الأصنام، بدليل ما حكى القرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥] وقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣] أي عبادة الأصنام.

وقوله: ﴿لَن﴾ لنفي التأبيد، أي لا يقع منا هذا أبداً؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً، لهذا عللوا اعتقادهم بقولهم:

﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي إذا دعونا غير الله، لقد قلنا باطلاً وكذباً وبهتاناً. والشطط في اللغة: مجاوزة الحد، والبعد عن الحق. والمعنى: لقد قلنا إذن قولاً شططاً. وهذا يدل على أنهم دُعوا لعبادة الأصنام، ولامهم الملك على ترك عبادتها.

تنديدهم بعبادة قومهم الأصنام:

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ أي قال أصحاب الكهف عن

قومهم الذين كانوا في زمان (دقيانوس) يعبدون الأصنام: هلا يأتون بحجة بيِّنة على صحة ما يفعلون من عبادة تلك الآلهة الباطلة المزعومة؟! وهلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟!

وهذا يدل على أن الاستدلال بعدم الدليل على عدم المدلول طريقة صحيحة عقلاً ومنطقاً.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أشد ظلماً من افتراء الكذب على الله، ونسبة الشريك إليه، فهم قوم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك.

وكان من لطف الله بهم أن ملكهم بعد أن هددهم وتوعدهم، أمهلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه، فوجدوها فرصة مواتية، وهربوا فراراً بدينهم من الفتنة.

قال ابن كثير: وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفرَّ العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء في حديث البخاري وأبي داود عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شَعَفَ الجبال، ومواقع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن» ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجُمَع.

العزلة بينهم وبين قومهم:

﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ واذكروا يا أهل الكهف ذلك الخطاب الذي صدر من بعضكم لبعض حينما صممتم على الفرار بدينكم فاعتزلتم قومكم وفارقتموهم عزلة مادية بالمفارقة بالأبدان والمقر والمقام، وعزلة معنوية بمخالفتهم في دينكم واعتزالكم معبوديهم غير عبادة الله وحده.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إما استثناء متصل أو منقطع كما ذكرنا، ويجوز أن يكون كلاماً معترضاً، إخباراً من الله تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله.

وفارِقوا قومكم جسدياً، والجؤوا إلى الكهف (الغار الواسع في الجبل) بعد فراقهم روحياً، وأخلصوا العبادة لله في مكان خال بعيد عن أهل الشرك، فإن فعلتم ذلك يبسط الله عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، ويسهل لكم من أمركم مرفقاً، أي أمراً ترتفقون به وتنتفعون.

حالهم في الكهف وانحسار الشمس عنهم:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ أي وترى يا محمد أو كل واحد يصلح للخطاب الشمس حين طلوعها تميل عن كهفهم جهة اليمين، بأن تقلص شعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان، وتراها عند الغروب تبتعد عنهم وتتركهم لا تقربهم وتعدل عنهم جهة الشمال، والحال أنهم في متسع من الكهف ووسطه، فيأتيهم الهواء بارداً لطيفاً.

وليس المراد الإخبار بوقوع الرؤية تحقيقاً، بل الإخبار بكون الكهف في مكان لا تؤثر فيه الشمس أثناء طلوعها وغروبها، أي إنهم طوال نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرَّض لإصابة الشمس، لولا أن الله يحجبها عنهم.

مكان الكهف:

ذكر المؤرخون أقوالاً في تعيين مكان الكهف، فقيل: هو واد قريب من أيلة في العقبة جنوب فلسطين، وقيل: عند نينوى في الموصل شمال العراق، وقيل: في جنوب تركيا من بلاد الروم سابقاً، وكلها أقوال يعوزها الدليل.

قدرة الله تعالى وعنايته ولطفه:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي إن بقاء هؤلاء الفتية في الكهف سنين عديدة، وما صنعه الله بهم من تنحية الشمس عنهم عند الطلوع والغروب، بانعكاس

أشعتها وتقليص وهجها عنهم، آية من آيات الله العجيبة الكثيرة الدالة على كمال قدرته وسعة علمه، وعلى أنه تعالى يصون المخلصين من عباده، وأن التوحيد دين الحق، وأن عبادة الأصنام والأوثان ضلال وشرك وزيغ، وأن صون أهل الكهف بلطف من الله وعناية منه، لذا قال:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ أي من يوفقه الله تعالى للاهتداء بآياته وحججه، ويدله دلالة مؤدية إلى الحق، ويوفقه إلى ما يحبه ويرضاه، كأهل الكهف، فهو المهتدي إلى طريق الحق، الفائز بالحظ الأوفر في الدارين.

والمراد من ذلك إما الثناء على أصحاب الكهف والشهادة لهم بإصابة المطلوب، أو التنبيه على أن أمثال هذه الآيات كثيرة، ولكن السعيد من وفقه الله تعالى للتأمل بها والاستبصار بها والاهتداء بها[١].

والخلاصة: إن الله هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية.

﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ أي ومن يضلل الله بأن لم يوفقه للاهتداء بآياته، لسوء اختياره واستعداده، وتوجيه رأيه إلى جادة الانحراف، فلن تجد له أبداً حليفاً أو ناصراً معيناً يرشده ويهديه إلى الخير وطريق الصلاح في الدنيا والآخرة، ولا هادي له، كأمثال الكفرة منكري البعث؛ لأن التوفيق والخذلان بيد الله، يوفق من يشاء ويخذل من يشاء.

وتفويض الهداية والإضلال إلى الله تعالى يخفف من معاناة النبي ﷺ مع قومه، ويسرِّي عنه حزنه وألمه على إعراضهم عن قبول دعوته.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي وتظنهم إذا رأيتهم أيقاظاً لانفتاح أعينهم وهم نيام، لئلا يسرع إليها البلى، كأنهم ينظرون إلى من يشاهدهم.

---

(١) تفسير الألوسي: ١٥/ ٢٢٣ - ٢٢٤

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي ونقلبهم مرة في ناحية اليمين ومرة في ناحية الشمال، حتى لا تؤثر الأرض في أجسادهم، ولكي تتعرض جلودهم للهواء.

واختلفوا في مدى التقليب، فقيل: يقلّبون في العام مرتين، وقيل: مرة في العام، ولا دليل لكل من القولين، ولا يرشد إليها العقل، ولم يشر إليها القرآن، ولم يرد فيه خبر صحيح، فيبقى النص على إطلاقه. قال ابن عباس: لو لم يقلّبوا لأكلتهم الأرض.

﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ وكان كلبهم الذي تبعهم بإلهام الله للحراسة باسطاً ذراعيه بفناء الكهف أو بباب الكهف يحرس عليهم الباب، وهذا من سجيته وطبيعته، كأنه يحرسهم، وقد أصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذه فائدة صحبة الأخيار.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أي لو نظرت عليهم لأدبرت عنهم فراراً وهرباً، ولملئت منهم رعباً وفزعاً؛ لأن الله تعالى ألقى عليهم المهابة والوقار، بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم، إلى أن انتهى أجل لبثهم راقدين، وتحققت فيهم الحكمة البالغة، والرحمة الواسعة، وأقام الله فيهم الدليل المادي الحسي على قدرته على البعث والإعادة، وعلى أن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه.

بعثتهم من نومهم صحاح الأبدان بعد ثلاث مئة سنة وتسع سنين:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ أي كما زدناهم هدى وأنمناهم، وحفظنا أجسادهم من البلى والفناء، وأبقيناهم أحياء من غير أكل ولا شرب مدة طويلة من الزمان، ونقلبهم، فكذلك بعثناهم، أي أحييناهم من تلك النومة التي تشبه الموت، لنعرِّفهم مدى قدرتنا وعجيب فعلنا في الناس، وليتبصروا في أمرهم وليتساءلوا بينهم، واللام هنا لام العاقبة أو الصيرورة:

فقال قائل منهم: كم لبثتم، أي كم رقدتم في نومكم؟ لإحساسهم بطول الرقاد. ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أي أجاب بعضهم قائلاً: لبثنا في تقديرنا يوماً كاملاً أو جزءاً من اليوم؛ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول النهار، واستيقاظهم كان في آخر النهار، لذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أجاب بعض آخر: ربكم أعلم بأمركم، وبمقدار لبثكم، وهذا استشعار منهم وتردد بكثرة نومهم، لما رأوا حالهم متغيرة، أي فالله أعلم منكم، وأنتم لا تعلمون مدة لبثكم، وهذا أدب الإيمان اليقظ في الرد على جواب البعض الأول.

الوكالة في شراء الطعام:

ثم تذاكروا فيما بينهم وقرروا البحث في المهم من أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا:

﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي فأرسلوا أحدكم بدراهمكم أو فضتكم هذه التي استصحبوها معهم من منازلهم، لتغطية حوائجهم، إلى المدينة وهي (طرسوس) أي مدينتكم التي خرجتم منها، كما أكد الرازي[1].

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ أي فليبصر أي الأطعمة أجود وأنفع وأطيب وأيسر سعراً، فليأتكم بمقدار مناسب منه.

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ أي وليكن لطيفاً رفيقاً في الطلب وفي خروجه ودخوله المدينة، وفي شرائه، ولا يخبرن أو لا يعلمن أحداً من أهل المدينة بمكانكم.

(١) تفسير الرازي: ١٠٣/٢١

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ﴾ أي إن أصحاب دقيانوس الملك إن اطلعوا على مكانكم، يقتلوكم بالرجم بالحجارة، أو يجبروكم ويكرهوكم على العودة إلى دينهم - دين الوثنية وعبادة الأصنام.

﴿وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي وإن وافقتموهم على العود إلى ملتهم أو دينهم، فلا فلاح لكم أبداً في الدنيا والآخرة.

اطلاع الناس عليهم:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي وكما أنمناهم ثم بعثناهم، أطلعنا الناس عليهم وعلى أحوالهم، وهم أولئك الذين كان لديهم شك في قدرة الله على إحياء الموتى، وفي البعث، وفي أمر القيامة، فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك، وليدركوا ويعلموا أن وعد الله بالبعث حق وصدق وثابت، وأن حدوث الساعة أي القيامة أمر لا شك فيه، فمن شاهد حال أهل الكهف علم صحة الخبر وصدق وعد الله بالبعث؛ لأن حالهم في نومتهم، وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث.

وسمى إعلام الناس بهم إعثاراً؛ لأن من غفل عن شيء ثم عثر به، نظر إليه وعرفه، فكان الإعثار سبباً في العلم، والمعنى: أعثرنا عليهم حين يتنازعون بينهم.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان حين كان بعضهم مع بعض في أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، ومن مؤمن بها وكافر، فجعل اطلاعهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم، وفرح الملك وشعبه بآية الله على البعث، وزال أمر الخلاف في أمر القيامة.

آراء القوم في شأنهم بعد اطلاعهم عليهم:

﴿فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ أي انقسم القوم في شأن أهل الكهف حين

توفاهم الله تعالى فريقين: فريق - قيل هم الكفار منهم قالوا: نسدُّ عليهم باب كهفهم، ونتركهم على حالهم؛ فإنهم كانوا على ديننا، فنتخذ عليهم بنياناً، أي على باب كهفهم، لئلا يدخل إليهم الناس، ضناً بتربتهم، ومحافظة عليها. وقوله: ﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ جملة معترضة، أي أعلم بشأنهم للرد على المتنازعين في عقيدتهم وبيان أنسابهم وأسمائهم ومدة لبثهم.

وفريق آخر تغلبوا على الفريق الأول بالرأي وهم المسلمون وملكهم قالوا - وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم -: لنتخذن على باب الكهف مسجداً يصلي فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم.

عددهم:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ أي إن الناس بعدئذ اختلفوا في عددهم، وهم من خاض في قصتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين، إنهم سألوا رسول الله ﷺ عنهم، فأخر الجواب إلى أن يوحى إليه، فنزلت الآية إخباراً ببيان عددهم وأن المصيب منهم من يقول: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

بعضهم قال: هم ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وآخرون قالوا: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وهم في هذا يقولون: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي قولاً بلا علم، وإنما هو مجرد ظن وتخمين، لا دليل عليه، ولا يقين معه، بدليل اتباع القولين الأولين بقوله: ﴿رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾.

وقال جماعة آخرون: إنهم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، ولما حكى تعالى هذا القول، وسكت عليه أو قرره، دلَّ على صحته، وأنه هو الواقع في الأمر نفسه.

قل يا محمد: ربي أعلم بعددهم، ما يعلمهم إلا قليل من الناس، وأكثر

أهل الكتاب الذين ذكروا أعدادهم على ظن وتخمين. وقوله: ﴿رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى؛ إذ لا داعي إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم.

قال ابن عباس: أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل، كانوا سبعة، وكذا روى ابن جرير عن عطاء أنه كان يقول: عدتهم سبعة.

والمهم في الأمر ليس معرفة العدد، وإنما المهم الاعتبار بالقصة، والانتفاع بما دلت عليه من إثبات قدرة الله تعالى على البعث والإعادة.

وتساءل صاحب الكشاف: فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ ولِمَ دخلت عليها دون الجملتين الأولين؟ ثم أجاب: هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة، وفائدتها تأكيد اتصال الصفة بالموصوف، والدلالة على اتصافه بها أمر ثابت مستقر، أي إن الذين قالوا: ﴿سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ قالوه عن ثبات وعلم، ولم يرجموا بالظن كما فعل غيرهم.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدلاً ظاهراً غير متعمق فيه، وهو أن تقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب، ولا تزيد، من غير تجهيل لهم، ولا تعنيف في الرد عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] وقال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦].

﴿وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾ أي ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت؛ لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المدارة والمجاملة، ولا سؤال مسترشد؛ لأن الله قد أرشدك، بأن أوحى إليك قصتهم.

وهذا يدل على عدم جواز الرجوع إلى أهل الكتاب في شيء من العلم.

إرشاد للنبي ﷺ ولأمته بتعليق الخبر بمشيئة الله:

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾﴾ أي لا تقولن أيها الرسول لأجل شيء عزمت على فعله في المستقبل: إني سأفعل ذلك غداً إلا بأن تقرنه بمشيئة الله عز وجل، فتقول: إن شاء الله، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية مئة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له - وفي رواية قال له المَلَك -: قل: إن شاء الله، فلم يقل، فطاف بهنَّ، فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده، لو قال: إن شاء الله، لم يحنث، وكان دركاً لحاجته» . وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون» .

وقد عرفنا سبب نزول هذه الآية في قول النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: «غداً أجيبكم» فتأخر الوحي خمسة عشر يوماً.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أي واذكر مشيئة ربك، وقل: إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك، والمعنى إذا نسيت كلمة الاستثناء، ثم تنبهت، فتداركها بالذكر، سواء طال الفصل أو قصر، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ولو بعد سنة ما لم تحنث. والاستثناء بالمشيئة عند عامة الفقهاء لا أثر له في الأحكام ما لم يكن موصولاً. وأوضح ابن جرير معنى قول ابن عباس: وهو أنه إذا نسي أن يقول في كلامه أو في حلفه: إن شاء الله، وتذكر ولو بعد سنة، فالسُّنَّةُ له أن يقول ذلك، ليكون آتياً بسُنة الاستثناء، حتى ولو كان بعد الحنث. لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة.

﴿وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أي وقل يا محمد: عسى أن يوفقني ربي لشيء آخر بدل المنسي أو أقرب خيراً ومنفعة، فإذا سئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله تعالى فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك.

مدة لبثهم في الكهف:

أخبر الله تعالى رسوله ﷺ عن مقدار لبث أهل الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله، فقال:

﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ أي إنهم أقاموا في الكهف مقدار ثلاث مئة سنة وتسع سنوات هلالية، وهي ثلاث مئة سنة شمسية، فإن تفاوت ما بين كل مئة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين، فلهذا قال بعد الثلاث مئة: ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾. وأكد ذلك الإخبار بقوله:

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ أي إذا سئلت عن مدة لبثهم، وليس عندك علم في ذلك من الله تعالى، فقل في مثل هذا: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومن أطلعه عليه من خلقه، فلا تتعجل بالأخبار ما لم يكن عندك دليل عليها، والحق ما أخبرك به، لا ما يقولونه؛ إذ له غيب السماوات والأرض، وهو العالم بكل شيء، وأعلم من الذين اختلفوا في مقدار مدة لبثهم.

وبما أن الله أخبر عن مدة لبثهم، فهو الحق الذي لا شك فيه. وفائدة تأخير إيراد هذه الجملة الدلالة على أنهم تنازعوا في مدة اللبث، كما تنازعوا في عددهم، وجاء هذا التذييل هنا كالتذييل المتقدم في حكاية عددهم: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾.

والخلاصة: إن الخبر اليقين في بيان عدد أهل الكهف ومدة لبثهم هو من عند الله تعالى؛ لأنه أعلم بالأشياء وبالحقائق، وأما أقوال الناس فهي ظنون لا دليل عليها، وتستند إلى الشائعات، ولله وحده علم ما غاب في شؤون السماوات والأرض، وخفي من أحوال أهلها.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ هذا من صيغ التعجب والمبالغة، أي إن الله تعالى

لبصير بهم، وذلك في معنى المبالغة في المدح والتعجب، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، أي ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لا يخفى عليه من ذلك شيء. قال قتادة في هذه الصيغة: فلا أحد أبصر من الله ولا أسمع.

﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ أي ما للناس من دون الله متولٍّ يلي أمورهم، وليس له وزير ولا نصير.

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي إن الله تعالى له الخلق والأمر، لا معقِّب لحكمه، ولا يشاركه في قضائه أحد من الناس، وليس له شريك ولا مشير.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من بيان قصة أصحاب الكهف ما يأتي:

١ً- ليس حال هذه القصة هي الآية العجاب من آيات الله فقط، وإنما خلق السماوات والأرض وما فيهما أشد عجباً وأعظم روعة، وأدل على قدرة الله عز وجل، فلا يعظم ذلك أيها النبي بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة.

٢ً- كان إيواء الفتية المؤمنين إلى الكهف من بناء أشراف مدينة (دقيانوس) الملك كافراً فراراً بدينهم من فتنة الكافرين عبدة الأصنام. وهذا دليل صريح في الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال، خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبي ﷺ فارّاً بدينه، وكذلك أصحابه، كما نص الله تعالى في سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾. إنهم هجروا أوطانهم، وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

وهذه الحالة المستثناة لجواز العزلة عن الناس باتفاق العلماء مقصورة على حال خشية الفتنة في الدين. وأما ما عدا ذلك فالمخالطة أفضل من العزلة،

روى البغوي وأحمد والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على أذاهم» .

٣- لما فرَّ أصحاب الكهف ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء، ولجؤوا إلى الله تعالى قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي آتنا مغفرةً ورزقاً، وهيِّئ لنا توفيقاً للرشاد والسداد والصواب.

وقد اختلف الناس في زمان أصحاب الكهف في مكانهم، أما الزمان الذي كانوا فيه: فقيل إنهم كانوا قبل موسى عليه السلام، وإن موسى ذكرهم في التوراة، ولهذا السبب فإن اليهود سألوا عنهم، وقيل: إنهم دخلوا الكهف قبل المسيح ثم بعثوا بعد عيسى وقبل محمد، وقيل: إنهم دخلوا الكهف بعد المسيح. وأما مكان هذا الكهف فلا يعرف على وجه اليقين، ويقال: إنه في بلاد الروم أي في جنوب تركيا اليوم في طرسوس، وهو الظاهر.

٤- كان من تدبير الله تعالى لأهل الكهف للمكث فيه راقدين (٣٠٩) سنوات إلقاء النوم عليهم ومنعهم من السماع؛ لأن النائم إذا سمع انتبه، ثم بعثتهم من بعد نومهم، ثم اطلاع الناس على شأنهم.

وكان إيقاظهم من أجل اختبار الناس لمعرفة مقدار مدة لبثهم، وقوله: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ﴾ معناه: لنعلم ذلك موجوداً، وإلا فقد كان الله تعالى علم أي الفريقين أحصى الأمد. والفريقان أو الحزبان: الفتية الذين ظنوا لبثهم قليلاً، وأهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية.

٥- إن صفات هؤلاء الفتية أو الجماعة من الشبان: أنهم آمنوا بالله، وألهم الله قلوبهم الصبر والثبات، وزاد الله في إيمانهم بالتيسير للعمل الصالح؛ من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا.

وكان من أثر شدة عزيمتهم وقوة صبرهم التي أعطاها الله لهم أنهم أعلنوا أمام الكفار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾.

وكانوا يتذاكرون شأن إيمانهم، فقال بعضهم: هؤلاء أهل عصرنا وبلدنا، عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة، فهلا يأتون بحجة على عبادتهم الصنم؟!

٦ً- لقد قال الله لهم أو قالوا لبعضهم: إذ اعتزلتم قومكم، فأووا إلى الكهف تغمركم رحمة الله، ويهيئ الله لكم ما ترتفقون وتنتفعون به من شؤون الحياة.

٧ً- كان من رحمة الله بهم ولطفه بهم بعد الرقاد أن الشمس تتنحى عنهم وتميل جهة اليمين وجهة الشمال، أي عن يمين الكهف وعن شماله، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار، وكان الرائي يحسبهم أيقاظاً؛ لأن أعينهم كانت مفتوحة وهم نائمون، وأن كلبهم باسط ذراعيه في باب الكهف لحراستهم، وهو نائم مثلهم. ومن لطفه تعالى بهم أيضاً تقليبهم ناحية اليمين وناحية الشمال لئلا تأكل الأرض لحومهم، وكان التقليب من فعل الله، ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فينسب إلى الله تعالى.

٨ً- يجوز اتخاذ الكلاب للحاجة والصيد والحراسة، ورد في صحيح مسلم عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «من اقتنى كلباً إلا كلبَ صيد أو ماشية، نقص من أجره كل يوم قيراطان» .

وكلب الماشية المباح اتخاذه عند الإمام مالك: هو الذي يسرح معها، لا الذي يحفظها في الدار من السرّاق. وكلب الزرع: هو الذي يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار، لا من السُّرّاق. وقد أجاز غير مالك اتخاذ الكلاب لسرّاق الماشية والزرع.

٩ً- ينتفع الإنسان بصحبة الأخيار ومخالطة الصلحاء والأولياء، بدليل جعل كلب أهل الكهف مثلهم، إنه كلب أحب قوماً، فذكر الله معهم. روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد، فلقينا رجل عند سِدَّة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: ما أعددتَ لها؟ قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت» .

وأكثر المفسرين: على أنه كلب حقيقة، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه، أو غنمه، واسمه (قطمير) كلب أنمر، والصحيح أنه زُبيري.

١٠ً- ألقى الله عليهم الهيبة أو المهابة والوقار، فلو شاهدهم إنسان أشرف على الهرب منهم، وامتلأ قلبه خوفاً ورعباً منهم. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها، لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغير صفة، ولم يُنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمّ.

١١ً- بعد الرقاد والتقليب أيقظهم الله من نومهم على ما كانوا عليه من هيئاتهم في ثيابهم وأحوالهم، وليصيروا إلى التساؤل فيما بينهم عن مدة نومهم، فقال بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وقال آخرون: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

١٢ً- دلَّ قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ الآية على مشروعية الوكالة، وعلى حسن السياسة والتلطف في دخول المدينة وخروجها وشراء الطعام من أهلها، حتى لا يعلم أهل المدينة بهم، فيقتلوهم بالحجارة، وهو أخبث القتل.

والوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام، وقد وكل النبي ﷺ بعض الصحابة

في تزويجه من بعض النسوة، ووكل عروة البارقي في شراء أضحية، ووكل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهما.

والوكالة عقد نيابة أذن الله سبحانه فيه للحاجة إليه، وقيام المصلحة في ذلك؛ إذ ليس كل أحدَ يقدر على تناول أموره إلا بمعونة من غيره، أو بترفُّه، فيستنيب من يُريحه. ودلَّ القرآن في غير هذه الآية على جواز الوكالة، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ [التوبة: ٩/٦٠] وقوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا﴾ [يوسف: ١٢/٩٣].

والوكالة جائزة عند الجمهور لمن له عذر ومن لا عذر له، وقال أبو حنيفة وسُحْنون: لا تجوز لمن لا عذر له. ودليل الجمهور حديث البخاري عن أبي هريرة المتضمن توكيل النبي ﷺ إعطاء بعض أنواع الإبل وفاء لدينه، وقال: «إن خيرَكم أحسنكم قضاء».

١٣ً- تضمنت هذه الآية: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أيضاً جواز الشركة؛ لأن الورِق كان لجميعهم، كما تضمنت جواز الوكالة؛ لأنهم بعثوا من وكّلوه بالشراء، وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر، ومثله قوله تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٠].

١٤ً- أطلع الله تعالى الناس على أهل الكهف للعبرة والعظة والاسترشاد وإقامة الحجة على قدرة الله على الحشر وبعث الأجساد من القبور، والحساب.

١٥ً- إن اتخاذ المساجد على القبور، والصلاة فيها، والبناء عليها، غير جائز في شرعنا، لما روى أبو داود والترمذي عن ابن عباس قال: «لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد، والسُّرُج».

ويجوز الدفن في التابوت، لا سيما إذا كانت الأرض رخوة، وقد دفن

دانيال ويوسف عليهما السلام في تابوت، وكان تابوت دانيال من حجر، وتابوت يوسف من زجاج. لكن يكره في شرعنا.

١٦ً- قوله تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ تنبيه على أن هذا العدد هو الحق؛ لسكوت النص على التعقيب عليه، خلافاً لما قال تعالى في الجملتين المتقدمتين: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ أمر دال على أن يردَّ النبي ﷺ علم عدَّتهم إلى الله عز وجل، ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل.

وقوله: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عددهم، فلهذا قال: ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أي ذاهباً، ودليل على أنه لم يبح له في هذه الآية المراء والجدال إلا بالتي هي أحسن، كما جاء في آية أخرى.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم.

١٧ً- السُّنة والأدب الشرعيان يقتضيان تعليق الأمور المستقبلية بمشيئة الله تعالى؛ للآية ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾. والآية ليست في الأيمان، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين، بأن يقول: إن شاء الله.

ويؤمر الإنسان بالذكر بعد النسيان، أي بذكر مشيئة الله عند التذكر ولو بعد حين، سنة أو أقل، أو أكثر.

١٨ً- أخبر تعالى في قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ عن مدة لبث أهل الكهف، وهي ثلاث مئة وتسع سنوات، كانوا في هذه المدة نياماً، لا أمواتاً. وأمر الله تعالى برد العلم بمدتهم إلى الله عز وجل، كما أمر بذلك في معرفة عددهم؛ لأن الله تعالى أعلم بكل شيء، وأعلم بغيب السماوات والأرض

وما فيها من أحوال المخلوقات، ولا شريك له ولا مشير، ولا نصير ولا معين ولا وزير.

والظاهر: إن أهل الكهف ماتوا موتاً حقيقياً، وإن كان لا مانع شرعاً من بقاء أجسادهم محفوظة، لم يطرأ عليها البلى والفناء؛ لأن أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء الصالحين لا تفنى ولا تبلى.

٩ً- العبرة من القصة: دلت هذه القصة على أن الله قادر على البعث والقيامة؛ لأن إثبات البعث والقيامة يدور على أصول ثلاثة: أحدها- أنه تعالى قادر على كل الممكنات، والثاني - أنه تعالى عالم بجميع المعلومات الكليات والجزئيات، والثالث - أن كل ما كان ممكن الحصول في بعض الأوقات كان ممكن الحصول في سائر الأوقات.

وهذه القصة تدل على أن الله تعالى عالم قادر على كل شيء، فثبت القول بإمكان البعث والقيامة.

توجيهات للنّبي ﷺ وللمؤمنين
تلاوة القرآن والصبر على مجالسة الفقراء
وإظهار كون الحق من عند الله

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾:

وقرأ ابن عامر (بالغُدْوة).

﴿بِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (بيس).

الإعراب:

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر مبتدأ محذوف، و﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ حال.
﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ صفة ثانية لماء أو حال من المهل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته: اسم ﴿إِنَّ﴾، وخبرها إما ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وإما ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ أي لا نضيع أجرهم، فأقيم المظهر مقام المضمر، وإما أن خبرها مقدر، أي إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يجازيهم الله بأعمالهم، بدليل ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

البلاغة:

﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ و﴿فَلْيُؤْمِن﴾ ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ بينهما طباق.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ و﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ مقابلة بين النار والجنة.

﴿بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ تشبيه مرسل مفصل لذكر أداة الشبه ووجه التشبيه.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ من القرآن، ولا تسمع لقولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٠/ ١٥]. ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ لا مغير لأحكامه، فلا أحد يقدر على تبديلها وتغييرها غيره. ﴿مُلْتَحَدًا﴾ ملجأ تعدل إليه إذا هممت به. ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احبسها وثبّتها مع الفقراء. ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ أي في طرفي النهار، وخصا بالبيان لغفلة الناس واشتغالهم بدنياهم حينئذٍ. ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ يريدون بعبادتهم رضا الله وطاعته، لا شيئاً من أعراض الدنيا. ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي لا يجاوزهم نظرك إلى غيرهم، والمراد لا تهمل شأنهم وتهتم بالأغنياء، وعبر بقوله تعالى: ﴿عَيْنَاكَ﴾ عن صاحبهما. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي تقصد مجالسة الأغنياء وأصحاب النفوذ والثروة. ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ جعلناه غافلاً وهو حينئذٍ

عُيَيْنَة بن حصن وأصحابه مثل أُمية بن خلَف .﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ أي القرآن .﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في الشرك .﴿فُرُطًا﴾ أي تجاوزاً حد الاعتدال، وتقدماً على الحق، ونبذاً له. وكانوا قد دعوا النبي ﷺ إلى طرد الفقراء عن مجلسه لصناديد قريش. وفيه تنبيه إلى أن الداعي لهذا الاستدعاء غفلة القلب عن المعقولات، والانهماك في المحسوسات حتى خفي عليهم أن الشرف بحلية النفس، لا بزينة الجسد.

﴿وَقُلِ﴾ خطاب للنبي ولأصحابه .﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ الحق ومنه القرآن: ما يكون من جهة الله تعالى، لا ما يقتضيه الهوى .﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ تهديد لهم ووعيد، قال البيضاوي: وهو لا يقتضي استقلال العبد بفعله، فإنه وإن كان بمشيئته، فمشيئته ليست إلا بمشيئة الله تعالى .﴿أَعْتَدْنَا﴾ أعددنا وهيأنا .﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين .﴿سُرَادِقُهَا﴾ هو الفسطاط، وهو لفظ فارسي مُعَرَّب، شبَّه به ما يحيط بهم من لهب النار .﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ كعكر الزيت، أو كالشيء المذاب من المعادن كالنحاس والرصاص .﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ من حره إذا قُدِّم أو قُرِّب منها للشرب .﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المُهْل هو .﴿وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي وساءت النار متكأ، وهو لمقابلة قوله تعالى الآتي: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وإلا فلا ارتفاق لأهل النار. و﴿مُرْتَفَقًا﴾: تمييز منقول عن الفاعل، أي قبح مرتفقها.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ خبر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ وفيها إقامة الظاهر مقام المضمر، أي لا نضيع أجرهم، أي نثبتهم بما تضمنه. ويجوز أن يكون الخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ وما بينهما اعتراض. وهذا على الوجه الأول استئناف لبيان الأجر، أو خبر ثانٍ .﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إقامة واستقرار. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى للابتداء، والثانية للبيان، صفة لأساور، وهي جمع أسورة أو أسوار في جمع سوار، أي فهي جمع الجمع. وتنكير لفظها لتعظيم حسنها عن الإحاطة به.

﴿سُندُسٍ﴾ ما رَقَّ من الديباج، وهو فارسي مُعَرَّب، والمُعَرَّب يصبح عربياً بخضوعه لقوالب العربية .﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ منه، وهو رومي معرَّب. جاء في آية من سورة الرحمن ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [٥٤] وجمع بين النوعين للدلالة على أن فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين .﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ السرر، جمع أريكة وهي السرير الذي عليه الحَجَلة (الناموسية في عرفنا) .﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنة ونعيمها.

سبب النزول

نزول الآية (٢٨):

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ﴾: عن سلمان الفارسي قال: جاءت المؤلفة القلوب إلى رسول الله ﷺ: عُيَيْنة بن حِصْن، والأقرع بن حابس وذووهم، فقالوا: يا رسول الله، إنك لو جلست في صدر المجلس، ونَحَّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم، يعنون سلمان وأبا ذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف، ولم يكن عليهم غيرها، جلسنا إليك، وحادثناك وأخذنا عنك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ حتى بلغ ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ يتهددهم بالنار، فقام النبي ﷺ يلتمسهم، حتى إذا أصابهم في مؤخر المسجد يذكرون الله تعالى قال: «الحمد لله الذي لم يمتني، حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات»[١].

وفي رواية أخرى: أن عُيَيْنة بن حِصْن الفَزاري أتى النبي ﷺ قبل أن يُسْلِم، وعنده جماعة من فقراء أصحابه، فيهم سلمان الفارسي، وعليه شَمْلة قد عَرِق

(١) أسباب النزول للواحدي ١٧١

فيها، وبيده خوص يشقّه، ثم ينسجه، فقال له: أما يؤذيك ريح هؤلاء، ونحن سادات مضر وأشرافها، فإن أسلمنا أسلم الناس، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحِّهم حتى نتَّبعك، أو اجعل لهم مجلساً، ولنا مجلساً، فنزلت الآية.

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة قالا: جاء رسول الله ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحِجْر، أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المجلس الذي أمرت أن أصبر نفسي معهم».

نزول آية ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾:

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾ قال: نزلت في أُمَيَّة بن خَلَف الجُمَحي، وذلك أنه دعا النبي ﷺ إلى أمر كرهه الله من طرد الفقراء عنه، وتقريب صناديد أهل مكة، فنزلت.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة أصحاب الكهف التي يجهلها كثير من الناس لكونها من المغيبات، مما يدل على أن القرآن وحي من عند الله تعالى، أمر تعالى رسوله والمؤمنين ببعض الأوامر: وهي المواظبة على تلاوة القرآن، وملازمة مجالس أصحابه الفقراء الذين يتدارسون القرآن، وإظهار أن القرآن وكلّ حق هو من عند الله تعالى.

ثم ذكر تعالى جزاء الكافرين وعقابهم الأليم، وثواب المتقين ونعيمهم الدائم، جزاءَ كلٍّ بما يستحق.

التفسير والبيان:

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ﴾ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآية بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه إلى الناس، قائلاً له: وَٱتل الكتاب الموحى به إليك، واتبع ما جاء فيه

من أمر ونهي، فإنه لا مغير لكلمات ربك من وعد الطائعين ووعيد العصاة، ولا محرف ولا مزيل لها، فإن لم تعمل به، فوقعت في الوعيد، فلن تجد ملجأ ولا وليّاً ناصراً من دون الله تعالى.

هذا هو **التوجيه الأول:** تلاوة القرآن والعمل بمقتضاه.

والتوجيه الثاني هو مجالسة الفقراء والمستضعفين فقال تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي جالس الذين يذكرون الله ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه ويدعونه في الغداة (صباحاً) والعشي (مساء) أي في كل وقت، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يريدون وجهه (أي طاعته) ورضاه.

يقال كما بيّنا: إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده، من غير وجود أصحابه الفقراء أو الضعفاء، كبلال، وعمار، وصهيب، وخبَّاب، وابن مسعود، وليفردوهم في مجلس على حدة، فنهاه الله عن ذلك، وأمره أن يصبر ويثبِّت نفسه في الجلوس مع هؤلاء، ونظير الآية قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٢]. وهذا شبيه بقول قوم نوح عليه السلام: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١١١].

وأكد تعالى الأمر السابق بقوله: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي ولا تجاوز بصرك ونفسك إلى غيرهم، فتطلب بدلهم أصحاب الثروة والنفوذ، والمقصود النهي عن احتقارهم لسوء حالهم وفقرهم، قال رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أُمرتُ أن أصبر نفسي معه».

ثم أكد تعالى هذا النهي بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي وإياك أن تطيع من وجدناه غافلاً، وشغل عن الدين وعبادة ربّه بالدنيا، وكان مسرفاً مفرطاً في أعماله وأفعاله غاية الإسراف والتفريط، متبعاً شهواته، وهو

دليل على أن سبب البعد عنهم انشغالهم عن اتباع أمر الله بمفاتن الدنيا وزينتها.

والتوجيه الثالث: إعلان مجيء الحق واضحاً ظاهراً من الله تعالى، بحيث لم يبق إلا التهديد والوعيد الشديد على كفرهم فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي قل يا محمد للناس: هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، وهو النظام الأصلح للحياة، فمن شاء آمن به، ومن شاء كفر به، فأنا في غنى عنكم، ومن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم يحاسبكم ربكم على أعمالكم، وفي هذا تهديد ووعيد شديد.

ثم ذكر الله تعالى نوع الوعيد على الكفر، والوعد على العمل الصالح، فقال واصفاً الأول: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي إنا أرصدنا وهيأنا وأعددنا للكافرين بالله ورسوله وكتابه نار جهنم، الذي أحدق وأحاط بهم سورها من كل جانب، حتى لا يجدوا مخلصاً منها. أخرج أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لسرادق النار أربعة جُدُر، كُثُف[1] كل جدار مسافة أربعين سنة» والسُّرادق: واحد السرادقات التي تمد فوق صحن الدار، أو السور.

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ أي إن يطلب هؤلاء الكافرون الظالمون الإغاثة والمدد والماء وهم في النار، لإطفاء عطشهم، بسبب حَرّ جهنم، يغاثوا بماء غليظ كدُردي (عَكَر) الزيت، أو كالدم والقيح، يشوي جلود الوجوه من شدة حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه، حتى تسقط جلدة وجهه فيه، كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «المُهْل كعَكَر الزيت، فإذا قرَّبه إلى وجهه، سقطت فَرْوة وجهه فيه».

(١) الكثف: جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي بئس هذا الشراب شرابهم، فما أقبحه، فهو لا يزيل عطشاً، ولا يُسكِّن حرارة، بل يزيد فيها، وساءت جهنم مرتفقاً، أي وساءت النار منزلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق والانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٦].

ثم وصف الله تعالى وعده للمؤمنين الصالحين السعداء فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ أي إن الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلا يضيع الله أجرهم على إحسانهم العمل.

والعطف بين الإيمان والعمل يدل على أن العمل الصالح مغاير للإيمان؛ لأن العطف يوجب المغايرة.

وأوصاف نعيمهم هي:

أ - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أولئك لهم جنان إقامة دائمة، تجري فيها الأنهار من تحت غرفهم ومنازلهم.

٢ - ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ أي يلبسون فيها حلية فيها أساور من ذهب، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء». وفي آية أخرى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٢/٢٣].

٣ - ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ أي ويلبسون سندساً هو رقيق الحرير، وإستبرقاً هو غليظ الديباج أو الحرير، واختير الأخضر لراحة العين عند إبصاره.

٤ - ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ أي مضطجعين فيها على السرر، شأنهم شأن الملوك والعظماء، والأرائك: جمع أريكة وهي السرير.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم، وحَسُنت منزلاً ومقراً ومقاماً، كما قال في آية أخرى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٦] .

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات الإرشادات التالية:

١ً - وجوب اتباع القرآن وما جاء به: لأنه لا مغيِّر لما أوعد بكلماته أهل معاصيه والمخالفين لكتابه، ووعد أهل طاعته المتبعين ما أمر به، المبتعدين عما نهى عنه.

٢ً - الإسلام دين المساواة: فلا فرق في نظامه بين شريف ووضيع، وغني وفقير، ورئيس ومرؤوس، ولا تفرقة في أموره الاجتماعية بين الطبقات، الكل سواء في المجلس والمعاملة والحقوق والواجبات. وقد قضى القرآن بآية ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ على الامتيازات في المجلس والخطاب والكلام بين أشراف قريش وساداتها وبين فقراء المسلمين وضعفائهم.

بل إن الإسلام مع الضعيف التقي الذي يبتغي بعمله رضوان الله وطاعته، وينفر من الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة، ويتبعون أهواءهم، ويبلغون في إسرافهم في المعاصي حد الإفراط ومجاوزة الحد.

لهذا فلا داعي لتزيين مجلس النبي والمؤمنين من بعده بمجالسة الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسه، ولم يُرد النبي ﷺ أن يفعل ذلك، ولكن الله نهاه عن أن يفعله. وكان القوم قالوا: نحن أشراف مُضَر إن أسلمنا أَسْلَمَ الناس؛ وكان هذا من التكبر والإفراط في القول.

٣ً - الحق من الله ربِّ الناس، فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهدى والضلال، يهدي من يشاء فيؤمن، ويضل من يشاء فيكفر، ليس إلى أحد،

ولو النبي ﷺ، من ذلك شيء، فالله يؤتي الحق من يشاء، وإن كان ضعيفاً، ويحرمه من يشاء، وإن كان قوياً غنياً، وليس للنبي ﷺ أن يطرد المؤمنين من مجلسه لهوى السادة الزعماء من قريش.

فإن شئتم أيها السادة فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا، وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد، أي إن كفرتم فقد أعدَّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة.

والدليل على كون ذلك تهديداً قوله تعالى بعدئذٍ مباشرة: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ أي إنا أعتدنا للكافرين الجاحدين ناراً شديدة اللهب، أحاط بهم سرادقها، أي سورها، أو ما يعلو الكفار من دخان أو نار.

وشراب أهل النار: هو المُهْل، وهو ماء غليظ مثل دُرْدِيّ الزيت (وهو ما يبقى في أسفل الوعاء)، أو النحاس المذاب، أو كالقيح والدم، كما في قوله تعالى: ﴿وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ، يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ١٦-١٧] ، وقوله سبحانه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥].

وما أسوأ وأقبح العذاب في نار جهنم، لذا قال تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ أي مجتمعاً ومنزلاً ومقراً.

٤ - بعد أن ذكر تعالى ما أعد للكافرين من الهوان، ذكر أيضاً ما للمؤمنين من الثواب، فإن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً من المؤمنين، مما يدل على أن أساس النجاة: الإيمان مع العمل الصالح. أما من أحسن عملاً من غير المؤمنين، فعمله محبَط.

وثواب المؤمنين: جنات عدن أي وسطها وسائر الجنات مُحْدقة بها، باللؤلؤ

وأساور الذهب، ويلبسون الثياب الخُضْر من الرقيق والغليظ الكثيف، ويتكئون على الأرائك وهي السُّرُر في الحِجال[1].

فما أجمل وأحسن ذلك الثواب، لذا قال تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي نعمت الجنة ثواباً للمؤمنين الصالحين، وحسنت مقراً ومقاماً ومجلساً ومجتمعاً.

صاحب الجنتين

مثل الغني المغتر بماله والفقير المعتز بعقيدته

﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾

(١) الحجال: جمع الحَجَلة كالقبة، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس.

القراءات:

﴿أُكُلَهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أُكْلَها).

﴿ثَمَرٌ﴾: قرئ:

١- (ثُمْر) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (ثَمَر) وهي قراءة عاصم.

٣- (ثُمُر) وهي قراءة الباقين.

﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ﴾:

وقرأ نافع، بإثبات ألف (أنا) وصلاً، والباقون بحذفها وصلاً.

﴿مِّنۡهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر (منهُما).

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ﴾:

قرأ ابن عامر بإثبات الألف وصلاً، والباقون بحذفها وصلاً.

﴿بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ آية ٣٨ و٤٢، ﴿رَبِّيٓ أَن﴾ آية ٤٠

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر (بربيَ أحداً، ربيَ أن).

﴿أَنَا۠ أَقَلَّ﴾:

قرأ نافع بإثبات ألف (أنا) وصلاً، والباقون بحذفها.

﴿بِثَمَرِهِۦ﴾:

وهي مثل ﴿ثَمَرٌ﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ولم يكن).

﴿الْوَلَايَةُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (الوِلاَية).

﴿الْحَقِّ﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (الحقُّ).

﴿عُقْبًا﴾: قرئ:

١- (عُقْباً) وهي قراءة عاصم، وحمزة، وخلف.

٢- (عُقُباً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ﴿لَّٰكِنَّا۠﴾: أصله: لكن أنا، فحذفت الهمزة، وأدغمت النونان ببعضهما أو نقلت حركة الهمزة إلى النون. ومن قرأ (لكنّ) بحذف الألف فعلى الأصل في حالة الوصل. ولكن هنا هي الخفيفة التي لا يراد بها الاستدراك. وأنا: مبتدأ، وهو: مبتدأ ثانٍ، والله؛ خبر المبتدأ الثاني، وربي: صفته، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره: خبر المبتدأ الأول. والعائد إليه: الياء المجرور بالإضافة في ﴿رَبِّي﴾.

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾: إما اسم موصول، و﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: صلته، وهو في موضع مبتدأ مرفوع، وخبره محذوف، أي الذي شاءه الله كائن، فحذف الهاء التي هي العائد تخفيفاً، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: الأمر ما

شاء الله، وحُذفَ العائد تخفيفاً؛ وإما أن تكون شرطية في موضع نصب بشاء، وجوابها محذوف، أي ما شاء الله كان.

﴿إِن تَـرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ﴾ ﴿إِن﴾: شرطية، وجوابها: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ﴾ و﴿أَنَا۠﴾: ضمير فصل، لا موضع له من الإعراب؛ لأنه وقع بين معرفة ونكرة تقارب المعرفة، فالمعرفة ياء (ترني) والنكرة التي تقارب المعرفة: ﴿أَقَلَّ مِنكَ﴾ قرب من المعرفة لتعلق ﴿مِنكَ﴾ به، وهو مفعول ثان، وياء (ترني): مفعول أول.

﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا﴾ ﴿غَوۡرٗا﴾: إما بمعنى غائر، أو فيه مضاف محذوف، أي ذا غور، مثل ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ أي مثل رجلين. و﴿غَوۡرٗا﴾: خبر أصبح المنصوب.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ ﴿بِثَمَرِهِۦ﴾: اسم جنس كخشبة وخشب، وشجرة وشجر. وقرئ (بثُمُره) بضمتين، وهو إما جمع ثمار، وثمار جمع ثمرة، فيكون جمع الجمع، كإزار وأُزُر، وإما أن يكون كخشبة وخُشُب. وقرئ بضمة واحدة (ثُمْره) مخففاً من ثُمُر، مثل: خُشُب وخُشْب.

﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ﴾ قرئ ﴿تكن﴾ بالتاء؛ لأن الفئة مؤنثة، وقرئ بالياء لوجود الفصل.

﴿هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾: يجوز أن يكون ظرف زمان وظرف مكان، والأصل فيه أن يكون للمكان، واللام للبعد، ويتعلق بقوله: ﴿مُنتَصِرًا﴾ وتكون ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ﴾ مبتدأ وخبر. و﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾: بالرفع صفة للولاية، وجعله خبراً أولى من جعله صفة، لما فيه من الفصل بين الصفة والموصوف. وعلى قراءة الجر: صفة لله، فلا فصل فيه. ويجوز أن يتعلق بخبر المبتدأ الذي هو ﴿الله﴾. ويجوز جعل ﴿هُنَالِكَ﴾ خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ وعامله: استقر، الذي قام ﴿هُنَالِكَ﴾ مقامه، و﴿لِلَّهِ﴾: حال.

﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾: نصبهما على التمييز.

البلاغة:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾ ﴿غَوْرًا﴾: مبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل، أي غائراً.

﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ كناية عن التحسر والندم؛ لأن النادم يضرب بيمينه على شماله.

المفردات اللغوية:

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ اجعل للكفار مع المؤمنين مثلاً. ﴿رَّجُلَيْنِ﴾ بدل، وهو وما بعده تفسير للمثل. ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ للكافر. ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بساتين، وسميت الجنة بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر. ﴿أَعْنَابٍ﴾ كروم العنب. ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ جعلنا النخل محيطة بهما. ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿كِلْتَا﴾: مفرد يدل على التثنية. ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها. ﴿وَلَمْ تَظْلِم﴾ تنقص. ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾ شققنا وسطهما. ﴿نَهَرًا﴾ أو بتسكين العين: مجرى الماء العذب. ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أنواع من المال سوى الجنتين من ثمر ماله. ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ المؤمن. ﴿يُحَاوِرُهُ﴾ يجادله ويراجعه في الكلام، من حاور: إذا راجع. ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر هنا: الخدم والحشم والولد والأعوان.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ أي دخل مع صاحبه بستانه يطوف به فيه، ويريه أثماره ويفاخره. وأفرد الجنة ولم يقل جنتيه، للتنبيه على أنه ماله جنة غيرها، فلا نصيب له في جنة الخلد في الآخرة التي وعد بها المؤمنون، فما ملكه في الدنيا: هو جنته لا غير، أو لاتصال كل واحدة من جنتيه بالأخرى، أو لأن الدخول

يكون عادة في واحدة ثم الأخرى .﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ معجب بما أوتي، مفتخر به، كافر لنعمة ربه، معرّض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أفحش الظلم .﴿تَبِيدَ﴾ تنعدم أو تفنى وتهلك.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ بالبعث في الآخرة كما زعمت .﴿خَيْرًا مِّنْهَا﴾ من جنته .﴿مُنقَلَبًا﴾ مرجعاً وعاقبة؛ لأنها فانية وتلك باقية. وإنما أقسم هذا الخاسر على ذلك لاعتقاده أنه تعالى إنما أولاه هذه النعم، لاستحقاقه إياها لذاته .﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ يجاوبه .﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلك من تراب، وهو آدم عليه السلام .﴿نُّطْفَةٍ﴾ مني .﴿سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ عدلك وصيَّرك إنساناً كامل الرجولة. وجعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى؛ لأن منشأه الشك في كمال قدرة الله تعالى، ولذلك رتب الإنكار على خلقه إياه من التراب، فإن من قدر على بدء خلقه منه، قدر على أن يعيده منه.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن، تفسره الجملة بعده، والمعنى: أنا أقول: الله ربي .﴿وَلَوْلَآ﴾ هلا .﴿قُلْتَ﴾ عند إعجابك بها، أو عند دخولك .﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الأمر ما شاء الله، أو ما شاء الله كائن، على أن ما موصولة، أو أي شيء شاء الله كان، على أنها شرطية، يعني إقراراً بأن الجنة وما فيها بمشيئة الله، إن شاء أبقاها، وإن شاء أبادها .﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ فهلا قلت: لا قوة إلا بالله، اعترافاً بالعجز على نفسك والقدرة لله، وإن ما تيسر من عمارتها، فبمعونته وإقداره. جاء في الحديث الذي رواه ابن السني عن أنس، وهو ضعيف: «من رأى شيئاً فأعجبه، فقال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، لم تضره العين» . وفي رواية أخرى: «من أُعطي خيراً من أهل أو مال، فيقول عند ذلك: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، لم ير فيه مكروهاً» .

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠﴾ ضمير فصل بين المفعولين أو تأكيد للمفعول الأول. ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي في الدنيا أو في الآخرة لإيماني،

وهو جواب الشرط. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنتك لكفرك. ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ جمع حسبانة، وهي الصواعق. ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضاً ملساء لا يثبت عليها قدم. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا﴾ غائراً، ويصبح: عطف على ﴿يرسل﴾ لا على: ﴿فَتُصْبِحَ﴾ لأن غور الماء لا يتسبب عن الصواعق. ﴿طَلَبًا﴾ للماء، أي عملاً أو حيلة لرده.

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ أهلكت أمواله، بما فيها جنته، حسبما توقع صاحبه وأنذره منه. ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ هذا كناية في اللغة عن التحسر والندم. ﴿عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ في عمارة جنته. ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة. ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ دعائمها التي كانت منصوبة للكرم، بأن سقطت عروشها على الأرض، ثم سقطت الكروم. ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ (يا): للتنبيه، وكأنه تذكر موعظة أخيه.

﴿فِئَةٌ﴾ جماعة. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عند هلاكها، بدفع الإهلاك فإن الله هو القادر على نصره وحده. ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ بنفسه عند هلاكها، ممتنعاً بقوته عن انتقام الله منه. ﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المقام أو تلك الحال أو يوم القيامة. ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ بفتح الواو: النصرة له وحده لا يقدر عليها غيره، وبكسر الواو: الملك والسلطان. ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ من ثواب غيره لو كان يثيب. ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ عاقبة للمؤمنين.

سبب النزول:

قيل: نزلت في أخوين من بني مخزوم: الأسود بن عبد الأسود بن عبد ياليل، وكان كافراً، وأبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد، كان مؤمناً، وهو زوج أم سلمة قبل زواج الرسول ﷺ بها.

وقيل في قول ابن عباس: أخوان من بني إسرائيل، أحدهما كافر، اسمه فرطوس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا أو قطفير، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف

دينار، فتشاطرا، فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً، وصرفها المؤمن في وجوه الخير، وآل أمرهما إلى ما حكاه الله تعالى.

وعن مقاتل: هما المذكوران في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾ [٥١]. وهما من بني سرائيل، كما ذكر ابن عباس.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى نبيه بملازمة مجالس أصحابه الفقراء، وعدم الاستجابة لمطالب المشركين المتجبرين بطرد الضعفاء المؤمنين، حتى لا يتساووا معهم، ولا يؤذوا بمناظرهم وروائحهم، فيمتهن كبرياؤهم وتتدنى عزتهم، أردف ذلك بمثَل للغني الكافر، والفقير المؤمن؛ لأن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فأبان الله تعالى أن المال ليس سبيل الافتخار، لاحتمال أن يصير الفقير غنياً، والغني فقيراً، وإنما المفاخرة تكون بطاعة الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين.

التفسير والبيان:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين وأمثالهم المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا بأموالهم وأحسابهم.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ المعنى: اضرب مثلاً أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين طلبوا منك طرد المؤمنين الدعاة المخلصين لله صباح مساء وفي كل وقت. ذلك المثل هو حال رجلين، جعل الله لأحدهما جنتين، أي بستانين من أعناب، محاطين بنخل، وفي وسطهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، فجمع بين القوت والفاكهة. فقوله: ﴿وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين.

والرجلان أخوان أو صديقان أو شريكان من بني إسرائيل، أحدهما: كافر مغتر بدنياه، والثاني: مؤمن موحد بالله.

والقصد من هذا المثل العظة والعبرة، فقد آل حال الكافر المغرور إلى الدمار والإفلاس، لكفران النعم وعصيان الله، وظل المؤمن الفقير على طاعة الله، بالرغم من معاناته الشدائد والمتاعب، فآتاه الله الخلود في الجنة.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي أخرجت الجنتان ثمرهما.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ ولم تنقص منه شيئاً في كل عام.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ أي وشققنا وأجرينا وسط الجنتين نهراً، تتفرع عنه عدة جداول، لسقي جميع الجوانب.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾ أي وكان لصاحب البستانين أنواع أخرى من المال من النقدين (الذهب والفضة) بسبب التجارة وتنمية ثمار الأرض.

وأدى به هذا الغنى إلى الزهو والكبرياء والاغترار بالمال، شأن كل غني مغرور. ﴿فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أي فقال صاحب هاتين الجنتين لصاحبه المؤمن الفقير، وهو يجادله ويخاصمه ويحاوره الحديث، ويفتخر عليه: أنا أكثر منك ثروة، وأعز نفراً، أي أكثر خدماً وحشماً وولداً، وأقوى عشيرة ورهطاً يدافعون عني.

وازداد به الغرور ظنه استمرار تلك الثروة وعدم فنائها لقلة عقله وضعف يقينه بالله، وهذا ما حكاه القرآن عنه:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أي ودخل هذا الثري المترف بستانه ذا الجناحين مع صاحبه المؤمن الفقير الصالح، فقال اغتراراً منه، وهو ظالم لنفسه بكفره وتمرده وتجبره وإنكاره المعاد حين عاين الثمار والزروع والأنهار

المتدفقة في مزرعته: ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبداً، وما أظن أن يوم القيامة آتٍ، كما تقول يا صاحبي، فقوله: ﴿ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾، أي القيامة كائنة. وكان في الحالين مخطئاً ظالماً لنفسه بوضعه الشيء في غير محله؛ إذ كان يجب عليه شكر تلك النعمة، وتفكره في عالم الآخرة، وذلك لطول أمله، وشدة حرصه، وتمام غفلته، وشدة اغتراره بالدنيا.

ثم أقسم على فرض لقاء ربِّه بقوله:

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أي إن رجعت إلى ربي، على سبيل الفرض والتقدير، وكما يزعم صاحبي، لألفين في الآخرة عند ربي خيراً وأحسن من هذا الحظ في الدنيا، تمنياً على الله، وادعاء لكرامتي عنده ومكانتي لديه، وأنه لولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا، ولولا استحقاقي واستئهالي ما أغناني في الدنيا، كما جاء في آية أخرى على لسان الكافر: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٤١/ ٥٠].

فأجابه المؤمن بقوله: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ أي أجابه صاحبه المؤمن واعظاً له، وزاجراً عما هو فيه من الكفر والاغترار: أكفرت بمن خلقك من تراب؟ أي خلق أصلك من تراب، وخَلْق أصله سبب في خلقه، فكان خلقه خلقاً له، وكذلك غذاؤك وغذاء الحيوان من النبات، وغذاء النبات من الماء والتراب، ثم يتحول هذا الغذاء دماً، يتحول بعضه إلى نطفة تكون وسيلة للخلق، ثم خلقك بشراً سوياً تام الخلق والأعضاء، فقوله: ﴿سَوَّىٰكَ﴾ معناه عدَّلك وكمَّلك إنساناً تاماً، بالغاً مبلغ الرجال.

وقد وصفه صاحبه بأنه كافر بالله، جاحد لأنعمه؛ لشكه في البعث.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك، بل أقرُّ بالوحدانية والربوبية، ولا أشرك به أحداً، بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال له مذكراً بوجوب الإيمان بالله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها، حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله، أي الأمر ما شاء الله، والكائن ما قدره الله، ليكون ذلك دليلاً على عبوديتك والاعتراف بالعجز.

ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شيء من حاله أو ماله أو ولده، فليقل: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، عملاً بهذه الآية، وبما روي من الحديث المرفوع الذي أخرجه الحافظ أبو يعلى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد فيقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾، فيرى فيه آفة دون الموت» . وثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله» .

ثم أجابه عن قضية الافتخار بالمال والولد:

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ، فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ أي إنك إذ تنظر إلي بأني أفقر منك في المال، وأقل منك أولاداً وعشيرة في هذه الدنيا الفانية، فإني أتوقع انقلاب الحال في الآخرة، وأرجو أن يعطيني الله خيراً من جنتك في الدار الآخرة، ويرسل على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى عذاباً من السماء، كمطر شديد يقلع زرعها وأشجارها أو صواعق، فيسلبك نعمته ويخرّب بستانك، وتصبح أرضاً بيضاء لا نبات فيها، وتراباً أملس، لا يثبت فيه قدم، وينزلق عليها لملامستها انزلاقاً، وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ أي فلعل ربي.

أو يصبح ماؤها غائراً في الأرض، فلن تتمكن من إدراكه بعد غوره، ولن تستطيع ردّ الماء الغائر بأية حيلة.

وتحقق ما توقعه المؤمن فقال:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ أي ونزل الإهلاك والجائحة بالأموال والثمار بإرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها، وألهته عن الله عز وجل، ودمرت أمواله وثماره، فأصبح نادماً متحسراً على ضياع نفقته التي أنفقها عليها، فتقليب الكفين كناية عن الندم والتحسر، وتمنى متذكراً موعظة صاحبه أن لم يكن أشرك بربه أحداً، والخاوية على عروشها: هي التي سقطت عرائشها على الأرض، قيل: أرسل الله عليها ناراً فأكلتها، وسقط بعضها على بعض.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ أي ولم تنصره وتفيده عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واعتز، وما كان منتصراً أي ممتنعاً بقوته عن انتقام الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا تأكيد للجملة السابقة، أي إنه في هذه الحال من الشدة والمحنة تكون النصرة لله وحده، ويؤمن فيها البرّ والفاجر، ويرجع كل أحد مؤمن أو كافر إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب. والولاية: السلطان والملك والنصرة والحكم.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي إن الله خير جزاءً، وأفضل عاقبة لأوليائه المؤمنين، فينصرهم ويعوضهم عما فقدوه في دار الدنيا، ويكون ثواب الأعمال التي تكون لله خيراً، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير؛ لأن الله هو خير ثواباً لمن آمن به، وخير عاقبة لمن رجاه وآمن به.

ونظير الآية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

في هذه القصة عبر وعظات وهي:

١ً- هذا مثل واضح للمؤمنين والكافرين، مثل رجل مؤمن موحد بالله، فقير صالح آثر الآخرة على الدنيا، فآتاه الله الجنة وثوابه العظيم، ومثل رجل كافر مغتر بدنياه مستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهما - كما ذكر الكلبي - أخوان مخزوميان من أهل مكة، أو أخوان من بني إسرائيل، أحدهما مؤمن والآخر كافر، كما ذكر ابن عباس ومقاتل، كان للكافر بستانان فيهما الأشجار والزروع والثمار والأنهار، وأموال أخرى، فكفر بأنعم الله، وتفاخر على صاحبه بالمال والأولاد، وشك في البعث، فدمَّر الله ثروته، وأتلف البستانين بحسبان من السماء، وهو السحابة ذات المطر الغزير جداً، أو الصاعقة، أو العذاب، فندم وتحسر على ما أنفق، وقال: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ أي يا ليتني عرفت نعم الله علي، وعرفت أنها كانت بقدرة الله ولم أكفر به، وهذا ندم منه حيث لا ينفعه الندم.

٢ً- لا يمنع فضل الله عن الكافر، فقد آتى الله صاحب الجنتين ثروة ومالاً وولداً وأتباعاً.

٣ً- شأن الغني دائماً إلا من رحم الله المفاخرة بأمواله والاغترار بالدنيا، والترفع على الآخرين بالثروة، مع أنها مال زائل، وعرض متحول، فيمكن أن ينقلب صفر اليدين بين عشية وضحاها.

٤ً- على المؤمن ألا يستكين أمام عزة الغني الكافر، وعليه نصحه وإرشاده إلى الإيمان بالله، والإقرار بوحدانيته، وشكر نعمه وأفضاله عليه.

٥ً- قد يكون الاغترار بالمال سبباً لإنكار البعث والقيامة والحشر والنشر؛ لأن الغني الظالم يرى في المادة كل شيء، وقد يستبد به الغرور لغفلة منه

وضعف عقل، فيزعم أن عطاء الدنيا له لاستحقاقه واستئهاله، ويقول: إن كان بعث، فكما أعطاني الله هذه النعم في الدنيا، فسيعطيني أفضل منه في الآخرة، لكرامتي عليه.

٦ً- قال الإمام مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول: ﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾. وهذه الكلمة كما روى مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «كنز من كنوز الجنة». وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا قالها العبد، قال الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم» . وقد وردت هذه الكلمة في القصة في وصية المؤمن للكافر وردِّه عليه، حينما ظن عدم فناء جنته، وتفاخر بثروته على صاحبه.

٧ً- إذا نزل البلاء فلا تستطيع فئة في الدنيا منعه أو رفعه، أو الالتجاء إليها لإزالته، ولن يكون المبتلى الخاسر منتصراً أي ممتنعاً عن إصابة العذاب له، فلا يُنصَرُ ولا ينتصر، لَمَّا أصابه العذاب.

٨ً- إن الولاية، أي السلطان والقدرة، والملك والحكم الحق لله عز وجل، فلا يردّ أمره إلى أحد، والملك في كل وقت لله: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٩] .

مثل الحياة الدنيا

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرِّيَٰحُ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (الرِّيح).

الإعراب:

﴿مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ﴿مَّثَلَ﴾: مفعول أول، و﴿كَمَآءٍ﴾: مفعول ثانٍ، وقيل: ﴿كَمَآءٍ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي هي كماء، أي الحياة الدنيا كماء.

﴿ثَوَابًا﴾ و﴿أَمَلًا﴾ منصوبان على التمييز.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اذكر لهم ما تشبهه الحياة الدنيا في زهرتها وسرعة زوالها وصفتها الغريبة. ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ امتزج الماء بسبب نزول المطر بالنبات، حتى روي وحسُن. ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ فصار النبات يابساً مهشوماً متفرقة أجزاؤه. ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ تفرِّقه وتنثره وتطيره وتذهب به. المعنى: شبَّه الدنيا بنبات حسن، فيبس فتكسر، ففرقته الرياح. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي كان الله على كل شيء من الإنشاء والإفناء قادراً: كامل القدرة.

﴿زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يتجمل بهما فيها. ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، زاد بعضهم «ولا حول ولا قوة إلا بالله» أو هي الأعمال الصالحة كلها، ومنها الخمس وأعمال الحج، وصيام رمضان، وسبحان الله.. إلخ، والكلام الطيب. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي جزاء وعائداً. ﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي ما يأمله الإنسان ويرجوه عند الله تعالى؛ لأن صاحبها ينال بها في الآخرة ما كان يأمل بها في الدنيا.

المناسبة:

هذا مثل آخر يدل على حقارة الدنيا وقلة بقائها، والكلام متصل بما تقدم

من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين، فلما بيَّن الله تعالى في المثل الأول حال الكافر والمؤمن وما آل إليه افتخار الكافر من الهلاك، بيَّن في هذا المثل حال الحياة الدنيا واضمحلالها ومصير ما فيها من النعيم والترفه إلى الهلاك.

ولما بيَّن تعالى أن الدنيا سريعة الانقراض والزوال، بيَّن أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا في عرف الناس، وكل ما كان من زينة الدنيا فهو سريع الانقضاء والانقراض، فيقبح بالعاقل الافتخار به أو الفرح بسببه، مما يدل على فساد قول المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأولاد.

ثم ذكر الله تعالى ما يرجح أولئك المؤمنين الفقراء على أولئك الأغنياء الكفار بما يقدمونه من أعمال صالحة، فهي زاد الآخرة الدائم الباقي، والدائم الباقي خير من المنقرض المنقضي.

وقد ورد في السنة ما يفسر الباقيات الصالحات، روى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لقيتُ إبراهيم ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» .

وروى سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد، ولا حول ولا قوة إلا بالله» .

وروى الطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها، وهن من كنوز الجنة» .

وروى النَّسائي والطبراني والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً: «خذوا جُنَّتكم، قيل: يا رسول الله، من أي عدو قد حضر، قال: بل جُنَّتكم من النار: قول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فإنهن يأتين يوم القيامة مقدِّمات معقِّبات ومُجنِّبات، وهنَّ الباقيات الصالحات».

التفسير والبيان:

اضرب مثلاً آخر يا محمد للناس من مشركي مكة وغيرهم الذين افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، مثلاً يبين حقارة الدنيا وقلة بقائها، وزوالها وفناءها، فهي بعد الخضرة والنضارة والبهجة تصبح بمراد الله عابسة قاتمة لا جمال فيها ولا روعة، إنها في نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال تشبه حال نبات أخضر فيه زهر ونضرة وحبّ، نبت وتكوَّن بماء السماء، ثم بعد هذا كله أصبح هشيماً، أي يابساً، تذروه الرياح أي تفرقه وتنثره ذات اليمين وذات الشمال.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي والله قادر على الإنشاء والإفناء، وعلى كل الأحوال، حال الخضرة والنضرة، وحال اليبس والهلاك والفناء، فلا ينبغي للعاقل أن يغتر بإقبال الدنيا أو يفخر بها أو يتكبر بسببها.

وكثيراً ما يشبِّه الله الحياة الدنيا بهذا المثل، كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [٢٤] وفي سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [٢٠].

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ أي إن الأموال والبنين هي من زينة الحياة الدنيا، وليست من زينة الآخرة الدائمة، فهي سريعة الفناء والانقراض، فلا ينبغي للعاقل الاغترار بها والتفاخر بها. والمقصود إدخال

هذا الجزء تحت ذلك الكل في المثل السابق الذي أبان سرعة انقضاء الدنيا وإشرافها على الزوال والفناء. والسبب في ذكر المال والبنين فقط؛ لأن في المال جمالاً ونفعاً، وفي البنين قوة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا.

وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه؛ لأنه أهم وأخطر، وأكثر تحقيقاً للحاجة والرغبة والهوى، فقد يكون البنون دون المال، ويكون البؤس والشقاء.

ونظير الآية: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤] .

قال الإمام علي كرم الله وجهه: المال والبنون حرث الدنيا، والعمل الصالح حرث الآخرة، وقد جمعهما الله لأقوام.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ أي إن أعمال الخير وأفعال الطاعات، كالصلوات والصدقات، والجهاد في سبيل الله، ومساعدة الفقراء، والأذكار أفضل ثواباً، وأعظم قربة عند الله، وأبقى أثراً؛ إذ ثوابها عائد على صاحبها، وخير أملاً حيث ينال صاحبها في الآخرة كل ما كان يؤمله في الدنيا.

وقال ابن عباس: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. وكذلك قال عثمان بن عفان: هي لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فقه الحياة أو الأحكام:

ينبغي أن يعرف الناس ولا سيما المتكبرون الذين طلبوا طرد فقراء المؤمنين مَثَلَ الحياة الدنيا، أي شبهها، فهي في عدم استقرارها وعدم استمرارها على

حال واحدة كالماء لا يستقر في موضع، ولا يستقيم على حالة واحدة، وهي مثله أيضاً في أنها تفنى، وهو يذهب ولا يبقى، وهي كذلك لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، كما أن من دخل الماء لا بد أن يبتلّ منه، والكفاف من الدنيا ينفع وفضولها يضر، كما أن الماء إذا جاوز المقدار كان ضارّاً مهلكاً. ورد في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنّعه الله بما آتاه».

والخلاصة: إن هذا المثل يدل على سرعة زوال الدنيا وفنائها، والله وحده هو الباقي المقتدر على كل شيء من الإنشاء والإفناء والإحياء.

وكذلك زينة الحياة الدنيا من المال والبنين سريعة الانقضاء والانقراض، والباقيات الصالحات مما يأتي به فقراء المسلمين كسَلْمان وصُهيب من الطاعات أفضل ثواباً عند الله، وأفضل أملاً من ذي المال والبنين دون عمل صالح، وليس في زينة الدنيا خير، ولكنه مثل قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٤].

واختلف العلماء في الباقيات الصالحات: فقال ابن عباس وآخرون: هي الصلوات الخمس، وروي عنه كما بيّنا أنها: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وقال الجمهور: هي الكلمات المأثورة فضلها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وذلك مأخوذ من حديث رواه النَّسائي عن أبي سعيد الخدري.

وعن ابن عباس أيضاً: إنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة، ورجّحه الطبري، وقال القرطبي: وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقي ثوابه، جاز أن يقال له هذا.

تسيير الجبال والحشر
وعرض صحائف الأعمال يوم القيامة

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾

القراءات:

﴿نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (تُسَيَّرُ الجبالُ).

﴿جِئْتُمُونَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتمونا).

الإعراب:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ (يوم): منصوب بفعل مقدر، تقديره: اذكر يوم.

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ ﴿صَفًّا﴾: حال منصوب من واو (عرضوا) وهو عامله، وتقديره: عُرضوا مصطفين.

﴿أَلَّن نَّجْعَلَ﴾ (أن): مخففة من الثقيلة، أي إنه.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ واذكر يوم نقلع الجبال ونذهب بها عن وجه الأرض،

فنجعلها هباء منبثاً .﴿بَارِزَةً﴾ ظاهرة، ليس عليها شيء من جبل ولا غيره. ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ جمعنا المؤمنين والكافرين إلى الموقف، والحشر: الجمع لأجل الحساب، والبعث: إحياؤهم من القبور للحشر.

ومجيء هذا الفعل ماضياً بعد المضارع ﴿نُسَيِّرُ﴾ لتحقيق الحشر، أو للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير ليعاينوا ويشاهدوا ما وعدوا، وعلى هذا تكون الواو للحال بإضمار: قد ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ﴾ نترك، يقال: غادره وأغدره: إذا تركه، ومنه الغدر: وهو ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السيل.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ تشبيه حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان، لا ليعرفهم، بل ليأمر فيهم .﴿صَفًّا﴾ مصطفين، كل أمة صف، لا يحجب أحدٌ أحداً .﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ على إضمار القول على وجه يكون حالاً، أي قائلاً أو عاملاً في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ .﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي فرادى حفاة عراة، لا شيء معكم من المال والولد، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤].

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ﴾ أي ويقال لمنكري البعث ذلك، و﴿بَلْ﴾: للخروج من قصة إلى أخرى .﴿أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ وقتاً للبعث والنشور، لانجاوز الوعد.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي جعل كتاب كل إنسان في يده حين الحساب، في يمينه للمؤمنين وفي شماله للكافرين .﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين .﴿وَيَقُولُونَ﴾ عند معاينتهم ما فيه من السيئات. ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ (يا): للتنبيه، و(ويلتنا): هلاكنا، وهو مصدر لا فعل له من لفظه، أي يا هلاك أقبل، فهذا أوانك. ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ من ذنوبنا .﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ عدَّها وأثبتها، وهو تعجب منه في ذلك. ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ مثبتاً في كتابهم، أو مسطوراً في كتاب كل واحد منهم. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ لايتجاوز ما حدَّه من الثواب والعقاب، فلا يعاقب أحداً بغير جرم، ولا ينقص من ثواب مؤمن.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى خساسة الدنيا وزوالها، وشرف القيامة ودوامها، وأن التفاخر ليس بالأموال، بل بالعمل الصالح، أردفه بأحوال القيامة، وما فيها من أخطار وأهوال، وتغير معالم الأرض والحشر، والعدل المطلق في رصيد أعمال الناس جميعاً بكتُب وصحائف شاملة، يتبين منها أن أساس النجاة: هو اتباع ما أمر به الدين، وترك ما نهى عنه.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أهوال القيامة وما فيها من الأمور العظام وهي:

١- ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ أي واذكر يا محمد حين نذهب بالجبال من أماكنها، ونزيلها، ونبددها كالسحاب هباء منثوراً، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٥] وقال: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٥-٦] وقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعارج: ٧٠/٨-٩] أي كالصوف المندوف المنفوش.

وهذا يدل على تبدل الحال، وتغير الوضع الذي كان في الدنيا، وإزاحة الجبال من مواضعها، وجعلها هباءً منتشراً كالسحاب.

٢- ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي وتنظر أيها الإنسان جميع الأرض ظاهرة بادية، ليس فيها مَعْلم لأحد، ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم في صعيد واحد، صافون أمام ربهم، لا تخفى عليه خافية. وهذا معنى قوله تعالى في آية نسف الجبال السابقة: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ٢٠/١٠٦-١٠٧] أي تصبح الأرض سطحاً مستوياً، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، ولا جبل ولا وادي.

هذان الأمران تسيير الجبال وتسوية الأرض متعلقان بشأن الدنيا.

٣- ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أي وجمعنا الأولين والآخرين للحساب وجمعناكم إلى الموقف، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٤٩-٥٠] وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١١/١٠٣]. أخرج الإمام مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشَرُ الناسُ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً[1]، فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض».

وفي رواية للنَّسائي: «لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه» وهذا الأمر يدل على إثبات الحشر.

٤- ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ أي ويعرض البشر قاطبة أمام الله صفاً واحداً، كما قال سبحانه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٨٩/٢٢].

لقد أتيتم إلينا أيها الناس جميعاً أحياء، كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة في الدنيا، حفاة عراة، لا شيء معكم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/٩٤].

وهذا تقريع لمنكري المعاد، وتوبيخ لهم أمام الناس، وهو إثبات لمبدأ العرض للحساب على الله تعالى، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم:

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أي بل ظننتم أنه لا لقاء لكم مع الله، وما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أنه كائن.

---

(١) غُرْلاً، أي غير مختونين، والغُرْلَة: القُلْفة.

٥- ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي ووضع كتاب الأعمال: أعمال الناس من خير أو شر، صغير أو كبير، فترى العصاة المجرمين خائفين مما فيه من أعمالهم السيئة، وأفعالهم القبيحة. والمراد بالكتاب: الجنس، وهو صحف الأعمال.

﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي ويقول أولئك المجرمون: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمالنا، وما لهذا الكتاب لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً، ولا شاردة ولا واردة إلا أحصاها، أي ضبطها وحفظها، فهو شامل لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨] . ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١٠-١٢] .

والآية تدل على إثبات صغائر وكبائر في الذنوب، وهذا متفق عليه بين المسلمين.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ أي ووجد الناس ما عملوا مثبتاً في كتابهم، من خير أو شر، وقيل: جزاء ما عملوا، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٠] وقال سبحانه: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٣] .

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ليس في حكم الله أي ظلم لخلقه؛ إذ مبدأ الثواب والعقاب مما يقتضيه العدل الإلهي المطلق، حتى يكافأ المحسن، ويجازى المسيء، بل إنه تعالى بمقتضى رحمته يعفو ويصفح، ويغفر ويرحم، ويعذب من يشاء من خَلْقه بقدرته وحكمته وعدله، فيُخلَّد الكفار في نار جهنم، ويُعذّب العصاة فيها، ثم ينجّيهم منها، وحكمه في كل حال العدل، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، فلا يكتب على إنسان ما لم يعمل، ولا يزيد في عقاب المستحق، أو يعذبه بغير جرم.

ونحو الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤/٤٠] ، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٧] .

وهذه الآية تبين خاتمة مراحل الحساب بين يدي الله، القائم على مبدأ: إن الجزاء من جنس العمل، وإن صحائف أعمال الناس تشمل الحسنات والسيئات.

فقه الحياة أو الأحكام:

الآيات تبين بداية القيامة ونهاية الحساب، فتبدأ في بيان تغيير معالم الدنيا من تسيير الجبال، أي إزالتها من أماكنها على وجه الأرض، وتسييرها كما يُسيَّر السحاب، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٨] ثم تكسر فتعود إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٥-٦] وتصبح الأرض بارزة ظاهرة، ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ لاجتثاث ثمارها، وقلع جبالها، وهدم بنيانها.

ثم تأتي مرحلة الحشر أي الجمع إلى الموقف، فلا يترك أحد ويجمع جميع المخلوقات في صعيد واحد، للحساب أمام الربّ تبارك وتعالى.

إنهم يعرضون صفاً بعد صف، كالصفوف في الصلاة، كل أمة وزمرة صف، لا أنهم صف واحد. أخرج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه في كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: «إن الله تبارك وتعالى ينادي يوم القيامة وبصوت رفيع غير فظيع: يا عبادي، أنا الله، لا إله إلا أنا، أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين .

يا عبادي، لا خوف عليكم اليوم، ولا أنتم تحزنون، أحضِرُوا حجتكم، ويسِّروا جواباً، فإنكم مسؤولون محاسبون.

يا ملائكتي، أقيموا عبادي صفوفاً، على أطراف أنامل أقدامهم للحساب».

ويأتي الخلائق من قبورهم لموقف الحساب حفاة عراة، لا مال معهم ولا ولد، كما جاؤوا من بطون أمهاتهم أثناء ولادتهم في الدنيا. وتعرض كتب أعمال العباد وصحائفهم، بما فيها من صغائر وكبائر، قال الأسدي: الصغيرة: ما دون الشرك، والكبيرة: الشرك.

قال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: ويحك يا كعب! حَدِّثنا من حديث الآخرة؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين! إذا كان يوم القيامة، رُفع اللوح المحفوظ، فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله، ثم يؤتى بالصحف التي فيها أعمال الناس، فتنثر حول العرش، وذلك قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ الآية.

ثم يدعى المؤمن، فيعطى كتابه بيمينه، فينظر فيه، فإذا حسناته بادِيات للناس، وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقول: كانت لي حسنات، فلم تذكر، فأحب الله أن يريه عمله كلّه، حتى إذا استنقص ما في الكتاب وجد في آخره ذلك كله أنه مغفور، وأنك من أهل الجنة؛ فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٩-٢٠].

ثم يدعى بالكافر، فيعطى كتابه بشماله، ثم يلف، فيجعل من وراء ظهره، ويُلوى عنقه؛ فذلك قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١٠] فينظر في كتابه، فإذا سيئاته بادياتٍ للناس، وينظر في حسناته، لكيلا يقول: أفأثاب على السيئات[1]؟!

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٤١٩

قصة السجود لآدم عليه السلام

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾

القراءات:

﴿بِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (بيس).

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾:

وقرأ حمزة (يوم نقول).

الإعراب:

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ حال بإضمار قد، واستئناف للتعليل كأنه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجن.

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ فاعل ﴿بِئْسَ﴾: مضمر فيها، و﴿بَدَلًا﴾ تمييز مفسِّر لذلك المضمر، أي بئس البدل للظالمين ذُرِّية إبليس. و﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ فصل بين ﴿بِئْسَ﴾ وما انتصب به، واستدل به المبرّد على جواز الفصل بين فعل التعجب وما انتصب به في نحو قولهم: ما أحسنَ اليوم زيداً. والمقصود بالذم: ذرية إبليس، وحذف لدلالة الحال عليه.

البلاغة:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾؟ الهمزة للإنكار والتعجيب.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أي اذكر. ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود انحناء، تحية وإكراماً له، اعترافاً بفضله. وقد تكرر الأمر بالسجود لآدم في مواضع، لكونه مقدمة للأمور المقصود بيانها في تلك المحال، وهنا لما شنع الله تعالى على المفتخرين بأموالهم واستقبح صنيعهم، قرر أن ذلك من سنن إبليس ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ إذا اعتبر الجن نوعاً من الملائكة فالاستثناء متصل، وإلا فهو استثناء منقطع، وإبليس: أبو الجن، فله ذرية، والملائكة لا ذرية لهم. ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ خرج عن طاعة ربه أو عما أمره به ربه، بترك السجود. ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ الخطاب لآدم وذريته، والهاء في الموضعين لإبليس، والذرية: الأولاد أو الأتباع، وسماهم ذرية مجازاً. ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي﴾ تطيعونهم. ﴿عَدُوٌّ﴾ أعداء، والعدو: يطلق على الواحد والجمع. ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ إبليس وذريته في إطاعتهم، بدل إطاعة الله.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ أي إبليس وذريته. ﴿وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي لم أحضر بعضهم خلق بعض. ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ الشياطين. ﴿عَضُدًا﴾ أعواناً، والعضد في الأصل: ما بين المِرْفَق إلى الكتف، ويستعمل بمعنى المعين، كاليد ونحوها، وهو المراد هنا. أي لم أستعن بالشياطين في الخلْق، فكيف تطيعونهم؟ وهو رد لاتخاذهم أولياء من دون الله، شركاء له في العبادة، فإن استحقاق العبادة من توابع الخالقية. ووضع ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ موضع الضمير ذمّاً لهم، واستبعاداً للاعتضاد بهم.

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ اذكر. ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ الأوثان وغيرها. ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنهم شركائي أو شفعاؤكم ليمنعوكم من عذابي: وإضافة الشركاء

على زعمهم للتوبيخ .﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادوهم للاستغاثة .﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ فلم يغيثوهم أو لم يجيبوهم .﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الأوثان وعابديها، أو بين الكفار وآلهتهم .﴿مَّوْبِقًا﴾ مهلكاً يشتركون فيه، وهو النار، أو وادٍ من أودية جهنم، يهلكون فيه جميعاً، أو حاجزاً بينهم .﴿فَظَنُّوٓا۟﴾ فأيقنوا .﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ أي واقعون فيها، وداخلوها .﴿مَصْرِفًا﴾ معدلاً أو مكاناً ينصرفون إليه.

المناسبة:

هناك تشابه بين فعل المشركين سابقاً، وافتخارهم بأموالهم وأعوانهم على فقراء المسلمين، وبين فعل إبليس الذي تكبر على آدم؛ لأنه افتخر بأصله ونسبه، وقال: خلقتني من نار، وخلقته من طين، فأنا أشرف منه في الأصل والنسب، فكيف أسجد وأتواضع له؟ والمشركون قالوا: كيف نجلس مع هؤلاء الفقراء، مع أنّا من أنساب شريفة، وهم من أنساب نازلة، ونحن أغنياء وهم فقراء. وهذه هي طريقة إبليس، فذكرت قصته هنا تنبيهاً على وجود التشابه، والله تعالى حذر من هذه الطريقة ومن الاقتداء بها.

وتكرار قصة إبليس في مواضع من القرآن: إنما هو لما يناسب المقصود، ولما يحقق الفائدة، ففي كل موضع تساق لفائدة مغايرة لما ذكرت في مواضع أخرى.

التفسير والبيان:

هذا تنبيه لبني آدم على عداوة إبليس لهم، ولأبيهم من قبلهم، وتقريع لمن اتبعه منهم، وخالف خالقه ومولاه، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ أي واذكر لهم يا محمد إذ أمرنا جميع الملائكة بالإلهام أن يسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام، تكريماً للنوع الإنساني، كما ذكر مراراً في آيات كثيرة من القرآن الكريم، منها: في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ

قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [٣٤]، ومنها في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [٢٨-٢٩]، ومنها في سورة الكهف: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [٥٠].

وسبب إباء إبليس السجود لآدم: اغتراره بأصله، فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، وخلق آدم من تراب، كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة مرفوعاً: «خلقت الملائكة من نور، وخُلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» ، وبان من الآية السابقة أن إبليس من الجن، كما بان من آية أخرى أنه خلق من نار، وخلق آدم من طين، كما قال: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٣٨/٧٦] .

قال الحسن البصري: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصلُ الجن، كما أن آدم عليه السلام أصل البشر.

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي إن سبب عصيانه أنه كان من عنصر الجن، فلم يعمل مثل ما عملوا، لذا قال:

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي فخرج عن طاعة الله، فإن الفسق هو الخروج، يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من أكمامها أو قشرها، ودلَّ هذا على أن فسقه بسبب كونه من الجن أي الشياطين، وشأن الجن التمرد والعصيان، لخبث ذواتهم. والخلاصة: إن قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ كلام مستأنف جارٍ مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين. وقوله: ﴿فَفَسَقَ﴾ الفاء للتسبيب أيضاً، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه؛ لأنه لو كان ملَكاً لم يفسق عن أمر ربه؛ لأن الملائكة معصومون، على عكس الجن والإنس.

وأما ما ذكر في آية أخرى أنه من الملائكة، فلا يعارض هذه الآية؛ لأنه قد يطلق على الملائكة أنهم جن لاستتارهم عن أعين الناس.

ثم عقب الله تعالى على القصة بقوله:

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ أي إنه تعالى يعجب ممن يطيع إبليس وجنده في الكفر والمعاصي، ويحذر من اتباعه بعدما عرف موقفه من أبيهم آدم، ويوبخ ويقرع من اتّبعه وأطاعه، متخذاً له ولجنده ونسله نصراء من دون الله، وبدلاً عنه، لذا قال:

﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ أي بئس البدل للكافرين الظالمين أنفسهم وهو اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دون الله، وهو المنعم عليهم.

ومما يدل على أن إبليس ليس من الملائكة أنه تعالى أثبت له ذرية ونسلاً في هذه الآية، والملائكة ليس لهم ذرية ولا نسل، فوجب ألا يكون إبليس من الملائكة.

ثم سلب الله تعالى الولاية عمن دونه من الشركاء والأبالسة، فقال:

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ الذي ذهب إليه الأكثرون أن المعنى: ما أشهدت الذين اتخذتموهم أولياء من الشركاء خلق السماوات والأرض، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض، فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً، ولا كانوا موجودين عند خلق السماوات والأرض. وهؤلاء الشركاء هم الذين وسوس لكم إبليس في شأنهم، حتى اتخذتموهم شركاء لي.

ورجح الرازي أن الضمير عائد إلى الكفار الذين قالوا للرسول ﷺ: إن لم تطرد من مجلسك هؤلاء الفقراء، لم نؤمن بك، فكأنه تعالى قال: إن هؤلاء الذين اقترحوا هذا الاقتراح الفاسد، ما كانوا شركاء لي في تدبير العالم[١].

---

(١) تفسير الرازي: ١٣٨/٢١

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي وما كنت متخذ الضالين المضلين أعواناً وأنصاراً، والخطاب للرسول ﷺ، والمعنى: وما صح لك الاعتضاد بهم، وما ينبغي لك أن تعتز بهم، فإنهم إذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاء لي في العبادة؟

ثم يخبر الله تعالى عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً، فيقول:

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ أي واذكر لهم أيها الرسول ما يحدث وقت الاجتماع في يوم الجمع في القيامة، حيث يقول الله للكافرين تأنيباً وتوبيخاً: نادوا لنصرتكم من زعمتم أنهم شركائي، لينقذوكم مما أنتم فيه، فدعوهم، فلم يجيبوهم بشيء، ولم ينفعوهم في شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ أي وجعلنا بين المشركين وآلهتهم المزعومة مكاناً سحيقاً ومهلكاً، أي موضعاً للهلاك، وهو نار جهنم أو وادٍ في جهنم، وقال ابن عباس: الموبق: الحاجز، وقال ابن الأعرابي: كل شيء حاجز بين شيئين فهو موبق. والمعنى أن الله تعالى بيّن أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟﴾ - والظن هنا بمعنى العلم واليقين - ﴿أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي إذا عاين المشركون النار، تحققوا لا محالة أنهم واقعون فيها، ومخالطوها وداخلون فيها حتماً لا محالة، ﴿وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي معدلاً، والمعنى ليس لهم طريق الإمكان ولا مكان يعدل بهم عنها، ولا بدّ لهم منها؛ لإحاطتها بهم من كل جانب. ذكر ابن جرير عن أبي

سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الكافر ليرى جهنم، فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- كرم الله تعالى أبانا آدم عليه السلام والجنس البشري بأجمعه بأمره الملائكة أن تسجد له في بدء الخليقة سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة وتقديس.

٢- أذعن الملائكة كلهم جميعاً لأمر السجود فسجدوا إلا إبليس الذي كان من عنصر الجن أبى السجود وفسق عن أمر ربه وخرج عن طاعة الله تعالى.

٣- تضمن رفض إبليس السجود عداوته للإنسان، لذا وبخ تعالى كل من اتخذ الشيطان وأتباعه أولياء: أعواناً ونصراء؛ لأنهم أعداء، والعدو لا ينصر من عاداه ولا يؤتمن على نصرته. وكذلك تضمن الرفض التكبر على آدم والترفع عليه، لمّا ادعى أن أصله أشرف من أصل آدم، إذ هو من نار، وآدم من طين، فوجب أن يكون هو أشرف من آدم، فكأنه تعالى قال لأولئك الكافرين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بشرف نسبهم وعلو منصبهم: إنكم في هذا القول اقتديتم بإبليس في تكبره على آدم. لكل ما ذكر بئس عبادة الشيطان بدلاً من عبادة الله، أو بئس إبليس بدلاً من عبادة الله تعالى.

٤- قوله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ يدل على إثبات ذرية إبليس، وهو دليل على أن لإبليس زوجة؛ لأن الذرية لا تكون إلا من زوجة. وقال قوم: ليس له أولاد ولا ذرية، وذرِّيته: أعوانه من الشياطين. قال القشيري أبو نصر: والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعاً وذرّية، وأنهم يوسوسون إلى بني آدم، وهم أعداؤهم، ولا يثبت عندنا كيفية في كيفية التوالد منهم، وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقف الأمر فيه على نقل صحيح.

والذي ثبت في هذا الموضوع ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين عن سلمان قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكن أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فبها باض الشيطان وفرَّخ» قال القرطبي: وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم.

٥- لم يستعن الله تعالى بأحد في خلق السماوات والأرض، ولم يكن أحد موجوداً عندَ الخَلْق، ولم يشهد المشركين وإبليس وذريته الخَلْق، أي لم يشاورهم في خلق السماوات والأرض ولا خلقَ أنفسهم، بل خلقهم على ما أراد، ولا يصلح المخلوقون اتخاذهم أولياء من دون الله تعالى.

وهذا رد على طوائف من المنجِّمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم وكل من يخوض في هذه الأشياء.

كذلك لم يتخذ الله تعالى المضلين عضداً، أي لم يتخذ الشياطين والكفار أعواناً؛ لأنه تعالى لا يحتاج إلى عون أحد. وخص المضلين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ.

٦- هناك حاجز بين المؤمنين والكافرين، وبين المشركين وآلهتهم المزعومة من الأوثان وغيرها يوم القيامة، فلا ينتفع الكفار بمن أشركوا، ولا يتمكنون من منع العذاب عنهم، والكل هالكون في جهنم.

٧- إذا عاين المشركون النار ظنوا أي تيقنوا أنهم مجتمعون فيها وواقعون فيها، ولا يجدون عنها مَصْرِفاً، أي مَهْرَباً؛ لإحاطتها بهم من كل جانب.

ورجح الرازي في تفسير الظن: أن هؤلاء الكفار يرون النار من مكان بعيد، فيظنون أنهم مواقعوها في تلك الساعة من غير تأخير ومهلة؛ لشدة ما يسمعون من تغيظها وزفيرها، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ١٢] .

بيان القرآن ومهمة الرسل وظلم المعرض عن الإيمان وسبب تأخير العذاب لموعد معين

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

﴿قُبُلًا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (قِبَلاً).

﴿هُزُوًا﴾: قرئ:

١- (هُزُواً) وهي قراءة حفص.

٢- (هُزْءاً) وهي قراءة حمزة وصلاً، وخلف في الحالين.

٣- (هُزُؤاً) وهي قراءة الباقين.

﴿يُؤَاخِذُهُم﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (يواخذهم).

﴿لِمَهْلِكِهِم﴾:

قرأ حفص (لِمَهْلِكِهِم).

وقرأ شعبة (لِمَهْلَكِهم).

وقرأ الباقون (لِمُهْلَكِمْ).

الإعراب:

﴿جَدَلًا﴾ تمييز منقول من اسم (كان)، والمعنى: وكان جدل الإنسان أكثر شيء فيه.

﴿قُبُلًا﴾ جمع قبيل، حال، أي ويأتيهم العذاب قبيلاً قبيلاً. وقيل: معناه مقابلة، وهو معنى قراءة (قِبلاً) - بكسر القاف.

﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ (ما): مصدرية بمعنى إنذارهم في موضع نصب عطفاً على ﴿ءَايَٰتِي﴾، أي: واتخذوا آياتي وإنذاري إياهم هزواً. و﴿هُزُوًا﴾: مفعول ثانٍ لاتخذوا. ويجوز أن تكون (ما) موصولة وعائد الصلة محذوف.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ (تلك): مبتدأ، و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾: صفة لتلك، و﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾: خبر المبتدأ. ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ وقرئ: مُهْلَك، ومَهْلَك، ومَهْلِك، الأول مصدر أهلك مثل مُكْرَم، والثاني مصدر هَلَك مثل مَضْرَب، والثالث اسم زمان، أي لوقت مَهْلكهم.

البلاغة:

﴿مُبَشِّرِينَ﴾ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿صَرَّفْنَا﴾ بيَّنا مع الترداد والتكرار. ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ صفة لمحذوف، أي مثلاً من جنس كل مثل، ليتعظوا، والمثل: الصفة الغريبة. ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ جنس الإنسان، وخاصة الكافر ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ خصومة بالباطل، وشيء هنا مفرد معناه الجمع، أي أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال. ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ أي كفار مكة ونحوهم. ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾ مفعول ثان لمنع. ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ القرآن. ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فاعل تأتيهم، أي سنتنا فيهم، وهي الإهلاك المقدر عليهم، وهو عذاب الاستئصال، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. ﴿قُبُلًا﴾ جمع قبيل، أي أنواعاً وألواناً، وقرئ (قِبلاً) أي مقابلة وعياناً، كالقتل يوم بدر.

﴿إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ للمؤمنين. ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ مخوفين للكافرين. ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ بقولهم: أبعث الله بشراً رسولاً ونحوه من اقتراح الآيات. ﴿لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليبطلوه ويزيلوه، مأخوذ من إدحاض القدم أي إزلاقها وإزالتها عن مكانها، ويقال: دَحَضَتْ حجته: بطلت ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى﴾ يعني القرآن. ﴿وَمَآ أُنذِرُواْ﴾ أي وإنذارهم أو والذي أنذروا به من العقاب. ﴿هُزُوًا﴾ استهزاء وسخرية، وأصله: هزؤاً.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فلم يتدبرها ولم يتذكر بها. ﴿وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ ما عمل من الكفر والمعاصي ولم يتفكر في عاقبتها. ﴿أَكِنَّةً﴾ أغطية، جمع كِنان، وهو تعليل لإعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم. ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أن يفهموه، أي كراهة أن يفقهوه، أو من أن يفهموا القرآن، أي فلا يفهمونه. وتذكير الضمير وإفراده مراعاة للمعنى. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي ثقلاً في السمع، يمنعهم أن يستمعوه حق استماعه، أو فلا يسمعونه. ﴿فَلَن يَهْتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ أي بالجعل المذكور صار ميئوساً من اهتدائهم؛ لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون، ولشدة تصميمهم، و﴿إِذًا﴾: جزاء وجواب للرسول ﷺ، فدلَّ على

انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ﷺ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه، و﴿أَبَدًا﴾ مدة التكليف كلها.

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم﴾ في الدنيا. ﴿لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ فيها. ﴿مَّوْعِدٌ﴾ هو يوم القيامة. ﴿مَوْئِلًا﴾ ملجأً ومنجى. ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ أي أهلها وهي قرى عاد وثمود وقوم لوط ونحوهم. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كفروا كقريش بالتكذيب والمراء وأنواع المعاصي. ﴿لِمَهْلِكِهِم﴾ هلاكهم، ومن قرأ بضم الميم وفتح اللام فمعناه لإهلاكهم. ﴿مَّوْعِدًا﴾ وقتاً معلوماً، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليعتبروا بهم، ولا يغتروا بتأخير العذاب عنهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الجواب على شبهات الكفار المبطلين الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة أموالهم وأتباعهم، أردف ذلك ببيان كثرة الأمثال في القرآن لمن تدبر فيها، ومع تلك الأمثلة الواقعية والإجابات الشافية، هؤلاء الكفار لا يتركون المجادلة الباطلة؛ لأن الإنسان أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدال، ثم هددهم تعالى على عدم الإيمان متسائلاً: هل هناك مانع يمنعهم من الإيمان إلا نزول عذاب الاستئصال، أو مجيئه عياناً؟ وأبان أن مهمة الرسل هي الجدال في الدين من طريق تبشير المؤمنين بالجنان وإنذار العصاة بالنار، وأوضح أن أشد الناس ظلماً هو المعرض عن هداية القرآن، ولله الفضل العظيم في تأخير العقاب عن الناس، وتخصيصه بموعد، لا يتجاوزه، لعلهم يثوبون إلى رشدهم.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي ولقد بيَّنا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم كل ما

يحتاجون إليه من أمور دينهم ودنياهم، كي يعرفوا طريق الحق والهدى، ولا يضلوا عنه. وتصريف الأمثال يقتضي التكرار لمختلف وجوه البيان.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي ومع هذا البيان الشافي والتوضيح الكافي، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

وهذا دليل على كثرة الجدال في الإنسان وحبه له، لسعة حيلته، وقوة ذكائه، واختلاف نزعاته وأهوائه.

وبالرغم من بيان القرآن، وكثرة ما يشاهده الكفار من الآيات والدلالات الواضحات، فإنهم قوم متمردون منذ القديم، فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟﴾ أي وما منع المشركين من أهل مكة من الإيمان بالله، حين شاهدوا البينات والأدلة الواضحة على وجود الله وتوحيده، واستغفار ربهم والتوبة إليه من ذنوبهم إلا طلبهم أحد أمرين:

إما أن تأتيهم سنة الأولين القدماء من إحاطة العذاب بهم وإبادتهم وهو عذاب الاستئصال، كما قال جماعة لنبيهم: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٩] وقالت قريش: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/٣٢].

وإما أن يروا العذاب عياناً مواجهة ومقابلة.

والمعنى أنهم لا يقدمون على الإيمان إلا عند نزول عذاب الاستئصال فيهلكوا، أو أن يتواصل أنواع العذاب والبلاء حال بقائهم في الحياة الدنيا[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ١٤١

وقال في الكشاف: وما منع الناسَ الإيمانَ والاستغفارَ إلا انتظار أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك، أو انتظار أن يأتيهم عذاب الآخرة قُبُلاً أي عياناً[1].

ومجيء العذاب بيد الله لا من قبل الرسول، لذا قال تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ﴾ أي إن مهمة الرسل إما تبشير من آمن بهم بالثواب على الطاعة، وإما إنذار من كذبهم وخالفهم بالعقاب على المعصية لكي يؤمنوا طوعاً.

ومع هذه الأحوال يوجد الجدال بالباطل من الكفار لدحض الحق، فقال تعالى مخبراً عنهم:

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّۖ﴾ أي ويجادل الكفار جدالاً بالباطل لا بالحق، ليضعفوا بجدالهم الحق، الذي جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم، فهم يقترحون الآيات بعد ظهور المعجزات، ويقولون للرسل: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢٤] .

﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ أي اتخذوا آيات الله وهي القرآن والحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب هزواً أي استهزاء وسخرية، وهو أشد التكذيب، وكل ذلك يدل على استيلاء الجهل والقسوة.

وبعد أن حكى الله تعالى عن الكفار جدالهم بالباطل، وصفهم بعده بالصفات الموجبة للخزي والخذلان، فقال:

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٦٣

الصفة الأولى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي لا أحد أظلم ممن أعرض عن آيات الله، ونسي ما قدم من الكفر والمعصية، أو لا ظلم أعظم من كفر من يشاهد الآيات والبينات الدالة على الحق والإيمان، ثم يعرض عنها، ومع إعراضه عن التأمل في الدلائل والبينات يتناسى ما قدمت يداه من الأعمال المنكرة والمذاهب الباطلة، وعلى رأسها الكفر بالله، والمراد من النسيان التشاغل والتغافل عن كفره المتقدم.

الصفة الثانية:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي وعلة إعراضهم ونسيانهم بسبب جعل أغطية وغشاوة على قلوب هؤلاء، لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان، وجعْل صمم معنوي في آذانهم عن الرشاد وسماع الحق وتدبره.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أي وإن دعوت يا محمد هؤلاء إلى دعوة الحق والهداية والاستقامة، فلن تجد منهم استجابة، ولن يهتدوا بهديك هدي القرآن أبداً مهما قدمت من الدلائل وتأملت الخير منهم.

وذلك كله لفقدهم الاستعداد لقبول الإيمان والرشاد، بما أصروا عليه من الكفر والعصيان، كما جاء في آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤] وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٧]. وهذه الآيات هي في قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركي مكة.

ثم ذكر الله تعالى ما يتصف به من رحمة وحلم وإرجاء للعقاب عن العصاة، وأنه لا يعجل لهم العذاب، تاركاً الفرصة لهم ليتوبوا، فقال:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ﴾ أي وربك يا محمد غفور ستّار، ذو رحمة واسعة، لو يؤاخذ الناس فوراً بما كسبوا من السيئات واقترفوا من الخطيئات، لعجل لهم العذاب في الدنيا، على وفق أعمالهم. والغفور: البليغ المغفرة، فهي صيغة مبالغة، وذو الرحمة: الموصوف بالرحمة.

ونظير الآية قوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥] وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٦] .

ثم استشهد تعالى بترك مؤاخذة أهل مكة عاجلاً من غير إمهال، مع إفراطهم في عداوة رسول الله ﷺ، فقال:

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ أي إن الله أراد غير ذلك من تعجيل العذاب، وجعل للعذاب موعداً حدده وهو إمّا يوم القيامة، وإما في الدنيا وهو يوم بدر وسائر أيام الفتح، لن يجدوا عنه ملجأ ومنجىً، وليس له محيد ولا معدل عنه، والخلاصة: إن تأخير العقاب أو العذاب إمهال لا إهمال.

وشاهد آخر: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي وتلك القرى، أي أهلها من الأمم الغابرة، كعاد وثمود ومدين وقوم لوط، أهلكناهم لما ظلموا بسبب كفرهم وعنادهم، وجعلنا لهلاكهم موعداً لا محيد عنه، ومدة معلومةلا تزيد ولا تنقص، أي وكذلك أنتم أيها المشركون احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم رسولكم، ولستم بأعز علينا منهم. والمهلك: الإهلاك أو وقته، والموعد: وقت أو مصدر. والمراد: إنا عجلنا هلاكهم، ومع ذلك حددنا له وقتاً، رجاء أن يتوبوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات المبادئ التالية:

١ً- بيان القرآن من دلائل الربوبية والوحدانية ومن العبر والقرون الخالية بيان ضافٍ وافٍ محقق لغاية الاهتداء به على أكمل وجه.

٢ً- الإنسان وبخاصة الكافر كثير الجدال والمجادلة لطمس معالم الحق، والإبقاء على ما ارتضاه لنفسه من اتباع الأهواء، وتقليد الأسلاف والآباء، واحتضان الكفر، والاحتفاظ بالزعامة الدنيوية والمكاسب المادية.

٣ً- الإنسان قاصر النظر غالباً، فما منع الناس بعد مجيء القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام عن الإيمان واستغفار ربهم والإنابة إليه إلا معاينة أحد الأمرين: الإتيان بما هو عادة الأولين في عذاب الاستئصال، ومعاينة العذاب، كما طلب المشركون فعلاً، وقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] . أو مجيء العذاب عِياناً مواجهة.

٤ً- إن مجيء العذاب بيد الله وحده على وفق ما يرى من الحكمة والعدل، وأما الأنبياء المرسلون فمهمتهم التبشير بالجنة لمن آمن، والتخويف بالعذاب لمن كفر، ومع كل هذه الدلائل الهادية إلى الرشاد يجادل الكفار بالباطل لدحض الحق وهو الإيمان بالله وبقرآنه، والإبقاء على مهازل الكفر وأباطيله، واتخاذ القرآن وما أنذروا به من الوعيد هزواً أي لعباً وباطلاً.

٥ً- لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات ربه، فتهاون بها وأعرض عن قبولها، وترك كفره ومعاصيه، فلم يتب منها، فالنسيان بمعنى الترك.

٦ً- علم الله من قوم معينين من أهل مكة ونحوهم أنهم لن يؤمنوا، فأخبر تعالى عنهم أنه منعهم من دخول الإيمان في قلوبهم وأسماعهم، فلن تفلح معهم

بعدئذ دعوة النبي ﷺ إلى الإيمان، ولن يهتدوا أبداً إليه، لإصرارهم على الكفر، وفقدهم الاستعداد لقبول الهداية.

٧- من صفات الله تعالى أنه الغفور لذنوب عباده، الرحيم بهم إن آمنوا وتابوا وأنابوا إليه، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨] .

ومن رحمته ألا يعجل المؤاخذة أو العقاب على الكفر والمعاصي، ولكنه يمهل ويؤخر، رجاء أن يتوب العباد، ويجعل للعذاب موعداً أي أجلاً مقدراً يؤخرون إليه، كما قال: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦/٦٧] وقال: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ١٣/٣٨] أي إذا حلَّ لم يتأخر عنهم، إما في الدنيا وإما في الآخرة، ولا ملجأ ولا منجى للناس حينئذ من ذلك العذاب.

٨- أهلك الله تعالى جماعة من أهل القرى الغابرة للعبرة والزجر نحو قرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط، لما ظلموا وكفروا، وجعل لهلاكهم وقتاً معلوماً وأجلاً محدداً لا يتجاوزوه.

قصة موسى عليه السلام مع الخضر

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾

القراءات:

﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾:

قرأ حفص (أنسانيهُ).

وقرأ الباقون (أنسانيهِ).

﴿رُشْدًا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رَشَداً).

﴿مَعِىَ صَبْرًا﴾:

قرأ حفص (معيَ صبراً).

وقرأ الباقون (معيْ صبراً).

﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن﴾:

وقرأ نافع (ستجدنيَ إن).

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (فلا تَسَأَلَنِّي).

﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ليَغْرَق أهلُها).

﴿تُؤَاخِذْنِى﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (تواخذني).

﴿زَكِيَّةًۢ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (زاكية).

﴿نُّكْرًا﴾:

وقرأ نافع، وابن ذكوان (نُكُراً).

الإعراب:

﴿سَرَبًا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿فَٱتَّخَذَ﴾ ومفعوله الأول ﴿سَبِيلَهُۥ﴾.

﴿أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ أن وصلتها في موضع نصب على البدل من هاء ﴿أَنسَىٰنِيهُ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وهو بدل اشتمال. ﴿عَجَبًا﴾ مفعول ثانٍ لـ (اتخذ).

﴿قَصَصًا﴾ منصوب على المصدر بفعل مقدَّر، دلَّ عليه ﴿فَٱرْتَدَّا﴾ أي فارتدا يقصان الأثر قصصاً. ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ مفعول ثانٍ. ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ حال من كاف ﴿أَتَّبِعُكَ﴾.

﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾: ما: اسم موصول بمعنى الذي، و﴿عُلِّمْتَ﴾: جملة فعلية صلة «ما» والعائد محذوف تقديره: من الذي عُلِّمته رشداً، فحذف الهاء وهي المفعول الثاني لعلِّمت تخفيفاً، و﴿رُشْدًا﴾: المفعول الثاني لتعلِّمني.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ ﴿وَكَيْفَ﴾: في موضع نصب على الظرف، وعامله ﴿تَصْبِرُ﴾ و﴿خُبْرًا﴾: منصوب على المصدر بفعل دلَّ عليه. ﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ وتقديره: ما لم تخبره خُبْراً.

البلاغة:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ تنكير. ﴿عَبْدًا﴾ للتفخيم، والإضافة في ﴿عِبَادِنَآ﴾ للتشريف.

﴿حُقُبًا﴾ ﴿سَرَبًا﴾ ﴿نَصَبًا﴾ ﴿عَجَبًا﴾ سجع يناسب أواخر الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ واذكر حين قال موسى بن عمران نبي بني إسرائيل لفتاه يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف عليهم السلام الذي كان يتبعه ويخدمه ويتعلم منه. ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ لا أزال سائراً. ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ حتى أصل ملتقى بحري فارس والروم (ملتقى المحيط الهندي والبحر الأحمر عند مضيق باب المندب) مما يلي المشرق. وقيل: إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلسي عند طنجة (ملتقى البحر الأبيض المتوسط عند مضيق جبل طارق أمام طنجة). ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ دهراً طويلاً في بلوغه إن بعُد، والحقُب: جمع حِقْبة وهو زمان من الدهر غير محدود، قيل: ثمانون سنة، وقيل: سبعون.

﴿مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ مكان الاجتماع بين البحرين. ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نسي يوشع حمله عند الرحيل، ونسي موسى تذكيره .﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ سَرَبٗا﴾ فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً مثل السرب: وهو الشق الطويل لا نفاذ له، فصار الماء عليه كالقنطرة، قيل: أمسك الله جرية الماء على الحوت، فصار كالطاقي عليه.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذلك المكان بالسير إلى وقت الغداء من اليوم الثاني .﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ الغداء: هو ما يؤكل أول النهار، والمراد به هنا: الحوت .﴿نَصَبٗا﴾ تعباً وإعياء.

﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ﴾ أي تنبّه .﴿إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ﴾ أي أرأيت ما دهاني، إذ لجأنا إلى الصخرة بذلك المكان، التي رقد عندها موسى .﴿فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ﴾ فقدته أو نسيت ذكره .﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ﴾ أي وما أنساني ذكره إلا الشيطان، وهو اعتذار عن نسيانه بشغل الشيطان له بوساوسه. ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ أي اتخذ الحوت طريقاً عجباً أي يتعجب منه موسى وفتاه.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبۡغِۚ﴾ قال موسى: ذلك أي فقد الحوت الذي هو الذي كنا نطلبه، فإنه علامة لنا على وجود من نطلبه .﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ رجعا .﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ أي على طريقهما الذي جاءا منه .﴿قَصَصٗا﴾ أي يقصان الطريق قصصاً، أي يتبعان آثارهما اتباعاً، أو مقتصَّيْنِ، حتى أتيا الصخرة.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ هو في رأي الجمهور الخضر، واسمه بَلْيا بن مَلْكان .﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ أي ولاية، في رأي أكثر العلماء، وقيل: وحياً ونبوة .﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا﴾ من قبلنا معلوماً من المغيبات.

﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ على شرط أن تُعلِّمني .﴿مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ أي تعلِّمني بعض ما علمت علماً ذا رشد، أو صواباً أرشد به، والرشد:

إصابة الخير. ولا ينافي نبوته وكونه صاحب شريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن شرطاً في أبواب الدين، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أرسل إليه، فيما بعث به من أصول الدين وفروعه، لا مطلقاً. وقد راعى موسى في ذلك الطلب للتعلم غاية التواضع والأدب، فاستجهل نفسه، واستأذن أن يكون تابعاً للعبد الصالح، وسأل منه أن يرشده وينعم عليه بتعليم بعض ما أنعم الله عليه؛ لأن الزيادة في العلم مطلوبة.

﴿مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ علماً بالشيء ومعرفة، ومنه الخبير: العالم بدقائق العلم، والمعنى: ما لم تخبر حقيقته. ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ أي وغير عاصٍ لك أمراً تأمرني به، وقيد الوعد على الصبر بالمشيئة؛ لأنه لم يكن على ثقة من نفسه فيما التزم، وهي عادة الأنبياء ألا يثقوا بأنفسهم طرفة عين. وفيه دليل على أن أفعال العباد واقعة بمشيئة الله تعالى.

﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ﴾ تنكره مني في علمك، أي فلا تفاتحني بالسؤال عن شيء أنكرته مني، ولم تعلم وجه صحته. ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ بياناً، أي حتى أبتدئك ببيانه، وأذكره لك بعلته، فقبل موسى شرطه، رعاية لأدب المتعلم مع العالم.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ يمشيان على ساحل البحر. ﴿رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ﴾ التي مرت بهما. ﴿خَرَقَهَا﴾ ثقبها الخضر، بأن اقتلع لوحاً أو لوحين منها من جهة البحر بفأس، حينما سارت في ثَبَج البحر ولُجحه. ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا﴾ قال له موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها، المفضي إلى غرق أهلها. ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ أتيت أمراً عظيماً منكراً، من أَمِرَ الأمرُ، أي عظم وكثر، روي أن الماء لم يدخلها.

﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ بالذي نسيته أو بشيء نسيته، يعني وصيته بأن لا يعترض عليه، وهو اعتذار بالنسيان، أخرجه في معرض النهي عن المؤاخذة

مع قيام المانع لها .﴿وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾ لا تكلفني عسراً ومشقة، في صحبتي إياك، أي عاملني بالعفو واليسر.

﴿فَانطَلَقَا﴾ بعد خروجهما من السفينة يمشيان .﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ لم يبلغ الحنث، يلعب مع الصبيان، وكان أحسنهم وجهاً ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ الخضر، إما بالذبح بالسكين، أو باقتلاع رأسه بيده بفتل عنقه، أو الضرب برأسه الحائط، أقوال مروية. وأتى بالفاء العاطفة هنا للدلالة على أنه لما لقيه قتله من غير تروّ واستكشاف حال ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؟ أي قال موسى مستنكراً - وهو جواب إذا - كيف تقتل نفساً طاهرة من الذنوب، لم تبلغ حد التكليف، وقرئ ﴿زَكِيَّةً﴾ . ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي بغير حق من قصاص لك عليها ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي لقد ارتكبت شيئاً منكراً، والمنكر: الذي تنكره العقول والنفوس.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله قصة أصحاب الكهف لإثبات قدرته على البعث، وذكر أمثلة ثلاثة لتقرير حقيقة أن الحق والعزة والعلو لا ترتبط بكثرة المال والسلطان، وإنما بالعقيدة والإيمان، ليدرك تلك الحقيقة المشركون الذين افتخروا على فقراء المؤمنين، وأبوا مجالستهم، بعد هذا أردف الله تعالى بقصة ثانية هي قصة موسى مع الخضِر، ليتعلم منه العلم، وذلك ليفهم المشركون أن موسى النبي كليم الله مع كثرة علمه وعمله، أُمِرَ أن يتعلم من العبد الصالح الخضر، مما يدل على أن التواضع خير من الكِبْر.

قصة موسى والخضر في السنة النبوية:

روى البخاري ومسلم عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسُئل، أي الناس أعلم؟

فقال: أنا، فَعَتب الله عز وجل عليه، إذْ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: يا ربّ، فكيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً، فتجعله في مِكْتل (قفة) فحيثما فقدتَ الحوت فهو ثَمَّ، فانطلق موسى، ومعه فتاه - يوشع بن نون - حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما، فناما واضطرب الحوت في المِكْتل، فخرج منه، فسقط في البحر ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ، نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ - قال: ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به - فقال فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قال: فكان للحوت سَرَباً، ولموسى عجباً، فقال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ قال: رجعا يقصان آثارهما، حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا هو مسجَّىً بثوب، فسلَّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام[1]! من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلمني مما عُلِّمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾.

يا موسى، إني على علم من علم الله، لا تعلمه، علَّمنيه، وأنت على علم من علم الله علَّمكه، لا أعلمه، فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ فقال له الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

---

(١) أي من أين السلام في هذه الأرض التي لا سلام فيها؟

فانطلقا يمشيان على الساحل، فمرت سفينة، فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم بغير نَوْل - أي أجر - فلما ركبا السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقُدُّوم، فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها: ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾.

وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسياناً، وجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ قال: ﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ قال سُفيان: وهذه أشدُّ من الأولى.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ فقال الخضر بيده هكذا - أي أشار بيده - فأقامه، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قال الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى، لوددت أنه كان صبر، حتى يقصَّ الله علينا من أخبارهما».

التفسير والبيان:

هذه هي القصة الثالثة التي ذكرها الله تعالى في هذه السورة بعد قصة

أصحاب الكهف، وصاحب الجنتين والأموال، وهي تلتقي أيضاً مع ما ذكره الله تعالى من تشبيه الحياة الدنيا بماء السماء، وتفاخر الناس بالمال والبنين، كما تلتقي معهما في نبذ الافتخار والتكبر والتعالي على الآخرين، ليكون ذلك درساً بليغاً وعظة لرؤساء قريش الذين طلبوا تخصيص مجلس لهم، وطرد الفقراء والمستضعفين من الجلوس معهم في مجلس النبي ﷺ أنفةً وكبرياء واستعلاء، فقال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ﴾ أي واذكر أيها النبي حين قال موسى لفتاه لا أزال سائراً حتى أصل إلى المكان الذي فيه مجمع البحرين، ولو أني أسير حقباً أي دهراً من الزمان. والحقب: ثمانون أو سبعون سنة، والمراد: زمان غير محدود من الدهر.

والمقصود بموسى في رأي أكثر العلماء هو موسى بن عمران نبي بني إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة وصاحب التوراة.

وفتاه: هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام، وقد كان خادماً لموسى، ويسمى الخادم فتى في لغة العرب.

و ﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: هو مكان اجتماع البحرين وصيرورتهما بحراً واحداً، وهما في رأي الأكثرين بحر فارس والروم، أي ملتقى البحر الأحمر بالمحيط الهندي عند باب المندب، وقيل: إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطي، أي ملتقى البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي عند مضيق جبل طارق عند طنجة. وهو المكان الذي وعد فيه موسى بلقاء الخضر.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾ أي وصلا مجمع البحرين مكان اللقاء مع العبد الصالح، نسيا حوتهما، فاتخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً، وغطاه الماء، حتى صار كالقنطرة عليه، وكان ذلك للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾

أي فلما تجاوز موسى وفتاه يوشع مجمع البحرين حيث نسيا الحوت فيه، وسارا بقية اليوم والليلة، وفي اليوم التالي في ضحوة الغد أحس موسى بالجوع، فقال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا تعباً من هذا السفر.

وذلك أن موسى كان قد أمر بحمل حوت مملَّح معه، وذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الرحيل إليه، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة، وسار هو وفتاه، حتى بلغا مجمع البحرين، وكان الحوت في مِكْتل (قفة) مع يوشع عليه السلام، فسقط في البحر، وجعل يسير في الماء.

وعودة الحياة للحوت بعد موته كانت معجزة لموسى عليه السلام، علامة على مكان وجود الخضر. والخضر: هو لقب العبد الصالح الذي أمر موسى بالتعلم منه، واسمه بَلْيا بن مَلْكان، والأصح أنه لم يكن نبياً.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾

أي قال له فتاه: أرأيت[1] أي أخبرني ما وقع لي حين لجأنا إلى الصخرة في مجمع البحرين؟ فإني نسيت أن أخبرك بما حدث من أمر الحوت، فإنه قد اضطرب وعاد حياً ووقع في البحر، وما أنساني ذكر ذلك إلا الشيطان، واتخذ الحوت مسلكه في البحر عجباً. والمراد بالنسيان: اشتغال قلب الإنسان بوساوس الشيطان التي هي من فعله.

---

(١) همزة ﴿أَرَءَيْتَ﴾ همزة الاستفهام، و(رأيت) على معناه الأصلي، وإدخال الهمزة عليه للتعجب، فإن المتعارف بين الناس أنه إذا حدث لأحدهم أمر عجيب قال لصاحبه: أرأيت ما حدث لي؟

﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي قال موسى: هذا هو الذي نطلب؛ لأنه أمارة الفوز بما نقصد.

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي رجعا على طريقهما يقصان آثار مشيهما، ويقفوان أثرهما. قال البقاعي: إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملاً لا علامة عليها.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ أي وجد موسى وفتاه عند الصخرة في مجمع البحرين حين عادا إليها عبداً صالحاً من عباد الله، قال الأكثرون: إن ذلك العبد هو الخضر، وكان مسجًّى بثوب أبيض، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنَّى بأرضك السلام؟! وقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ يدل على أن تلك العلوم حصلت له من عند الله من غير وساطة.

فقال: أنا موسى، قال: موسى نبي إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أصحبك وأرافقك لتعلمني مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح؟ وهذا سؤال تلطف وأدب، لا إلزام فيه ولا إجبار، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم.

فأجابه الخضر: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ أي قال الخضر لموسى: إنك لن تقدر على مصاحبتي، ولن تطيق صبراً ما تراه مني؛ لأني على علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من الله، علمكه لا أعلمه، وكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه، فلا تقدر على صحبتي.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ أي أؤكد لك أنك لن تصبر على شيء تراه مني، ولم تطلع على حكمته ومصلحته الباطنة وحقيقة أمره التي اطلعت أنا علينا دونك. فقوله: ﴿خُبْرًا﴾ أي لم يحط به خبرك، ولم تُلِمَّ بوجه الحكمة فيه وطريق الصواب.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴿٦٩﴾﴾ أي قال موسى: ستجدني بمشيئة الله صابراً على ما أرى من أمورك، ولا أخالفك في شيء.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٧٠﴾﴾ أي قال الخضر شارطاً على موسى بقوله: إن سرت معي، فلا تسألني عن أمر يحدث، حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني.

قصة السفينة:

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي فانطلق موسى وصاحبه مع الخضر، انطلقا يمشيان على ساحل البحر، يطلبان سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلّما أصحابها أن يركبا فيها معهم، فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير أجر، تكرمة للخضر، فلما ركبا وسارت بهم السفينة في وسط البحر، قام الخضر بخرقها بفأس، مستخرجاً لوحاً من ألواحها، ثم رقعها.

﴿قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا﴾ أي لم يتمالك موسى عليه السلام نفسه وقال منكراً عليه: أخرقتها لتغرق[1] أهلها، أي ليصير الخرق سبباً في إغراق أهلها، لقد جئت شيئاً عظيماً منكراً.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ﴿٧٢﴾﴾ أي قال الخضر لموسى: ألم أقل سابقاً لك يا موسى: إنك لن تتمكن من الصبر معي على ما ترى مني من أفعال.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ﴿٧٣﴾﴾ أي اعتذر موسى للخضر قائلاً: لا تؤاخذني بنسياني، أي لا تؤاخذني بما تركت من

(١) اللام لام العاقبة أو الصيرورة، لا لام التعليل.

وصيتك أول مرة، ولا تكلفني أمراً شاقاً عسيراً علي، أي لا تعسر علي متابعتك، ويسرها علي بالإغضاء وترك المناقشة.

قصة الغلام:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾ أي ثم خرجا من السفينة، وسارا يمشيان على الساحل، فأبصر الخضر غلاماً - وهذا يشمل الشاب البالغ - يلعب مع الغلمان، فقتله بفتل عنقه أو بضرب رأسه بالحائط، أو بغير ذلك، فقال موسى: أتقتل نفساً طاهرة من الذنوب، طيبة لم تخطئ، بغير قتل نفس أي بغير قصاص؟ وخصَّ موسى هذه الحالة من مبيحات القتل؛ لأنها أكثر وقوعاً. ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾ أي لقد أتيت شيئاً منكراً. والنكر في حال القتل أعظم قبحاً من الإمر في حال خرق السفينة؛ لأن قتل النفس أعظم جرماً من خرق السفينة؛ إذ قد لا يحصل الغرق.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه رحلة موسى بن عِمران نبي بني إسرائيل مع فتاه يوشع عليهما السلام للقاء العبد الصالح وهو الخضر عليه السلام، لتعليمه التواضع في العلم، وأنه وإن كان نبياً مرسلاً، فقد يكون بعض العباد أعلم منه.

وفي هذا من الفقه: رحلة العالم لطلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء، وإن بَعُدت أقطارهم، كما كان دأب السلف الصالح.

ونفع هذه القصة بوجه خاص في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار: هو أن موسى عليه السلام، مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه، ذهب إلى الخضر، لطلب العلم مع التواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر.

ونفع هذه القصة مع قصة أصحاب الكهف: هو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم مُحَمَّد ﷺ عن هذه القصة فهو نبي، وإلا فلا، مع أنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كذلك لم يمنع كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً من عند الله أن يأمره الله بالذهاب إلى الخضر، ليتعلم منه.

ودلَّ قوله: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ على تعليم الناس اتخاذ الزاد في الأسفار، ولا يتنافى ذلك مع التوكل على الله تعالى، فهذا موسى نبي الله وكليمه قد اتخذ الزاد، مع معرفته بربه، وتوكله على رب العباد.

وكان انقلاب الحوت حياً معجزة لموسى عليه السلام، وعلامة على مكان وجود العبد الصالح، لذا قال موسى فرحاً لما أخبره فتاه بالأمر: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أي قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كنا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا إليه موجود هناك.

والعبد الصالح على الصحيح هو الخضر، وهو نبي في رأي جماعة كثيرين بدليل ما يأتي[1]:

١- أنه تعالى قال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ والرحمةُ هي النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣٢] وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٦] .

٢- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا يقتضي أنه تعالى علمه لا بواسطة معلم، ولا إرشاد مرشد، وكل من علمه الله لا بواسطة البشر، وجب أن يكون نبياً يعلم الأمور بالوحي من الله تعالى.

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ١٤٨، تفسير القرطبي: ١١/ ١٦

٣- قال موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ والنبي لا يتبع غير النبي في التعليم.

والراجح أن الخضر لم يكن نبياً وإنما هو عبد صالح كما قرر علماء الكلام (التوحيد). والاستدلال بهذه الأدلة ضعيف، أما الدليل الأول: فلا يلزم أن يكون كل رحمة نبوة، فرحمة الله تعالى وسعت كل شيء. وأما الدليل الثاني: إن العلوم الضرورية تحصل ابتداء من عند الله، وذلك لا يدل على النبوة. وأما الدليل الثالث: فلا ما نع يمنع النبي من اتباع غير النبي في العلوم التي لا تتعلق بالنبوة.

ودلَّ قوله: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ على أن المتعلم تبع للعالم، وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه؛ لأن الفضل لمن فضله الله، فإن كان الخضر ولياً فموسى أفضل منه، وإن كان نبياً فموسى فضله الله بالرسالة. ولقد كان موسى عليه السلام محقاً في إنكاره على العبد الصالح؛ لأن الأنبياء لا يقرُّون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير، لذا علَّق صبره على ما يحدث من أمر في المستقبل على مشيئة الله، وأنه لا يدري كيف يكون حاله، لا أنه عزم الصبر على المعصية.

وقد ذكر الرازي في قول موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أنواعاً كثيرة من الأدب واللطف عندما أراد أن يتعلم من الخضر، ذكر منها اثني عشر نوعاً، منها: أنه جعل نفسه تبعاً له، واستأذن في هذه التبعية، وأقر على نفسه بالجهل بقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ﴾ وعلى أستاذه بالعلم، وصرح بأنه يطلب الإرشاد والهداية.

وكان قول الخضر: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي حتى أكون أنا الذي أفسره لك، تأديباً وإرشاداً لما يقتضي دوام

الصحبة، فلو صبر وتأدب لرأى العجب، لكنه أكثر بالاعتراض، فتعين الفراق.

وفي خرق السفينة دليل على أن للولي أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحاً، كأن يخاف ظالماً على ما يملكه، فيخرِّب بعضه. وقال أبو يوسف: يجوز للولي أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض.

وفي قول موسى: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ ما يدل على أن النسيان لا يقتضي المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره، ولو نسي مرة ثانية له أن يعتذر أيضاً.

وقتل النفس أشد من خرق السفينة، لذا قال موسى في القتل: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ وقال في الخرق: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ والنكر أعظم قبحاً من الإمر، كما تقدم.

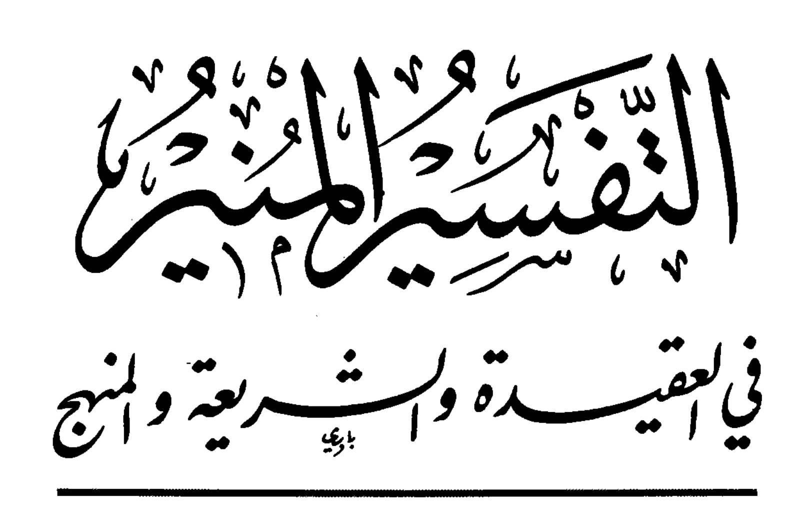
وكان عتاب الخضر في المرة الثانية أشد، لقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ وزيادة ﴿لَّكَ﴾ لزيادة التأنيب والتقريع على عدم الصبر في المرة الثانية.

ويأتي تمام القصة وما يستنبط منها في الجزء التالي بمشيئة الله.

تمَّ الجزء الخامس عشر ولله الحمد



بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء السادس عشر



تتمة قصة موسى مع الخضر

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

القراءات:

﴿مَعِيَ صَبْرًا﴾:

وهي قراءة حفص، وقرأ الباقون (معيَ صبراً).

﴿لَّدُنِّي﴾:

وقرأ نافع (لَدُنِي).

﴿شِئْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (شيت).

﴿لَتَّخَذْتَ﴾

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لَتَخِذْتَ).

﴿يُبْدِلَهُمَا﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (يُبَدِّلَهما).

﴿رُحْمًا﴾:

وقرأ ابن عامر (رُحُماً).

الإعراب:

﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ قرئ ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ بالتشديد، وبالتخفيف. (لَتَخِذْت). وأدخل اللام على الفعل الذي هو جواب ﴿لَوْ﴾.

﴿مِن لَّدُنِّي﴾ بالتشديد والتخفيف. وكذا ﴿أَن يُبْدِلَهُمَا﴾ بالتشديد والتخفيف.

﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ إضافة الفراق إلى البين إضافة المصدر إلى الظرف على الاتساع. والإضافة في ﴿وَبَيْنِكَ﴾ إضافة (بَيْنِ) إلى غير متعدد: سوغها تكراره بالعطف بالواو.

﴿غَصْبًا﴾ منصوب على المصدر المبين لنوع الأخذ ﴿زَكَوٰةً﴾ ﴿رُحْمًا﴾ منصوبان على التمييز.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مفعول لأجله.

البلاغة:

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ﴾ لف ونشر مرتب بعد ذكر ركوب السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار.

﴿كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي صالحة، لدلالة ﴿أَعِيبَهَا﴾ عليه، وكذا ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ حذف منه لفظ الكافر، لدلالة قوله تعالى: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾.

﴿أَبَوَاهُ﴾ أي أبوه وأمه، بطريق التغليب.

﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ استعارة؛ لأن الإرادة من صفات العقلاء، وإسنادها إلى الجدار استعارة ومجاز.

﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ و﴿فَأَرَدْنَآ﴾ و﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾: أسند ما ظاهره شر لنفسه، وأسند الخير إلى الله تعالى، على سبيل الأدب مع الله تعالى.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ زاد ﴿لَّكَ﴾ هنا على ما تقدم لعدم العذر بعد التنبيه، ووسماً له بقلة الثبات والصبر، مع سبق التذكير أول مرة، فاحتاج إلى الإنكار عليه بما هو أشد مرة ثانية ﴿عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أي إن سألت صحبتك بعد هذه المرة ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِى﴾، أي لا تجعلني صاحباً ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ أي قد وجدتَ عذراً من قِبَلي، لما خالفتُك ثلاث مرات، في مفارقتك لي.

﴿أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هي أنطاكية، كما روي عن ابن عباس، أو الأبلّة: أبلة بصرة، أو الناصرة، والواقع لا دليل يوثق به على صحة تعيين القرية. ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ طلبا منهم الطعام بضيافة ﴿أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي ينزلوهما أضيافاً، مأخوذة من ضيَّفه وقرئ: (يُضيِفُوهما) مأخوذ من أضافه، أي أنزله ضيفاً.

﴿جِدَارًا﴾ حائطاً ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ يداني أو يقرب أن يسقط لميلانه، فاستعيرت الإرادة للمشارفة، كما استعير لها الهم والعزم ﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ الخضر بعمارته، أو بعمود عمده به، وقيل: مسحه بيده فقام كما روي عن ابن

عباس، وقيل: نقضه وبناه، وهو الشائع. ﴿لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ جُعْلاً، حيث لم يضيفونا، مع حاجتنا إلى الطعام، وهو تحريض على أخذ الجعل للارتفاق والانتعاش به، وتعريض بأنه فضول واشتغال بما لا يعنيه.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ﴾ أي قال له الخضر: هذا وقت الفراق بيني وبينك ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ قبل فراقي لك ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ عشرة ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ يعملون بها مؤاجرة لها، طلباً للكسب ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أمامهم الآن، أو خلفهم إذا رجعوا عليه، وكان رجوعهم عليه، واسمه: جلندى بن كركر، أو منوار بن جلندى الأزدي، وهو ملك كافر ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة ﴿غَصْبًا﴾ من أصحابها، منصوب على المصدر المبين لنوع الأخذ.

﴿أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ أن يغشاهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه، فيلحقهما شراً، أو يقرن بإيمانهما طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر، أو يصيبهما بالعدوى فيرتدا بإضلاله، جاء في حديث مسلم: «طبع كافراً، ولو عاش لأرهقهما ذلك، لمحبتهما له، يتبعانه في ذلك» قيل: اسم المقتول: خيسور.

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي صلاحاً وتقى ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أقرب منه رحمة، وهي البر بوالديه، فأبدلهما تعالى فتاة تزوجت نبياً، فولدت نبياً، فهدى الله تعالى به أمة.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ الكنز: المال المدفون من ذهب وفضة ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ كان أبو الغلامين تقياً صالحاً، فأكرمهما الله بصلاحه في أنفسهما ومالهما. قيل: كان بينهما وبين الأب الذي حفظا به سبعة آباء، واسمه كاشح ﴿أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ أي إيناس الرشد، وكمال الرأي، قيل: اسمهما: أصرم وصريم ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي مرحومين من ربك، وهو مفعول لأجله، عامله: أراد ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾ أي ما فعلت ما ذكر من

خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، باختياري، بل بأمرٍ وإلهامٍ من الله ﴿مَا لَمْ تَسْطِع﴾ أي تستطع، يقال: اسطاع واستطاع بمعنى أطاق، فجمع بين اللغتين.

المناسبة:

الكلام واضح الصلة بما قبله، فهو في قصة موسى عليه السلام مع الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى النبي، كما أنه تعالى أعطى موسى من العلم ما لم يعلِّمه الخضر. وهذا أي قتل الغلام هو الحادث الثاني بعد خرق السفينة الذي اختبر فيه الخضر صبر موسى، ولم يصبر؛ لمخالفته ظاهر شريعته؛ لأن القتل لا يكون إلا لأجل القصاص بالنفس، مع أنه قد يكون لسبب آخر.

التفسير والبيان:

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ أي قال الخضر لموسى الذي خالف الشرط: ألم أخبرك أنك لا تتمكن من احتمال ما أفعله، ولن تسكت على ما أقوم به. ويلاحظ أنه زاد هنا لفظ ﴿لَّكَ﴾ على ما سبق؛ لأن سبب العتاب أوضح وأقوى بعد التذكير المتقدم، وتكرر المخالفة من موسى للعهد أو الشرط الذي التزمه، وإن كان قتل الغلام الوضيء الجميل الحسن الذي كان يلعب مع الغلمان في قرية أعظم جرماً وأقبح من خرق السفينة، لذا قال موسى: ﴿لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ والنكر أعظم من (الإمر) في القبح. وهذا إشارة إلى أن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة؛ لأن إتلاف النفس أخطر من إتلاف المال.

فاعتذر موسى عليه السلام بقوله:

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ أي قال موسى للخضر: إن اعترضت على شيء يحدث بعد هذا الفعل، أو هذه

المرة، فلا تجعلني صاحباً لك، قد أعذرتَ إلي مرة بعد مرة، حيث أكون قد خالفتك إلى الآن مرتين. وهذا كلام نادم شديد الندامة.

روى ابن جرير عن أُبيّ بن كعب قال: كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً، فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب، ولكنه قال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ » .

والحادث الثالث هو:

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي فانطلق الخضر وموسى يمشيان بعد المرتين الأوليين، حتى إذا وصلا إلى قرية، طلبا من أهلها إطعامهما وسد جوعتهما، فرفضوا ذلك وأبوا أن يعطوهما ما هو حق واجب عليهم من الضيافة. وهذا إخلال بالمروءة، واتصاف بالبخل والشح، وتلك القرية هي أنطاكية.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ أي وجد الخضر وموسى في تلك القرية حائطاً آيلاً إلى السقوط، فردَّه الخضر كما كان، جاء في الحديث الصحيح: «أنه مسحه بيده فإذا هو قد استقام». وهذا من كراماته.

وإسناد الإرادة هنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة كما تقدم، فإن الإرادة في المحدثات بمعنى الميل، والانقضاض: هو السقوط، والأول من أفعال العقلاء والثاني من خواص الجمادات ونحوها.

فعند ذلك قال موسى للخضر:

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي قال موسى للخضر: ليتك تطلب أجرة على إقامة الجدار وإصلاحه، فإنه نظراً لأنهم لم يضيفونا، كان ينبغي ألا تعمل لهم مجاناً، فأجابه الخضر:

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾﴾ أي قال الخضر لموسى عليهما السلام: هذا الإنكار أو الاعتراض المتكرر سبب الفراق بيننا أو المفرّق بيننا، بحسب الشرط الذي قبلته على نفسك، فقد قلت بعد قتل الغلام: ﴿إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾. وسأخبرك بتفسير وبيان وجه الأفعال التي أنكرتها، ولم تطق صبراً عليها، وهي خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار. وهذا عتاب ولوم على عدم الصبر. ثم ذكر الخضر سبب ما أقدم عليه من الأمور الثلاثة:

أ - ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾﴾ أي إن السفينة التي خرقتها لأعيبها، فكانت مملوكة لضعفاء أيتام ليس لهم شيء ينتفعون به غيرها، ولا يقدرون على دفع من أراد ظلمهم، وكانوا يُكْرون تلك السفينة لركاب البحر، ويأخذون الأجرة، فأردت بخرقها ونزع لوح منها أن أعيبها؛ لأنه كان أمامهم ملك جبار ظالم يستولي على كل سفينة صالحة غير معيبة، ويغتصبها ظلماً وعدواناً دون وجه حق، فكان عملي حماية لهذه السفينة لأصحابها الضعفاء، فأنا لم أعمل سوءاً، وإنما ارتكبت أخف الضررين لدفع أعظمهما.

روى ابن جريج عن شعيب الجبائي: «أن اسم ذلك الملك هدد بن بدد» وهو مذكور في التوراة في ذرية العيص بن إسحاق.

ويلاحظ أن المراد بقوله: ﴿وَرَآءَهُم﴾ أمامهم، كقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ [الجاثية: ٤٥/١٠] وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ [الإنسان: ٧٦/٢٧].

٢ - ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾﴾ أي وأما الولد الغلام الذي قتلته، وكان اسمه شمعون أو حيشور أو حَيْسون، فإنه كان كافراً، وقد أطلعني الله على مستقبله، وكان أبواه مؤمنين،

فخشينا إذا صار كبيراً أن يحملهما حبه على متابعته في الكفر والوقوع في الظلم والعصيان والمنكرات؛ لأن حب الولد غريزة. وهذا من قبيل سد الذرائع وفتحها، فإن كل ما كان وسيلة إلى المصلحة فهو مصلحة.

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين وُلد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقي لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب. وصح في الحديث: «لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له» وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

﴿فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾﴾ أي قال الخضر العالم: فأردنا أن يرزقهما الله بدل هذا الولد ولداً خيراً منه ديناً وصلاحاً وطهارة من الذنوب، وأقرب رحمة لوالديه، وعطفاً عليهما، وبراً بهما وشفقة عليهما. ويلاحظ أن الغلام يشمل البالغ والصغير، ويرى الجمهور أن هذا الغلام لم يكن بالغاً، لذا قال موسى: نفساً زكية أي لم تذنب. وقال الكلبي: كان بالغاً.

٣ - ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ أي وأما الحائط الذي أصلحته، فكان لولدين صغيرين يتيمين في قرية هي أنطاكية، وكان تحته كنز، أي مال جسيم مدفون، وكان أبوهما وهو الأب السابع رجلاً صالحاً، فأراد الله إبقاء ذلك الكنز (وكان مالاً) مدفوناً حفظاً لمالهما، ولصلاح أبيهما، فأمرني ربي بإصلاح ذلك الحائط، إذ لو سقط لاكتشف وأخذ، وأراد الله أن يبلغ الغلامان كمالهما وتمام نموهما، ويستخرجا الكنز من ذلك الموضع الذي عليه الجدار، رحمة لهما، بصلاح أبيهما. والمراد بالمدينة هي القرية المذكورة سابقاً: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾

وهو دليل على إطلاق القرية على المدينة. والظاهر أن الغلامين كانا صغيرين بقرينة وصفهما باليتم، وقد قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود عن علي: «لا يُتم بعد احتلام» .

ويلاحظ أنه هنا أسند الإرادة إلى الله تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله. وأما في السفينة، فأسند الفعل إلى الخضر العالم، فقال تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ كما أن الأدب يقضي إسناد الخير إلى الله، والشر إلى العباد.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي إن ما فعلته من الأمور الثلاثة لم يكن باجتهادي ورأيي، ولكنه بأمر الله وإلهامه ووحيه، فالإقدام على ذلك كله من الاعتداء على المال والنفس وإصلاح الجدار، وهو لا يكون إلا بالوحي والنص القاطع.

وذلك المذكور هو تفسير ما ضاق صبرك عنه، ولم تطق السكوت عنه، ولم تصبر حتى أبيّن لك السبب والحكمة فيه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إن الأحداث الثلاثة التي فعلها الخضر كانت من قبيل اختيار أهون الشرَّيْن، وأخف الضررَيْن، وتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، وهو معنى قوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَۚ﴾، فهي وإن كانت مستنكرة في الظاهر، وحَقَّ لموسى عليه السلام إنكارها والاعتراض عليها، فهي خير في الحقيقة والواقع، وذلك لا يتسنى لأحد ادعاؤه بغير وحي صريح، وأحكام العالِم والنبي في غير حال الوحي تنبني على ظواهر الأمور، وفي حال الوحي تنبني على الأسباب الحقيقية الواقعية.

والوحي لا يحصل إلا لنبي أو رسول، والجمهور كما تقدم على أن الخضر

كان نبياً؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ يدل على نبوته؛ لأن بواطن الأفعال لا تكون إلا بوحي؛ ولأن الإنسان لا يتعلم ولا يتَّبع إلا من فوقه، وليس فوق النبي من ليس بنبي.

ويرى آخرون أن الخضر لم يكن نبياً، وقد يوجد في المفضول ما ليس في الفاضل. قال بعض العلماء: ولا يجوز أن يقال: كان نبياً؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار الآحاد، وهذا هو المحقق في كتب العقائد، والمراد بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ الإلهام وليس الوحي.

٢ً - إن ترك الضيافة المندوبة شرعاً من المستقبح عرفاً وعقلاً وشرعاً، وقد تصبح أمراً واجباً في حال تعرض الجائع للهلاك، ولعل موسى والخضر عليهما السلام كانا في حالة جوع شديد، وإن لم يبلغا حد الهلاك، مما سوغ الغضب الشديد لدى موسى.

٣ً - قوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾ دليل على جواز سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يسد جوعه، والاستطعام: سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فاستحق أهل القرية لذلك أن يُذَمُّوا، وينسبوا إلى اللوم والبخل، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام. قال قتادة في هذه الآية: شر القرى التي لا تضيف الضيف، ولا تعرف لابن السبيل حقه. ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة. وهذا هو الأليق بحال الأنبياء، ومنصب الفضلاء والأولياء.

٤ً - إن ضرر المشقة الحاصلة بسبب الإقدام على إقامة جدار أقل من سقوطه؛ لأنه لو سقط لضاع مال تلك الأيتام، وفيه ضرر شديد.

وتسوية الجدار تمت بإعادة بنائه، ذكر ابن الأنباري عن ابن عباس عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ أنه «قرأ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ ثم قال:

فهدمه ثم قعد يبنيه» وهذا الحديث صحيح السند؛ جارٍ مجرى التفسير للقرآن. وقال سعيد بن جبير: مسحه بيده وأقامه، فقام. قال القرطبي: وهذا القول هو الصحيح، وهو الأشبه بفعل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل والأولياء.

٥ً - واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع في المشي إذا كان مارّاً عليه؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «إذا مرَّ أحدكم بطِرْبال[١] مائل، فليسرع المشي» ذكره ابن الأثير في النهاية.

٦ً - كرامات الأولياء ثابتة، بدليل الأخبار الثابتة والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد، فالآيات: مثل ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف، والصيفية في الشتاء، وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهي ليست بنبية، ومثل ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وهذا على رأي من قال: إنه ليس نبياً.

٧ً - هل يجوز أن يُعْلَم الوليّ أنه وليّ أو لا؟ قولان للعلماء:

أحدهما - أنه لا يجوز، وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بحذر وحيطة، لأنه لا يأمن أن يكون استدراجاً له، ولأنه لو علم أنه وليّ، لزال عنه الخوف من الله، وحصل له الأمن من عذابه، ومن شرط الولي أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [فصلت: ٤١/٣٠] ولأن الولي: من كان مختوماً له بالسعادة، والعواقب مستورة، ولا يدري أحد ما يختم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الأصبهاني عن ابن عباس: «وإنما الأعمال بخواتيمها» .

---

(١) الطربال: القطعة العالية من الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل.

القول الثاني - أنه يجوز أن يعلم أنه ولي؛ إذ لا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه وليّ الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك، وقد أخبر النبي ﷺ عن حال العشرة المبشرين بالجنة من أصحابه: أنهم من أهل الجنة، ولم يكن في ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيماً لله تعالى، وأشد خوفاً وهيبة، فغيرهم مثلهم.

٨ً - لا ينكر أن يكون للولي مال وضَيْعة (عقارات) يصون بها وجهه وعياله، وحسبك بالصحابة وأموالهم، مع ولايتهم وفضلهم، وهم الحجة على غيرهم.

وأما حديث الترمذي عن ابن مسعود: «لا تتخذوا الضَّيْعة فتركنوا إلى الدنيا» فمحمول على من اتخذها مستكثراً أو متنعماً ومتمتعاً بزهرتها، وأما من اتخذها معاشاً يصون بها دينه وعياله، فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال، وهي من أفضل الأموال؛ قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد وابن منيع عن عمرو بن العاص: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» .

٩ً - تمَّ خرق السفينة وتعييبها لحفظها لأصحابها المساكين (المحتاجين المتعيشين بها في البحر) من اغتصاب ملك ظالم عاتٍ لكل سفينة صالحة، وقد احتج الشافعي بهذه الآية على أن حال الفقير في الضر والحاجة أشد من حال المسكين؛ لأنه تعالى سمّاهم مساكين، مع أنهم كانوا يملكون تلك السفينة.

١٠ً - حدث قتل الغلام بسبب كفره حتى لا يتأثر به أبواه، ويميلا إلى دينه، بسبب محبتهما الفطرية له، وقد أبدلهما الله خيراً منه زكاة، أي ديناً وصلاحاً، وأقرب رُحماً، أي أقرب رحمةً وعطفاً وشفقة عليهما.

١١ً - إن صلاح الآباء يفيد الأبناء حتى الجيل السابع؛ لأن أب الغلامين كان هو الأب السابع، كما قال جعفر بن محمد. وقد روي أن الله تعالى يحفظ الصالح في سبعة من ذريته، وعلى هذا يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٩٦] .

١٢ً - قوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقال جماعة: لم يكن نبياً، وهو الأصح. واسم الخضر: إيليا بن ملكان بن قالغ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح، وكنيته أبو العباس، وكان أبوه مِلكاً. وأمه كانت بنت فارس، واسمها ألمى، ولدته في مغارة.

وذهب الجمهور إلى أن الخضر مات؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «أرأيتكم ليلتَكم هذه، فإنه على رأس مئة منها لا يَبْقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»[1]. وقالت فرقة: إنه حي؛ لأنه شرب من عين الحياة، وإنه باقٍ في الأرض، وإنه يحج البيت.

قيل: إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أوصني، قال: كن بسَّاماً ولا تكن ضحَّاكاً، ودع اللجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تَعِب على الخَطَّائين خطاياهم، وابكِ على خطيئتك يا بن عمران.

١٣ً - لا تثبت الأحكام الشرعية إلا بالوحي أو برؤيا الأنبياء، ولا يصح القول بأن الأحكام تثبت للأولياء بالإلهام في قلوبهم، وما يغلب عليهم من خواطر، لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم، واستدلوا بحديث رواه البخاري في التاريخ عن وابصة: «استفت نفسك وإن أفتاك المفتون» . قال أبو العباس المالكي: وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع؛ فإن الله تعالى قد أجرى سنته،

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمر، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلى صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أرأيتكم ليلتَكم هذه، فإن على رأس مئة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد».

وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بوساطة رسله السفراء بينه وبين خَلْقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه، المبيِّنون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك، وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: ٢٢/٧٥] وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٤] وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٣] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال القرطبي: وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي، واليقين الضروري، وإجماع السلف والخَلَف على أنه لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شيء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال: إن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل بحيث يستغني عن الرسل فهو كافر، يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب. ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ الذي قد جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول. وبيان ذلك: أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه هو حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو مما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن روح القدُس نَفَثَ في رُوعي»[(١)].

١٤ً - لهذه القصة فوائد أدبية رفيعة مجملها: أن يكون المرء متواضعاً غير معجب بعلمه، وأن يلتزم بعهده، فلا ينقضه ويعترض على ما لم يعرف سره، وألا يتعجل النبي ﷺ بطلب إنزال العقوبة بالمشركين الذين كذبوه وأنكروا رسالته واستهزؤوا به وبكتابه، فهم معاقبون هالكون في الدنيا والآخرة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٤٠ - ٤١. والرُّوع: القلب أو العقل. والحديث رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة، وهو ضعيف.

وتتكرر حوادث القصة مع مرور الزمان، فلا يعترض الإنسان على موت غلام صغير، فقد يكون موته خيراً له ولوالديه، كما أن وقائع الموت المتكررة رحمة بالمجتمع، فلو لم يمت كبار السن وغيرهم لضاقت الأرض بالمواليد المتجددة يومياً. وخرق السفينة يذكرنا بتسلط الظلمة على أموال الضعفاء، وهدم الجدار وإقامته لون من ألوان توفير الثروة المنتظرة ليتيم أو ضعيف من الإله الرحيم بعباده الضعفاء، وفيه مقابلة الإساءة بالإحسان، فإن أهل القرية الذين أبوا الضيافة قابلهم الخضر بحسن الصنيع، وهذه سمة الأنبياء والأولياء المقربين من ربهم.

وكل هذه الوقائع من فعل الله تعالى، وما الخضر وأمثاله إلا وسطاء بين الناس لتنفيذ أمر الله تعالى.

قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾

القراءات:

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾:

وقرأ نافع، ابن كثير، وأبو عمرو (فاتَّبع سبباً).

﴿حَمِئَةٍ﴾:

قرئ:

١- (حَمِئَةٍ) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (حاميةٍ) وهي قراءة الباقين.

﴿نُّكۡرًا﴾ :

قرئ:

١- (نُكُراً) وهي قراءة نافع، وابن ذكوان.

٢- (نُكْراً) وهي قراءة الباقين.

﴿جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (جزاءُ الحسنى).

﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ :

مثلها مثل (فأتبع سبباً).

﴿ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ :

قرئ:

١- (السَّدَّين) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (السُّدَّين) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿يَفۡقَهُونَ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يُفْقِهُون).

﴿يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾ :

قرئ:

١- (يأجوج ومأجوج) وهي قراءة عاصم.

٢- (ياجوج وماجوج) وهي قراءة الباقين.

﴿خَرْجًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (خراجاً).

﴿سَدًّا﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر، (سُدًّا).

﴿مَكَّنِّي﴾:

وقرأ ابن كثير (مكّنني).

﴿ٱلصَّدَفَيْنِ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (الصُّدْفَيْن).

﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ﴾:

وقرأ حمزة (فما اسْطّاعوا).

﴿دَكَّآءَ﴾:

قرئ:

١- (دكّاء) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (دكّاً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي كيف شاء، فحذف المفعول به.

﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾: ﴿تَغْرُبُ﴾ جملة فعلية، حال من هاء ﴿وَجَدَهَا﴾ ووجدها: بمعنى أصابها. وليست هنا بمعنى علم، فلو كانت كذلك، لكانت الجملة مفعولاً ثانياً لوجد؛ لأن (وجد) بمعنى (علم) تتعدى إلى مفعولين. ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ أن وصلتها: إما في موضع نصب بفعل مقدر، كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤٧/٤] وإما على تقدير مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: إما العذاب واقع منك فيهم، وإما اتخاذ أمر ذي حُسن واقع بهم، فحذف الخبر لطول الكلام بالصلة.

﴿فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ ﴿جَزَآءً﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال، والعامل فيه: له، أي ثبتت الحسنى له جزاء. وقيل: تمييز منصوب، ومن قرأ بالرفع: (جزاءٌ) جعله مبتدأ، وله: خبره، أي فله جزاء الخصال الحسنى، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه. و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مضاف إليه مجرور. ويجوز جعله بدلاً مرفوعاً من ﴿جَزَآءً﴾ والأصل فيه التنوين، وحذفه لالتقاء الساكنين، كما حذف التنوين من ﴿أَحَدٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٢] وقرئ: (جزاء) بالنصب من غير تنوين.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿قَوْلًا﴾ مفعول به. وقرئ (يُفْقِهُونَ) أي يفقهون الناس قولاً، فحذف المفعول الأول، وبقي ﴿قَوْلًا﴾ المفعول الثاني، ويجوز حذف أحد المفعولين؛ لأن هذا فعل متعدٍّ.

﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ منصوب بأفرغ عند البصريين لا بـ ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ لأن ﴿أُفْرِغْ﴾ أقرب من ﴿ءَاتُونِىٓ﴾ فكان إعماله أولى؛ لأن القرب له أثره في قوة العمل. وذهب الكوفيون إلى أن العامل فيه ﴿ءَاتُونِىٓ﴾. ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ بمعنى استطاعوا.

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ إنما قال: هذا، ولم يقل: هذه؛ لأن تاء تأنيث

الرحمة غير حقيقي، والتأنيث غير الحقيقي يجوز فيه التذكير، ولأن الرحمة بمعنى الغفران، فذكَّره حملاً على المعنى، والتذكير بالحمل على المعنى كثير في كلام العرب.

البلاغة:

﴿مَطْلِعَ﴾ و﴿مَغْرِبَ﴾ بينهما طباق.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾ تشبيه بليغ، أي كالنار في الحرارة وشدة الاحمرار، حذفت أداة الشبه ووجه التشبيه.

﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ استعارة تبعية في الفعل ﴿يَمُوجُ﴾ شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض، بموج البحر المتلاطم.

﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بينهما مقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي اليهود أو مشركو مكة. ﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو الإسكندر بن فيلبوس اليوناني، وقيل: الرومي، مَلَك فارس والروم، وقيل: ملك المشرق والمغرب، لكن الإسكندر كافر، والأصح أنه رجل صالح حكم الدنيا غير الإسكندر، ولذلك سمي ذا القرنين، أو لأنه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، وقيل: كان له قرنان، أي ضفيرتان، وقيل: كان لتاجه قرنان، ويحتمل أنه لقب بذلك لشجاعته، ومع الاتفاق على إيمانه وصلاحه، لم يكن على الأصح نبياً. ﴿سَأَتْلُوا۟﴾ سأقص. ﴿عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ من حاله. ﴿ذِكْرًا﴾ خبراً مذكوراً، وهو القرآن. قيل: ملك الدنيا مؤمنان: سليمان وذو القرنين، وكافران: نمرود وبختنصر.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ سهلنا له السير فيها وجعلناه قادراً على التصرف فيها كيف شاء. ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ يحتاج إليه. ﴿سَبَبٗا﴾ طريقاً يوصله إلى مراده من علم أو قدرة أو إرادة. ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ طريقاً نحو الغرب، أي فأراد بلوغ المغرب، فاتبع سبباً يوصله إليه. ﴿مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ موضع غروبها. ﴿فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ﴾ أي ذات حمأة، وهي الطين الأسود، وغروبها في العين الحمئة هو في مجرد رأي العين، وإلا فهي أعظم من الدنيا وأكبر، كما هو معروف. ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين الحمئة. ﴿قَوۡمٗا﴾ كافرين.

﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾ أي ألهمناه بين أن يعذبهم أو يدعوهم إلى الإيمان. ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ القوم بالقتل على كفرهم. ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ أي أمراً حسن بالإرشاد وتعليم الشرائع، وقيل: خُيِّر بين القتل والأسر.

﴿قَالَ﴾ أي ذو القرنين مختاراً الدعوة. ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ بالشرك والإصرار على الكفر. ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ نقتله. ﴿نُّكۡرٗا﴾ أي منكراً فظيعاً، أو شديداً في النار. ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدارين ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي الجنة، أو المثوبة وهو مبتدأ، خبره ﴿فَلَهُۥ﴾ وجزاءً: حال أي مجزياً بها، ومن قرأ: فله جزاءُ الحسنى، فالإضافة للبيان أي المثوبة الحسنى. ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ اليسر: السهل الميسر غير الشاق، أي نأمره بما يسهل عليه. ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾﴾ نحو المشرق. ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ موضع طلوعها. ﴿تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ هم الزنج. ﴿مِّن دُونِهَا﴾ من دون الشمس. ﴿سِتۡرٗا﴾ من اللباس أو البناء أو السقف؛ لأن أرضهم لا تتحمل الأبنية، ولهم سروب يغيبون فيها عند طلوع الشمس، ويظهرون عند ارتفاعها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي إن أمر ذي القرنين كما وصفنا من بلوغه المشرق والمغرب. ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾ أي وقد اطلعنا على ما عند ذي القرنين من الآلات والجند وغيرهما، مما يتعلق بظواهره وخفاياه، والمراد أن كثرة ذلك بلغت

مبلغاً لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب، آخذاً من الجنوب إلى الشمال. ﴿بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ بين الجبلين المبني بينهما سده، وهما جبلا أرمينية وأذربيجان، وقيل: جبلان منيفان في أواخر الشمال في منقطع بلاد الترك، من ورائهما يأجوج ومأجوج. ﴿مِن دُونِهِمَا﴾ أمامهما. ﴿يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ يفهمون قولاً إلا بعد بطء، أي لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه لتلعثمهم.

﴿قَالُواْ﴾ أي مترجموهم. ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ قال بعض العلماء (كالألوسي ١٦/٣٨ وما بعدها) هما اسمان أعجميان لقبيلتين، فهما ممنوعان من الصرف، وهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح. يأجوج: هم التتر، ومأجوج: هم المغول، وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك) وكانون يسكنون الجزء الشمالي من آسية، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي، وتنتهي غرباً ببلاد التركستان.

﴿مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي في أرضنا بالنهب والبغي والقتل والتخريب عند خروجهم إلينا، قيل: كانوا يخرجون في الربيع، فلا يتركون أخضر إلا أكلوه، ولا يابساً إلا احتملوه. وقيل: كانوا يأكلون الناس. ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعْلاً من المال نتبرع به من أموالنا، وقرئ: (خراجاً) والخراج: ما لزم أداؤه. ﴿سَدًّا﴾ حاجزاً، فلا يصلون إلينا. ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾ من المال وغيره. ﴿خَيْرٌ﴾ من الخرج الذي تجعلونه لي، فلا حاجة بي إليه، وأجعل لكم السد تبرعاً. ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس التي أطلبها منكم. ﴿رَدْمًا﴾ أي حاجزاً حصيناً، وهو أكبر من السد وأوثق.

﴿زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ قِطعه، جمع زُبْرة كغرفة، وهي القطعة العظيمة أو الكبيرة التي يبنى بها، فبنى بها وجعل بينها الحطب والفحم. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ أي حتى إذا جعل ما بين جانبي الجبلين من البنيان مساوياً لهما في

العلو، والصدفان: واحدها صدف وهو جانب الجبل. ﴿قَالَ﴾ للعمال. ﴿ٱنفُخُواْ﴾ بالكيران في زبر الحديد التي وضعت بين الصدفين، فنفخوا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ أي الحديد. ﴿نَارًا﴾ كالنار اشتعالاً وتوهجاً. ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرًا﴾ نحاساً مذاباً، أي صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحْمي، فالتصق بعضه ببعض، وسد فجوات الحديد، وصار جبلاً صلداً وشيئاً واحداً.

﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ﴾ أي يأجوج ومأجوج. ﴿أَن يَظۡهَرُوهُ﴾ أن يعلوه بالصعود لارتفاعه وملاسته. ﴿وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا﴾ خرقاً لصلابته وسُمْكه. ﴿قَالَ هَٰذَا﴾ قال ذو القرنين: هذا السد، أي بناؤه وتسويته. ﴿رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ﴾ أي أثر رحمة أو نعمة على عباده؛ لأنه مانع من خروجهم. ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي﴾ وقت وعده بقيام الساعة، أو وقت خروج يأجوج ومأجوج من وراء السد. ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ﴾ أو دكاً مدكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض. أطلق المصدر وأُريد اسم المفعول، ودكه: بهدمه منهم أو من غيرهم. ﴿وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾ أي وكان وعد ربي بخروجهم وغيره كائناً لا محالة.

﴿وَتَرَكۡنَا بَعۡضَهُمۡ﴾ الضمير عائد إلى يأجوج ومأجوج. ﴿يَوۡمَئِذٖ يَمُوجُ فِي بَعۡضٖۖ﴾ أي وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد، يموجون، بعضهم في بعض، ويختلطون مع بعضهم لكثرتهم، مزدحمين في البلاد. ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي القرن لقيام الساعة أو البعث. ﴿فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ أي جمعنا الخلائق في مكان واحد يوم القيامة للحساب والجزاء.

المناسبة:

سبق لدينا عند بيانِ سبب نزول قصة أصحاب الكهف، أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن قصة أصحاب الكهف، وعن قصة ذي القرنين، وعن الروح، والمشهور أن السائلين قريش. وذو القرنين: هو الإسكندر اليوناني، كما ذكر ابن إسحاق، وقال وهب: هو رومي، وهو خطأ.

وهذه هي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، وردت بعد قصة أصحاب الكهف، وقصة صاحبي الجنة، وقصة أمر الملائكة بالسجود لآدم وإباء إبليس.

التفسير والبيان:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ أي ويسألك اليهود وقريش يا محمد عن خبر ذي القرنين، سؤال اختبار وتعنت، فقل لهم: سأخبركم عنه خبراً مذكوراً في القرآن بطريق الوحي المتلو المنزَّل علي من ربي.

وقد تقدم أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية ما يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وذو القرنين: قيل: هو إسكندر بن فيلبس المقدوني اليوناني[١] الذي ملك الدنيا بأسرها قبل الميلاد بنحو ٣٢٠ سنة باني الإسكندرية، وتلميذ أرسطو الفيلسوف المعلّم الأول، حارب الفرس، واستولى على ملك دارا وتزوج ابنته، ثم سافر إلى الهند وحارب هناك، ثم حكم مصر، وإنما سمي ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها، فغلب على أكثر البلاد شرقاً وغرباً، قال الشوكاني: «وهذا مشكل؛ لأنه كان كافراً وتلميذ أرسطو» والظاهر أنه عبد صالح أعطاه الله ملكاً واسعاً[٢]، وهذا ما أشار إليه القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾ أي إنا أعطيناه ملكاً عظيماً،

---

(١) والظاهر أنه أبو كرب الحميري، واسمه أبو بكر بن إفْريقش، من الدولة الحميرية (من سنة ١١٥ ق.م - ٥٥٢ ب.م) التي يسمى ملوكها بالتبابعة جمع تُبَّع.

(٢) وهذا هو الصحيح المروي عن ابن عباس (انظر مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر ٨/ ٢١٦).

ومكَّناه فيه من جميع ما يؤتى الملوك من السلطة المطلقة المدعمة بالجنود وآلات الحرب والعلم، وأقدرناه على التصرف بحيث يصل إلى جميع أنحاء المملكة، ومهَّدنا له من الأسباب والوسائل التي تمكِّنه من السيطرة وبسط النفوذ أين شاء وكيف شاء، فملك مشارق الأرض ومغاربها، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العرب والعجم. فقوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ معناه أعطيناه من كل ما يتعلق بمطلوبه طريقاً يتوصل بها إلى ما يريده، وهذه الطرق هي:

أ - ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أي فاتَّبع طريقاً من الطرق التي تؤديه إلى مراده، حتى إذا وصل نهاية الأرض من جهة المغرب التي ليس بعدها إلا البحر المحيط، وهو بحر الظلمات أو المحيط الأطلسي، سائراً في بلاد المغرب: تونس والجزائر ومُرَّاكُش، فوجد الشمس تغرب في عين كثيرة الحمأة، أي الطين الأسود، وهذا ما يلاحظ من غياب قرص الشمس على ساحل المحيط المختلط بالرمال والطينة السوداء.

قال الرازي: إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة، وأن السماء محيطة بها، ولا شك أن الشمس في الفلك، وأيضاً قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ ومعلوم أن جلوس قوم في قرب الشمس غير موجود، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة، فكيف يعقل دخولها في عين من عيون الأرض؟ إذا ثبت هذا، فنقول: تأويل قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ أن ذا القرنين لما بلغ موضعها في المغرب، ولم يبق بعده شيء من العمارات، وجد الشمس كأنها تغرب في عين وَهْدَة مظلمة، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر، إذا لم ير الشط، وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر، وهذا هو التأويل الذي ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره[1]. ثم ذكر تأويلات أخرى بعيدة القبول.

(١) تفسير الرازي: ١٦٦/٢١

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ أي وجد في أقصى المغرب عند تلك العين الحمئة قوماً كفّاراً وأمة عظيمة من بني آدم، فقلنا له بالإلهام: أنت مخير فيهم بين أمرين: إما أن تعذبهم بالقتل إن أصروا على الكفر، وإما أن تحسن إليهم وتصبر عليهم، بدعوتهم إلى الحق والهدى والرشاد، وتعليمهم الشرائع والأحكام.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ أي قال ذو القرنين لبعض حاشيته: أما من ظلم نفسه بالإصرار على الشرك، ولم يقبل دعوتي، فسنعذبه بالقتل في الدنيا، ثم يرجع إلى ربه في الآخرة، فيعذبه عذاباً منكراً شنيعاً في نار جهنم.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ أي وأما من آمن بالله ووحدانيته وصدَّق دعوتي، وعمل عملاً صالحاً مما يقتضيه الإيمان، فجزاؤه الجنة، وسنطلب منه أمراً ذا يسر غير صعب ولا شاقّ، ليرغب في دين الله، ويحب فعل أوامر الله من صلاة وصيام وزكاة وخراج ونحوها، فلا نأمره بالصعب الشاق، ولكن بالسهل الميسر.

٢ - ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ أي ثم سلك طريقاً آخر متجهاً من مغرب الشمس إلى مشرقها، حتى إذا وصل الموضع الذي تطلع عليه الشمس أولاً من معمور الأرض، وجدها تطلع على قوم حفاة عراة، لا شيء يسترهم من حر الشمس، لا من اللباس، ولا من البيوت والمباني والأشجار، وإنما يعيشون في مفازة لا مأوى فيها، ولا شجر، وأكثر معيشتهم من السمك.

﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾﴾ أي إن أمر ذي القرنين كما وصفنا من قبل من اتباع الأسباب، حتى بلغ المشرق والمغرب، وقد علمنا حين ملكناه ما عنده من الصلاحية لذلك الملك والاستقلال به، ونحن مطلعون على

جميع أحواله، لا يخفى علينا منها شيء، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٥] أي فهو كما وُصف، مما لا يعلمه إلا عالم الغيب والشهادة.

٣ - ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾﴾ أي ثم سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب متجهاً من الشرق إلى الشمال، حتى إذا وصل بين الجبلين بين أرمينية وأذربيجان، وجد من ورائهما قوماً من الناس لا يكادون يفهمون كلام غيرهم، لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ونباهتهم.

هؤلاء القوم من الصقالبة (السلاف) الذي يسكنون شرقي البحر الأسود، في سد منيع بين جبلين قرب مدينة «باب الأبواب» أو «دربت» بجبل قوقاف، اكتشفه السياح في القرن الحاضر.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي قال سكان السد بين الجبلين، وقد فهم كلامهم ذو القرنين بتيسير الله الأسباب التي أعطاها له: أو بواسطة الترجمان: إن يأجوج ومأجوج - وهما قبيلتان من الناس - يفسدون في أرضنا بالقتل والتخريب والظلم والغشم وسائر وجوه الإفساد.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ أي فهل توافق على أن نعطيك جُعْلاً أو ضريبة من أموالنا، على أن تجعل بيننا وبينهم حاجزاً منيعاً يمنعهم من الوصول إلينا؟

ويرى بعضهم كالشيخ المراغي في تفسيره أن يأجوج: هم التتر، ومأجوج: هم المغول، وأصلهما من أب واحد يسمى (ترك) وكانوا يسكنون شمال آسية، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالي، وغرباً إلى الباكستان. وهذا الرأي غير صحيح، فهم قوم بدائيون مجهولون.

ومنهم الداهية الرحالة «تموجين» الذي لقب نفسه «جنكيز خان أي ملك العالم» الذي ظهر في أوائل القرن السابع الهجري في آسية الوسطى، فأخضع الصين الشمالية، ثم أخضع بجبروته قطبَ الدين بن أرميلان من السلاجقة ملك خُوَارزْم، ثم خلفه ابنه «أقطاي» وأغار ابن أخيه «باتو» على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ودمر بولونيا والمجر، ثم قام مقامه «جالوك» فحارب الروم، ثم خلفه ابن أخيه «منجو» فقام أخوه «كيلاي» بالاستيلاء على الصين، وأخوه «هولاكو» بالاستيلاء على البلاد الإسلامية وإسقاط بغداد مقر الخلافة العباسية في عهد الخليفة المستعصم بالله، أواسط القرن السابع الهجري ٦٥٦هـ.

وأما السد الذي أقامه ذو القرنين، وشاهده بعض المؤرخين في أوائل القرن الخامس عشر الميلادي: فهو وراء جيحون في عمالة «بلخ» واسمه «باب الحديد» قرب «ترْمِذ» وقد اجتازه تيمورلنك، ومر به «شاه روخ» مع العالم الألماني (سيلد برجر) ووصفه المؤرخ الإسباني (كلافيجو) في رحلته سنة ١٤٠٣ م الذي كان رسولاً من ملك «قشتالة» بالأندلس إلى تيمورلنك، وقال: إن سد (باب الحديد) على الطريق الموصل بين سمرقند والهند[١].

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ قال ذو القرنين: ما مكنني فيه ربي، وآتاني من سعة الملك والقدرة ووفرة المال، خير من خرجكم ومما تجمعون، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦/٢٧] .

ولكن ساعدوني بقوة، أي بعمل الرجال وآلات البناء، أجعل بينكم وبينهم سدّاً منيعاً وحاجزاً حصيناً، ثم أوضح المراد من القوة بقوله:

---

(١) تفسير المراغي: ١٣/١٦ - ١٥

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ أي قدِّموا لي قِطَع الحديد، فلما جاؤوا بها، أخذ يبني بها بين الجبلين، فيضع بعضها على بعض من الأساس، حتى إذا حاذى بالبنيان رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً، قال للعمال المساعدين: انفخوا على هذه الزُّبَر (القطع) بالكيران، حتى صار كله ناراً مشتعلة متوهجة، ثم صبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمّى، فصار كله كتلة متلاصقة وجبلاً صلداً، وانسدت فجوات الحديد.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ أي ما قدر يأجوج ومأجوج أن يصعدوا فوق السد، لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا نقبه من أسفله، وشدَّته، لصلابته وشدَّته. وأراح الله منهم الشعوب المجاورة لفسادهم وسوئهم.

وقال ذو القرنين بعد إقامة السد المنيع الحصين:

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ أي قال ذو القرنين لأهل تلك الديار: هذا السد نعمة وأثر من آثار رحمة ربي بهؤلاء القوم أو بالناس؛ لحيلولته بين يأجوج ومأجوج وبين الفساد في الأرض، فإذا حلَّ أجل ربي بخروجهم من وراء السد، جعله ربي مدكوكاً منهدماً، مستوياً ملصقاً بالأرض، وكان وعد ربي بخرابه وخروج يأجوج ومأجوج وبكل ما وعد به حقاً ثابتاً لا يتخلف، كائناً لا محالة.

وتَّم فعلاً خروج جنكيز خان وسلالته، فعاثوا في الأرض فساداً في الشرق والغرب، ودمروا معالم الحضارة الإسلامية، وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ.

أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ النبي ﷺ من نومه، وهو محمر وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا

الله، ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا، وحَلَّق، قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كَثُر الخبث».

وقد اتسعت الحلقة حتى كبرت في منتصف القرن السابع الهجري، بخروج التتر والمغول، واجتياح البلاد الإسلامية، وتدمير صرح الخلافة الإسلامية وإسقاطها في بغداد سنة ٦٥٦ هـ، كما حكى القرآن في قوله تعالى:

﴿۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ أي وتركنا بعض الناس يوم خروج يأجوج ومأجوج يضطرب ويختلط مع بعض آخر، فيكثر القتل، وتُفسد الزروع، وتُتلف الأموال، كما أخبر تعالى في آية أخرى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٦/٢١] . وذلك كله قبل قيام القيامة وقبل النفخ في الصور بزمن غير معلوم لنا. ويرى مفسرون آخرون أن معنى الآية: أنهم يضطربون ويختلطون كموج البحر يوم القيامة، في أول أيامها. ورجح القرطبي القول بأنه تركنا يأجوج ومأجوج وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض.

وإذا اقترب موعد القيامة نفخ في الصور، وهي النفخة الثانية، وجمعنا الناس جمعاً بأن أحييناهم بعد تلاشي أبدانهم وصيرورتها تراباً، وأحضرناهم إلى المحشر والحساب جميعاً، كما في الآيات الأخرى، منها: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٤٩-٥٠] ومنها: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧/١٨] . والصور كما جاء في الحديث الثابت: قرن ينفخ فيه، والذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ - إن ذا القرنين أحد الملوك المؤمنين الذين ملكوا الدنيا وسيطروا على أهلها، فقد آتاه الله ملكاً واسعاً، ومنحه حكمة وهيبة وعلماً نافعاً، ونحن لا نقطع بمعرفته بالذات، ولا نؤمن إلا بالقدر الذي حكاه القرآن المجيد.

روي أن جميع ملوك الدنيا كلها أربعة: مؤمنان وكافران؛ فالمؤمنان: سليمان بن داود وإسكندر، والكافران: نمروذ وبُخْتَنَصَّر. قال ابن إسحاق: وكان من خبر ذي القرنين أنه أوتي ما لم يؤت غيره، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها، لا يطأ أرضاً إلا سُلِّط على أهلها، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق.

٢ - هيَّأ الله تعالى لذي القرنين الأسباب التي توصله إلى مراده، وأخبرنا عن وقائع ثلاث حدثت له في المغرب والمشرق والوسط. أما في مغرب الشمس فقد وجد قوماً كافرين، فخيَّره الله بين أمرين: إما التعذيب بالقتل والإبادة جزاء كفرهم وطغيانهم، وإما الاستبقاء والإرشاد إلى الحق والهدى وتوحيد الله، فاختار ذو القرنين الإمهال والدعوة إلى الله، وأقام فيهم مدة ردع فيها الظالم، ونصر المظلوم، وأقام العدل، ودعا إلى الله تعالى.

وأما في المشرق فوجد قوماً بدائيين يعيشون في بقعة رملية لا يستقر فيها بناء، ولا يستترون فيها بظل شجر أو سقف بيت، قال الحسن البصري: كانت أرض لا جبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا في الماء، فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم.

وقال قتادة: لم يكن بينهم وبين الشمس ستر، كانوا في مكان لا يستقر عليه بناء، وهم يكونون في أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم، يعني لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها.

والقولان يدلان على ألّا مدينة هناك، وربما يكون منهم من يدخل في الماء، ومنهم من يدخل في السِّرْب، فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة.

وهذا تأريخ لحال جماعة بدائية تعيش على صيد الأسماك، دون ستر ولا مأوى، مما يستوجب على أهل المدينة شكر النعمة العظمى على العيش بأمان وارتياح تحت ظلال الأشجار وفي ردهات المنازل.

وأما رحلة ذي القرنين إلى الشمال بين الشرق والغرب وبين السدين وهما جبلان بين أرمينية وأذربيجان، فكانت إنقاذاً لشعب مقهور مستضعف يتعرض لغارات القبائل المتوحشة، فيفسدون في الأرض، فبنى لهم سداً منيعاً حصيناً حماهم من تلك الموجات الغازية، وأعلمهم أن بقاءه مرهون بإرادة الله. وهذا مَثَلٌ فيه عبرةٌ للدول القوية التي يجب عليها المحافظة على الشعوب الضعيفة، والإبقاء على ثرواتها دون أخذ شيء منها، منعاً من الإسهام في إضعافها، وأخذاً بيدها نحو الأفضل، وإغاثتها وإنقاذها من التخلف والضياع، فإن ذا القرنين مَلِك الدنيا أبى أن يأخذ شيئاً من أموال أولئك الأقوام، بالرغم من بناء السد الحصين.

٣ - قال القرطبي: في هذه الآية (آية السد) دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون، أو يُكْفَلون ويطلقون كما فعل عمر رضي الله عنه[1].

٤ - إن أهل الصلاح والإخلاص يحرصون على إنجاز الأعمال ابتغاء وجه الله، دون انتظار مقابلٍ أو عوض دنيوي من الناس، فإن ذا القرنين الذي أيده الله قال: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي ما بسطه الله تعالى لي من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، أي بالرجال وعمل الأبدان والآلة التي أبني بها السد (الردم). وهذا بداية النجاح في العمل، فإن القوم لو جمعوا له خرجاً، لم يُعِنْه أحد، ولتركوه يبني، فكان عونهم أسرع في إنجاز العمل وإنجاح المشروع.

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٥٩

٥ً - تدل الآية أيضاً: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ على أن من واجب الملك أو الحاكم أن يقوم بحماية الخَلْق في حفظ ديارهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم، بشروط ثلاثة هي:

الأول - ألا يستأثر عليهم بشيء.

الثاني - أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث - أن يسوِّي في العطاء بينهم على قدر منازلهم.

فإذا احتاج الحاكم إلى دعم رعيته، بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، ويؤخذ بقدر الحاجة من أموالهم، وتصرف بتدبير، فهذا ذو القرنين أبى أخذ شيء من أموال القوم، قائلاً: إن الأموال عندي والرجال عندكم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى.

وضابط الأمر: أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً، وينفق بالعدل لا بالاستئثار، وبرأي الجماعة لا بالاستبداد بالأمر[1].

٦ً - إن الحديد والنحاس من مرتكزات الصناعة الثقيلة قديماً وحديثاً، فقد كانا أداة بناء السد المنيع على يد ذي القرنين، وهما الآن المادة الأساسية في الصناعات المختلفة الحربية والسلمية.

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٦٠

جزاء الكفار

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

القراءات:

﴿دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (دونيَ أولياء).

﴿يَحْسَبُونَ﴾:

قرئ:

١- (يحسَبون) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة.

٢- (يحسِبون) وهي قراءة الباقين.

﴿هُزُوًا﴾:

قرئ:

١- (هُزُواً) وهي قراءة حفص.

٢- (هُزْواً) وهي قراءة حمزة وصلاً، وخلف في الحالين.

٣- (هُزُؤاً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ﴾ بدل من (الكافرين).

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَۚ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فاعل ﴿أَفَحَسِبَ﴾ و﴿أَن يَتَّخِذُواْ﴾ أن وصلتها في موضع نصب، سدت مسد مفعولي ﴿أَفَحَسِبَ﴾. و﴿عِبَادِي﴾ مفعول أول ليتخذوا، و﴿أَوۡلِيَآءَۚ﴾ مفعول ثانٍ.

﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ تمييز منصوب، وجمع التمييز ولم يفرد: إشارة إلى أنهم خسروا في أعمال متعددة، لا في عمل واحد.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ خبر لمحذوف، أو بدل، أو منصوب على الذم ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ﴾ مبتدأ وخبر، و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر.

البلاغة:

﴿كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي﴾ استعارة تمثيلية، شبه إعراضهم عن الآيات الكونية وعدم النظر فيها، وبالتالي عدم الإيمان، بمن ألقى غطاء على عينيه، على سبيل التمثيل.

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ استفهام يراد به التوبيخ والتقريع.

﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ جناس ناقص أو جناس التصحيف لتغير الشكل وبعض الحروف.

المفردات اللغوية:

﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ﴾ أبرزناها وأظهرناها لهم ﴿فِي غِطَآءٍ﴾ أي غشاوة محيطة بها

﴿عَن ذِكۡرِي﴾ أي القرآن، أو الآيات الموصلة إلى ذكري بتوحيدي وتمجيدي وتعظيمي ﴿وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾ أي لا يقدرون استماعاً لذكري وكلامي، بغضاً له، وصمماً عن الحق، فلا يؤمنوا به؛ إذ لا استطاعة بهم للسمع. ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أظنوا، والاستفهام للإنكار ﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي﴾ أي الملائكة والمسيح عيسى وعزير ﴿مِن دُونِيٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أرباباً، المعنى: أظنوا أن الاتخاذ المذكور لا يغضبني، ولا أعاقبهم عليه؟ كلا ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ هيأنا ﴿لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ من هؤلاء وغيرهم ﴿نُزُلٗا﴾ ما يقام للنزيل، أي هي معدة لهم كالمنزل المعد للضيف. وفيه تهكم.

﴿بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا﴾ جمع التمييز وهو: ﴿أَعۡمَٰلًا﴾ لتنوع أعمالهم ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ﴾ بطل وضاع عملهم لكفرهم وعجبهم ﴿وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ﴾ يظنون ﴿يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ عملاً يجازون عليه، لعجبهم بأنفسهم واعتقادهم أنهم على الحق.

﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ بالقرآن، أو بدلائله الدالة فيه على التوحيد والنبوة ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث والحساب، والثواب والعقاب، أو لقاء عذابه ﴿فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ بطلت بكفرهم، فلا يثابون عليها ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ أي لا نجعل لهم قدراً، وإنما نزدريهم.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي الأمر الذي ذكرت من حبوط أعمالهم وغيره، هو جزاؤهم ﴿هُزُوًا﴾ هزؤاً، أي مهزوءاً بهما.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أنه بنفخ الصور يوم القيامة، يقوم الناس من قبورهم، ثم يجمعون في صعيد واحد للحساب، ذكر أنه حينئذ يُظهر النار للكافرين، وتخصيصه بالكافرين بشارة للمؤمنين، ويظن الكافرون أن اتخاذهم معبودات من دون الله ينجيهم من عذابه، ولكن حبطت أعمالهم وبطلت، وصارت عديمة النفع بسبب كفرهم.

والحاصل: إن الله تعالى يخبر عما يفعله بالكفار يوم القيامة، من عرض جهنم عليهم، أي إبرازها وإظهارها لهم، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولهم، ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم. ويخبر تعالى أيضاً أنه لا يقام لهم وزن أو قدر، وأن أعمالهم قد أحبطت وضاعت بسبب كفرهم.

التفسير والبيان:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي أظهرنا جهنم وأبرزناها إبرازاً واضحاً للكفار بالله بعد النفخة الثانية في الصور، حتى يشاهدوا أهوالها، يوم جمعنا لهم.

وأوصاف الكفار هي:

أ - التعامي وإبعاد السمع عن الحق: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ أي إن عذاب جهنم لأولئك الذين تغافلوا وتعاموا عن قبول الهدى واتباع الحق، ولم ينظروا في آيات الله ولم يتفكروا فيها، حتى يتوصلوا إلى توحيد الله وتمجيده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٦] وكانوا لا يطيقون سماع ذكر الله الذي بيَّنه لهم في كتابه، ولا يعقلون عن الله أمره ونهيه.

والخلاصة: إنهم تعاموا عن مشاهدة آي الله بالأبصار، وأعرضوا عن الأدلة السمعية المذكورة في كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦] وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٤١/٥].

٢ - عبادة معبودات من دون الله: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي أفظن أو اعتقد الذين كفروا بي، واتخذوا أولياء أي

معبودات من دوني كالملائكة والمسيح والشياطين أن ذلك ينفعهم، أو يدفع عنهم العذاب؟ كلا، لا تنفعهم تلك المعبودات، وسيظهر لهم خطؤهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨٢/١٩] لذا أخبر تعالى عن عذابهم قائلاً:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ أي إنا أعددنا وهيأنا لهؤلاء الكافرين بالله جهنم يوم القيامة منزلاً ينزلون به، كما يعدُّ النزل للضيف، بسبب اتخاذهم أولياء (أي معبودين) من دوني، وهذا تهكم بهم، وتخطئة لحساباتهم.

٣ - الجهل والغباء: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي قل لهم يا محمد: هل نخبركم أيها الناس بأشد الناس خسراناً لأعمالهم وخطأً في حسابهم؟ هم الذين ضلوا في الحياة، فعملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مرضية مقبولة، وأتعبوا أنفسهم فيما لا نفع فيه، فهلكوا وضيعوا ثمار أعمالهم، وهم قوم مخدوعون بما هم عليه، يظنون أنهم محسنون في ذلك العمل، منتفعون بآثاره، مقبولون محبوبون. والآية توبيخ شديد لهم، مفادها الموجز: قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيري: يخيب سعيهم وآمالهم غداً، فهم الأخسرون أعمالاً.

وسبب خسارة أعمالهم هو ما قال الله تعالى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ أي إن أولئك الأخسرين أعمالاً هم الذين جحدوا آيات الله في الدنيا، وبراهينه التكوينية والتنزيلية الدالة على توحيده، وكفروا وكذبوا بالبعث والحساب ولقاء الله وما بعده من أمور الآخرة، فحبطت وبطلت أعمالهم التي عملوها مما يظنونه حسناً، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣/٢٥] فلا يقام وزن لأعمالهم ولا يكون لهم عندنا قدر، ولا نعبأ بهم، ولا ثواب على تلك الأعمال؛ لأنها خالية من الخير.

وحينئذ يكون جزاؤهم العادل على كفرهم ومعاصيهم جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾ أي إن ذلك الوعيد والجزاء على أعمالهم الباطلة في نار جهنم إنما هو بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله، وسخريتهم من رسل الله ومن معجزاتهم، فإنهم استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب. والهزء: الاستخفاف والسخرية.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يلي:

١ً - إثبات البعث والحشر، بجمع الجن والإنس في ساحات القيامة بالنفخة الثانية في الصور.

٢ً - إبراز جهنم إبرازاً ظاهراً واضحاً للكفار بعد الحشر بسبب عدم النظر في دلائل الله تعالى على وجوده ووحدانيته، وعدم إطاقتهم سماع كلام الله تعالى، فهم بمنزلة العُمْي والصمّ. وفي هذا نوع من العقاب النفساني المؤلم بسبب ما ينتابهم حينئذ من الغم والكرب العظيم.

٣ً - يخطئ الكفار حين يظنون أن اتخاذهم معبودين من دون الله، كعيسى وعزير والملائكة ينفعهم يوم القيامة، وأن الله لا يعاقبهم على ذلك، كلا، فإن الله أعد لهم جهنم منزلاً ومأوى.

٤ً - إن أشد الناس خسارة يوم القيامة هم الذين ضل سعيهم في الدنيا، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً في عبادة من سوى الله، فهم الأخسرون أعمالاً، روى البخاري عن مصعب قال: سألت أبي، يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى فكفروا بالجنة، فقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية (أي الخوارج)

الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد يسميهم الفاسقين[١]. والحقيقة أن الآية تشمل جميع أهل الضلال سواء من أهل الكتاب أو من المشركين.

٥ً - في هذه الآية: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ دلالة على أن من الناس من يعمل العمل، وهو يظن أنه محسن، وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي: إما فساد الاعتقاد أو المراءاة.

٦ً - إن سبب خسارة أعمال أهل الضلال هو الكفر بآيات الله وبالبعث، وهذا يشمل مشركي مكة عبدة الأوثان، وأهل الكتاب أيضاً؛ لأن إيمان هؤلاء بالبعث مشوّه غير صحيح.

٧ً - إن عقاب هؤلاء الضالين على أعمالهم الباطلة ثلاثة أنواع: إحباط الأعمال، وإهدار الكرامة والاعتبار، والعذاب في نار جهنم، فلا ثواب على أعمالهم ولا نفع فيها، ولا يقيم الله عز وجل لهم وزناً، ويصلون جهنم، قال عبيد بن عمير: يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشَّروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة. وهذا في حكم المرفوع، وقد ثبت معناه في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾» . والمعنى: أنهم لا ثواب لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار.

٨ً - كرر الله تعالى ذكر سبب العذاب لهؤلاء الكفار للتأكيد، فأخبر بأن جزاءهم جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله وتكذيبهم رسل الله، وإنكارهم معجزات الأنبياء.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٠٧

جزاء المؤمنين وسعة معلومات الله وتوحيده

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَن تَنفَدَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أن ينفد).

﴿جِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جينا).

الإعراب:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ ﴿حِوَلًا﴾ مفعول ﴿يَبْغُونَ﴾ أي لا يطلبون ولا يتمنون عنها متحولاً.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ ﴿مَدَدًا﴾ تمييز.

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أن: المكفوفة بما: باقية على مصدريتها، والمعنى: يوحى إلي وحدانية الإله.

المفردات اللغوية:

﴿كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ فيما سبق من علم الله وحكمه ووعده ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسِ﴾ أعلى درجات الجنان وأوسطها، والإضافة إليه للبيان، وأصله: البستان الذي يجمع أشجار الفاكهة ﴿نُزُلًا﴾ منزلاً ﴿لَا يَبۡغُونَ﴾ لا يطلبون ﴿حِوَلًا﴾ تحولاً إلى غيرها؛ إذ لا يجدون أطيب منها، حتى تنازعهم إليه أنفسهم ﴿لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا﴾ أي لو كان ماء البحر ما يكتب به من الحبر، وأصله: ما يمدُّ به الشيء، كالحبر للدواة ﴿لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ لكلمات علمه وحكمته ومعلوماته غير المتناهية، بأن تكتب به ﴿لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ﴾ في كتابتها ﴿تَنفَدَ﴾ تفرغ ﴿وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ﴾ أي بمثل البحر ﴿مَدَدًا﴾ زيادة فيه، لنفد، ولم تفرغ هي.

﴿أَنَا۠ بَشَرٞ﴾ آدمي ﴿يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ يأمل ويطمع حسن لقائه بالبعث والجزاء. والرجاء: تأمل شيء سارّ في المستقبل، و﴿لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ هو البعث وتوابعه. ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ يرتضيه الله ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ أي بأن يرائي في عبادته، أو يطلب منه أجراً.

سبب النزول: نزول الآية (١٠٩):

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ﴾: أخرج الحاكم وغيره عن ابن عباس قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾. وقالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة، فقد أوتي خيراً كثيراً، فنزلت: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي﴾ الآية.

نزول الآية (١١٠):

﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ﴾: أخرج ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص

عن طاوس قال: قال رجل يا رسول الله، إني أقف أريد وجه الله، وأحب أن يُرى موطني، فلم يرد عليه شيئاً، حتى نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ خبر مرسل، وأخرجه الحاكم في المستدرك موصولاً عن طاوس عن ابن عباس، وصححه على شرط الشيخين (البخاري ومسلم).

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان رجل من المسلمين يقاتل، وهو يحب أن يُرى مكانه، فأنزل الله: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية.

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس قال: قال جندب ابن زهير: إذا صلى الرجل، أو صام، أو تصدق، فذكر بخير ارتاح له، فزاد في ذلك لمقالة الناس له، فنزلت في ذلك: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى ما أعد للكافرين، ذكر ما أعد للمؤمنين، ثم ختم السورة ببيان سعة علم الله واتساع معلوماته وأنها غير متناهية، والإعلام ببشرية النبي ومماثلته لبقية الناس في ذلك، وأن علمه مستمد من الوحي الإلهي، والتنبيه على الوحدانية، والحض على ما فيه النجاة في الآخرة. قال البيضاوي: والآية جامعة لخلاصة العلم والعمل، وهما التوحيد والإخلاص في الطاعة، بالبعد عن الرياء وهو الشرك الأصغر أو الخفي.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن أضداد صفات الكافرين الذين ذكروا قبل المؤمنين، فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ أي إن السعداء هم الذين آمنوا بالله ورسوله، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به،

وعملوا صالح الأعمال من إقامة الفرائض والتطوعات، ابتغاء رضوان الله، لهم جنات الفردوس (وهي أعلى الجنة وأوسعها وأفضلها) منزلاً معدّاً لهم، مبالغة في إكرامهم. والفردوس في كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب، وفي اللغة الرومية: البستان.

جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة» .

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ﴿١٠٨﴾﴾ أي مقيمين ساكنين فيها على الدوام، لا يختارون عنها غيرها، ولا يحبون سواها، ولا يريدون تحولاً عنها. أخرج أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة مئة درجة، كل درجة منها ما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومن فوقها يكون العرش، ومنه تفجر أنهار الجنة الأربعة، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس» .

ثم يخبر الله تعالى عن عظمة شأن القرآن وسعة علم الله، فيقول:

﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ﴿١٠٩﴾﴾ أي قل أيها الرسول لهم: لو كتبت كلمات علم الله وحكمته، وكان ماء البحر حبراً للقلم الذي يكتب به، والقلم يكتب، لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك، ولو جيء بمثل البحر آخر وآخر وهكذا لنفد أيضاً، ولم تنفد كلمات الله. وهذا دليل على كثرة كلمات الله، وسعة علم الله وحكمته وأسراره، بحيث لا تضبطها الأقلام والكتب.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٣١/٢٧] .

وقال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم في علم الله تعالى كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ﴾ الآية، يقول: لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها في نعيم الآخرة كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

وروي أن حُيَيّ بن أخْطَب اليهودي قال: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢/٢٦٩] ثم تقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥] أي إنه يعترض بوجود التناقض، فنزلت هذه الآية، يعني أن ذلك خير كثير، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله.

وبعد بيان كمال كلام الله، أمر تعالى محمداً ﷺ بالتواضع فقال:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ أي قل يا محمد لهم: ما أنا إلا بشر مثلكم في البشرية، ليس لي صفة الملَكية أو الألوهية، ولا علم لي إلا ما علمني الله، إلا أن الله تعالى أوحى إلي أنه لا إله إلا الله الواحد الأحد الصمد، فلا شريك له في ألوهيته، فمعبودكم الذي يجب أن تعبدوه هو معبود واحد لا شريك له.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ أي فمن آمن بلقاء الله، وطمع في ثواب الله على طاعته، فليتقرب إليه بصالح الأعمال، وليخلص له العبادة، وليجتنب الشرك بعبادة الله، أحداً من مخلوقاته، سواء أكان شركاً ظاهراً كعبادة الأوثان، أم شركاً خفياً كفعل شيء رياء أو سمعة وشهرة، والرياء: هو الشرك الأصغر، كما في حديث أخرجه الإمام أحمد عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف

عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟» .

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: «أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا بريء منه، وهو للذي أُشْرِك» .

قال الرازي: أورد تعالى في آخر هذه السورة ما يدلّ على حصول رؤية الله في ثلاث آيات:

أولها - قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾.

وثانيها - قوله: ﴿كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾.

وثالثها - ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ ولا بيان أقوى من ذلك[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - للمؤمنين بالله ورسله الذين يعملون صالح الأعمال جنات الفردوس التي هي أعلى الجنان، وهم خالدون دائمون فيها، لا يطلبون تحويلاً عنها إلى غيرها.

٢ - لا يستطيع أحد على الإطلاق أن يحصر كلمات الله تعالى وعلمه وحكمته وأسراره، ولو كانت البحار والمحيطات وأمثالها دون تحديد حبراً يكتب به. قال ابن عباس: قالت اليهود، لما قال لهم النبي ﷺ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ١٧٧

﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ قالوا: وكيف، وقد أُوتينا التوراة، ومن أُوتي التوراة فقد أُوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا﴾ الآية.

٣ - أمر الله رسوله بالتواضع، وبإعلان صفة البشرية وأنه لا امتياز له على غيره بشيء من الصفات، وأنه لا يعلم إلا ما علَّمه الله تعالى، وعلم الله لا يحصى، إلا أن الله تعالى أمره بأن يبلِّغ غيره بأن لا إله إلا الله.

٤ - دلت الآية: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ على مطلوبين:

الأول - أن كلمة ﴿أَنَّمَآ﴾ تفيد الحصر، وهي قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾.

والثاني - أن كون الإله تعالى إلهاً واحداً يمكن إثباته بالأدلة السمعية.

٥ - إن المؤمن بربه الذي يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه يجب عليه أن يعمل العمل الصالح المرضي لله، وألا يشرك بالله أحداً في عبادته. قال ابن عباس: نزلت في جُنْدُب بن زهير العامري، قال: يا رسول الله، إني أعمل العمل لله تعالى، وأُريد به وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطُّلِع عليه سرَّني؛ فقال النبي ﷺ: «إن الله طيِّب، ولا يقبل إلا الطيِّب، ولا يقبل ما شُورِكَ فيه» فنزلت الآية. وفي رواية مسلم عن أبي هريرة: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً..».

والآية عامة في جميع الأعمال من عبادة وجهاد وصدقة وغيرها، وموضوعها إخلاص العمل لله عزَّ وجلَّ. سئل الحسن البصري عن الإخلاص والرياء فقال: من الإخلاص أن تحب أن تُكْتَم حسناتُك، ولا تحب أن تُكْتَم سيئاتُك، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول: هذا من فضلك وإحسانك، وليس هذا من فعلي ولا من صنيعي، وتَذَكَّرْ قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾، وقوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ

يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٦٠] ، يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم. وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها في الدنيا؛ قيل له: كيف يكون هذا؟ قال: من طلب بعمل بينه وبين الله تعالى سوى وجه الله والدار الآخرة، فهو رياء.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة مريم

مكية وهي ثمانٍ وتسعون آية

تسميتها:

سميت (سورة مريم) لاشتمالها على قصة حمل السيدة مريم، وولادتها عيسى عليه السلام، من غير أب، وأصداء ذلك الحمل، وما تبعه ورافق ولادة عيسى من أحداث عجيبة، من أهمها كلامه وهو طفل في المهد.

مناسبتها لما قبلها:

اشتملت السورتان على قصص عجيبة، فسورة الكهف اشتملت على قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة، بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر، وما فيها من المثيرات، وقصة ذي القرنين.

وسورة مريم فيها أعجوبتان: قصة ولادة يحيى بن زكريا عليه السلام حال كبر الوالد وعقم الوالدة أي بين شيخ فانٍ وعجوز عاقر، وقصة ولادة عيسى عليه السلام من غير أب.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع السورة كسائر السور المكية هو إثبات وجود الله ووحدانيته،

وإثبات البعث والجزاء من خلال إيراد قصص جماعة من الأنبياء، على النحو التالي:

١ً - افتتحت السورة بقصة ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام، من أب شيخ كبير وأم عاقر لا تلد، ولكن بقدرة الله القادر على كل شيء، خلافاً للمعتاد، وإجابة لدعاء الوالد الصالح، وأعقبه الخبر بإيتاء يحيى النبوة في حال الصبا، الآيات [١-١٥].

٢ً - أردف ذلك قصة ولادة عيسى من مريم العذراء، من غير أب، لتكون دليلاً آخر على القدرة الربانية. وقد أثار ذلك موجة من النقد واللوم والتعنيف، خفف منها كلام عيسى وهو طفل في المهد، تبرئة لأمه، ووصف نفسه بصفات النبوة والكمال.

واقترن المخاض بحدثين غريبين: هما نداء عيسى أمه حين الولادة بألا تحزن، فقد جعل الله عندها نهراً، وأمرها بهز النخل أخذاً بالأسباب لإسقاط الرطب، الآيات [١٦-٣٦].

وأحدثت هذه الولادة اختلافاً بين النصارى في شأن عيسى، الآيات [٣٧-٤٠].

٣ً - انتقلت الآيات بعدئذ إلى بيان جانب من قصة إبراهيم الخليل عليه السلام، ومناقشته أباه في عبادة الأصنام، وإكرام الله له بهبته - وهو كبير، وامرأته سارة عاقر - ولداً هو إسحاق ومن بعده ابنه يعقوب وجعلهما نبيين، كما حدث فعلاً من ولادة إسماعيل قبل ذلك، وإبراهيم شيخ كبير بعد دخوله على زوجته هاجر، الآيات [٤١-٥٠].

٤ً - ثم تحدثت السورة عن قصة موسى ومناجاته ربه في الطور، وجعل أخيه هارون نبياً، الآيات [٥١-٥٣].

٥ً - ثم أشارت إلى قصص إسماعيل الموصوف بصدق الوعد وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإدريس الصدِّيق النبي، وما أنعم الله به على أولئك الأنبياء من ذرية آدم لإثبات وحدة الرسالة بدعوة الناس إلى التوحيد ونبذ الشرك الآيات [٥٤-٥٨]. وما سبق كله يشمل حوالي ثلثي السورة.

٦ً - قورن الخلف بالسلف، وبان الفرق بأن الخلف أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات، وجدد الوعد بجنات عدن لمن تاب وعمل صالحاً الآيات [٥٩-٦٣].

٧ً - ناسب ذلك الكلام عن الوحي، وأن جبريل لا ينزل بالوحي إلا بإذن ربه، الآيات [٦٤-٦٥].

٨ً - ناقش الله المشركين الذين أنكروا البعث، وأخبر بحشر الكافرين مع الشياطين، وإحضارهم جثياً حول جهنم، وبأن جميع الخلق ترد على النار الآيات [٦٦-٧٢].

٩ً - أبان الله تعالى موقف المشركين حين سماع القرآن من المؤمنين بأنهم خير منهم مجلساً ومجتمعاً. وهددهم بأنه أهلك كثيراً من الأمم السابقة بسبب عتوهم واستكبارهم، وأنه يمدُّ للظالمين ويمهلهم، ويزيد الهداية للمهتدين، وأن معبودات المشركين ستكون أعداءً لهم [٧٣-٨٤] وذلك كله لتنزيه الله عن الولد والشريك.

١٠ً - التمييز بين حشر وفد المتقين إلى الجنان، وسوق المجرمين إلى النيران [٨٥-٨٧].

١١ً - التنديد بمن ادعى الولد لله، والرضا عن المؤمنين الصالحين، وأن القرآن لتبشير المتقين وإنذار الكافرين المعاندين [٨٨-٩٨].

فضلها:

روى محمد بن إسحاق في السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن

ابن مسعود في قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه.

دعاء زكريا عليه السلام طالباً الولد وبشارته بيحيى

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾

القراءات:

﴿مِن وَرَآءِى﴾:

وقرأ ابن كثير (من ورائيَ).

﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (يرثْني ويرثْ).

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا﴾:

قرئ:

١- (يا زكريا إنا) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يا زكرياءُ إنا) وهي قراءة الباقين.

﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

وقرأ حمزة (نَبْشُرُك).

﴿عِتِيًّا﴾:

قرئ:

١- (عِتِيًّا) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (عُتِيًّا) وهي قراءة الباقين.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (وقد خلقناك).

﴿لِّيٓ ءَايَةً﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (لِيَ آية).

الإعراب:

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ ﴿ذِكْرُ﴾ إما مبتدأ محذوف الخبر، أي فيما يملى عليكم ذكر رحمة ربك، وإما خبر مبتدأ محذوف، أي هذا ذكر رحمة ربك. و﴿ذِكْرُ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول وهو ﴿رَحْمَتِ﴾ ورحمة: مصدر مضاف إلى الفاعل، و﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول منصوب بالمصدر المضاف وهو ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾، و﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل من ﴿عَبْدَهُۥ﴾. و﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ﴿إِذْ﴾ منصوب على الظرف متعلق بذكر.

﴿شَيْبًا﴾ تمييز منصوب، أو منصوب لأنه مصدر، والأول أظهر.

﴿بِدُعَآئِكَ﴾ مصدر مضاف إلى المفعول، والفاعل محذوف، أي ولم أكن بدعائي إياك.

﴿يَرِثُنِي﴾ إما مجزوم على جواب الأمر، وهو في الحقيقة جواب شرط مقدر، أي هب لي إن تهب لي يرث، وإما مرفوع على أنه صفة لقوله: ﴿وَلِيًّا﴾ أي فهب لي من لدنك ولياً وارثاً. والوجهان هما في قوله: ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾.

﴿عِتِيًّا﴾ منصوب ببلغت، وهو مصدر «عتا».

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ الكاف خبر مبتدأ محذوف، أي قال الأمر كذلك ﴿سَوِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿تُكَلِّمَ﴾.

﴿أَن سَبِّحُواْ﴾ إما مفسِّرة بمعنى «أي» وإما مخففة من الثقيلة، أي أنه سبِّحوا.

البلاغة:

﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم.

﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ استعارة تبعية، شبه انتشار الشيب باشتعال النار في الحطب، واستعير الاشتعال للانتشار، وهذا أحسن الاستعارة وأبدعها في كلام العرب.

﴿نَادَىٰ﴾ ﴿نِدَآءً﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ حروف مقطعة قصد بها التنبيه كحروف التنبيه التي تقع في أول الكلام مثل ألا ويا وغيرهما، كما قصد بها التحدي للعرب في الإتيان

بمثل القرآن المكون من حروف اللغة العربية التي يتكلمون ويخطبون ويكتبون بها.

﴿زَكَرِيَّآ﴾ من ولد سليمان بن داود عليهم السلام، وكان نجاراً ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ أي دعاه سراً في جوف الليل؛ لأنه أسرع للإجابة، واختلف في سنه حينئذ فقيل ٦٠، أو ٧٠، أو ٧٥، أو ٨٥، أو ٩٩ أو ١٢٠ ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ أي ضعف جميعه بسبب الكبر ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أي صار الشيب منتشراً في شعره، كما تنتشر النار في الحطب ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ﴾ أي وإني أريد أن أدعوك، ولم أكن بدعائي إياك ﴿شَقِيًّا﴾ خائباً غير مستجاب الدعوة فيما مضى، فلا تخيبني فيما يأتي.

﴿ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ هم عصبة الرجل، الذين يلونه في النسب، كبني العم .﴿مِن وَرَآءِى﴾ بعد موتي، وخوفي منهم على الدين أن يضيعوه، كما شاهدته في بني إسرائيل من تبديل الدين ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ أي لا تلد، يقال: رجل عاقر وامرأة عاقر، أي عقيمان ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ﴾ من عندك ﴿وَلِيًّا﴾ ولداً من صلبي ﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ جدي في العلم والنبوة، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وكان متزوجاً أخت مريم بنت عمران من ولد سليمان، وكان زكريا زوجاً لخالة مريم ﴿رَضِيًّا﴾ أي مرضياً عندك.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ أي مسمى بيحيى، فلم يسمَّ أحد بهذا الاسم قبله ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿عِتِيًّا﴾ من عتا: أي يبس، يبست مفاصله وعظامه، قيل: كان عمره: مئة وعشرين سنة، وبلغت امرأته ثماني وتسعين سنة، وقرئ: عُسِيّاً بمعنى عتياً ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر كذلك من خلق غلام منكما في هذه السن ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ أي لا أحتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ قبل خلقك، بل كنت معدوماً صرفاً. وفيه دليل على أن المعدوم ليس بشيء.

﴿ءَايَةً﴾ علامة أعلم بها وقوع ما بشرتني به ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ أي بأيامها، بدليل ذكر الأيام في سورة آل عمران: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾. ﴿سَوِيًّا﴾ أي سوي الخلق سليم الجوارح بلا علة، ما بك من خَرَس ولا بكم ﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ المصلّى وكانوا ينتظرون فتحه، ليصلوا فيه بأمره على العادة ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ أشار، أو أومأ ﴿سَبِّحُوا﴾ صلّوا أو نزِّهوا ربكم، والمتفق عليه أنه أراد بالتسبيح الصلاة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرفي النهار، أوائل النهار وأواخره على العادة، أي صلاة الفجر وصلاة العصر، فعلم من امتناعه من الكلام حمل زوجته بيحيى.

قصة زكريا عليه السلام:

ذكر زكريا في القرآن ثماني مرات، في الآيتين [٣٧، ٣٨] من آل عمران، وفي الأنعام الآية [٨٥]، وفي مريم الآيتان [٢، ٧]، وفي الأنبياء الآية [٨٩].

وكان لزكريا أبي يحيى شركة في خدمة الهيكل، فهو (لاوي) وكانت مريم التي نذرتها والدتها لخدمة الهيكل من نصيب زكريا ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾. وكان زكريا زوجاً لخالة مريم أو لأختها. ولما رأى زكريا إكرام الله تعالى لمريم ورزقها من حيث لا تحتسب، دعا أن يرزقه الله تعالى الولد: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨)﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٨]، فاستجاب الله دعاءه، وبشرته الملائكة بيحيى، وقد كان في سن الشيخوخة وامرأته عاقر: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٣٩)﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٩] فتعجب زكريا من البشرى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠)﴾ وفي سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩)﴾ [٨-٩].

ووالده اسمه (برخيا) ويلاحظ أنه يوجد شخص آخر اسمه (زكريا بن برخيا) له كتاب قانوني عند النصارى، وكان في زمن (داريوس) قبل زمن المسيح عليه السلام بما يقرب من ثلاثة قرون[١].

التفسير والبيان:

﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ تقرأ هكذا: كاف، ها، يا، عاين، صاد بإدغام نون عاين في الصاد، ويتعين في الكاف والصاد منها المدّ المطول ست حركات بثلاث أَلِفات، ويتعين في الهاء والياء المد الطبيعي حركة واحدة بأَلِف واحدة، ويجوز في العين المد المطول وقصره بحركتين بمقدار أَلِفين.

والمراد بهذه الحروف المقطعة التنبيه في أول الكلام على ما يأتي بعدها، وتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه، ما دام الكلام القرآني مركباً من حروف الهجاء العربية التي يتركب منها الكلام العربي نثراً وخطابةً وشعراً. ولا يصح القول بأن هذه الأحرف مبهمات أو تشير إلى أسرار معينة أو أنها عَلَم (اسم) أو وصف؛ لأنه كما قال الرازي: لا يجوز من الله تعالى أن يودع كتابه ما لا تدل عليه اللغة، لا بالحقيقة ولا بالمجاز؛ لأنا إن جوزنا ذلك فتح علينا قول من يزعم أن لكل ظاهر باطناً، واللغة لا تدل على ما ذكروه، فإنه ليست دلالة الكاف أولى من دلالته على الكريم أو الكبير أو على اسم آخر من أسماء الرسول ﷺ أو الملائكة أو الجنة أو النار، فيكون حملها على بعضها دون بعض تحكماً لا تدل عليه اللغة أصلاً[٢].

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ أي هذا المتلو ذِكْر رحمة ربك الذي نقصه عليك عبده زكريا، الذي كان نبياً

(١) قصص الأنبياء للأستاذ عبد الوهاب النجار ٣٦٨

(٢) تفسير الرازي: ٢١/١٧٩

عظيماً من أنبياء بني إسرائيل، وزوجته خالة عيسى عليه السلام، وأنه - كما في صحيح البخاري - كان نجاراً يأكل من عمل يده في النجارة، حين دعا ربه دعاءً خفياً مستتراً، إخلاصاً وبعداً عن الرياء، ولئلا ينسب في طلب الولد - وهو عجوز كبير - إلى الرعونة، ويكون محل اللوم والتهكم من قومه.

والمراد بذكر الرحمة: بلوغها وإصابتها وإجابة الله دعاء زكريا وهو: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ أي قال زكريا: يا ربّ، لقد صرت فاتر العظام، ضعيف القوى، هرماً كثير الشيب جداً، ولم أعهد منك إلا إجابة الدعاء، ولم تردّني قط فيما سألتك، فما كنت خائباً، بل كلما دعوتك استجبت لي، وإني خفت أقاربي العصبات من بني العم ونحوهم إهمال أمر الدين وتضييعه بعد موتي، فطلبت ولداً نبياً من بعدي يحرس بنبوته شأن الدين والوحي، وكانت امرأتي (وهي أخت حَمْنة أم مريم) عاقراً لا تلد. واسم امرأته: إيشاع بنت فاقوذا بن قبيل، أخت حمنة بنت فاقوذا، وعلى هذا يكون يحيى ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة.

ويلاحظ أنه ذكر مسوغات ثلاثة لدعائه، تستدعي العطف والرحمة والشفقة، وهي:

١ً - ضعف البدن باطناً وظاهراً، أي ضعف العظام وظهور الشيب.

٢ً - كونه مستجاب الدعاء، فلم يكن في وقت من الأوقات خائباً، بل كان كلما دعا ربه أجابه.

٣ً - خوفه من ورثته من ضياع الدين وما يوحى إليه بعد موته، ولم يكن خوفه من إرث المال، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدراً من الإشفاق على ماله، ولأنه لم يكن ذا مال، وإنما كان نجاراً يأكل من كسب يده، ولأنه كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا نُورث، ما تَرَكْنا صَدَقةٌ» وفي

رواية الترمذي: «نحن معشرَ الأنبياء لا نُورث» ، ويكون ميراث الأنبياء هو وراثة النبوة أو العلم والمحافظة على الدين والدعوة إليه.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ أي فامنحني وأعطني من جنابك وواسع فضلك ولياً يلي أمر الدين، يكون ولداً من صلبي يرثني النبوة، وهذا ما أراده وإن لم يصرح به، ويرث ميراث آل يعقوب وهي وراثة العلم والنبوة على الراجح لا وراثة المال، كما تقدم، فيرث ما عندهم من العلم، ويقوم برعاية أمورهم في الدين، واجعله يا رب برّاً تقياً مرضياً عندك في أخلاقه وأفعاله، ترضاه وتحبه أنت ويرضاه عبادك ويحبونه، ليكون أهلاً لحمل رسالة الدين وتعليمه وتبليغه وإقامة شعائره.

ونظير الآية: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٨] ، ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٩] . ويعقوب: هو إسرائيل، وكان زكريا متزوجاً بأخت مريم بنت عمران، ويرجع نسبها إلى يعقوب؛ لأنها من ولد سليمان بن داود، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هارون أخي موسى، وهارون وموسى من ولد لاوي بن يعقوب، وكانت النبوة في سبط يعقوب بن إسحاق.

فأجاب الله دعاءه، كما قال تعالى:

﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ أي فاستجاب الله دعاءه وناداه من جهة الملائكة: يا زكريا إنا نبشرك بمنحتنا لك غلاماً اسمه يحيى (معرَّب يوحنا، وهو يوحنا المعمدان الذي كان يعمِّد الناس) لم يُسَمَّ أحد قبله بهذا الاسم. وقال مجاهد: لم يجعل له شبيهاً ولا مثيلاً ولا نظيراً، أخذه من معنى قوله تعالى﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ١٩/

٦٥]، أي شبيهاً. وقال ابن عباس: «لم تلد العواقر قبله مثله» . وهذا دليل على أن زكريا وامرأته عاقران لا يولد لهما، بخلاف إبراهيم وسارة عليهما السلام، فإنهما تعجبا من البشارة بإسحاق، لكبرهما، لا لعقرهما، فقد ولد لإبراهيم قبله إسماعيل بثلاث عشرة سنة.

فتعجب زكريا من هذه البشارة سائلاً:

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ﴿٨﴾﴾ تعجب زكريا عليه السلام حين أجيب دعاؤه، وفرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له والوجه الذي يأتيه منه الولد، مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد في أول عمرها مع كبرها وكبره، فتساءل متأثراً بالأحوال المعتادة لا مستبعداً قدرة الله تعالى: كيف يكون لي ولد، وامرأتي عاقر لا تحبل ولا تلد، وقد كبرت وضعفت؟ فقوله: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ معناه: انتهى سنه وكبر ونحل عظمه وفقد القدرة على جماع النساء.

فأجابه الله تعالى بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ﴿٩﴾﴾ أي قال الله تعالى من جهة الملَك مجيباً زكريا عما تعجب منه: الأمر كما قلت، سنهب لك ولداً بالرغم من العقم والهرم، هو علي سهل ميسور، إذا أردت شيئاً قلت له: كن فيكون، وقد خلقتك ابتداء وأوجدتك من العدم المحض، ولم تك شيئاً قبل ذلك، فإيجاد الولد بطريق التوالد المعتاد أهون من ذلك وأسهل منه.

وهذا دليل على القدرة الإلهية الفائقة، فإنه تعالى يسهل عليه كل شيء، وقد قرر هنا أن الأمر سهل يسير عليه، وذكر ما هو أعجب مما سأل عنه زكريا، بحسب تقدير الناس، والحقيقة أن الأمرين على قدرة الله سواء، فسيان خَلْق

الإنسان من العدم أو من طريق التوالد، ومن قدر على خلق الذات، فهو قادر على تبديل الصفات، فيعيد الله إليه وإلى زوجته القدرة على الإنجاب، كما قال: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٠].

ثم أخبر الله تعالى عن طلب آخر لزكريا هو تعرف وقت طلوع المبشر به، فقال:

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ أي قال زكريا: يا رب اجعل لي علامةً ودليلاً على وقت وجود الأمر المبشر به وهو حمل امرأتي، لتستقر نفسي، ويطمئن قلبي بما وعدتني، إذ الحمل خفي في مبدئه، ولا سيما ممن انقطع حيضها في الكبر.

فأجابه الله مرة أخرى إلى مطلبه قائلاً:

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي قال الله بواسطة المَلَك: علامتك على وقوع المسؤول وحصول البشرى من الله سبحانه بحمل امرأتك بابنها يحيى أن يعتقل لسانك، ويحبس عن الكلام، فلا تقدر على تكليم الناس ومحاورتهم مدة ثلاث ليال، وأنت صحيح سوي الْخَلْق، ليس بك آفة أو مرض أو علة تمنعك من الكلام.

ونظير الآية: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٤١].

فقوله تعالى: ﴿سَوِيًّا﴾ صحيح الْخَلْق سوياً من غير مرض ولا علة، وقيل: متتابعات، والقول الأول عن الجمهور أصح.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلِّم الناس في هذه الليالي الثلاث وأيامها إلا رمزاً أي إشارة، ولهذا قال تعالى هنا:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ أي فخرج زكريا على قومه من المحراب وهو مصلاه الذي بشر فيه بالولد (وهو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح: وهو مقصورة في مقدَّم المعبد يصعد إليها بدرج بحيث يصبح المتعبد فيها محجوباً عمن في المعبد) وقد كان الناس ينتظرونه للصلاة في الغداة والعشي، فأشار إليهم إشارة خفية سريعة، ولم يستطع أن يكلِّمهم بذلك، أن يقولوا: سبحان الله (أي تنزيهاً لله عن الشريك والولد وعن كل نقص) في الصباح والمساء في صلاتي الفجر والعصر، شكراً لله على ما أولاه، وقد كان أخبرهم بما بُشِّر به قبل ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - إن الله تعالى قصَّ على نبيه قصة زكريا وما بشر به من الولد، في سن الكبر والشيخوخة وحال عقم امرأته منذ بداية عمرها، ليكون ذلك آية على قدرة الله العجيبة التي تستدعي الإيمان به إيماناً مطلقاً.

٢ً - الجهر والإخفاء في الدعاء عند الإنسان سيان؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٥] ، ولكن زكريا عليه السلام ناجى ربه ودعاه في محرابه في حال الخفاء وهو أولى؛ لأنه أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الإخلاص، ولئلا يلام على طلب الولد في زمان الشيخوخة.

٣ً - قدَّم زكريا عليه السلام على السؤال أموراً ثلاثة مثل حيثيات الحكم القضائي: أحدها - كونه ضعيفاً، والثاني - أن الله تعالى ما ردَّ دعاءه مطلقاً، والثالث - كون المطلوب بالدعاء سبباً في المنفعة الدينية.

٤ً - قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نِعَم الله تعالى عليه،

وما يليق بالخضوع؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ إظهار للخضوع. وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهار لعادات تفضله في إجابته أدعيته، أي لم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، وعوَّدتني الإجابة فيما مضى. وقوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ حرص على مصلحة الدين، فإن أقاربه كانوا مهملين للدين، فخاف بموته أن يضيع الدين، فطلب ولياً يقوم بالدين من بعده، لا أنه سأل من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تورث؛ للحديث المتقدم في الصحيحين: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا صدقة» ، وفي سنن أبي داود: «إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورِّثوا ديناراً ولا درهماً، وَرَّثوا العلم» فتكون الوراثة على لسان زكريا هي وراثة الدين، وتكون مستعارة.

وقد ورث يحيى من آل يعقوب النبوة والحكمة والعلم والدين، كما أن سليمان ورث من داود الحكمة والعلم، ولم يرث منه مالاً خلَّفه له بعده.

٥ً - قوله تعالى: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء، ولم يصرح بولد، لشيخوخته وعقم امرأته، قال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة. وقال مقاتل: خمس وتسعين سنة، قال القرطبي: وهو أشبه، فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره؛ ولذلك قال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

٦ً - يجوز الدعاء بالولد، ويجوز التضرع إلى الله في هداية الولد، اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء، وقد دعا النبي ﷺ لأنس خادمه فقال: «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته» ، فدعا له بالبركة تحرزاً مما يؤدي إليه الإكثار من الهلكة. وكان دعاء زكريا أن يجعل الولي الوارث له مرضياً في أخلاقه وأفعاله.

٧ً - دعاء زكريا عليه السلام لم يكن بالواسطة، وإنما كان يخاطب ربه

مباشرة قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾، ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، ﴿فَهَبْ لِي﴾، ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾.

كذلك قوله تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ نداء من الله تعالى، وإلا لفسد النظم. ويرى جماعة أن هذا نداء المَلَك؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: ٣/٣٩]، وقوله سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ وهذا لا يجوز أن يكون كلام الله تعالى، فوجب أن يكون كلام المَلَك. وأجاب الرازي عن آية ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بأنه يحتمل حصول النداءين: نداء الله ونداء الملائكة، وعن آية: ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ بأنه يمكن أن يكون كلام الله تعالى[1].

٨ً - قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ دليل وشاهد على أن الأسامي السُّنُع (الجميلة) جديرة بالأثرة، وإياها كانت العرب تنتحي في التسمية، لكونها أنبه، وأنزه عن النَّبْز.

٩ً - قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟ ليس شكاً في قدرة الله تعالى على ذلك، وإلا كان كفراً، وهو غير جائز على الأنبياء عليهم السلام، وليس إنكاراً لما أخبر الله تعالى به، بل على سبيل التعجب والانبهار من قدرة الله تعالى أن يخرج ولداً من امرأة عاقر وشيخ كبير.

١٠ً - قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ دليل على قدرة الله الباهرة، سواء في تغيير الصفات أو إبداع الذوات، فكما أن الله خلق الإنسان من العدم، ولم يك شيئاً موجوداً، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده.

١١ً - قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَقَدْ

(١) تفسير الرازي: ٢١/١٨٦

خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ زيادة طمأنينة، كما طلب إبراهيم عليه السلام آية تدل على كيفية الخلق وإحياء الموتى، والمراد: تمم النعمة بأن تجعل لي آية وعلامة أتعرف بها وجود الحمل، بعد بشارة الملائكة إياه.

١٢ً - قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ وهو أرفع المواضع، وأشرف المجالس، دليل على أن ارتفاع الإمام على المأمومين كان مشروعاً عندهم، وقد أجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكاً بقصة المنبر. ومنع الإمام مالك ذلك في الارتفاع الكثير دون اليسير، خوفاً من الكِبْر على الإمام، وعملاً بما رواه أبو داود عن ثلاثة من الصحابة (حُذَيفة وأبو مسعود وعمار) من نهي النبي ﷺ عن ذلك: «إذا أَمَّ الرجلُ القومَ، فلا يقم في مكان أرفعَ من مقامهم».

١٣ً - قوله سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليل على جواز العمل بالإشارة المفهمة. واتفق مالك والشافعي والكوفيون على أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه.

إيتاء يحيى عليه السلام النبوة والحكم صبياً

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

الإعراب:

﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ الباء في موضع الحال، أي خذ الكتاب مجدّاً مجتهداً.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ ﴿ٱلْحُكْمَ﴾ مفعول ثان لآتيناه، و﴿صَبِيًّا﴾ حال من هاء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ الذي هو المفعول الأول.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ معطوف منصوب على ﴿ٱلْحُكْمَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ على تقدير القول، ويحيى هو ابن خالة عيسى عليهما السلام. ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ بجدّ واجتهاد. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي أعطيناه النبوة، أو الحكمة وفهم التوراة، أو الفقه في الدين، وذلك في حال الصبا، قيل: كان ابن ثلاث سنين، وعن ابن عباس في حديث مرفوع: ابن سبع سنين.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ ورحمة وعطفاً على الناس من عندنا. ﴿وَزَكَوٰةً﴾ تطهيراً من الذنوب والآثام. ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مطيعاً لما أمر به، متجنباً المعاصي وكل ما نهي عنه، فلم يفعل خطيئة ولا همَّ بها. ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي كثير البرّ والإحسان إليهما. ﴿جَبَّارًا﴾ متكبراً متعالياً عن الحق. ﴿عَصِيًّا﴾ عاصياً أمر ربه. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ أي أمان من الله عليه. ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي إنه آمن في هذه الأيام المخوفة من عذاب النار وهول القيامة ومكدرات الحياة الدنيوية، فهو آمن حين الولادة من مؤثرات الشيطان، وحين الموت من عذاب القبر، وفي القيامة من عذاب جهنم.

قصة يحيى عليه السلام:

ذكر يحيى خمس مرات في القرآن الكريم، في آل عمران [٣٩]، وفي الأنعام [٨٥]، وفي مريم [٧، ١٢]، وفي الأنبياء [٩٠]، وكان يحيى تقياً صالحاً منذ صباه، وكان عالماً بارعاً في الشريعة الموسوية ومرجعاً في أحكامها، وصار نبياً وهو صبي: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وكان يدعو الناس إلى التوبة من الذنوب، وكان يعمِّدهم أي يغسلهم في نهر الأردن للتوبة من الخطايا، وقد أخذ النصارى طريقته، ويسمونه (يوحنا المعمدان).

وكان لأحد حكام فلسطين (هيرودس) بنت أخ تسمى (هيروديا) بارعة الجمال، أراد عمها أن يتزوجها، وكانت البنت وأمها تريدان ذلك، فلم يوافق يحيى عليه السلام على هذا الزواج؛ لأنه محرم؛ فرقصت الفتاة أمام عمها فأعجب بها، وطلب إليها ما تتمناه ليعمله لها، فطلبت منه بمؤامرة أمها رأس يحيى بن زكريا، ففعل وقتل يحيى. ولما بلغ المسيح أن يحيى قتل، جهر بدعوته، وقام في الناس واعظاً[1].

التفسير والبيان:

﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ في الكلام محذوف تقديره: أنه ولد لزكريا المولود، ووجد الغلام المبشر به، وهو يحيى عليه السلام، فخاطبه الله تعالى بعد أن بلغ المبلغ الذي يخاطب به، فقال له: يا يحيى خذ التوراة المتدارسة والتي يحكم بها النبيون، والتي هي نعمة على بني إسرائيل، بجد واجتهاد وعزيمة وحرص على العمل بها.

ثم ذكر الله تعالى ما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال ذاكراً صفاته:

أ - ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي وأعطيناه الحكم والفهم للكتاب والفقه في الدين والإقبال على الخير، وهو صغير حَدَث دون سبع سنين. وقيل: الحكمة: النبوة؛ لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام، وهما صبيان، قال الرازي: والأقرب حمله على النبوة لوجهين:

الأول - أن الله تعالى وصفه بصفات شريفة، والنبوة أشرف صفات الإنسان، فذكرها في معرض المدح أولى من ذكر غيرها.

(١) قصص القرآن: المرجع السابق ٣٦٩

الثاني - أن الحكم هو ما يصلح لأن يحكم به على غيره، ولغيره على الإطلاق، وذلك لا يكون إلا بالنبوة.

قال عبد الله بن المبارك: قال مَعْمَر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للَّعِب خُلِقْنا، فلهذا أنزل الله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

٢ - ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي رحمناه رحمة من عندنا. والحنان: الرحمة والشفقة والعطف والمحبة. قال ابن كثير: والظاهر من السياق أن قوله: ﴿وَحَنَانًا﴾ معطوف على قوله: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان: هو المحبة في شفقة وميل[١].

٣ - ٥: ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا، وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾ أي وجعلناه مباركاً للناس، يهديهم إلى الخير، مطهراً من الدنس والرجس والآثام والذنوب، وكان تقياً، أي متجنباً لمعاصي الله، مطيعاً له، وكثير البر والطاعة لوالديه، متجنباً عقوقهما قولاً وفعلاً، أمراً ونهياً، فهو مطيع لله ولأبويه.

٦ - ٧: ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن متكبراً على الناس، بل كان متواضعاً لهم، ولم يكن مخالفاً عاصياً ما أمر به ربه، روى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا».

وبعد ذكر هذه الأوصاف الجميلة ليحيى ذكر الله تعالى جزاءه على ذلك، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ أي له الأمان من الله في هذه الثلاثة الأحوال: أمان عليه من الله يوم الولادة، فقد أمن أن

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٣

يناله الشيطان في ذلك اليوم كما ينال سائر بني آدم، ويوم يموت، فيأمن عذاب القبر، ويوم البعث يأمن هول يوم القيامة وعذابه.

قال سفيان بن عُيَيْنة: أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم ولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى بن زكريا، فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكر الله تعالى في هذه الآيات تسع صفات ليحيى بن زكريا عليهما السلام وهي:

١ً - الجد والصبر على القيام بأمر النبوة، فليس المراد من قوله: ﴿خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ القدرة على الأخذ؛ لأن ذلك معلوم لكل أحد، فيجب حمله على معنى يفيد المدح وهو الجد والصبر على النبوة.

٢ً - إيتاؤه النبوة وهو صبي؛ لأن الله تعالى بعث يحيى وعيسى عليهما السلام وهما صبيان، لا كما بَعَثَ موسى ومحمداً عليهما السلام، وقد بلغا الأشد وهو أربعون سنة.

٣ً - جعله ذا حنان، أي محبة ورحمة وشفقة على الناس، كصفة النبي ﷺ بأنه الرؤوف الرحيم.

٤ً - جعله ذا بركة ونفع ونماء بتقديم الخير للناس وهدايتهم، كما وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١/١٩].

٥ً - كونه تقياً: يتقي نهي الله فيجتنبه، ويتقي أمر الله فلا يهمله، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلمَّ بها.

٦ً - باراً بوالديه: فلا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، والله تعالى جعل طاعة الوالدين بعد طاعته مباشرة، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ١٧/٢٣].

٧ً - لم يكن جباراً متكبراً: بل كان ليِّن الجانب متواضعاً، وذلك من صفات المؤمنين، وقد أمر الله نبيه ﷺ بذلك فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٨٨] وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩].

٨ً - لم يكن عصياً لربه ولا لوالديه.

٩ً - سلام وأمان من الله عليه يوم مولده ويوم وفاته ويوم بعثه. وقال ابن عطية: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفي العصيان عنه وهي أقل درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله تعالى عليه، وحياه في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول.

قصة مريم

- ١ -

حملها بعيسى عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أعوذ).

﴿لِأَهَبَ﴾:

وقرأ ورش، وأبو عمرو (ليهب).

الإعراب:

﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ﴾ بدل من مريم بدل اشتمال.

﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿مَكَانًا﴾ إما ظرف مكان منصوب، وعامله ﴿ٱنتَبَذَتْ﴾ وإما مفعول به، وعامله مقدر، أي وقصدت مكاناً قصياً. و﴿شَرْقِيًّا﴾ صفة له.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ الواو: إما واو عطف على قوله: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ وإما زائدة.

البلاغة:

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع.

﴿شَرْقِيًّا﴾ ﴿سَوِيًّا﴾ ﴿تَقِيًّا﴾ ﴿بغِيًّا﴾ ﴿مَّقْضِيًّا﴾ ﴿قَصِيًّا﴾ ﴿سَرِيًّا﴾ ﴿نَبِيًّا﴾.. إلخ سجع لطيف.

المفردات اللغوية:

﴿وَاذْكُرْ فِى الْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ واذكر في القرآن خبر مريم. ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ حين اعتزلت. ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أي اعتزلت في مكان نحو الشرق من الدار. ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أرسلت ستراً تستتر به للاغتسال من الحيض، وكانت في العادة تتحول من المسجد إلى بيت خالتها إذا حاضت، وتعود إليه إذا طهرت، فبينا هي في مغتسلها أتاها جبريل متمثلاً بصورة شاب أمرد، سوي الخلق، لتستأنس بكلامه. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جبريل. ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ بعد لبسها ثيابها. ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ تام الخلق. ﴿قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ من غاية عفافها. ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتقي الله، وتحتفل بالاستعاذة، فتنتهي عني بتعوذي. وجواب الشرط محذوف دلَّ عليه ما قبله، أي فإني عائذة منك، أو فاتعظ بتعويذي، أو فلا تتعرض لي. ويجوز أن يكون للمبالغة، أي إن كنت تقياً متورعاً، فإني أعوذ منك، فكيف إذا لم تكن كذلك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ الذي استعذتِ به. ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ أي لأكون سبباً في هبته بالنفخ في القميص (الدرع). و﴿زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب، أو نامياً على الخير والصلاح. ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ ولم يباشرني رجل بالحلال من طريق الزواج. ﴿بَغِيًّا﴾ زانية.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾ أي الأمر هكذا من خلق غلام منك من غير أب، أو كذلك الأمر حكم ربّك، بمجيء الغلام منك، وإن لم يكن لك زوج. ﴿هُوَ

عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي فإن الأمر على الله يسير سهل .﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ على قدرتنا، وهذا معطوف على جملة ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ التي هي في معنى العلة. ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون بإرشاده، لمن آمن به .﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي وكان خلقه أمراً مقضياً به في الأزل وفي علم الله، فنفخ جبريل في جيب قميصها، فأحست بالحمل في بطنها مصوراً، إذ دخلت النفخة في جوفها، وكانت مدة حملها سبعة أشهر، وقيل: ثمانية، أو تسعة، وقيل: ساعة، كما حملته نبذته، وسنها ثلاث عشرة سنة، وقيل: عشر سنين، وقد حاضت حيضتين، والأولى أن يكون حملها في المدة المعتادة وهي تسعة أشهر، إذ لا دليل على تلك الأقوال.

﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ اعتزلت، وهو في بطنها، مكاناً بعيداً من أهلها وراء الجبل.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً، أردفه بذكر قصة مريم في إنجاب ولدها عيسى عليه السلام من غير أب، وبين القصتين تناسب وتشابه واضح ظاهر، ولذا ذكرا معاً في آل عمران وهنا وفي الأنبياء، لتقاربهما في المعني، ليدل تعالى على قدرته وعظمة سلطانه وأنه على ما يشاء قادر.

وعملاً بمبدأ الانتقال في البيان والتعليم من الأسهل إلى الأصعب، بدأ تعالى بقصة يحيى عليه السلام؛ لأن خلقه من أبوين كبيرين أقرب إلى العادة والتصديق من خلق الولد بلا أب، ثم ذكر قصة عيسى؛ لأنها أغرب من تلك.

التفسير والبيان:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ أي

واذكر يا محمد الرسول للناس في هذه السورة قصة مريم البتول بنت عمران من سلالة داود عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، حين تنحَّت، واعتزلت من أهلها، وتباعدت عنهم إلى مكان شرقي بيت المقدس أو المسجد المقدس؛ لتنقطع إلى العبادة.

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: إني لأُعلِمُ خَلْق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا ميلاد عيسى قبلة.

﴿فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ أي استترت منهم وتوارت بساتر أو حاجز يسترها عنهم لئلا يروها حال العبادة، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام، متمثلاً بصورة إنسان تام كامل، لتأنس بكلامه، ولئلا تنفر من محاورته في صورته الملَكية، فظنت أنه يريدها بسوء.

وقوله: ﴿رُوحَنَا﴾ هو جبريل، كما جاء في آية أخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٩٣-١٩٤].

فكان موقفها منه كما قال تعالى:

﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ أي قالت السيدة مريم العذراء البتول: إني أستعيذ (أو أستجير) بالرحمن منك أن تنالني بسوء إن كنت تخاف الله، فاخرج من وراء الحجاب. وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً بالله عز وجل، والاستعاذة والتخويف لا يؤثران إلا في التقي، وهو كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٨] أي إن الإيمان يقتضي ذلك ويوجبه، لا إن الله تعالى يخشى في حال دون حال، وهذا دليل عفتها وورعها.

فأجابها جبريل عليه السلام:

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ أي قال الملَك جبريل مهدئاً رَوْعها ومزيلاً خوفها: لست أريد بك سوءاً، ولكن أنا رسول إليك من ربك الذي استعذتِ به، ولست ممن يتوقع منه السوء أو مما تظنين، بعثني الله إليك لأهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب، ينمو على النزاهة والعفة. وقد نسب الهبة لنفسه لجريانها على يده بأمر الله تعالى.

فتعجبت مريم مما سمعت، وقالت:

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾ أي قالت لجبريل: كيف يكون لي غلام؟ وعلى أي صفة يوجد هذا الغلام مني، ولست بذات زوج، أو لم يقربني زوج، ولا يتصور مني الفجور، فلم أك يوماً بغياً، أي زانية، تبغي الرجال بالأجر. وجوابها هذا لم يكن عن استبعاد لقدرة الله، وإنما عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل، والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور، وإن حدث خلاف هذا في القدرة الإلهية، فإنها عرفت أنه تعالى خلق أبا البشر من غير أب ولا أم، فهل سيكون هذا الولد مخلوقاً بخلق الله ابتداء كآدم، أم عن طريق زوج تتزوجه في المستقبل؟

فأجابها بقوله:

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ أي فقال لها الملَك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيُوجِد منك غلاماً، وإن لم يكن لك زوج (بعل) ولا من طريق الفاحشة، فإنه على ما يشاء قادر، وليجعل خلقه برهاناً للناس على قدرة بارئهم وخالقهم الذي نوّع في خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى فقط، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى.

ويجعل هذا الغلام أيضاً رحمة من الله لعباده، يبعثه نبياً من الأنبياء، يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، وكل هذا الأمر مقدراً قد قدره الله في سابق علمه، وجف به القلم، فلا يغير ولا يبدّل.

ونظير آخر الآية: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٧] . ونظير القسم السابق له وهو: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٥-٤٦] .

ونظير قوله: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ قوله سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ٦٦/ ١٢] .

وحدث مراد الله تعالى:

﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ أي لما قال جبريل لها عن الله تعالى ما قال، استسلمت لقضاء الله تعالى، فنفخ جبريل في جيب دِرْعها (فتحة قميصها) فنزلت النفخة في جوفها، حتى ولجت فرجها، فحملت بالولد بإذن الله تعالى، فاعتزلت إلى مكان بعيد. والفاء وإن كانت للتعقيب، لكن تعقيب كل شيء بحسبه.

ولم يعيِّن القرآن الكريم مدة الحمل، إذ لا حاجة لمعرفتها، لذا نرى أن حملها كان بحسب المعتاد بين النساء، وهو تسعة أشهر قمرية. وإنما اتخذت المكان البعيد لا من أجل الوضع، وإنما حياء من قومها، وبعداً عن اتهامها بالريبة.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه بداية قصة السيدة مريم العذراء، حكى فيها الحق سبحانه كيفية حملها بعيسى عليه السلام، مبيناً مقدمات ضرورية لإبراز عفتها وصونها.

فهي قد اعتزلت أهلها شرقي البيت المقدس للانقطاع للعبادة وللخلوة مع الله ومناجاة ربها، فأرسل الله إليها جبريل عليه السلام بصورة بشر تام الخِلْقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أن تنظر جبريل في صورته الحقيقية الملَكية، ولما رأت رجلاً حسن الصورة في صورة البشر، قد خرق عليها الحجاب، ظنت أنه يريدها بسوء، فتعوذت بالله منه إن كان ممن يتقي الله.

فأخبرها جبريل بأنه رسول من عند الله بعثه إليها ليهبها غلاماً طاهراً نقياً من الذنوب والمعاصي، وجعل الهبة من قبله؛ لأنه الواسطة ورسول الإعلام بالهبة من قِبَله. روي أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكُمِّها.

فتساءلت مريم عن وسيلة إيجاد الغلام، لا استبعاداً لقدرة الله تعالى، ولكن أرادت معرفة كيفية تكوُّن هذا الولد، من قبل الزوج الذي تتزوجه في المستقبل، أم يخلقه الله ابتداء؟ وهي الآن ليست ذات زوج، ولم تكن في أي وقت زانية، وذكرت هذا تأكيداً؛ لأن قولها: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يشمل الحلال والحرام.

فأجابها جبريل: هذا أمر قدره الله وقضى به من الأزل، فهو في سابق علمه الأزلي القديم، وهو أمر هيِّن يسير على قدرة الله، فهو القادر على كل شيء، وقد خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب، ليكون ذلك دليلاً وعلامة على قدرته العجيبة في تنوع الخلق والإبداع، ويكون عيسى بنبوته رحمة لمن آمن به، وكان أمراً مقدراً في اللوح مسطوراً.

فاستسلمت مريم لقضاء الله وقدره، واعتزلت بالحمل إلى مكان بعيد، حياء من قومها، وبعداً عن اتهامها بالريبة وتعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج، قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال. وقال ابن عباس أيضاً: ما هو إلا أن حملت فوضعت في

الحال. قال القرطبي: وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل[١].

وقال آخرون: كان الحمل بحسب المعتاد بين النساء؛ لأن تعقيب كل شيء بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٢-١٤] . وقد ثبت في الصحيحين أن بين كل صفتين أربعين يوماً، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٢٢/ ٦٣] قال ابن كثير: فالمشهور الظاهر - والله على كل شيء قدير - أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن[٢].

وقال محمد بن إسحاق: فلما حملت به، وملأت قُلَّتها، ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب (المرض والضعف) والتوحم وتغير اللون، حتى فطر لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحبَها يوسف النجار (وهو رجل صالح من قراباتها، كان معها في المسجد يخدم معها بيت المقدس) ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا يراها أحد ولا تراه.

ويحسن أن تذكر مقطعاً من حوار بين يوسف النجار ومريم، ذكره الثعلبي في العرائس عن وهب، قال: أخبريني يا مريم، هل ينبت زرع بغير بذر، وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، وهذا البذر إنما حصل من

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٩٢ - ٩٣

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ١١٦

الزرع الذي أنبتته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث، وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر، بعدما خلق كل واحد منهما على حدة، أو تقول: إن الله تعالى لا يقدر على أن ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها؟

فقال يوسف: لا أقول هذا، ولكني أقول: إن الله قادر على ما يشاء، فيقول له: كن فيكون.

فقالت له مريم: أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه[1].

- ٢ -

ولادة عيسى وما اقترن بها

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿مِتُّ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (مُتُّ).

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/٢٠١ - ٢٠٢

﴿نَسْيًا﴾ :

قرئ:

١- (نَسياً) وهي قراءة حفص، وحمزة.

٢- (نِسياً) وهي قراءة الباقين.

﴿مِن تَحْتِهَآ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (مَنْ تحتها).

﴿تُسَٰقِطْ﴾ :

قرئ:

١- (تُسَاقِط) وهي قراءة حفص.

٢- (تَسَاقط) وهي قراءة حمزة.

٣- (تَسَّاقط) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ﴾ الباء: زائدة، أي وهزي إليك جِذع النخلة. و﴿تُسَٰقِطْ﴾ جواب الأمر، و﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ مفعول ﴿تُسَٰقِطْ﴾ أي تساقط النخلة رطباً. وقرئ (تَسَاقَط) وأصله: تتساقط، فحذف إحدى التاءين تخفيفاً، وقرئ (تسَّاقط) وأصله: تتساقط أيضاً، فأبدل من إحدى التاءين سيناً، وأدغم السين في السين. و﴿رُطَبًا﴾ في هاتين القراءتين: تمييز أو حال، ويجوز النصب بهزِّي، أي وهزي إليك رطباً جنياً متمسكة بجذع النخلة، والباء في موضع الحال، لا زائدة، وقرئ (يُسَّاقط) و﴿رُطَبًا﴾ مفعول به، أي يُسَّاقط جذع النخلة رطباً.

﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ تمييز أي من عين، مثل: طاب به نفساً، أي من نفس.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أصله (تَرَأْيين) فحذفت الهمزة منه، ثم حذفت الألف لالتقاء الساكنين، فبقي ﴿تَرَيِنَّ﴾ وحذفت النون لأنها نون إعراب، لطروء البناء بدخول نون التوكيد الثقيلة (المشددة) وكسرت الياء لسكونها وسكون النون المشددة أي لالتقاء الساكنين. وإما: أدغمت فيه نون إنْ الشرطية في ما الزائدة.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَجَآءَهَا﴾ جاء بها وألجأها واضطرها. ﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وجع الولادة والطَّلْق حين تحرك الولد للخروج من البطن. ﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ لتستتر به وتعتمد عليه عند الولادة، فولدت ﴿يَٰلَيْتَنِى﴾ للتنبيه. ﴿قَبْلَ هَٰذَا﴾ الأمر، استحياء من الناس ومخافة لومهم. ﴿نَسْيًا﴾ ما من شأنه أن يُنسى ولا يُطلب، ككل شيء حقير من وتد وحبل. ﴿مَّنسِيًّا﴾ منسي الذكر، وهو ما لا يخطر بالبال لتفاهته، والمراد من الكلمتين: شيئاً متروكاً لا يعرف ولا يذكر.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ أي عيسى، وقيل: جبريل وكان أسفل منها أي من مكانها. وقيل: ضمير ﴿تَحْتِهَآ﴾ عائد للنخلة. ﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ أي لا تحزني أو بألا تحزني. ﴿سَرِيًّا﴾ جدولاً أو نهر ماء، هكذا روي مرفوعاً، وقيل: السري: السيد الشريف، أي سيداً شريفاً وهو عيسى. ﴿وَهُزِّىٓ﴾ الهز: تحريك الشيء بعنف أو بدونه، أو أميليه إليك أو افعلي الهز والإمالة به. ﴿بِجِذْعِ﴾ الباء مزيدة للتأكيد. ﴿تُسَٰقِطْ﴾ تسقط. ﴿رُطَبًا﴾ تمراً طازجاً ناضجاً. ﴿جَنِيًّا﴾ صالحاً للاجتناء.

﴿فَكُلِى﴾ من الرطب. ﴿وَٱشْرَبِى﴾ من السري - النهر. ﴿وَقَرِّى عَيْنًا﴾ أي لتقر عينك به، أي تسكن، فلا تطمح إلى غيره. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي إن تريْ آدمياً، فيسألك عن الولد. ﴿فَقُولِىٓ﴾ أشيري إليهم، قال الفراء: العرب تسمي كل ما أفهم الإنسان شيئاً كلاماً بأي طريق كان. ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ

صَوۡمًا﴾ أي صمتاً أو إمساكاً عن الكلام في شأنه وشأن غيره من الناس، بدليل ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا﴾ أي أحداً من الناس بعد ذلك، أي بعد أن أخبرتكم عن نذري.

التفسير والبيان:

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ أي فاضطرها وألجأها وجع الولادة وألم الطَّلْق إلى الاستناد إلى جذع النخلة والتعلق به، لتسهيل الولادة، فتمنت الموت قبل ذلك الحال، استحياء من الناس، وخوفاً أن يظن بها السوء في دينها، أو أن تكون شيئاً لا يُبالَى به، ولا يعتد به أحد من الناس كالوتد والحَبْل، أو لم تُخْلَق ولم تك شيئاً. قال ابن كثير: فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة، فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها في خبرها، وبعدما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية. قال الزمخشري: أجاء منقول من جاء إلى معنى الإلجاء.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ أي فناداها جبريل من تحت الأكمة أو من تحت النخلة، وقيل: المنادي هو عيسى، وقد أنطقه الله بعد وضعه تطييباً لقلبها وإيناساً لها، قائلاً: لا تحزني، فقد جعل ربك تحتك جدولاً أو نهراً صغيراً، أجراه الله لها لتشرب منه. وقيل: المراد بالسريّ هنا عيسى، والسريّ: السيد العظيم الخصال من الرجال، قال ابن عباس: المراد بـ ﴿مِن تَحۡتِهَآ﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. ففي هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله تعالى فيها مراد عظيم، وهذا هو الأصح.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾ أي حرّكي جذع

النخلة، تسقط عليك رطباً طرياً طيباً، صالحاً للاجتناء والأكل من غير حاجة إلى تخمير وصناعة. وهذه آية أخرى، قال الزمخشري: كان جذع نخلة يابسة في الصحراء، ليس لها رأس ولا ثمر ولا خضرة، وكان الوقت شتاء. وقيل: كانت النخلة مثمرة. والمهم في الأمر: وجوب اتخاذ الأسباب لتحصيل الرزق، والاعتقاد بأن الفاعل الحقيقي في تيسير الرزق هو الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. وأما التفاصيل فلا يجب علينا أن نعتقد إلا بما أخبر به القرآن صراحة، وأما الروايات فتحتاج إلى تثبت ودليل وسند صحيح. وما أحسن قول الشاعر:

ألم تـر أن الله أوحـى لمـريم وهزي إليك الجذع يسّاقط الرطب
ولو شاء أدنى الجذع من غير هزه إليها ولكن كل شيء له سبب

﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي فكلي من ذلك الرطب، واشربي ذلك الماء، وطيبي نفساً ولا تحزني وقرّي عيناً برؤية الولد النبي، فإن الله قدير على صون سمعتك، والإرشاد إلى حقيقة أمرك. قال عمرو بن ميمون: ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة. وروى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام، وليس من الشجر شيء يلقّح غيرها» .

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ أي إن رأيت إنساناً يسألك عن أمرك وأمر ولدك، فأشيري له بأنك نذرت لله صوماً عن الكلام، بألا أكلم أحداً من الإنس، بل أكلم الملائكة، وأناجي الخالق.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا في شريعتهم، يحرم عليهم الطعام والكلام، قال ابن زيد والسدّي: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الكلام.

وليس الصوم عن الكلام مشروعاً في الإسلام، روى ابن أبي حاتم وابن جرير رحمهما الله عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان، فسلم أحدهما، ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم، فقال عبد الله بن مسعود: كلِّم الناسَ، وسلِّمْ عليهم، فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج، يعني بذلك مريم عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن ألم المخاض ووجع الطلق أمر معتاد في أثناء الولادة، أشبه بالموت، فتحتاج المرأة حينئذ إلى عون ورعاية، ولم تجد السيدة مريم معيناً لها غير جذع النخلة، فاستندت إليه وتعلقت به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق.

٢ً - يكون تمني الموت جائزاً في مثل حال السيدة مريم، فإنها تمنت الموت من جهة الدِّين لسببين:

أحدهما - أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتُعيَّر، فيفتنها ذلك.

الثاني - لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى، وذلك مهلك. فخافت صوناً لسمعتها الدينية، وحماية لتدين الآخرين حتى لا يقعوا في الذنب.

٣ً - تظاهرت الروايات بأن السيدة مريم ولدت عيسى عليه السلام لثمانية أشهر، وقد عاش، وتلك خاصة له، وقيل: ولدته لتسعة، أو لستة. ويرى ابن عباس كما تقدم أنها حملت فوضعت في الحال؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل.

٤ - لقد اقترنت ولادة السيدة مريم بأنواع من الألطاف الإلهية، فقد ناداها جبريل عليه السلام بأن الله جعل من تحتها نهراً صغيراً لتشرب منه، فأسقط لها رطب النخلة، ويقال: إنها أثمرت لها، وصار رطبها قابلاً للأكل والاجتناء بقدرة الله، وطيب الله نفسها وأقر عينها، فأزال عن قلبها الكآبة والحزن، وأمرها على لسان جبريل بالإمساك عن كلام البشر حتى لا تتعب نفسها بالحوار والنقاش وردّ التُّهَم، وأحالت الأمر على ابنها الذي أنطقه الله في المهد مدافعاً عنها، ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآية، فيظهر عذرها. وكل هذه آيات خارقة للعادة أظهرها الله بمناسبة ميلاد عيسى عليه السلام.

٥ - استدل العلماء بهذه الآية على أن الرزق، وإن كان محتوماً، فإن الله تعالى ربطه بالسعي، ووكل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه سبحانه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية ألا تهتز النخلة؛ لأن جذعها صلب قوي ثخين يصعب تحركه.

٦ - الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يتعارض مع التوكل على الله، فإن التوكل على الله يكون بعد اتخاذ الأسباب. وقد كانت مريم قبل الولادة يأتيها رزقها من غير تكسب، تكريماً خاصاً لها، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٧] فلما ولدت أمرت بهز الجذع؛ لأن قلبها قبل الولادة كان مشغولاً بالعبادة متفرغاً لها، فلم تُشْغل أعضاؤها بتعب التكسب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، أمرت بالكسب، وردت إلى العادة بالتعلق بالأسباب، كسائر العباد.

٧ - الرطب خير شيء للنفساء، وكذلك التحنيك به للمولود، فإذا عسرت الولادة لم يكن للمرأة خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل.

٨ً - في أمر مريم بالسكوت عن الكلام دليل على أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذلّ الناس سفيه لم يجد مسافهاً.

٩ً - من التزم بالنذر بألا يكلم أحداً من الآدميين، أو نذر الصمت، فذلك كان مشروعاً في شريعة موسى وعيسى عليهما السلام، وليس في شريعتنا، فلا يجوز نذر الصمت في شرعنا؛ لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام في الشمس ونحوه، مما لم يجزه النبي ﷺ، وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام، كما تقدم. وهذا هو الصحيح لحديث أبي إسرائيل الذي نذر الصوم في الشمس، فأمره النبي ﷺ بأن يتكلم ويتم صومه في الظل، والحديث خرَّجه البخاري عن ابن عباس. قال ابن زيد والسدّي كما تقدم: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام.

ومن سنتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح، قال عليه الصلاة والسلام في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ قاتله أو شاتمه، فليقل: إني صائم» وقال أيضاً فيما رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنَّسائي وابن ماجه عن أبي هريرة: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

- ٣ -

نبوة عيسى ونطقه وهو طفل في المهد

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾

القراءات:

﴿جِئْتِ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيت).

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

وقرأ حمزة (آتانيْ الكتاب).

﴿نَبِيًّا﴾:

وقرأ نافع (نبيئاً).

الإعراب:

﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ جملة حالية.

﴿يَٰٓأُخْتَ﴾ التاء هنا بدل عن واو، وليست للتأنيث؛ لأنها تكتب بالتاء لا بالهاء نحو قائمة وذاهبة، مثل تاء: بنت.

﴿بَغِيًّا﴾ على وزن فعول لا فعيل؛ لأنه هنا بمعنى فاعل، وأتى بغير تاء. وهو صفة للمؤنث، كقولهم: امرأة صبور وشكور. وقد يأتي فعول بغير هاء إذا كان بمعنى مفعول، مثل ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ [يس: ٣٦/ ٧٢] .

﴿مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ﴾ كان: إما بمعنى (حدث ووقع) فيكون ﴿صَبِيًّا﴾ حال من ضمير ﴿كَانَ﴾. وإما بمعنى (صار) فيكون ﴿صَبِيًّا﴾ خبر (صار) وإما ﴿كَانَ﴾ زائدة، و﴿صَبِيًّا﴾ حال، وعامله ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾. ولا يجوز جعل ﴿كَانَ﴾ هنا ناقصة؛ لأنه لا اختصاص لعيسى بكونه في المهد، فهذا وصف لكل صبي، وإنما تعجبوا من كلام من صار في حال الصبا في المهد.

﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿مَا﴾ مصدرية ظرفية زمانية، أي مدة دوامي حياً، و﴿حَيًّا﴾ خبر ﴿مَا دُمْتُ﴾، والجملة منصوبة على الظرف، وعامله ﴿وَأَوْصَٰنِي﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي﴾ معطوف على قوله ﴿مُبَارَكًا﴾ و﴿مُبَارَكًا﴾ مفعول ثانٍ لجعل. ومن قرأ (وبرٍّ) عطفه على (الصلاة) أي أوصاني بالصلاة وبرٍّ بوالدتي.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ أتت مع ولدها قومها راجعة إليهم بعدما طهرت من النفاس حاملة إياه . ﴿فَرِيًّا﴾ عظيماً منكراً خارقاً للعادة، حيث أتت بولدها من غير أب . ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ هو أخو موسى عليه السلام، وكان بينهما ألف سنة، أو رجل صالح من بني إسرائيل، أي يا شبيهته في العفة، وشبهوها به تهكماً . ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ أي زانياً . ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ أي زانية، فمن أين لك هذا الولد؟! وفيه تنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أشارت لهم إلى عيسى أن كلموه ليجيبكم . ﴿قَالُواْ كَيْفَ

﴿نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ أي وجد ﴿فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ أي لم نعهد صبياً في المهد كلمه عاقل. و﴿ٱلْمَهْدِ﴾ فراش الصبي الرضيع الموطّأ له، جمع مهود.

﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي الإنجيل ﴿مُبَارَكًا﴾ نفّاعاً للناس، معلماً للخير. والتعبير بالماضي: إما باعتبار ما سبق في قضاء الله، فهو إخبار ما كتب له، أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع. ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أمرني بهما أو كلفني. ﴿جَبَّارًا﴾ متعاظماً لا يرى لأحد حقاً عليه. ﴿شَقِيًّا﴾ عاصياً لربه. ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ أي والأمان علي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث حياً، كما هو على يحيى عليه السلام، والتعريف هنا في السلام على الأظهر للجنس.

التفسير والبيان:

لما اطمأنت مريم عليها السلام بما رأت من الآيات، وسلمت لأمر الله عز وجل، واستسلمت لقضائه أتت بعيسى تحمله إلى أهل بيتها، كما قال تعالى:

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي لما برئت مريم من نفاسها، جاءت به قومها تحمله من المكان القصي، فلما رأوا الولد معها، حزنوا وأعظموا الأمر واستنكروه جداً، وقالوا منكرين: يا مريم، لقد فعلت أمراً عجيباً عظيماً خارجاً عن المألوف وهو الولادة بلا أب، وكانوا أهل بيت صالحين: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣٣-٣٤].

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة، أو يا من أنت من نسل هارون أخي موسى، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وقيل: هارون هذا رجل صالح في ذلك الوقت، أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة، فكيف تأتين بمثل هذا؟ ما كان أبوك بالفاجر، وما كانت أمك بالزانية البغي، فمن أين يأتيك السوء، ومن أين لك هذا الولد؟!!

أخرج أحمد ومسلم والترمذي والنَّسائي وغيرهم عن المغيرة بن شعبة قال:

«بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران، فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فرجعت، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم» . وهذا يرشد إلى أن هارون هو رجل صالح في زمان مريم وعيسى عليهما السلام. ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء.

﴿فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾﴾ أي فأشارت مريم إلى عيسى أن يكلمهم، وقد اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق؛ لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام، فقالوا لها متهكمين بها، ظانين أنها تزدري بهم وتهزأ: كيف نكلم طفلاً ما يزال في المهد، أي فراش الرضيع؟

وهنا ظهرت المعجزة الكبرى بنطق الرضيع ووصف نفسه بتسع صفات هي:

١ً - ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ قال عيسى: إني عبد تام العبودية لله الكامل الصفات، الذي لا أعبد غيره، فكان أول ما نطق به الاعتراف بالعبودية له، وتبرئته عن الولد، تنبيهاً للنصارى على خطئهم فيما ادعوه له من الربوبية.

٢ً - ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ سينزل عليَّ الإنجيل، وقدَّر لي وحكم في الأزل أن أكون نبياً ذا كتاب، وقضى أنه يؤتيني الكتاب فيما قضى، وإن لم يكن الكتاب منزَّلاً في الحال.

٣ً - ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا﴾ أي قَدَّر لي أن أكون نبياً، وفي هذا تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة؛ لأن الله تعالى لا يجعل الأنبياء أولاد زنى، وإنما هم نخبة عالية من الطهر وصفاء السلالة والمعدن.

٤ً - ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ أي صيَّرني الله نفَّاعاً للعباد، معلماً

للخير، هادياً إلى الرشاد في أي مكان وجدت. وعبر تعالى عن هذه الصفات بصيغة الماضي إشارة إلى تحققها وحدوثها فعلاً في المستقبل.

٥ - ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وأمرني ربي بالصلاة التي تربط العبد بربه وتطهر النفس، وتمنعه عن اقتراف الفاحشة، وأمرني أيضاً بزكاة المال التي هي طهرة للمال، وعون للفقير والمسكين، ما دمت على قيد الحياة في الدنيا.

٦ - ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي مريم، وأمرني ببرها وطاعتها والإحسان إليها بعد طاعة ربي؛ لأن الله كثيراً ما يقرن بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين. وهذا أيضاً دليل على نفي الزنى عنها، إذ لو كانت زانية، لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها.

٧ - ٨: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي ولم يجعلني متعظماً عاصياً مستكبراً عن عبادة ربي وطاعته وبر والدتي، فأشقى بذلك.

٩ - ﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ أي والسلامة علي من كل سوء يوم الميلاد، فلم يضرني الشيطان في ذلك الوقت، ولا أغواني عند الموت، ولا عند البعث، فأنا في أمان لا يقدر أحد على ضري في هذه الأوقات الثلاثة. وهذا إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله الذي يحيا ويموت ويُبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - جاءت مريم المؤمنة الواثقة بتأييد الله لها قومها مع ولدها، لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها.

٢ً - يتأثر الناس عادةً بظواهر الأمور ويتعجلون بالحكم عليها، فاتهموا مريم بأنها جاءت شيئاً فرياً، أي أمراً عظيماً كالآتي بالشيء يفتريه، وأنكروا عليها بما عرفوا عنها من سيرة حميدة قضت شبابها في التبتل والعبادة، وبما علموا من استقامة أبويها.

فقالوا لها: يا أخت هارون، بمعنى: يا من كنا نظنّها مثل هارون في العبادة تأتي بمثل هذا؟ فهي كانت من ولد أو سلالة هارون أخي موسى، وإن كان بين موسى وهارون وبين عيسى زمان مديد قدِّر بألف سنة فأكثر، فنسبت إليه بالأخوة؛ لأنها من ولده، كما يقال للتميمي: يا أخا تميم، وللعربي: يا أخا العرب.

وقيل: هارون هذا رجل صالح في ذلك الزمان، تبع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم اسمه هارون. ويؤيد ذلك الحديث الثابت المتقدم.

٣ً - من معجزات عيسى عليه السلام نطقه وهو صغير في المهد، ونحن المسلمين نعتقد بهذا اعتقاداً جازماً، لإثباته بنص القرآن القاطع، وأما اليهود والنصارى فينكرون أنه تكلم في المهد. وكان نطقه إظهاراً لبراءة أمه، ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان.

٤ً - وصف عيسى عليه السلام نفسه في كلامه المبين وهو طفل رضيع بصفات تسع، جمعت بين إثبات النبوة وإنزال الإنجيل عليه في المستقبل، وتبرئة أمه من تهمة الزنى، وإثبات عبوديته لله عز وجل، فهو عبد الله لا ربٌّ ولا إلهٌ، كما يعتقد النصارى، واتصافه بالبركات ومنافع الدين والدعوة إليه، واستقامة سلوكه وأخلاقه، فهو بَرٌّ بوالدته، ليس متعظماً متكبراً، ولا عاصياً خائباً من الخير، ملتزماً تشريع الله في العبادة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد بلوغه سن التكليف.

٥ً - قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي جعلني براً بوالدتي يدل على أن فعل

العبد مخلوق لله تعالى، لأن الآية تدل على أن كونه براً، إنما حصل بجعل الله وخلقه.

٦ً - قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدها على أهل القَدَر[1]! أخبر عيسى عليه السلام بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت.

٧ً - الإشارة بمنزلة الكلام وتدل على ما يدل عليه ويحدث بها الإفهام والفهم، كيف لا، وقد أخبر الله تعالى عن مريم، فقال: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾. وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي عن أنس «بعثت أنا والساعة كهاتين» . وإجماع العقلاء على أن العيان أقوى من الخبر، دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام.

لذا قرر المالكية والشافعية جواز الاعتماد على الإشارة في المعاملات والعقوبات، وقد نص الإمام مالك على أن شهادة الأخرس مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما إذا كان الشخص قادراً على اللفظ، فلابد من الكلام.

وذهب الحنفية وأحمد والأوزاعي وإسحاق إلى أنه لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفاً، ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة، قالوا: واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع.

---

(١) هم القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق أفعال نفسه، والمعاصي لا يريدها الله تعالى.

٨ - حظي عيسى بالسلامة من الله تعالى يوم ولادته في الدنيا من همز الشيطان، ويوم الموت في القبر، ويوم البعث في الآخرة، وهذه الأحوال الثلاثة مراحل مصيرية حاسمة فاصلة، وأشق شيء على الناس.

- ٤ -

اختلاف النصارى في شأن عيسى

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾:

قرئ:

١ - (قولَ الحق) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم.

٢ -(قولُ الحق) وهي قراءة الباقين.

﴿فَيَكُونُ﴾:

وقرأ ابن عامر (فيكونَ).

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (وأن الله).

﴿صِرَٰطٌ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ منصوب على المصدر، أي أقول قول الحق، وقرئ بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: ذلك قول الحق، أو هذا قول. وقيل: إن الإشارة إلى عيسى؛ لأن الله تعالى سماه كلمة، إذ كان بالكلمة، على ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾ بالرفع بتقدير هو، وبالنصب بتقدير: أن.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى﴾ من قرأها بالكسرة جعلها مبتدأ، ومن قرأ بالفتح، جعلها معطوفة، وتقديره: وأوصاني بالصلاة والزكاة وأن الله ربي.

﴿مِن وَلَدٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة، أي: ما كان لله أن يتخذ ولداً. وزيدت هنا في المفعول، وزيادتها في الفاعل أكثر، مثل: ما جاءني من أحد، أي ما جاءني أحد.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي ما أسمعَهم وأبصرَهم، والجار والمجرور في موضع رفع فاعل ﴿أَسْمِعْ﴾. والأصل أن يقول: وأبصر بهم، لكنه حذف ﴿بِهِمْ﴾ اكتفاء بذكره مع ﴿أَسْمِعْ﴾. وهي صيغة تعجب، وليس بأمر، بدليل وروده بلفظ واحد في المذكر والمؤنث والتثنية والجمع.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ منصوب على الظرف، متعلق بفعل التعجب.

﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ ﴿إِذْ﴾ بدل من اليوم أو ظرف للحسرة .﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تأكيد.

البلاغة:

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ واقع موقع الضمير، فهو من قبيل إقامة الظاهر مقام المضمر، للدلالة على ظلم أنفسهم.

المفردات اللغوية:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾ أي الذي تقدم نعته هو عيسى ابن مريم، لا ما يصفه النصارى، وهو تكذيب لهم فيما يصفونه على الوجه الأبلغ ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ﴾ أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه، أو أقول قول الحق، والإضافة للبيان، والضمير للكلام السابق، أو لتمام القصة ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكون ويتنازعون ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ تكذيب للنصارى، وتنزيه لله تعالى عما بهتوه، والمعنى: ما ينبغي ولا يصح أن يجعل له ولداً .﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أراد أن يحدث أمراً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيت لهم بأن الله إذا أراد شيئاً أوجده بكلمة ﴿كُن﴾ : كان تعالى منزهاً عن شَبه الخَلْق والحاجة إلى اتخاذ الولد، بإحبال الإناث. وبعبارة أخرى: القادر على الخلق بالأمر الفوري، قادر على خلق عيسى من غير أب.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بتقدير: قل، بدليل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥/١١٧] وعلى الفتح بتقدير: اذكر ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ هذا المذكور طريق مستقيم مؤدٍّ إلى الجنة .﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي اختلف النصارى في عيسى، أهو ابن الله، أم إله معه، أم ثالث ثلاثة؟ فالأحزاب: فرق النصارى الثلاث أو اختلف اليهود والنصارى .﴿فَوَيْلٌ﴾ كلمة عذاب أي فشدة عذاب، أو واد في جهنم ﴿لِّلَّذِينَ

﴿كَفَرُوا۟﴾ أي ويل لهم بما ذكر وغيره ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ من شهود أو حضور يوم عظيم هوله وحسابه وجزاؤه، وهو يوم القيامة.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ أي بهم، صيغة تعجب، بمعنى: ما أسمعهم وما أبصرهم يوم يأتوننا في الآخرة، أو يوم القيامة، بعد ما كانوا صماً عمياً في الدنيا ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي لكن الكافرين في الدنيا في خطأ بيِّن، به صموا عن سماع الحق، وعموا عن إبصاره، أي اعجب منهم يا مخاطب في سمعهم وإبصارهم في الآخرة، بعد أن كانوا في الدنيا صماً عمياً. وذكر كلمة ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر، إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم، حيث أغفلوا الاستماع والنظر حين ينفعهم.

﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾ خوِّف يا محمد كفار مكة ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ هو يوم القيامة، يوم يتحسر فيه المسيء على ترك الإحسان في الدنيا، والمحسن على قلة إحسانه ﴿إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ فُرِغَ من الحساب، وسيق الفريقان إلى الجنة والنار. ﴿وَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عنه ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به. ﴿نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ العقلاء وغيرهم بإهلاكهم ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ فيه للجزاء.

إيضاح آية ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ بحديث صحيح:

روى الشيخان والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤتَى بالموت بهيئة كبش أملح[1]، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة، فيشرئبون[2] وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا! فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رأوه، ثم ينادي منادٍ: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رأوه، فيذبح بين الجنة والنار،

(١) الأملح: الذي يخالط بياضه سواد

(٢) يشرئبون: يمدون أعناقهم.

ثم يقول: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت، ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾».

أضواء على قصة عيسى عليه السلام:

عيسى: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل، ذكر اسمه في القرآن بلفظ ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ وهو لقب له، وبلفظ ﴿عِيسَى﴾ وهو اسمه، وهو بالعبرية «يشوع» أي المخلِّص، أي يخلص النصارى - في زعمهم - من الخطيئة، وذكر بلفظ ﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾.

ذكر عيسى في القرآن في ثلاث عشرة سورة في ثلاث وثلاثين آية منه: في البقرة [٨٧، ١٣٦، ٢٥٣]، وآل عمران [٤٥، ٥٢، ٥٥، ٥٩، ٨٤]، والنساء [١٥٧، ١٦٣، ١٧١، ١٧٢]، والمائدة [١٧، ٤٦، ٧٢، ٧٥، ٧٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١١٦]، والأنعام [٨٥]، والتوبة [٣٠، ٣١]، ومريم [٣٤]، والمؤمنون [٥٠]، والأحزاب [٧]، والشورى [١٣]، والزخرف [٥٧، ٦٣]، والحديد [٢٧]، والصف [٦، ١٤].

ونشأ عيسى المسيح وهو في رأي اليهود ابن يوسف النجار الذي هو شاب صالح من شبان اليهود، من قوم مريم، والمسيح في العبرية: النبي والملك.

وأمه مريم بنت عمران الذي كان رجلاً عظيماً من علماء بني إسرائيل، وقد حملت زوجه، فنذرت أن تجعل الحمل محرراً لخدمة الهيكل. وتوفي عمران، وابنته صغيرة تحتاج إلى كافل يقوم بشأنها، فألقى رعاة الهيكل قرعة، فكان كافلها زكريا أبو يحيى عليهما السلام. وكان زكريا زوجاً لخالة مريم، فنشأت مريم على الطهارة والعبادة والبعد عن الدنس.

ولما بلغت مبلغ النساء جاءها جبريل، فتعوذت منه، فأعلمها أنه مرسل من عند الله، ليهب لها غلاماً زكياً، وتم حملها بنفخة منه في جيب قميصها،

فدخلت في جوفها، ومرت بجميع أدوار الحمل إلى أن ولدته في بيت لحم، والراجح أن مدة حملها تسعة أشهر، بحسب الغالب. وهذا الحمل استثناء مما هو حادث عادة، ليكون دليلاً على قدرة الله تعالى، بخلق إنسان بلا أب، خلافاً للمعتاد؛ لأن الخالق هو الله عز وجل، سواء مع اتخاذ الأسباب أم لا.

وقد ختن المسيح بعد ثمانية أيام من ولادته، كما تقرِّر الشريعة اليهودية، وقد أمر الله إبراهيم بالختان.

ولما أمر هيرودس حاكم فلسطين بقتل كل طفل في بيت لحم، أمر يوسف النجار في منامه بأن يذهب بالطفل وأمه إلى مصر، فقام من فوره، وأخذ الطفل وأمه، وذهب بهما إلى مصر، وأقاموا بها، إلى أن مات هيرودس.

ثم عادوا إلى فلسطين، وكان الطفل قد بلغ سبع سنين من العمر، فتربى في الناصرة، ولما بلغ اثني عشر عاماً، جاء مع أمه ويوسف إلى أورشليم، للصلاة بحسب شريعة موسى، وفي اليوم الثالث بعد ضياعه، وجد عيسى يحاج علماء اليهود، ثم عاد مع أمه ويوسف إلى الناصرة.

ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً، وبينما كان يصلي في الظهيرة، تلقى الإنجيل من الملاك جبريل عليه السلام، وهذا كنبوة يحيى خلافاً للغالب في أن النبوة تكون بعد الأربعين.

الأناجيل:

ومعنى الإنجيل: البشارة، وهو كتاب تضمن هدى ونوراً، لكن هذا الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص تاريخية تسرد سيرة المسيح، ألَّفها التلاميذ، وفيها مواعظ وأمثال ونصائح مأخوذة عن المسيح، وهي كثيرة بلغت مئة ونيفاً، تعترف الكنيسة المسيحية بأربعة منها: هي إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا. ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في زمان المسيح.

وإنجيل متى هو أول الأناجيل وأقدمها، لكنه ليس من تصنيفه يقيناً، بل ضيعوه بعدما حرفوه، باعتراف قدماء المسيحية كافة، وقد كتب بالعبرانية، ثم ترجم إلى اليونانية، ولا يعرف إسناد هذه الترجمة.

وكان مَتَّى قد كتب إنجيله سنة ٣٩ بعد المسيح، على ما ذهب إليه القديس «إيرونيموس» .

ومرقس كان يهودياً لاوياً أي من خدم الهيكل، وهو تلميذ بطرس، وكان ينكر ألوهية المسيح، وكتب إنجيله سنة ٦١م ومات مقتولاً في سجن الإسكندرية سنة ٦٨م.

ولوقا: كان طبيباً من أهل أنطاكية ولم ير المسيح أصلاً، وقد لقن النصرانية عن بولس، وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية، ولم ير المسيح في حياته، وكان يسيء إلى النصارى باستمرار، ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي، احتال بالدخول فيها، وأظهر الاعتقاد بالمسيح، ثم استطاع أن يجعل النصارى يتحللون من واجبات الناموس (التوراة) الذي ما جاء المسيح لإبطال أحكامه.

وكتب لوقا إنجيله بعد كتابة مرقس، وبعد موت بطرس وبولس.

ويوحنا أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وهو من صيدا في الجليل، وكان عيسى يحبه جداً، وقد كتب إنجيله في سنة ٩٦ أو سنة ٩٨، وكان يرى أن المسيح ليس إلا إنساناً، وقد أنكر كثير من علماء النصرانية أن يكون هذا الإنجيل من تأليف يوحنا التلميذ، وإنما صنفه أحد تلاميذه في القرن الثاني، ونسبه إلى يوحنا ليغتر به الناس. وقد كتب لغرض خاص هو إثبات ألوهية المسيح، والقضاء على التعاليم التي كانت تؤكد أنه إنسان.

والخلاصة: إن هذه الأناجيل منقطعة السند إلى المسيح، وليست هي الإنجيل الصحيح الذي نزل على المسيح باعتراف النصارى أنفسهم.

إنجيل برنابا:

هو أحد الأناجيل التي ألفت في قصة المسيح، وبرنابا أحد أتباع المسيح المواظبين على نشر دعوته، ويختلف عن الأناجيل الأخرى في أمرين جوهريين: الأول - التصريح بأن عيسى إنسان وليس بإله. والثاني - التصريح والتبشير باقتراب ملكوت السماوات وباسم محمد في كثير من المواضع.

رسالة عيسى:

تتلخص رسالة عيسى عليه السلام فيما يأتي:

١ً - التخفيف من تنطع اليهود، والتزامهم بالشكليات المؤدية إلى تعطيل الخير في يوم السبت، وتوجيههم إلى جوهر الدين وحقيقته، وإبعادهم عن المادية الطاغية وتهالكهم على المال وحبه وجمعه، بتحريض الناس على النذر للهيكل، لأخذ ذلك المال.

٢ً - رد اليهود الذين يسمون بالصدوقيين إلى عقيدة الإيمان باليوم الآخر التي أنكروها، وتثبيت الإيمان في قلوبهم.

٣ً - تصحيح مسيرة اليهود الذين يسمون بالفريسيين وهم في الأصل قوم تجردوا لطاعة الله تعالى، وتفردوا للعبادة، وزهدوا في حطام الدنيا، وأقبلوا على الآخرة، ولكنهم أصبحوا في زمن المسيح يظهرون بمظهر الزهد فقط، ويتخذونه ستاراً لجمع المال.

وكان هناك جماعة الكتَبَة الذين يكتبون الشريعة لمن يطلبها، وهم كالفريسيين في اقتناص أموال الناس.

وكذلك الكهنة وخدمة الهيكل صاروا متهالكين على جمع المال، يحرفون كلام الله لأغراض دنيوية.

فكانت هذه العيوب كلها موجبة لصيحة المسيح بالزهد في الدنيا، وإصلاح النفوس من أمراضها، وتوجيه الناس إلى مرضاة الرب عز وجل.

٤ً - البشارة باقتراب ملكوت السماوات، أي الشريعة الإلهية التي يرسل الله تعالى بها النبي الأُمي المذكور في آية [١٥] وما بعدها من الإصحاح ١٨ - سفر التثنية، الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى أن يرسله من بين إخوتهم، كما بشر به أنبياء كثيرون، منهم داود في المزمور (٤٥) والمزمور (١٤٩) و(١١٠) وأشعيا في الإصحاحات (٨، ٩، ٢٦، ٣٥، ٤٢، ٤٣، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٠، ٦٥) ودانيال في ص (٢، ٧) وزكريا في ص (٣) وغيرهم. والمسيحيون يحملون البشارة على الدين المسيحي.

لكن لم يجئ المسيح بغير طائفة من العظات والنصائح والحِكَم والأمثال، لإخلاص العبادة لله تعالى، والتخفيف من ماديات الجماهير التي غرقوا بها إلى الآذان، وترك الرياء والنفاق، والاهتمام بروح الدين الذي ورثوه عن موسى.

وليس في الإنجيل سوى أحكام قليلة، مثل عدم تزوج من طلق امرأة بامرأة سواها، وعدم تزوج المطلقة بآخر، وعدم جواز الطلاق إلا بعلة الزنى، والأمر بالعفة. وفيه نهي عن الأخلاق المرذولة كالمكر والخداع وأكل الأموال بالباطل، والرياء والنفاق.

والحواريون:

هم أصحاب المسيح عيسى ابن مريم وخاصته الذين بادروا إلى الإيمان به وتتلمذوا وتعلموا منه، وكانوا اثني عشر رجلاً. وتعبر عنهم الأناجيل بلفظ (التلاميذ). وقد أرسلهم المسيح في القرى اليهودية ليَدْعُوا الكفار بدعوة المسيح الحقيقية.

معجزات عيسى:

صدرت عن عيسى كغيره من الأنبياء معجزات تؤيد دعواه النبوة، والمعجزة: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي يجريه الله تعالى على يد أحد

الأنبياء مع انتفاء المعارض، منها خلق هيئة الطير من الطين والنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله، والإخبار بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، وقد ذكرت في سورة آل عمران [الآيات: ٤٩، ٥١].

وفاة المسيح:

كان افتضاح أمر الكهنة والفريسيين على يد المسيح عليه السلام سبباً في كيدهم له، وشكايتهم إلى الوالي، مدَّعين عنده أن عيسى يقول: إنه ملك اليهود، وهم لا يقرون بملك سوى قيصر رومية، فأرسل الوالي جنداً للقبض على المسيح، فحينما جاؤوا يبحثون عنه ألقى الله شبهه على شخص آخر، هو (يهوذا الأسخريوطي) فألقوا القبض عليه وصلب وقتل، وهو الذي واطأ الكهنة على الدلالة عليه بأجر.

وأنجى الله عيسى من اليهود، فلم يقبضوا عليه، ولم يقتل ولم يصلب، لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ٤/١٥٧] . ثم توفاه الله، ورفعه إليه إلى السماء حياً بجسده وروحه، أو بروحه فقط على قولين، والأول رأي جمهور المسلمين، لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٥] .

الثالوث عند النصارى:

يعتقد النصارى بوجود ثلاثة أقانيم في اللاهوت هي (الأب والابن وروح القدس) وفقاً لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية، والشرقية، وعموم البروتستانت إلا القليل منهم، مع أن لفظة الثالوث لا توجد في الكتاب المقدس، وإنما تقرر ذلك في المجمع النيقاوي سنة (٣٢٥ م) ومجمع القسطنطينية سنة (٣٨١ م)، وحكما بأن (الابن والروح القدس) مساويان للأب في وحدة اللاهوت، وأن

(الابن) ولد منذ الأزل من الأب، وأن (الروح القدس) منبثق من الأب. ومجمع طليطلة سنة (٥٨٩ م) حكم بأن (الروح القدس) منبثق من الابن أيضاً.

التفسير والبيان:

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤)﴾ أي ذلك المتصف بالأوصاف السابقة الذي قصصناه عليك هو عيسى ابن مريم، وهذا الكلام المذكور هو قول الحق والصدق الذي لا مرية فيه ولا شك، وهو حقيقة عيسى، لا ما يقوله اليهود: إنه ساحر، ولا ما يقوله النصارى: إنه ابن الله أو هو الله كما يذكر في مقدمة الإنجيل الحالي: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ (٦٠)﴾ [آل عمران: ٣/٥٩-٦٠] أي الشاكّين. وهؤلاء الضالون والمغضوب عليهم يشكون ويتنازعون ويختلفون في عيسى عليه السلام: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا (١٥٦)﴾ [النساء: ٤/١٥٦].

ثم نفى الله تعالى عنه أنه ولد له، فقال:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥)﴾ أي ما صح ولا استقام ولا ينبغي ولا يليق بالله أن يتخذ ولداً؛ إذ لا حاجة له به، وهو حيٌّ أبداً لا يموت، تنزه وتقدس الله عن مقالتهم هذه، وعن كل نقص من اتخاذ الولد وغيره، إنه إذا أراد شيئاً أوجده فوراً، فإنه يأمر به فيصير كما يشاء، فمن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد؟ لأن ذلك من أمارات النقص والحاجة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ٤/١٧١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦)﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في مهده أن أخبرهم بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾.

ثم أمرهم بعبادة الله قائلاً:

﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي فاعبدوا الله وحده لا شريك له، وهذا الذي جئتكم به عن الله هو الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه، ولا يضلُّ سالكه، من اتبعه رشد وهُدي، ومن خالفه ضلَّ وغوى.

جاء في الآية (١٠) من الإصحاح الرابع في إنجيل متى: «قال له يسوع: اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد».

وبما أنه لا يصحُّ أن يقول الله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ فلا بدّ وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى؟ قال أبو مسلم الأصفهاني: الواو في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ عطف على قول عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ كأنه قال: إني عبد الله، وإنه ربي وربكم فاعبدوه.

وبالرغم من وضوح أمر عيسى وأنه عبد الله ورسوله، اختلفوا فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧﴾ أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله وأنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فاليهود قالوا: إنه ولد زنى، وإنه ساحر، وكلامه هذا سحر، وإنه ابن يوسف النجار، واختلفت فرق النصارى فيه، فقالت النسطورية منهم: هو ابن الله، وقالت الملَكية: هو ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية[١]: هو الله تعالى.

فعذاب شديد لهؤلاء الكافرين المختلفين في أمره، من شهود يوم القيامة، وما فيه من الحساب والعقاب، حيث يشهدون حينئذ ذلك اليوم العظيم الهول.

---

(١) النسطورية: نسبة إلى عالم يسمى نسطور، والملَكية أو الملكانية: نسبة إلى الملك قسطنطين الفيلسوف العالم، واليعقوبية: نسبة إلى عالم يسمى يعقوب.

وهذا تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى وزعم أن له ولداً، ولكن الله تعالى أنظرهم إلى يوم القيامة، وأجَّلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/١٠٢].

وفي الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم» وقد قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٨] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٢].

والخلاصة في صحة الاعتقاد بعيسى عليه السلام هو ما جاء في الحديث الصحيح عند الشيخين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

ثم أخبر الله تعالى عن قوة سمع الكفار وَحِدَّة بصرهم يوم القيامة على الضدّ في الدنيا، فقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي ما أقوى سمع الكفار وأشد بصرهم يوم يأتوننا للحساب والجزاء، إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ٣٢/١٢] أي يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئاً.

لكن هؤلاء الظالمين الكافرين يعرفون الحق في الآخرة، وفي الدنيا صم بكم عمي عن الحق، لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم

الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك، ويتمنون الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا تقصيرهم.

ثم أمر الله بإنذارهم، فقال لنبيه محمد ﷺ:

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي وأنذر أيها الرسول الخلائق من المشركين وغيرهم يوم يتحسرون جميعاً، فالمسيء يتحسر على إساءته، والمحسن على عدم استكثاره من الخير، حين فُرغ من الحساب، وطويت الصحف، وفصل بين أهل الجنة، وأهل النار، وصار الأولون في الجنة، والآخرون في النار، وهم الآن في الدنيا غافلون عما أنذروا به يوم الحسرة والندامة، غافلون عما يعمل بهم في ذلك اليوم وعما يلاقونه من أهوال، وهم لا يصدقون بالقيامة والحساب والجزاء.

روى الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح (أبيض وأسود) فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، فيؤمر به فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار، خلود ولا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأشار بيده وقال: أهل الدنيا في غفلة الدنيا» .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي وأعلمهم أيها الرسول بأن الله يرث الأرض ومن عليها، فلا يبقى بها أحد من أهلها يرث الأموات ما خلَّفوه من الديار والمتاع، ثم إلى الله يردون يوم القيامة، فيجازي كلاً بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الكريمات ما يأتي:

١ً - إن ما أخبر به القرآن عن كيفية خلق عيسى هو الحق القاطع الذي لا شك فيه، وكل ما عداه من تقولات ومزاعم اليهود والنصارى باطل ساقط لا يليق بالأنبياء والرسل، وكيف يتقبل النصارى الزعم بأن عيسى ربّ وإله، وهم يتهمونه بأنه ابن زانية بغي؟! وإن الاختلاف في شأن عيسى وانقسام أهل الكتاب فيه أحزاباً لا داعي له.

٢ً - ليس عيسى ابناً لله كما يزعم النصارى، فما ينبغي لله ولا يجوز أن يتخذ ولداً، لعدم حاجته إليه، فهو منزه عن الشريك والولد وكل نقص، وإن الله تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ فهو القادر على كل شيء، وقول الله وكلامه قديم غير محدث، فلو كان قوله: ﴿كُن﴾ محدثاً لافتقر حدوثه إلى قول آخر، ولزم التسلسل، وهو محال.

٣ً - لقد أمر عيسى عليه السلام قومه بوحدانية الله وعبادته، فالله ربه وربهم ورب كل شيء، وهو المستحق العبادة، لا أحد سواه، وهذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه.

وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى، على خلاف قول المنجمين: إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب.

ودلَّ أيضاً على أن الإله واحد؛ لأن لفظ ﴿ٱللَّهَ﴾ اسم علم له سبحانه، فلما قال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى، دلَّ ذلك على التوحيد.

٤ً - اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السلام، فاليهود اتهموه بالسحر وقدحوا في نسبه، والنصارى فرق ثلاث، قالت النسطورية منهم: هو ابن الله، والملكانية: ثالث ثلاثة، وقالت اليعقوبية: هو الله، فأفرطت النصارى وغلت، وفرطت اليهود وقصَّرت.

٥ً - العذاب الشديد والهلاك لأولئك الكفار المختلفين في شأن عيسى عليه السلام عند شهود (أي حضور) يوم القيامة.

٦ً - عرَّف الله حال القوم الذين يأتونه ليعتبروا وينزجروا، فما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، وما أصمهم وأعماهم في الدنيا، فهم في ضلال مبين في عالم الدنيا، وفي الآخرة يعرفون الحق، ففي الدنيا يكون الكافر أصم وأعمى، ولكنه سيبصر ويسمع في الآخرة إذا رأى العذاب، ولكنه لا ينفعه ذلك.

٧ً - لقد أعذر من أنذر، وقد أنذر النبي ﷺ قومه والمشركين جميعاً ما سيلقونه من الحسرة والندامة يوم القيامة، ويوم الفصل في القضاء بين أهل الجنة وأهل النار، فيدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

٨ً - إنه تعالى الخالق المالك المتصرف، وإن الخلق كلهم يهلكون، ويبقى هو تعالى، ولا أحد يدعي ملكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا مثقال ذرة، ويرجع الخلائق كلهم إلى ربهم، فيجازي كلاً بعمله.

قصة إبراهيم عليه السلام
أو مناقشته لأبيه في عبادة الأصنام

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿نَّبِيًّا﴾:

وقرأ نافع (نبيئاً).

﴿يَٰٓأَبَتِ﴾:

وقرأ ابن عامر (يا أبتَ).

﴿صِرَٰطٗا﴾:

وقرأ قنبل (سراطاً).

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

﴿رَبِّيٓ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ربيَ إنه).

الإعراب:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ ﴿إِذْ﴾ في موضع نصب على البدل من قوله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي واذكر في الكتاب قصة إبراهيم، ثم بيَّن ذلك: فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ أي واذكر إذ قال لأبيه.

﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ﴾ ﴿أَرَاغِبٌ﴾ مبتدأ، وابتدئ بالنكرة لاعتمادها على همزة الاستفهام. و﴿أَنتَ﴾ فاعل ﴿أَرَاغِبٌ﴾، لاعتماد اسم الفاعل على همزة الاستفهام، فيجري حينئذ مجرى الفعل، والفاعل هنا يسد مسد خبر المبتدأ.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ﴿سَلَٰمٌ﴾ مبتدأ، وجاز الابتداء بالنكرة إذا كان فيها فائدة عند المخاطب، والفائدة هنا: تضمنها معنى الدعاء والمتاركة والتبرؤ.

البلاغة:

﴿صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ الصِّدّيق: صيغة مبالغة، أي المبالغ في الصدق.

﴿أَرَاغِبٌ﴾ الهمزة للإنكار والتعجب.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ كناية عن الذكر الحسن والثناء الجميل باللسان؛ لأن الثناء يكون باللسان.

﴿نَّبِيًّا﴾، ﴿عَلِيًّا﴾، ﴿حَفِيًّا﴾ ﴿سَوِيًّا﴾، ﴿عَصِيًّا﴾، ﴿وَلِيًّا﴾، ﴿حَفِيًّا﴾، ﴿شَقِيًّا﴾ سجع رصين.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي اذكر لهم واتل عليهم في هذه السورة قصة

إبراهيم أو خبره .﴿صِدِّيقًا﴾ مبالغاً في الصدق، لم يكذب قط .﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر .﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ التاء: عوض عن ياء الإضافة (أبي) فلا يجمع بينهما، وكان آزر يعبد الأصنام، فناداه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ وهو تلطف واستدعاء .﴿وَلَا يُغْنِى﴾ لا يكفيك .﴿شَيْـًٔا﴾ من نفع أو ضرّ .﴿صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ طريقاً مستقيماً مؤدياً للسعادة .﴿لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ إن عبادة الأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان، لأنه الآمر بها، فبإطاعتك إياه في عبادة الأصنام، تكون عابداً له. ﴿عَصِيًّا﴾ كثير العصيان. والمطاوع للعاصي عاصٍ، والعاصي جدير بأن ينتقم منه.

﴿أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إن لم تتب .﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ ناصراً، وقريناً في اللعن، أو العذاب في النار .﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى﴾ أي أكاره لها، فتعيبها؟ ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن التعرض لها ومقالك فيها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي لأشتمنك بالكلام القبيح، أو لأرجمنك بالحجارة، فاحذرني .﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ واتركني دهراً طويلاً.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ مني، أي سلام توديع ومتاركة ومقابلة للسيئة بالحسنة، أي لا أصيبك بمكروه، ولا أقول لك بعدُ ما يؤذيك .﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ﴾ أي ولكن سأستغفر لك الله، لعله يوفقك للتوبة والإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر: استدعاء التوفيق لما يوجب مغفرته .﴿حَفِيًّا﴾ مبالغاً في برّي وإكرامي، فيجيب دعائي. وقد وفى بوعده المذكور، فقال في سورة الشعراء: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ وأترككم وما تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيره. ﴿وَأَدْعُوا۟ رَبِّى﴾ وأعبده وحده .﴿بِدُعَآءِ رَبِّى﴾ بعبادته .﴿شَقِيًّا﴾ خائب المسعى، مثلكم في دعاء آلهتكم. وفي تصدير الكلام بعسى: تواضع وتنبيه على أن الإجابة والإثابة تفضل من الله غير واجب عليه .﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ

مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام، والذهاب إلى الأرض المقدسة. ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ ابناً وابن ابن يأنس بهما، وهما إسحاق من سارة التي تزوج بها، ثم ولد لإسحاق يعقوب، ولعل تخصيصهما بالذكر؛ لأنهما شجرتا الأنبياء. ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ وكلاً منهما أو منهم وهبناه النبوة. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم﴾ للثلاثة ﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ الأموال والأولاد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي ثناءً حسناً رفيعاً في جميع أهل الأديان.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة في سورة مريم، فبعد أن أبان الله تعالى ضلال النصارى، ذكر ضلال عبدة الأوثان. والفريقان، وإن اشتركا في الضلال إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم؛ لأن مقصد السورة إثبات التوحيد والنبوة والبعث والحشر، والمنكرون للتوحيد فريقان: فريق أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلاً وهم النصارى، وفريق أثبت معبوداً غير الله جماداً ليس بحي ولا عاقل، وهم عبدة الأصنام، فذكر الفريق الأول، ثم الثاني، لإبطال المذهبين.

والسبب في ذكر قصة إبراهيم هو أنه أبو العرب، وكانوا معترفين بملته ودينه ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٢٢/٧٨] فنبههم تعالى إلى منهج إبراهيم من خلال حجاجه مع أبيه آزر.

وقد ذكرنا قصة إبراهيم في سورة البقرة، ويلاحظ أن إبراهيم عليه السلام - كما ذكر السيوطي - عاش من العمر مئة وخمساً وسبعين سنة (١٧٥) وبينه وبين آدم ألفا سنة (٢٠٠٠) وبينه وبين نوح ألف سنة (١٠٠٠) ومنه تفرعت شجرة الأنبياء.

إسحاق عليه السلام:

هو ابن سارّة، ولم يذكر في القرآن من قصصه إلا بشارة الملائكة به، وأنه غلام عليم، وأنه نبي من الصالحين، وأن الله بارك عليه.

واليهود والنصارى يدَّعون أنه الذبيح، مع تكذيب التوراة لهذه الدعوى، كما سأذكر في قصة إسماعيل قريباً.

وقد عاش إسحاق مئة وثمانين سنة، ودفن في حبرون، وهي مدينة الخليل اليوم، بمغارة المكفيلة.

يعقوب عليه السلام:

هو إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، تزوج بابنتي خاله (لابان) وهما (ليئة وراحيل) في فدان آرام، ثم تزوج بجاريتيهما: زلفا وبلها، ومنهن كان أولاده الذين ولدوا جميعاً في (آرام) إلا بنيامين الذي ولد في فلسطين.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة بعد قصتي زكريا ويحيى، وعيسى ومريم، وهي قصة إبراهيم عليه السلام. ومن المعلوم أن الغرض من هذه السورة بيان التوحيد والنبوة والحشر، والمنكرون للتوحيد أثبتوا معبوداً سوى الله تعالى، وهؤلاء فريقان: منهم من أثبت معبوداً غير الله حياً عاقلاً فاهماً وهم النصارى، ومنهم من أثبت معبوداً غير الله جماداً، ليس بحي ولا عاقل ولا فاهم، وهم عبدة الأوثان.

والفريقان وإن اشتركا في الضلال، إلا أن ضلال الفريق الثاني أعظم، فلما بيَّن تعالى ضلال الفريق الأول، تكلم في ضلال الفريق الثاني، وهم عبدة الأوثان.

التفسير والبيان:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ هذا عطف على قوله

تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ الذي هو عطف على قوله: ﴿ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ٢﴾ أي واذكر أيها الرسول إبراهيم الصدِّيق النبي، خليل الرحمن، أبا الأنبياء، واتل خبره على الناس في الكتاب المنزل عليك، فهو الكثير الصدق، القوي التصديق لآيات الله، الذي دعا قومه إلى توحيد الله، وترك عبادة الأصنام، كما قال تعالى:

﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ٤٢﴾ اذكر إبراهيم حين قال بلطف وعقل واع وبرهان قاطع لأبيه آزر: يا أبت، لم تعبد ما لا يسمع دعاءك إياه، ولا يبصر ما تفعله من عبادته، ولا يجلب لك نفعاً، ولا يدفع عنك ضرراً، وهي الأصنام الجمادات.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ أي يا أبي، وإن كنت من صلبك، وتراني أصغر منك؛ لأني ولدك، فاعلم أني قد اطلعت من العلم من الله، على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك، فاتبعني في دعوتي أرشدك طريقاً سوياً موصلاً إلى نيل المطلوب، منجياً من كل مرهوب ومكروه.

والمراد بالهداية: بيان الدليل وشرحه وإيضاحه، وقوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ ليس أمر إيجاب، بل أمر إرشاد، وكانت هذه المحاورة بعد أن صار إبراهيم نبياً. ويلاحظ أنه لم يصف أباه بالجهل، ولا نفسه بالعلم الكامل، لئلا ينفر منه، وإنما قال: أعطيت شيئاً من العلم لم تعطه.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ٤٤﴾ أي يا أبي، لا تطع الشيطان في عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى عبادتها، المستن لها، الراضي بها، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: ٣٦/٦٠] وقال سبحانه: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾ [النساء: ٤/١١٧].

لا تطع الشيطان، فإن عبادة الأصنام، هي من طاعة الشيطان، والشيطان عاص (كثير العصيان) مخالف مستكبر عن طاعة ربه، حين ترك ما أمره به من السجود لآدم، والعاصي حقيق بأن تسلب عنه النعم، وتحلّ به النقم، لذا طرده ربه وأبعده من رحمته، فلا تتبعه تَصِرْ مثله، فإن عبادة الأصنام لا يتقبلها عقل، ولكنها تنشأ من وسوسة الشيطان وإغوائه، فكانت عبادتها عبادة له، وطاعة لإغوائه، والشيطان عدو آدم وذريته، لا يريد لكم إلا الشر.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾﴾ يا أبي، إني أخشى أن يصيبك عذاب الله على شركك وعصيانك لما أطلبه منك، فتكون بذلك موالياً للشيطان، وقريناً معه في النار، بسبب موالاته. وهذا تحذير لأبيه من سوء العاقبة، وإنذار بالشر، حيث لا يكون له مولى ولا ناصر ولا مغيث إلا إبليس، وليس له ولا لغيره من الأمر شيء، بل اتباعه موجب لإحاطة العذاب به، كما قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ [النحل: ١٦/٦٣].

وبالرغم من هذا الأدب في الدعوة إلى التوحيد مع البراهين والأدلة الدالة على بطلان عبادة الأوثان، أجابه أبوه بما هو غير مأمول منه، فقال تعالى:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾﴾ أجاب أبو إبراهيم ولده إبراهيم فيما دعاه إليه قائلاً: أمعرض أنت عن تلك الأصنام ومنصرف إلى غيرها؟ وإن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها، فامتنع عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك لأرجمنك بالحجارة أو لأشتمنك، وفارقني زمناً طويلاً.

ويلاحظ أن الأب قابل ابنه بالعنف، فلم يقل له: يا بني، كما قال الابن له: يا أبت، وقابل وعظه الرقيق بالتهديد والوعيد بالشتم أو بالضرب

بالحجارة، وفي ذلك إيناس للنبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه، وغلظة عمه أبي لهب، وفظاظة أبي جهل.

ومع كل هذا أجابه إبراهيم باللطف قائلاً:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾﴾ أي قال إبراهيم لأبيه: سلام عليك سلام توديع وترك لا سلام تحية، فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، لحرمة الأبوة، وكما قال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦٣] وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٥].

ولكن سأطلب لك من الله أن يهديك ويغفر لك، بأن يوفقك للإيمان، ويرشدك للخير، إن ربي كان بي لطيفاً كثير البرّ، يجيبني إذا دعوته. ونظير الآية: ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٦] ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤١]. والمراد بكل ذلك طلب الهداية وترك الضلال.

وإنما استغفر له؛ لوعد سابق منه أن يؤمن، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٤].

ويرى ابن كثير أن الاستغفار للمشركين كان جائزاً ثم نسخ في شرعنا، فقال: وقد استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام، وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين في ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قَدۡ

كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤] الآية، يعني إلا في هذا القول، فلا تتأسوا به. ثم بيَّن تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه، واستقر التشريع بما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١١٣][1]..

والخلاصة: إن الاستغفار بمعنى طلب الهداية والتوفيق حال الحياة لا بأس به، أما بعد الموت على الشرك أو الكفر، فهو ممنوع، فقول بعض الناس: المرحوم فلان، وهو يعلم أنه مات كافراً، غير جائز.

ثم قرر إبراهيم عليه السلام الهجرة إلى بلاد الشام، فقال تعالى:

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ أي وأبتعد عنكم، وأهاجر بديني عنكم وعن معبوداتكم، حين لم تقبلوا نصحي، وأعبد ربي وحده لا شريك له، وأجتنب عبادة غيره، لعلي لا أكون بدعاء ربي خائباً، كما خبتم أنتم بعبادة تلك الأصنام التي لا تجيب دعاءكم ولا تنفعكم ولا تضركم. و﴿عَسَىٰٓ﴾ ذكر ذلك على سبيل التواضع، كقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٢] ويراد بها التحقق لا محالة، فهو عليه السلام أبو الأنبياء. كذلك قوله: ﴿شَقِيًّا﴾ ذكره على سبيل التواضع، وفيه تعريض بشقاوتهم في دعاء آلهتهم في قوله المتقدم لأبيه: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ١٢٣ - ١٢٤

ولما أنفذ ما نواه وعزم عليه، حقق الله رجاءه ودعاءه، فقال:

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩)﴾ أي فلما اعتزل إبراهيم الخليل أباه وقومه، وترك أرضه ووطنه، وهجر موضع عبادتهم غير الله، وهاجر في سبيل الله إلى أرض بيت المقدس حيث يقدر على إظهار دينه، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق بعد أن تزوج من سارّة، وابنه يعقوب حفيده، بدل الأهل الذين فارقهم، وجعل الله كل واحد من إسحاق ويعقوب نبياً أقرَّ الله بهم عينيه، فكل الأنبياء من سلالتهما، وكل الأديان تحب إبراهيم وتحترمه مع إسحاق ويعقوب.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)﴾ أي وأعطيناهم من فضلنا ورحمتنا النبوة والمال والأولاد والكتاب، وجعلنا لهم الثناء الحسن على ألسن العباد، كما قال تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٤] . قال ابن جرير: وإنما قال: ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وبما أن العرب من سلالة إبراهيم، وتدعي أنها على دين إبراهيم، فالله ذكر لهم قصته، ليعتبروا ويتعظوا.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

أ - إن أسباب إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ثلاثة:

الأول - كان إبراهيم عليه السلام أبا العرب، وكانوا مقرين بعلو شأنه وطهارة دينه، فقال الله لنبيه: اقرأ عليهم في القرآن أمر إبراهيم، فهم من ولده، وإنه كان حنيفاً مسلماً، لم يتخذ الأنداد، فإن كنتم مقلدين لآبائكم، فقلدوا إبراهيم في ترك عبادة الأوثان، وإن كنتم مستدلين فانظروا في هذه

الدلائل التي ذكرها إبراهيم عليه السلام لتعرفوا فساد عبادة الأوثان، وبالجملة: فاتبعوا إبراهيم إما تقليداً وإما استدلالاً، ولِمَ تتخذون الأنداد؟! والله يقول: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٠].

الثاني - كان كثير من الكفار في زمن الرسول ﷺ يقول: كيف نترك دين آبائنا وأجدادنا، فذكر الله قصة إبراهيم عليه السلام، وبيَّن أنه ترك دين أبيه وأبطل قوله بالدليل، فكونوا مثله.

الثالث - كان كثير من الكفار يتمسكون بالتقليد وينكرون الاستدلال، كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٢٢] و﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٣] فحكى الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام التمسك بطريق الاستدلال، تنبيهاً على فساد هذه الطريقة.

٢ً - وصف تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه كان صديقاً نبياً، أي مبالغاً في كونه صادقاً: وهو الذي يكون عادته الصدق، أو كثير التصديق بالحق حتى يصير مشهوراً به.

٣ً - كان إبراهيم عليه السلام في محاورته أباه في غاية الأدب واللطف والرفق، فكان يكرر قوله استعطافاً وشفقة: ياأبت، ولما يئس من استجابته لدعوته، قال: سلام عليك، سلام متاركة وتوديع، لا سلام تحية، سأستغفر لك ربي، طالباً منه هدايتك، وكان في خطابه كله له شديد الخوف عليه من الكفر والعذاب في النار.

وكان الأب آزر مستعلياً مترفعاً يعتمد على التهديد والقطيعة والسب والشتم والرجم بالحجارة.

٤ - عاب إبراهيم عليه السلام الوثن من ثلاثة أوجه:

أحدها - لا يسمع.

الثاني - لا يبصر.

الثالث - لا يغني عنك شيئاً، كأنه قال له: بل الألوهية ليست إلا لربي، فإنه يسمع ويجيب دعوة الداعي ويبصر، كما قال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٤٦] ويقضي الحوائج: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢].

٥ - ليحذر الإنسان طاعة الشيطان فيما يأمره به من الكفر، ومن أطاع شيئاً في معصية فقد عبده، والشيطان دائماً عاص لربه مخالف أوامره.

٦ - حذر إبراهيم عليه السلام أباه آزر من الكفر وعاقبته، فقال: إني أخاف أن تموت على الكفر، فيمسَّك العذاب، فتكون للشيطان قريناً في النار.

٧ - يرى جمهور العلماء أنه لا يُبدأ الكافر بالسلام؛ لأن ذلك إكرام، والكافر ليس أهله، أخرج أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه» وربما كان هذا الحديث لواقعة معينة إثر تآمر اليهود على قتل النبي ﷺ كما أشار بعضهم.

وجوز سفيان بن عيينة تحية الكافر وأن يبدأ بها، قيل لابن عيينة: هل يجوز السلام على الكافر؟ قال: نعم، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ⑧﴾ [الممتحنة: ٦٠/٨]؛ وقال: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/٤] الآية؛ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ﴾ ويؤيده حديث آخر في الصحيحين عن أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ سلم على مجلس فيه

أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبد الله بن أُبي ابن سَلُول. وقال الطبري: وقد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب، وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه، وقال: ولكن حق الصحبة. وكان أبو أمامة إذا انصرف إلى بيته، لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ فقيل له في ذلك، فقال: أُمرنا أن نفشي السلام. وسئل الأوزاعي عن مسلم مرّ بكافر فسلّم عليه، فقال: إن سلَّمت فقد سلّم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك.

وأما الاستغفار للكافر فقد أوضحناه في تفسير الآيات هنا، وخلاصته: إنه ممنوع بعد الموت، جائز في الحياة بمعنى طلب الهداية والرشاد. والدليل على أن الاستغفار للكافر لا يجوز آيتان تقدمتا هما: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: ٩/ ١١٣] و﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤] أي لا تتبعوه في ذلك.

٨ً - قال الرازي: اعلم أنه ما خسر على الله أحد، فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه في دينهم وفي بلدهم، واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره، لم يضره ذلك ديناً ودنيا، بل نفعه فعوضه أولاداً أنبياء، وذلك من أعظم النعم في الدنيا والآخرة. ثم إنه تعالى وهب لهم مع النبوة ما وهب من المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ أي ثناء حسناً؛ لأن جميع الملل تُحسن الثناء عليهم[1]. واللسان يذكّر ويؤنث.

---

(١) تفسير الرازي: ٢١/ ٢٣٠

قصة موسى عليه السلام

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾

القراءات:

﴿مُخْلَصًا﴾ :

قرئ:

١- (مُخْلَصاً) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مُخْلِصاً) وهي قراءة الباقين.

﴿نَبِيًّا﴾ :

وقرأ نافع (نبيئاً).

الإعراب:

﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ صفة الطور أو الجانب، والظاهر أنها صفة الجانب لقوله في آية أخرى ﴿وواعدناكم جانب الطور الأيمن﴾ [طه: ٢٠/٨٠] .

﴿نَجِيًّا﴾ حال من أحد الضميرين في ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ و﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾.

﴿أَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ ﴿هَٰرُونَ﴾ : بدل أو عطف بيان، و﴿أَخَاهُ﴾ مفعول لوهبنا.

﴿نَبِيًّا﴾ حال، هي المقصودة بالهبة، إجابة لسؤاله أن يرسل أخاه معه، وكان أسنّ منه.

المفردات اللغوية:

﴿مُخْلَصًا﴾ مختاراً مصطفى مخلَّصاً من الدنس، وقرئ بكسر اللام، أي مخلصاً في عبادته عن الشرك والرياء، موحداً أسلم وجهه لله .﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ يقول: يا موسى، إني أنا الله .﴿مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ من ناحية الجبل اليمنى، وهي التي تلي يمين موسى حين أقبل من مدين، بأن تمثل له الكلام من تلك الجهة، والطور: الجبل بين مصر ومدين .﴿وَقَرَّبْنَٰهُ﴾ تقريب تشريف وتكريم .﴿نَجِيًّا﴾ مناجياً، مكلماً الله بلا واسطة، بأن أسمعه الله تعالى كلامه. ﴿مِن رَّحْمَتِنَآ﴾ نعمتنا، أي من أجل رحمتنا أو بعض رحمتنا .﴿أَخَاهُ﴾ معاضدة أخيه ومؤازرته، إجابة لدعوته: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ [طه: ٢٠/٢٩] فإنه كان أسنّ من موسى.

المناسبة:

هذه هي القصة الرابعة لإخبار العرب وغيرهم أن موسى عليه السلام مثل إبراهيم عليه السلام أخلص العبادة لله عن الشرك والرياء، وأسلم وجهه لله تعالى. ومثله أيضاً أخوه هارون. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان هارون عليه السلام أكبر من موسى عليه السلام، وإنما وهب الله له نبوته، لا لشخصه وأخوته، وذلك إجابة لدعائه في قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾﴾ [طه: ٢٠/٢٩-٣١] ، فأجابه الله تعالى إليه بقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٠/٣٦] ، وقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٢٨/٣٥] .

التفسير والبيان:

﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ﴾ لما ذكر الله تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عطف بذكر موسى الكليم، فقال: واذكر يا محمد في الكتاب، واتل على قومك أوصاف موسى التي سأخبرك عنها وهي خمس صفات:

١ - ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي جعلناه مختاراً مصطفى، وأخلصناه مطهراً من الآثام والذنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٤] . وقرئ بالكسر (مخلِصاً) ومعناه: أخلص لله في التوحيد والعبادة، والإخلاص: هو القصد في العبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده. قال الثوري عن أبي لبابة قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله، قال: الذي يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس.

٢ - ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه) أرسله الله إلى عباده داعياً ومبشراً ونذيراً، فأنبأهم عن الله بشرائعه.

والرسول: هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وكان معه كتاب فيه شريعته كموسى عليه السلام، سواء أنزل عليه كتاب مستقل أم كتاب من سبقه. والنبي: هو من أوحي إليه بشرع يخبر به عن الله ويخبر به قومه، وليس معه كتاب، كيوشع عليه السلام.

٣ - ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ أي كلمناه من جانب الطور عن يمين موسى أو عن يمين الجبل نفسه، حين جاء من مدين متجهاً إلى مصر، فهو كليم الله بعدئذٍ، وأصبح رسولاً، وواعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون، وأنزلنا عليه كتاب التوراة. والمناداة عن يمين موسى أصح، فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال.

٤ - ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ أي أدنيناه إدناء تشريف وتقريب منزلة، حتى كلمناه، أو حين مناجاته لنا. فقوله: ﴿نَجِيًّا﴾ من المناجاة في المخاطبة، أي إنه أصبح في العالم الروحي قريب المنزلة من الله تعالى.

٥ - ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ أي منحناه من فضلنا

ونعمتنا، فجعلنا أخاه نبياً، حين سأل ربه قائلاً: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٢٩-٣٢] فحقق له مطلبه وأجاب دعاءه وسؤاله وشفاعته بقوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٣٦]، وقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٥].

قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾. قال ابن عباس: كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين.

فقه الحياة أو الأحكام:

لم يَبْلُغْ رسول مرتبة أولي العزم إلا بمقومات عالية، وخصائص فريدة رفيعة، وهذه بعض خصائص موسى وصفاته، أخلصه ربه واختاره، فكان مخلَصاً لله في عبادته، بعيداً عن الشرك والرياء، وجعله رسولاً بشرع وكتاب ونبياً من الصالحين، وكلمه ربه من غير وحي، وناجاه من جانب الطور، في البقعة المباركة، عند الشجرة، عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر.

وقربه إليه ربه تقريب تشريف وإجلال، حالة كونه مناجياً حضرة الله تعالى، مثل تقريب الملك لمناجاته، وأنعم عليه مجيباً سؤاله ودعاءه بجعل أخيه هارون الأكبر منه سنّاً نبياً ورسولاً، وتلك نعمة كبرى على الأخوين، إذ آزرهما ببعضهما، وجعلهما متعاضدين متعاونين في تبليغ الرسالة الإلهية إلى فرعون وآله وإلى بني إسرائيل.

قصة إسماعيل عليه السلام

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ﴿٥٥﴾﴾

الإعراب:

﴿مَرۡضِيّٗا﴾ خبر كان، وأصله «مرضُوياً» فأبدلوا من الضمة كسرة، ومن الواو ياء، على لغة من ثنى «الرضا» «رِضَوَان». ومن قال: «رِضَيَان» كان من ذوات الياء، وأصله «مَرْضُوي» فاجتمعت الواو والياء، والسابق منهما ساكن، فقلبوا الواو ياء، وأدغموا الياء في الياء، وكسروا ما قبل الياء مناسبة لها.

المفردات اللغوية:

﴿صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ ذكره بالمشهور به، فلم يعد شيئاً إلا وفى به، وانتظر من وعد ثلاثة أيام، أو حولاً، حتى رجع إليه في مكانه .﴿وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ إلى قبيلة جُرْهم. وهو يدل على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة، فإن أولاد إبراهيم عليه السلام كانوا على شريعته.

﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ﴾ قومه، اشتغالاً بما هو الأهم، وهو أن يعنى الإنسان بتكميل نفسه ومن هو أقرب الناس إليه أولاً، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤] ، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢] ، ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦٦/٦] .﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله، والمرضي عند الله: الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات.

المناسبة:

هذه هي القصة الخامسة في سورة مريم، وهي قصة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان على شريعة أبيه في توحيد الله ومحاربة الوثنية وعبادة الأصنام، وإبراهيم كما عرفنا أبو العرب يمنيها ومضريها. قال الزمخشري: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة، ليجعلهم قدوة لمن وراءهم، ولأنهم أولى من سائر الناس.

وقدم الله تعالى قصة موسى عليه السلام على قصة إسماعيل عليه السلام، لينسجم الكلام عن يعقوب وبنيه دون فاصل بينهما.

أضواء على قصة إسماعيل الذبيح:

رأى إبراهيم عليه السلام في منامه - ورؤيا الأنبياء حق - أنه يذبح ولده قرباناً لله تعالى، وكان ذلك الولد على الأصح الراجح إسماعيل، فعرض الأمر على ولده، فتقبل القضاء بالرضا وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/١٠٢] .

فلما بدأ بتحقيق الأمر، وأهوى بالمدية إلى ذبح ولده، ناداه الله بالكفّ، وأن هذا العمل منه يكفي تصديقاً للرؤيا، ورأى إبراهيم كبشاً قريباً منه، فذبحه فدية عن ولده، ولم تعين الآيات اسم ذلك الولد، ولكن سياق الآيات، وتبشير إبراهيم بإسحاق بعدها، يدل على أن الذبيح إسماعيل، وذلك في الآيات من سورة الصافات [٩٩-١١٣]، وفيها: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [١٠١]، ثم قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [١٠٨]، والضمير يعود إلى الذبيح. ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [١١٢]، فالإتيان بالبشرى بإسحاق بعد ذكر قصة الذبيح صريح في أن إسحاق غير الغلام المأمور بذبحه، وعود الضمير إلى الغلام الذبيح، وذكر اسم إسحاق معه صريحاً يقتضي التغاير بين الذبيح وإسحاق.

ويرى اليهود أن إسحاق هو الذبيح ليفتخروا بأن أباهم هو الذي جاد بنفسه في طاعة ربه، وهو في حالة صغره.

والدليل على أن الذبيح إسماعيل من التوراة نفسها: أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد، والإقدام على ذبح الولد الوحيد هو الإسلام بعينه، أي الطاعة والامتثال، ولم يكن إسحاق وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام؛ لأن إسحاق ولد، ولإسماعيل أربع عشرة سنة، كما هو صريح التوراة، وبقي إسماعيل إلى أن مات إبراهيم، وحضر إسماعيل وفاته ودفنه. وذبح إسحاق يناقض وعد الله لإبراهيم أن سيكون له ابن هو يعقوب. ثم إن مسأله الذبح وقعت في مكة؛ وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إليها رضيعاً، كما في حديث البخاري الآتي[1]، وعند الزمخشري في الكشاف حديث: «أنا ابن الذبيحين» رواه الحاكم في المناقب.

إسماعيل وأمه هاجر في مكة:

لم يُبن بمكة شيء بعد البيت إلا في القرن الثاني قبل الإسلام، في عهد قصي ابن كلاب، فإنه بنى دار الندوة، وتبعته قريش في البناء حول المسجد.

جاء في البخاري عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: «أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، ووضعهما هناك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفَى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها؛ فقالت له: آالله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت.

---

(١) قصص القرآن للأستاذ عبد الوهاب النجار ١٠١ - ١٠٣

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾، حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء، عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها؛ فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي. ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت، هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات».

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما». فلما أشرفت على المروة، سمعت صوتاً، فقالت: صَهْ - تريد نفسها، ثم تسمَّعت، فسمعت أيضاً، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غوث؛ فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تخوضه، وتقول بيدها هكذا. وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عيناً معيناً».

وأرضعت ولدها، فقال لها المَلَك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. إلخ الحديث.

بناء البيت:

كان إبراهيم عليه السلام يزور ولده إسماعيل حيناً بعد آخر، ففي إحدى هذه الزيارات أمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت، فصدعا بالأمر وبنيا الكعبة. ولما تم بناؤها أمره الله تعالى أن يعلم الناس بأنه بنى بيتاً لعبادة الله

تعالى وأن عليهم أن يحجوه، وطلب إبراهيم وإسماعيل من الله تعالى أن يريهما المناسك التي ينسكانها. والآيات التي توضح ذلك: [البقرة ٢/ ١٢٥-١٢٩]، [إبراهيم ١٤/ ٣٥-٣٧]، [الحج ٢٢/ ٢٦-٣٧].

والكعبة: أول بيت وضع للناس لعبادة الله تعالى [آل عمران ٣/ ٩٦-٩٧].

حياة إسماعيل وأولاده:

لإسماعيل اثنا عشر ولداً رؤساء قبائل، وعاش مئة وسبعاً وثلاثين سنة، مات بمكة، ودفن بالْحِجْر بجوار البيت هو وأمه.

التفسير والبيان:

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ﴾ واذكر أيها الرسول في القرآن خبر وصفات إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم، وهي صفات أربع:

أ - ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ مشهوراً بالوفاء، مبالغاً بإنجاز ما وعد، فما وعد وعداً مع الله أو مع الناس إلا وفّى به، فكان لا يخالف شيئاً مما يؤمر به من طاعة ربه، وإذا وعد الناس بشيء أنجز وعده، وناهيك من صدق وعده أنه وعد أباه أن يصبر على الذبح، فوفّى بذلك، قائلاً: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٠٢] .

وصدق الوعد من الصفات الحميدة في كل زمان ومكان، وخُلْفه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٦١/ ٢-٣] ، وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة: «آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، وإذا كانت هذه صفات المنافقين فضدها صفات المؤمنين، ومما

يؤسف له أن خلف الوعد شائع بين المسلمين، وبخاصة التجار والعمال وأصحاب الحرف.

٢ - ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ جمع الله له بين الوصفين كأبيه وكموسى عليهم السلام، فكان رسولاً إلى جُرْهم في مكة، لتبليغهم شريعة إبراهيم، وإخبارهم بما أنزل الله تعالى، وهذا دليل على أنه لا يشترط إنزال كتاب مستقل على الرسول. وفي هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما وصف بالنبوة فقط، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة، وأخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل».

٣ - ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ أي وكان يأمر أمته وعشيرته وأهله بهاتين العبادتين الشرعيتين المهمتين جداً، فكان صابراً على طاعة ربه، كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦٦/ ٦]. وأخرج أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل، فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء». وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه - واللفظ له - عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ الرجل من الليل، وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كُتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

٤ - ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ أي رضياً زاكياً صالحاً، مرضي العمل غير مقصر في طاعة ربه، فعلى المؤمن الاقتداء به.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه مجموعة خصال أخرى لرسول نبي هو إسماعيل الذبيح أبو العرب ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام، والأظهر أن الذبيح هو وليس إسحاق كما تقدم في سورة الصافات.

خصه الله تعالى بصدق الوعد، وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً له وإكراماً، ولأنه كان مشهوراً بذلك مبالغاً في الوفاء بالوعد. وهو كما تقدم صفة حميدة، قال ﷺ فيما رواه الطبراني في الأوسط عن علي وابن مسعود، وهو ضعيف: «العِدَة دين».

وإيجاب الوفاء من محاسن المروءة وموجبات الديانة، لكن لا يلزم قضاءً، فليس بواجب فرضاً؛ لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر بن عبد البر: أن من وُعد بمال ما كان ليَضْرب به مع الغرماء، أي لا يقتسم مع الدائنين العاديين الآخرين ما يوجد من أموال المدين؛ لأن ما وعد به لا يصبح ديناً.

لكن لا خلاف أن الوفاء بالدين يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخُلْف الذم، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفّى بنذره.

ويرى الإمام مالك: أن الوعد ملزم إذا دخل الموعود في التزام ما، أو وُعد بقضاء دين عنه، وشهد عليه اثنان، يلزمه ذلك قضاء[1]. ويرى سائر الفقهاء الآخرين: أن العِدَة لا يلزم منها شيء؛ لأنها منافع لم تقبض في العارية، وفي غير العارية: هي أشياء وأعيان موهوبة لم تقبض، فلصاحبها الرجوع فيها.

وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى جُرْهم في مكة ونبياً صالحاً، وكان يأمر أهله جرهم وولده بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضياً مقبولاً؛ وهذا في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز بأعلى الدرجات.

(١) تفسير القرطبي: ١١٦/١١

وإذا قرنت الزكاة بالصلاة أريد بها الصدقات الواجبة، فهي طاعة لله لازمة، تتطلب الإخلاص في أدائها، كما أن الصلاة واجبة.

والأقرب - كما قال الرازي - في الأهل: أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع، فيدخل فيه كل أمته؛ لأنه يلزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة.

قصة إدريس عليه السلام

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿إِدۡرِيسَۚ﴾ هو سبط شيث، وجد نوح لأبيه، واسمه (أخنوخ) لقب إدريس بذلك لكثرة درسه؛ إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثين صحيفة، وأنه أول من خط بالقلم، وخاط الثياب ولبس المخيط، وكانوا قبله يلبسون الجلود، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وأول من اتخذ الموازين والمكاييل والأسلحة، فقاتل بني قابيل، وأول مرسل بعد آدم. ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ يعني شرف النبوة والزلفى عند الله تعالى، وقيل: الجنة، وقيل: في السماء الرابعة أو السادسة أو السابعة، والأول أصح.

المناسبة:

هذه قصة إدريس هي القصة السادسة من سورة مريم، ذكرت للعبرة؛ لأنه دعا إلى دين الله والتوحيد وعبادة الخالق، وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا، وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل، وأمر بالصلاة وبصيام أيام من كل شهر، وحث على جهاد الأعداء، وأمر بالزكاة معونة للضعفاء، وغلظ في الطهارة من الجنابة والكلب والحمار، وحرم المسكر من كل شيء.

وهو أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام. فهو من ذرية آدم لقربه منه؛ لأنه جد أبي نوح، وإبراهيم من ذرية من حمل مع نوح؛ لأنه من ولد سام بن نوح. وجاء في صحيح مسلم في حديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مرَّ به في السماء الرابعة. وهذا هو الصحيح، وأما ما ذكر في البخاري من أنه في السماء الثانية فهو معارض لرواية مسلم المشهورة.

ولد بمنف في مصر، وسموه (هرمس الهرامسة) وقيل: ولد ببابل، وأخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم، وهو جد جد أبيه. وأقام بمصر يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله عزّ وجلّ. وكان يُعلِّمهم كيفية تخطيط المدن.

أقام في الأرض اثنتين وثمانين سنة، وكان على فص خاتمه: «الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر»، وعلى المنطقة التي يلبسها: «الأعياد في حفظ الفروض، والشريعة من تمام الدين، وتمام الدين من كمال المروءة»، وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت: «السعيد من نظر لنفسه، وشفاعته عند ربه أعماله الصالحة»، وكانت له مواعظ وآداب.

التفسير والبيان:

وصف الله تعالى إدريس جد نوح الذي هو أول من خط بالقلم، وخاط الثياب، ولبس المخيط بصفات ثلاث هي:

١ - إنه كان صدِّيقاً، أي كثير الصدق، قوي التصديق بآيات الله تعالى.

٢ - وكان رسولاً نبياً، أي موحى إليه بشرع، مأموراً بتبليغه إلى قومه، وقد أنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذرّ.

٣ - ورفعه الله مكاناً علياً، أي أعلى قدره، وشرفه بالنبوة، وجعله ذا منزلة عالية، كما قال الله لنبيه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ٩٤/٤]،

وروى مسلم في صحيحه: «أن رسول الله ﷺ مرَّ به في ليلة الإسراء، وهو في السماء الرابعة». وجرت العادة ألا يرفع إلى السماء إلا من كان عظيم القدر والمنزلة.

والأولى في رأي الرازي أن المراد بالصفة الثالثة الرفعة في المكان إلى موضع عال؛ لأن الرفعة المقرونة بالمكان تكون رفعة في المكان، لا في الدرجة. والظاهر لي أن المراد الرفعة في الدرجة، إذ لا فرق في التعبير بين المكان والمكانة، فيقال: فلان ذو مكان عال عند السلطان.

وسبب رفع مكانته: أنه كان كثير العبادة، يصوم النهار، ويتعبد في الليل. قال وهب بن منبِّه: كان يرفع لإدريس عليه السلام كل يوم من العبادة مثلما يرفع لأهل الأرض في زمانه. وأصحاب هذه الخصال هم قدوة يقتدي بها المؤمن، ويتحلى بها المخلص، وقد بدأ الله نبيه بالأمر بها والخطاب معه؛ لأنه قدوة أمته، والمثل الأعلى للمؤمنين على الدوام، مشيراً إلى ذلك في الآية التالية.

جملة صفات الأنبياء عليهم السلام

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

وقرأ نافع (النبيئين).

﴿وَبُكِيًّا﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي (وبِكِيًّا).

الإعراب:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ وخبر أو الذين: صفة، والخبر: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، وهو إشارة إلى من تقدم ذكره في هذه السورة من الأنبياء.

﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ منصوبان على الحال المقدرة، أي مقدّرين السجود والبكاء. و﴿وَبُكِيًّا﴾ جمع باكٍ.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الجملة الشرطية خبر، إذا جعلنا ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ﴾ صفة لأولئك، وهي كلام مستأنف إن جعلنا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خبراً، لبيان خشيتهم من الله، مع علو الدرجة وشرف النسب وكمال النفس والزلفى من الله عز وجل.

البلاغة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ﴾ الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة.

المفردات اللغوية:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس .﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النعم الدينية والدنيوية .﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بيان للموصول؛ لأن جميع الأنبياء منعم عليهم .﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ من هنا للتبعيض، والمراد به هنا: إدريس الذي هو من ذرية آدم عليه السلام، لقربه منه؛ لأنه جد نوح أي جد أبيه .﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ في السفينة، أي إبراهيم بن سام بن نوح .﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو يعقوب عليه السلام، أي من ذريته وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى .﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي ومن جملتهم، و﴿وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ اصطفينا واخترنا للنبوة

والكرامة. ﴿سُجَّدًا﴾ جمع ساجد. ﴿وَبُكِيًّا﴾ جمع باكٍ، روى ابن ماجه عن النبي ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا». والبكا: بالقصر مثل الحزن، لا صوت معه.

المناسبة:

بعد أن أثنى الله على كل رسول من رسله العشرة بما يخصه، جمعهم آخراً بصفة واحدة: هي الإنعام عليهم بالنبوة، والهداية إلى طريق الخير، والاصطفاء من سائر خلقه. قال ابن كثير: ليس المراد المذكورين في هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس[١].

التفسير والبيان:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أي أولئك المذكورون من أول السورة إلى هنا، من لدن زكريا إلى إدريس، بل وجميع الأنبياء هم الذين أنعم الله عليهم بنعمة النبوة والقرب منه، وعظم المنزلة لديه، واختارهم واجتباهم من بين عباده، وهداهم وأرشدهم ليكونوا المثل الأعلى للبشرية، والأسوة الحسنة للناس جميعاً في عبادة الله وطاعته والتأسي بطريقتهم ومنهجهم وأخلاقهم.

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ أبي البشر الأول عليه السلام.

﴿وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي ومن ذرية من حملنا في السفينة مع نوح أبي البشر الثاني، وهم من عدا إدريس عليه السلام الذي كان سابقاً على نوح، على ما ثبت في الأخبار، جمعهم الله في كونهم من ذرية آدم، ثم خص بعضهم

(١) تفسير ابن كثير: ٣/١٢٦

بأنه من ذرية المحمولين مع نوح، والذي يختص بأنه من ذرية آدم دون من حمل مع نوح هو إدريس عليه السلام.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وهم إسحاق ويعقوب وإسماعيل عليهم السلام.

﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ومن ذرية إسرائيل، أي يعقوب، وهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم عليهم السلام.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ أي ومن جملة من هدينا إلى الإسلام الذي هو الدين الحق المشترك بين جميع الأنبياء، ومن جملة من اخترنا للنبوة والكرامة والاصطفاء.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي كانوا إذا سمعوا آيات الله المتضمنة حججه ودلائله وبراهينه وشرائعه المنزلة، سجدوا لربهم خضوعاً لذاته واستكانة وانقياداً لأمره، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة، وهم باكون خشية من الله ومن عذابه. والبكي: جمع باكٍ.

قال ابن كثير: ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء: أنها كقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [٨٣-٩٠] وقال سبحانه وتعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ﴾ [غافر: ٧٨/٤٠] وفي صحيح البخاري عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس أفي ص سجدة؟ فقال: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى

ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي فنبيكم ممن أمر أن يقتدي بهم، قال: وهو منهم يعني داود.

لهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم[1]. وعند ابن ماجه عن رسول الله ﷺ: «اتلوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكَوْا» وعن صالح المرّي قال: قرأت القرآن عن رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا صالح، هذه القراءة، فأين البكاء؟ وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «إذا قرأتم سجدة ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ فلا تَعْجَلوا بالسجود، حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم، فليبك قلبه»[2].

والذي يستنبط من هذه الآية كما فُهم منها: أن جميع الأنبياء هم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة للبشرية في سلامة العقيدة، وكثرة العبادة، وصحة الدين، ونقاوة الأصل، وطهارة النسب والمعدن. واستقامة المنهج والطريق، ورفعة الشأن والخلُق.

صفات خلْف الأنبياء وجزاؤهم
وصفات التائبين ومستحقي الجنة

﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾

(١) المرجع السابق ١٢٧

(٢) تفسير الرازي: ٢١/ ٢٣٤

القراءات:

﴿يَدْخُلُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُدْخَلون).

الإعراب:

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بدل منصوب من قوله: ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي يدخلون جنات عدن، وهو بدل الشيء من نفسه؛ لأن الألف واللام في الجنة للجنس.

﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ إما منصوب؛ لأنه استثناء منقطع، أو منصوب على البدل من (لغو) .﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حال.

﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ ﴿نُورِثُ﴾ مضارع أورث، وهو يتعدى إلى مفعولين، الأول منهما محذوف، وهو الهاء عائد الموصول، أي نورثها، والمفعول الثاني ﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾. و﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ متعلق بنورث، أي تلك الجنة التي نورثها من كان تقياً من عبادنا.

البلاغة:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ جناس ناقص لتغير الحركات والشكل.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿خَلْفٌ﴾ بسكون اللام: عقب السوء، وبفتح اللام: عقب الخير .﴿أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تركوها بتاتاً، أو أخروها عن وقتها .﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ انهمكوا في المعاصي واللذات .﴿غَيًّا﴾ أي شراً أو وادياً في جهنم، والمعنى: يقعون في نار

جهنم، ويلقون جزاءهم فيها .﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، وهو يدل على أن الآية في الكفرة .﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ ينقصون .﴿شَيْـًٔا﴾ من ثوابهم وجزاء أعمالهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ جنات إقامة، وهذا وصف لها بالدوام ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي وهي غائبة عنهم، أو هم غائبون عنها .﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ موعوده .﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى آتياً لا محالة. أو أن موعوده الذي هو الجنة يأتيه أهله الذين وُعدوا به.

﴿لَغْوًا﴾ فضولاً من الكلام لا يفيد .﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي لكن يسمعون سلاماً من الله أو من الملائكة عليهم، أو من بعضهم على بعض .﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ على عادة المتنعمين، والتوسط، وفي قدر وقتهما في الدنيا، علماً بأنه ليس في الجنة نهار ولا ليل، بل ضوء ونور أبداً.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى أولئك الأنبياء وأتباعهم بصفات الثناء والمدح من اتباع أوامر الدين وترك نواهيه، ترغيباً في التأسي بطريقتهم، ذكر صفات الخلْف الذين أتوا بعدهم ممن أضاعوا واجبات الدين، وانتهبوا اللذات والشهوات، ثم ذكر ما ينالهم من العقاب في الآخرة، إلا من تاب، فإن الله يقبل توبته، ويورثه جنات النعيم التي لا يرثها إلا الأتقياء.

قال الرازي: وظاهر الكلام. أن المراد من بعد هؤلاء الأنبياء خلف من أولادهم.

وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في قوم من هذه الأمة يتراكبون في الطرق، كما تراكب الأنعام، لا يستحيون من الناس، ولا يخافون من الله في السماء.

وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، وتلا هذه الآية، قال: «يكون خلف من بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غياً، ثم يكون

خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم، ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر».

التفسير والبيان:

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ أي فجاء خلف سوء من بعد أولئك السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم القائمون بحدود الله وأوامره، المؤدون فرائض الله، التاركون لزواجره.

أولئك الخلف يدّعون الإيمان واتباع الأنبياء، ولكنهم مخالفون مقصرون كاليهود والنصارى وفسّاق المسلمين الذين تركوا الصلاة المفروضة عليهم، وآثروا شهواتهم من المحرَّمات على طاعة الله، فاقترفوا الزنى، وشربوا الخمور، وشهدوا شهادة الزور، ولعبوا الميسر، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء جزاؤهم أنهم سيلقون غياً، أي شراً وخيبة وخساراً يوم القيامة، لارتكابهم المعاصي، وإهمال الواجبات.

والمراد بإضاعة الصلاة في الأظهر تركها بالكامل، وعدم فعلها أصلاً، وجحود وجوبها. ويرى بعضهم كالشوكاني أن من أخر الصلاة عن وقتها، أو ترك فرضاً من فروضها، أو شرطاً من شروطها، أو ركناً من أركانها، فقد أضاعها.

لذا ذهب جماعة من السلف والخلف والأئمة، كما الذي رواه الجماعة إلا البخاري والنسائي وهو المشهور عن الإمام أحمد وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة؛ للحديث: «بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة» والحديث الآخر الذي رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه عن بريدة: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

ثم استثنى الله تعالى من الجزاء المتقدم التائبين، فقال:

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾ أي لكن من تاب مما فرط منه من ترك الصلوات، واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة الله وآمن به وعمل عملاً صالحاً، فأولئك يدخلهم ربهم الجنة، ويغفر لهم ذنوبهم؛ لأن «التوبة تجبُّ ما قبلها» في حديث ذكره الفقهاء، وفي الحديث الآخر الذي رواه ابن ماجه عن ابن مسعود: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» وأولئك أيضاً لا ينقص من أجورهم شيء، وإن كان العمل قليلاً؛ لأن أعمالهم السابقة ذهبت هدراً، وصارت منسية، تفضلاً ورحمة من الله الكريم اللطيف الحليم.

وهذا الاستثناء كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠] .

ثم وصف الله تعالى الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم وهي أوصاف ثلاثة:

١ - ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾﴾ أي هي جنات إقامة دائمة، وعد الرحمن بها عباده الأبرار بظهر الغيب، فآمنوا بها ولم يروها؛ لقوة إيمانهم، ولأن وعد الله آتٍ لا يُخْلَف، ومنها الجنة، يأتيها أهلها لا محالة. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ أي آتياً: تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٨] أي كائناً لا محالة.

٢ - ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ أي لا يسمع الأبرار أهل الجنة فيها كلاماً ساقطاً، أو تافهاً لا معنى له، أو هَذَراً لا طائل تحته، كما قد يوجد في

الدنيا، ولكن يسمعون سلام بعضهم على بعض، أو سلام الملائكة عليهم، بما يشعرهم بالأمان والطمأنينة، وهما منتهى الراحة

وقوله: ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ استثناء منقطع كقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٢٥-٢٦] .

٣ - ﴿وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾ أي يأتيهم ما يشتهون من الطعام والشراب قدر وقت البكرة والعشي، أي وقت الغداء صباحاً، والعشاء مساء؛ إذ ليس هناك ليل ولا نهار، وإنما بمقدار طرفي النهار في الدنيا، وفي أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنهار، كما أخرج الإمام أحمد والشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة، صورهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يتمخّطون فيها، ولا يتغوَّطُون، آنيتُهم وأمشاطُهم الذهبُ والفضةُ، ومجامرُهم الأُلوَّة[1]، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً». وهذا وقت طعام أهل الاعتدال، أما النهم فيأكل متى شاء. وأسباب استحقاق الجنان هي:

﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾﴾ أي هذه الجنة التي وصفناها بتلك الأوصاف الرائعة هي التي نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله عز وجل في السرّاء والضرّاء، أي نجعلها حقاً خالصاً لهم كملك الميراث، كما قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠-١١] .

---

(١) الألوّة: بفتح الهمزة وضمها، عود يتبخر به، والمجامر جمع مِجْمرة: وهي الشيء الذي يوضع فيه الجمر والبخور.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - جاء بعد الأنبياء وأتباعهم الأتقياء خلف سوء وأولاد شر.

أ - تركوا أداء الصلوات المفروضة، وهذا دليل على أن إضاعة الصلاة من الكبائر التي يعذب بها صاحبها. روى الترمذي وأبو داود عن أنس بن حكيم الضَّبِّي أنه أتى المدينة، فلقي أبا هريرة، فقال له: يا فتى، ألا أحدثك حديثاً لعل الله تعالى أن ينفعك به؛ قلت: بلى، قال: «إن أول ما يحاسَب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته - وهو أعلم-: انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نَقَصَها، فإن كانت تامة، كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً قال: انظروا هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع قال: أكملوا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم تؤخذ الأعمال على ذلك».

وأخرجه النسائي عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر..» الحديث.

ب - واتبعوا شهواتهم وهي عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه. جاء في الصحيح: الذي رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أنس «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات».

٢ - إن جزاء خلف السوء الغي، أي الهلاك والضلال في جهنم، أو أن الغي: واد في جهنم أبعدها قعراً، وأشدها حراً، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبت فتح الله تعالى تلك البئر، فتُسعَّر بها جهنم. قال ابن عباس: «غيّ: واد في جهنم، وإن أودية جهنم لتستعيذ من حره، أعد الله تعالى ذلك الوادي للزاني المصرّ على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذي لا

ينزع عنه، ولأهل العقوق، ولشاهد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولداً ليس منه» أي كانت زانية به.

٣ً - يقبل الله توبة من تاب من عباده، من تضييع الصلوات واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة الله، وآمن به، وعمل صالح الأعمال، فهؤلاء يدخلون الجنة مع الأبرار، ولا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء بسبب تقصيرهم الماضي، لكن يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبع مئة.

٤ً - تلك هي جنات عدن، أي إقامة دائمة، وهي التي وعد بها الرحمن عباده، فآمنوا بها غيبياً، وإن لم يشاهدوها، ووعد الله آتٍ لا ريب فيه، وإن الله لا يخلف الميعاد.

٥ً - خصائص الجنة وأوصافها: هي:

أولاً - أن الوعد بها آت لا محالة، كما ذكر.

وثانياً - لا لغو فيها: وهو المنكر من القول، والباطل من الكلام، والفَحِش منه، والفضول الساقط الذي لا ينتفع به: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/١١] .

وثالثاً - لكن يسمعون فيها سلام بعضهم على بعض، وسلام الملائكة عليهم، والسلام: اسم جامع للخير، والمعنى: أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون.

ورابعاً - لهم ما يشتهون فيها من المطاعم والمشارب بكرة وعشياً، أي قدر هذين الوقتين، إذ لا بكرة ثم ولا عشياً.

وخامساً - هذه الجنة حق خالص يرثه ويتملكه العباد الأتقياء، وهم من اتقى الله وعمل بطاعته، فقام بالأوامر، واجتنب النواهي.

تنزل الوحي بأمر الله تعالى

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾

الإعراب:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ على حذف: قل، أي قل: ما نتنزل إلا بأمر ربك، فحذف قل، والخطاب لجبريل، وحذف القول كثير في كلام العرب وفي القرآن. و﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ دليل على أن الأزمنة ثلاثة: ماض وحاضر ومستقبل. وعطف كلام غير الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ﴾ على كلام الله ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ﴾ من غير فصل أمر جائز إذا كانت القرينة ظاهرة، مثل: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ٢/ ١١٧ وآل عمران ٣/ ٤٧] الذي هو كلام الله، وقوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ١٩/ ٣٦] الذي هو كلام غير الله.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ، رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إما مرفوع بدل من ﴿رَبُّكَ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾، أو خبر مبتدأ مقدر، أي هو ربُّ السماوات، أو مبتدأ، وخبره ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ عند أبي الحسن الأخفش؛ لأنه يجوز أن تزاد الفاء في خبر المبتدأ، وإن لم يكن المبتدأ اسماً موصولاً، أو نكرة موصوفة، مثل: «زيد فمنطلق» والأكثرون على أن الفاء عاطفة، لا زائدة، أي هذا زيد فهو منطلق، فكل واحد منهما خبر مبتدأ محذوف.

البلاغة:

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿نَتَنَزَّلُ﴾ التنزل: النزول على مهل وقتاً بعد وقت، وهو حكاية قول جبريل حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، ولم يدر ما يجيب، ورجا أن يوحى إليه فيه، فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً ﴿إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ المعنى: وما نتنزل وقتاً بعد وقت إلا بأمر الله ومشيئته على ما يقتضيه حكمته. وقرئ: وما يتنزل، والضمير للوحي ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ له ما أمامنا في الزمان المستقبل، وما وراءنا من الزمان الماضي، وما بينهما من الزمان الحاضر ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي ناسياً تاركاً لك، بتأخير الوحي عنك، والمعنى: ماكان عدم النزول إلا لعدم الأمر به، ولم يكن ذلك عن ترك الله لك، وتوديعه إياك، كما زعمت الكفرة، وإنما كان لحكمة رآها فيه.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيان لامتناع النسيان عليه ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ خطاب للرسول ﷺ مرتب على ما سبق، أي لما عرفت ربّك بأنه لا ينبغي له أن ينساك، فأقبل على عبادته واصطبر عليها، أي اصبر على مشاقها وشدائدها، ولا تتشوش بإبطاء الوحي وهزء الكفرة. وإنما عدّي باللام ﴿لِعِبَادَتِهِ﴾ لتضمنه معنى الثبات للعبادة، كما تقول للمحارب: اصطبر لقِرْنك، أي اثبت له في حملاته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي مِثْلاً ونظيراً مسمى بذلك، أي الله؟ فإن المشركين لم يسموا الصنم الإله: (الله) قط. وإذا صح ألا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره، لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغال بعبادته والاصطبار على مشاقها.

سبب النزول:

أخرج أحمد والبخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.»

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: أبطأ جبريل في النزول أربعين يوماً، فذكر نحوه.

وأخرج ابن إسحاق عن ابن عباس: أن قريشاً لما سألوه عن أصحاب الكهف، مكث خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله له في ذلك وحياً، فلما نزل جبريل، قال له: أبطأت، فذكره.

وروي عن ابن عباس: «إن جبريل عليه السلام احتبس عنه ﷺ أياماً، حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين والروح، ولم يَدْر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب؟ فحزن واشتد عليه ذلك، وقال المشركون: إن ربّه ودّعه وقلاه، فلما نزل، قال له عليه الصلاة والسلام: ياجبريل، احتبست عني، حتى ساء ظني، واشتقت إليك، فقال: إني إليك لأشوق، ولكني عبد مأمور، إذا بُعثت نزلت، وإذا حُبِسْتُ احتبست، وأنزل الله هذه الآية»[1]. ولا مانع من تعدد الوقائع وأسباب النزول.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصص الأنبياء كزكريا وإبراهيم وموسى وإسماعيل وإدريس، تثبيتاً للنبي ﷺ، وذكر ما أنعم الله عليهم وما أحدثه الخلْف بعدهم، وجزاء الفريقين، ذكر الله سبب تأخر الوحي على النبي ﷺ، تنبيهاً على قصة قريش واليهود، من أولئك الخلْف الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وختماً لقصص أولئك المنعم عليهم بمخاطبة أشرفهم محمد ﷺ الذي هو من ذرية إبراهيم.

التفسير والبيان:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا

(١) تفسير الرازي: ٢١/٢٣٩

كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ عطف الله هذه الآية التي هي كلام غير الله على آية: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ التي هي كلام الله من غير فصل، وهو جائز إذا كانت القرينة ظاهرة، مثل عطف آية ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ﴾ [مريم: ١٩/٣٦] التي هي كلام غير الله، على قوله: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة ٢/١١٧ وآل عمران ٣/٤٧] الذي هو كلام الله.

ومعنى الآية: بعد أن استبطأ رسول الله ﷺ نزول جبريل عليه، أمر الله جبريل أن يقول: وما نتنزل نحن الملائكة بالوحي على الأنبياء والرسل إلا بأمر الله بالتنزيل على وفق الحكمة والمصلحة وخير العباد في الدنيا والآخرة.

إن لله تعالى التدبير والتصرف وأمر الدنيا والآخرة وما بين ذلك من الجهات والأماكن والأزمنة الماضية والحاضرة والمستقبلة، فلا نقدم على أمر إلا بإذنه. وقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ خطاب جماعة لواحد، وذلك لا يليق إلا بالملائكة الذين ينزلون على الرسول. والتنزل هنا: النزول على مهل، أي إن نزول الملائكة وقتاً بعد وقت لا يكون إلا بأمر الله تعالى.

وما نسيك ربك يا محمد، وإن تأخر عنك الوحي، ولا ينسى شيئاً، ولا يغفل عن شيء، وإنما يقدّم ويؤخّر لما يراه من الحكمة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الضحى: ٩٣/١-٣].

روى ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني عن أبي الدرداء مرفوعاً قال: «ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرَّمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

والدليل على ذلك قوله سبحانه:

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴿٦٥﴾﴾
أي إن الله خالق السماوات والأرض ومالكهما وما بينهما، وهو المدبر والحاكم والمتصرف الذي لا معقب لحكمه، فاثبت على عبادة ربك، واصطبر على العبادة والطاعة وما فيها من المتاعب والشدائد، ولا تنصرف عنها بسبب إبطاء الوحي، هل تعلم للرب مثلاً أو شبيهاً، يكون أهلاً للعبادة؟ فهو الخالق والمدبر والرازق والمنعم بأصول النعم وفروعها من خلق الأجسام والحياة والعقل وما يحتاجه الإنسان وغيره، فإنه لا يقدر على ذلك أحد سواه سبحانه.

والمراد بنفي العلم نفي الشريك على أي وجه، والاستفهام للإنكار، وهل بمعنى لا، أي لا تعلم.

قال ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى وتقدس اسمه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيتان على أمرين:

الأول - إن الملائكة رسل الله بالوحي لا تنزل على أحد من الأنبياء والرسل من البشر إلا بأمر الله مدبر الكائنات في كل زمان ومكان، والذي لا يغفل عن شيء ولا ينساه، إذا شاء أن يرسل المَلَك أرسله.

الثاني - إن الله عز وجل هو رب السماوات والأرض وخالقهما وخالق ما بينهما، ومالكهما ومالك ما بينهما، فكما إليه تدبير الأزمان، كذلك إليه تدبير الأعيان، وبما أنه المالك على الإطلاق فهو الذي وجبت عبادته، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود، الذي ليس له ولد ولا نظير أو مثيل أو شبيه يستحق مثل اسمه الذي هو الله وهو الرحمن.

والعبادة: الطاعة بغاية الخضوع لله تعالى، وما على الرسول وغيره من المؤمنين إلا الاشتغال بما أمر به والاستمرار عليه، دون استبطاء شيء آخر.

شبهة المشركين في إنكار البعث

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾

القراءات:

﴿مِتُّ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (مُتُّ).

﴿يَذْكُرُ﴾:

قرئ:

١- (يَذْكُر) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وعاصم.

٢- (يذَّكَّر) وهي قراءة الباقين.

﴿جِثِيًّا﴾:

قرئ:

١- (جِثياً) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (جُثياً) وهي قراءة الباقين.

﴿عِتِيًّا﴾، ﴿صِلِيًّا﴾:

قرئ:

١- (عِتيًّا، صِلياً) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (عُتيًّا، صُلياً) وهي قراءة الباقين.

﴿نُنَجِّى﴾:

وقرأ الكسائي (نُنْجِي).

الإعراب:

﴿جِثِيًّا﴾ حال إن كان جمع (جاث)، ومنصوب على المصدر إن كان مصدراً، لا جمعاً، أي (جُثواً) وأصله (جُثُوو) فأبدلوا منعاً للاستثقال من الضمة كسرة، وقلبوا الواو الأخيرة ياء.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ بالرفع، على رأي أكثر البصريين: في موضع نصب بـ ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ والضمة ضمة بناء. وعلى رأي الكوفيين: مبتدأ مرفوع، و﴿أَشَدُّ﴾ خبره، والضمة ضمة إعراب، و﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ ملغى لم يعمل. ومن قرأ بالنصب (أيَّهم) نصبها بـ ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾ وجعلها معربة، وهي لغة بعض العرب.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾: إن: بمعنى (ما) أي ما أحد منكم، وأحد: مبتدأ، و﴿مِّنكُمْ﴾ صفته، و﴿وَارِدُهَا﴾ خبره. ولا يجوز إعمال (إن) هنا لدخول حرف الاستثناء الذي يبطل عمل (ما).

البلاغة:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي الكافر؛ لأنه المنكر للبعث، فهو عام أريد به الخاص.

﴿مِتُّ﴾ و﴿حَيًّا﴾ بينهما طباق.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المنكر للبعث: أُبي بن خلَف أو الوليد بن المغيرة النازل فيه الآية، فإن الأول أخذ عظاماً بالية، ففتّها، وقال: يزعم محمد أنّا نبعث بعد الموت. أو المراد بالإنسان: بعض الناس المعهود وهم الكفرة، أو المراد به الجنس، فإن المقول مقول فيما بينهم، وإن لم يقل كلهم، كقولك: بنو فلان قتلوا فلاناً، والقاتل واحد منهم.

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض، أو من حال الموت. وتقديم الظرف؛ لأن المُنْكِر وقت الحياة لأمر بعد الموت، وهو منصوب بفعل دل عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا به، فإن ما بعد اللام لا يعمل فيما قبلها، والاستفهام بمعنى النفي، أي لا أحيا بعد الموت. و﴿مَا﴾ زائدة للتأكيد، وكذا اللام في ﴿لَسَوْفَ﴾ للتأكيد.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطف على (يقول) وهو رد على مقاله السابق. و﴿يَذْكُرُ﴾ أصله: يتذكر أي يتفكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ فيستدل بابتداء الخلق على الإعادة.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ قسم باسمه تعالى مضاف إلى نبيه، تحقيقاً للأمر، وتفخيماً لشأن رسول الله ﷺ ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ لنجمعنهم أي الكفار المنكرين للبعث ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطف أو مفعول معه، لما روي أن الكفرة يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم، كل مع شيطانه في سلسلة. وهذا وإن كان مخصوصاً بالكفار، ساغ نسبته إلى الجنس البشري بأسره، فإنهم إذا حشروا، وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين، فقد حشروا جميعاً معهم ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ من خارجها ﴿جِثِيًّا﴾ على الركب، جمع جاثٍ: وهو البارك على ركبتيه.

﴿شِيعَةٍ﴾ أمة أو جماعة أو فرقة منهم شايعت ديناً وتعاونت على الباطل ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ أي تكبراً وجرأة وعصياناً ومجاوزة للحد، أي من كان أعصى وأعتى منهم، فنطرحهم في جهنم. وفي ذكر الأشد تنبيه على أنه تعالى يعفو عن كثير من أهل العصيان. ولو خص ذلك بالكفرة، فالمراد أنه يميز طوائفهم أعتاهم فأعتاهم، ويطرحهم في النار، على الترتيب، أو يدخل كلاً طبقتها التي تليق بهم.

﴿أَوْلَىٰ بِهَا﴾ أحق بجهنم، الأشد وغيره منهم ﴿صِلِيًّا﴾ أي أحق بالصلي، وهو الدخول فيها والاحتراق، من صَلي بالنار: إذا قاس حرها .﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ وما منكم أحد، التفات إلى الإنسان ﴿وَارِدُهَا﴾ مارٌّ بها وهي خامدة، على الصراط الممدود عليها. وأما قوله: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠١] اي عن عذابها ﴿حَتْمًا﴾ واجباً ﴿مَّقْضِيًّا﴾ قضي بوقوعه، فلا ينقض وعده مطلقاً.

سبب النزول: نزول: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ﴾:

قال الكلبي: نزلت في أُبَيْ بن خلف حين أخذ عظاماً بالية، يفتّها بيده، ويقول: زعم لكم محمد أنّا نبعث بعدما نموت.

وقال ابن عباس: نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

المناسبة:

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها، ذكر أنها تنجيهم يوم الحشر الذي لا ريب فيه، فإن إعادة الإنسان أهون من بدء خلقه.

وكذلك لما كان هدف السورة إثبات قدرة الله على الإحياء والإماتة، وإثبات يوم القيامة، ذكر هنا بعض شبهات الكفار المكذبين للبعث، ورد عليها بالأدلة القاطعة.

وذكر أيضاً ما يلقاه الكفار من الذل والعذاب، وأردف ذلك ببيان أن جميع البشر يردون على النار، فلا ينجو منها إلا من آمن واتقى وعمل صالحاً.

التفسير والبيان:

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ أي ويقول الكافر المشرك منكر البعث متعجباً مستبعداً إعادته بعد موته: هل إذا مت وأصبحت تراباً، سوف أخرج حياً من القبر، وأبعث للحساب؟! وأسند الكلام لكل مشرك كافر، وإن لم يقله إلا بعضهم، لرضاهم بمقالته.

ونظير الآية: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٥] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٧-٧٩] .

والدليل على إمكان الإعادة:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ أي ألا يتفكر هذا الجاحد في أول خلقه، فقد خلقناه من العدم، دون أن يكون شيئاً موجوداً، فيستدل بالابتداء على الإعادة، والابتداء أعجب وأغرب من الإعادة.

والمعنى: أنه تعالى قد خلق الإنسان، ولم يكن شيئاً قبل خلقه، بل كان معدوماً بالكلية، أفلا يعيده، وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٧] . وجاء في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له أن يكذبني، وآذاني ولم يكن له أن يؤذيني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول

الخلق بأهون علي من آخره، وأما أذاه إياي فقوله: إن لي ولداً، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن لي كفواً أحد».

ثم هدد تعالى منكري البعث تهديداً من وجوه قائلاً:

١ - ٢: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ أي أقسم الرب تبارك وتعالى بذاته الكريمة أنه لابد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، بأن يخرجهم من قبورهم أحياء ويجمعهم إلى المحشر مع شياطينهم الذين أغووهم وأضلوهم. ثم ليحضرنهم حول جهنم بعد طول الوقوف، جاثين قاعدين على ركبهم، لما يصيبهم من هول الموقف وروعة الحساب، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨/٤٥] . وهذا الإحضار يكون قبل إدخالهم جهنم، ويكون على أذل صورة لقوله: ﴿جِثِيًّا﴾.

٣ - ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ أي لننتزعن ونأخذن من كل فرقة دينية أو طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم وأعتاهم وأكثرهم تكبراً وتجاوزاً لحدود الله، وهم قادتهم ورؤساؤهم في الشر.

فهذه وجوه التهديد: أولها - الحشر مع الشياطين، وثانيها - الإحضار قعوداً حول جهنم في صورة الذليل العاجز، وثالثها - تمييز البعض من البعض، فمن كان أشدهم تمرداً في كفره، خص بعذاب أعظم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨/١٦] وقال: ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣/٢٩] .

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ أي إنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى نار جهنم، ويخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب، كما قال سبحانه: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨/٧] .

ثم أخبر تعالى عن ورود الناس جميعاً نار جهنم، فقال:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ أي ما منكم من أحد من الناس إلا سوف يرد إلى النار، والورود: هو المرور على الصراط، كان ذلك المرور أمراً محتوماً، قد قضى سبحانه أنه لابد من وقوعه لا محالة. وقيل: الورود: الدنو من جهنم وأن يصيروا حولها، وهو موضع المحاسبة، وقيل: الورود: الدخول، لحديث: «الورود الدخول، لا يبقى بَرّ ولا فاجر، إلا دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم». والأصح أن الورود: المرور، للحديث التالي:

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعَدْو الرجل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه، يمر فيتكفّأ به الصراط، والصراط دَحْضٌ مزلّة[1]، عليه حَسَك كحسك القتاد[2]، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس. وهذا المروي عن ابن مسعود سمعه عن النبي ﷺ.

وروى ابن جرير عن ابن مسعود أيضاً قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون، والملائكة يقولون: اللهم سلّمْ سلِّمْ.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ أي بعد أن مر

---

(١) دحض مزلة: بمعنى واحد، وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام ولا تستقر.

(٢) أي عليه شوك كشوك نبات بنجد يقال له: السعدان.

الخلائق كلهم على الصراط والنار، ننجي الذين اتقوا ما يوجب النار، وهو الكفر بالله ومعاصيه، ننجيهم من الوقوع في النار، فيمرون على الصراط بإيمانهم وأعمالهم. ونبقي الكافرين والعصاة في النار، جاثين على ركبهم، لا يستطيعون الخروج، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، أما العصاة من المؤمنين فيخرجون بعد العذاب على معاصيهم، فيخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر: لا إله إلا الله، ولم يعمل خيراً قط.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الكريمات ما يأتي:

١ً - يتعجب الكافر منكر البعث ويستبعد إعادته بعد موته، ولكن لا داعي لتعجبه، فإن الله قادر على كل شيء، ولو تأمل قليلاً لأدرك أن من خلق الإنسان من العدم، قادر على إعادته مرة أخرى، والإعادة أهون من ابتداء الخلق في ميزان عقل الإنسان، أما بالنسبة لله فهما سواء عليه.

٢ً - الحشر وجمع الخلائق للحساب أمر ثابت أيضاً بعد البعث من القبور، ويحشر كل كافر مقروناً مع شيطان في سلسلة.

٣ً - يحضر الله الكفار جاثين على ركبهم حول جهنم، فهم لشدة ماهم فيه من الأهوال لا يقدرون على القيام.

٤ً - يستخرج الله من كل أمة وأهل دين باطل أعتى الناس وأعصاهم، وهم القادة والرؤساء، لمضاعفة العذاب عليهم.

٥ً - الله تعالى أعلم بمن هو أحق بدخول النار، من الإنس والجن، وبمن يخلد فيها، وبمن يستحق تضعيف العذاب.

٦ً - إن ورود جميع الخلائق على النار، أي المرور على الصراط، لا الدخول

في النار، أمر واقع لا محالة. وقد فسر ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسُّدِّي والحسن البصري الورود بالمرور على الصراط. قال الحسن: ليس الورود الدخول، إنما تقول: وردت البصرة ولم أدخلها، فالورود: أن يمروا على الصراط؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠١] قالوا: فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها. وقوله سبحانه بعد هذه الآية: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ ولو وردوا جهنم لسمعوا حسيسها، وقوله عز وجل: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٩] . وقال ﷺ فيما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة: «لا يموتُ لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، تمسّه النار إلا تَحِلّة القسم» أي لكن تحلة القسم لابد منها في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة، فلا يكون في ذلك شيء من مسيس النار.

٧ - ينجي الله المتقين، ويخلصهم من نار جهنم، ويترك الكافرين فيها قعوداً مخلدين على الدوام. والمذهب المقبول: أن صاحب الكبيرة وإن دخلها، فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو. وقالت المرجئة: لا يدخل، وقالت الخوارج: يخلد. والقائلون بأن الورود الدخول، احتجوا بهذه الآية: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ لأنه لم يقل: وندخل الظالمين، وإنما قال: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قال خالد بن معدان: إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا: ألم يقل ربنا: إنا نرد النار؟ فيقال: لقد وردتموها فألفيتموها رماداً. وعقب القرطبي عليه قائلاً: وهذا القول يجمع شتات الأقوال، فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها، فقد أبعد عنها، ونُجِّي منها. نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه، وجعلنا ممن وردها، فدخلها سالماً، وخرج منها غانماً[١].

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ١٣٩.

شبهة أخرى للمشركين بحسن الحال في الدنيا

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

القراءات:

﴿مَّقَامًا﴾ :

وقرأ ابن كثير (مُقاماً).

﴿وَرِءْيًا﴾ :

وقرأ قالون، وابن ذكوان (ورِيّاً).

الإعراب:

﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حال.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ (كم) منصوب بأهلكنا، أي وكم قرن أهلكنا، فحذف ﴿قَرْنٍ﴾ لدلالة الكلام عليه .﴿وَرِءْيًا﴾ يقرأ بالهمز وترك الهمز، ويقرأ: (وَرِيئاً) على وزن «وريعاً» بتقديم الياء على الهمزة. فمن قرأ بالهمز أتى به على الأصل لأنه من «رأيت» ومن قرأ (وَرِيّاً) بغير همز، أبدل من الهمزة ياء؛ لانكسار ماقبلها، وجاز انقلاب كل همزة ساكنة ياء إذا كان قبلها كسرة. ومن قرأ (وَرِيئاً) قلب اللام إلى موضع العين،

واللام ياء، والعين همزة، كقولهم: قَسِيّ. وقرئ: وزِياً، والزي معروف، وأصله: زِوْيٌ، إلا أنه قلبت منه الواو ياءً، لسكونها وانكسار ما قبلها.

﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ لفظه الأمر، ومعناه الخبر، كما يأتي لفظ الخبر ومعناه الأمر، مثل ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ﴾ أي ليُرْضعن. وجواب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟﴾ قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ و﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ انتصب كل منهما على البدل من (ما) في قوله تعالى: ﴿رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾.

البلاغة:

﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ لف ونشر مرتب، حيث رجع الأول إلى ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ والثاني إلى ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ و﴿شَرٌّ مَّكَانًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أي على المؤمنين والكافرين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات المعاني والإعجاز ﴿أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن وأنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ مكاناً ومنزلاً ﴿نَدِيًّا﴾ أي نادياً، أي مجتمعاً ومجلساً وهو مجتمع القوم يتحدثون فيه، ومنه دار الندوة لتشاور المشركين. وهم يعنون: نحن، فنكون خيراً منكم. والمعنى: أنهم لما سمعوا الآيات الواضحات، وعجزوا عن معارضتها، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا، والاستدلال بذلك على فضلهم وحسن مكانهم عند الله، لقصور نظرهم على الحال، وعلمهم بظاهر من الحياة الدنيا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي كثيراً ما أهلكنا من القرون أي الأمم الماضية، والقرن: أهل كل عصر، وهذا رد مع التهديد ﴿أَثَٰثًا﴾ هو متاع البيت من الفُرْش والثياب وغيرها .﴿وَرِءْيًا﴾ منظراً، والمراد نضارة وحسناً، مشتق من الرؤية، والمعنى: فكما أهلكناهم لكفرهم، نهلك هؤلاء.

﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ معناه الإخبار، أي يمد، أي يمهله بطول العمر والتمتع به، والتمكن من التصرف في الحياة، وهو جواب شرط: ﴿مَن كَانَ﴾. ﴿مَدًّا﴾ أي يستدرجه في الدنيا. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ هو غاية المد ﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ تفصيل للموعود، فإنه إما العذاب في الدنيا كالقتل والأسر وغلبة المسلمين عليهم، وإما يوم القيامة وما ينالهم فيه من الخزي والنكال ودخول جهنم ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين، بأن عاينوا الأمر على عكس ما قدّروه وهو جواب الشرط ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ أنصاراً أو أعواناً، أهم وجندهم الشياطين أم المؤمنون وجندهم الملائكة؟.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ يزيد المهتدين بالإيمان بما ينزل عليهم من الآيات. وهي عطف على الجملة الشرطية المحكية بعد القول: ﴿قُلْ مَن كَانَ﴾ كأنه لما بيَّن أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله، أراد أن يبيِّن أن قصور حظ المؤمن منها، ليس لنقصه، بل لأن الله عز وجل أراد به ماهو خير، وعوضه منه.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾ الطاعات التي تبقى آثارها، ومنها الصلوات الخمس، وقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ فائدة مما متّع به الكفرة من النعم الفانية التي يفتخرون بها ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ مرجعاً وعاقبة، بخلاف أعمال الكفار. والخيرية هنا في مقابلة قولهم: أي الفريقين خير مقاماً.

المناسبة:

بعد أن أقام الله تعالى الحجة على مشركي قريش المنكرين للبعث، أتبعه مع الوعيد والتهديد بذكر شبهة أخرى لهم: هي أنهم قالوا: لو كنتم أنتم على الحق، ونحن على الباطل، لكان حالكم في الدنيا أحسن وأطيب من حالنا؛ لأن الحكيم لا يليق به أن يوقع أولياءه المخلصين في العذاب والذل، وأعداءه

المعرضين عن طاعته في العز والراحة، ولما كان الأمر بالعكس، فإنا نحن المتمتعين بالنعمة ورفاهية العيش على الحق، وأنتم الواقعون في الخوف والذل والفقر على الباطل!!

فرد الله عليهم بأن الكفار السابقين كانوا أحسن منكم حالاً، وأكثر مالاً، وقد أهلكهم الله بعذاب الاستئصال، فليس نعيم الدنيا قرينة على محبة الله، ولا سوء الدنيا علامة على غضب الله.

ثم رد عليهم رداً ثانياً بقوله: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ ومضمونه: لا بد أن يأتيهم عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، وحينئذ سيعلمون أن نعم الدنيا لا تنقذهم من ذلك العذاب.

روي أن قائل هذه المقالة هو النضر بن الحارث وأشباهه من قريش، حينما رأوا أصحاب النبي ﷺ في خشونة عيش ورثاثة ثياب، وهم في غضارة العيش ورفعة الثياب.

التفسير والبيان:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾ إذا تليت على الكفار آيات الله القرآنية واضحات الدلالة والبرهان، مبينات المقاصد، صدوا عن ذلك وأعرضوا وقالوا مفتخرين على المؤمنين ومحتجين على صحة ماهم عليه من الدين الباطل: أي الفريقين (المؤمنين والكافرين) خير منزلاً ومسكناً، وأكبر جاهاً، وأكثر أنصاراً؟ والندي: النادي والمجلس، وهو مجتمع الرجال للحديث ومجلسهم، والعرب تسمي المجلس النادي، فكيف نكون على الباطل، وأولئك الضعفاء الفقراء المختفون المستترون في دار الأرقم على الحق؟ كما أخبر تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ٤٦/١١] . وهذا اغترار بظاهر الحال في الدنيا، متوهمين أن من كان غنياً ثرياً كان على الحق والصواب، ومن كان فقيراً كان على الباطل.

فرد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ هذا هو الجواب الأول عن شبهتهم، أي وكثيراً ما أهلكنا قبلهم من الأمم السابقة المكذبين رسلهم بكفرهم، وكانوا أحسن من هؤلاء متاعاً ومنظراً. والأثاث: المال أجمع، من الإبل والغنم والبقر والمتاع، أو متاع البيت خاصة من الفرش واللباس والستائر والبسط والأرائك والسرر (الأسرّة). والرئي: المنظر في تقدير الناس من جهة حسن اللباس أو حسن الأبدان وتنعمها.

والمعنى: أن مظاهر الثراء والنفوذ والكرامة لا تدل على حسن الحال عند الله، فقد أهلك الله المترفين، ونجى الفقراء الصالحين. وهذا تهديد ووعيد لكل من يتوهم من العوام وجهلة الأغنياء من المسلمين أن حسن حالهم في الدنيا دليل على رضا الله عنهم وحسن حالهم في الآخرة.

ثم أكد الله تعالى التهديد والوعيد وبالغ فيه، فقال:

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ وهذا هو الجواب الثاني عن شبهة الكفار، أي قل يامحمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل: من كان في الضلالة منّا ومنكم، ومن كان يخبط في الدنيا على هواه، فإن الله تعالى جعل جزاءه أن يتركه في ضلالته، ويدعه في طغيانه، ويمهله فيما هو، ويُمدّه ويستدرجه ليزداد إثماً، حتى يلقى ربه، وينقضي أجله.

وهذه سنة الله في استدراج الظالمين والعصاة، يتركهم الله في ضلالهم، بل ويزيدهم من نعم الدنيا وملذات الحياة، إمعاناً في إبقائهم على سوء حالهم الذي اتخذوه منهجاً لهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ٣/١٧٨] وقال سبحانه: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٠].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرٌّ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ أي حتى إذا شاهدوا رأي العين ما يوعدون به، إما العذاب في الدنيا الذي يصيبهم بالقتل والأسر، كما حصل يوم بدر، وإما مجيء يوم القيامة بغتة وما يشتمل عليه من العذاب الأخروي، فحينئذ يعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنوداً، على عكس ما كانوا يظنون في الدنيا من خيرية المقام وحسن الندي (المجلس)، ويتبين لهم حقيقة الأمر، أنهم هم شر مكاناً، لا خير مكاناً، وأضعف جنداً، لا أقوى ولا أحسن من فريق المؤمنين. وهذا رد على قولهم السابق: ﴿أَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ خَيۡرٞ مَّقَامٗا وَأَحۡسَنُ نَدِيّٗا﴾. ونظير الآية: ﴿وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٣].

ولما ذكر الله تعالى إمداد أهل الضلالة في ضلالهم، أخبر عن زيادة الهدى للمهتدين، فقال:

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗىۗ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ أي إن الله يزيد المهتدين إلى الإيمان توفيقاً وهدى للخير؛ لأن الخير يدعو إلى الخير.

وهذه مقابلة أو مقارنة واضحة بين المؤمنين والكافرين، فالله يجعل جزاء المؤمنين أن يزيدهم يقيناً، كما يجعل جزاء الكافرين أن يمدهم في ضلالتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٤-١٢٥].

وإن الطاعات المؤدية إلى السعادة الأبدية، لا الأموال والأمتعة والأندية، خير جزاء، وخير مرجعاً وعاقبة، وأجدى نفعاً لصاحبها.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ - إن معايير الدين ومفاهيمه الصحيحة تختلف عن تصورات الجهلة والعوام من الكفار والعصاة، فهؤلاء يرون أن الغنى وحسن الحال وكثرة أهل المجلس أو النادي دليل على خيريتهم وأفضليتهم على المؤمنين. وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله فهو المحق في دينه، وكأنهم لم يروا في الكفار فقيراً ولا في المسلمين غنياً، ولم يعلموا أن الله تعالى نحّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها.

٢ - لقد أهلك الله تعالى كثيراً من الأمم والجماعات هم أكثر متاعاً وأموالاً، وأحسن منظراً لحسن لباسهم وظهور آثار النعمة على وجوههم وأجسامهم.

٣ - من كان والغاً في الضلالة، متأصلاً في الكفر، يتركه الله في طغيان جهله وكفره، حتى يطول اغتراره، فيكون ذلك أشد لعقابه، فليعش ما شاء، وليوسع لنفسه في العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب، وهذا غاية في التهديد والوعيد.

٤ - ستتكشف الحقائق والأحوال يوم القيامة، فيظهر أن الكفار شر مكاناً وأسوأ منزلاً، وأضعف جنداً من المؤمنين، وهذا رد لقولهم الذي حكاه القرآن: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

٥ - يثبّت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم توفيقاً ونصرة، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم.

٦ - الباقيات الصالحات أي أعمال الخير والطاعة المالية والبدنية أفضل عند الله ثواباً وجزاء وأكثر منفعة لأهلها، وخير مرجعاً، فكل أحد يرد إلى عمله الذي عمله.

مقالة المشركين في البعث والحشر استهزاء وطعناً

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: قرئ:

١- (أفريت) وهي قراءة الكسائي، بحذف الهمزة الثانية.

٢- (أفرأيت) بتسهيل الهمزة الثانية، قرأ نافع.

وقرأ الباقون بتحقيقها.

﴿وَوَلَدًا﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (ووُلداً).

الإعراب:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ رأيت هنا بمعنى علمت، يتعدى إلى مفعولين، والذي مع صلته: في موضع المفعول الأول.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ في موضع المفعول الثاني.

﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي نرث منه ما يقول، فحذف حرف الجر، فصار (نرثه).

البلاغة:

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء إلى سببه، أي نأمر الملائكة بالكتابة.

﴿عَهۡدًا﴾ ﴿مَدًّا﴾ ﴿فَرۡدًا﴾ ﴿ضِدًّا﴾ ﴿عَدًّا﴾ ﴿وَفۡدًا﴾ ﴿وَلَدًا﴾ ﴿وَلَدًا﴾ ﴿إِدًّا﴾ سجع رصين.

المفردات اللغوية:

﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي أخبر عن العاص بن وائل، والفاء جاءت لإفادة معناها وهو التعقيب، كأنه قال: أخبر أيضاً بقصة هذا الكافر، واذكر حديثه عقيب حديث أولئك الذي قال فيه لخباب بن الأرت: لأوتين.. حينما قال له: تبعث بعد الموت، في أثناء مطالبته له بمال ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالٗا وَوَلَدًا﴾ أي فإذا بُعِثْتَ جئتني فأعطيك أو أقضيك مالاً وولداً ﴿أَطَّلَعَ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي أعَلِمَه وأن يؤتى ما قاله، واستغني بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل، فحذفت. من قولهم: اطلع الجبل: إذا ارتقى إلى أعلاه، والمعنى: أظهر له علم الغيب ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ بأن يؤتى ما قاله، وقيل: عهداً: عملاً صالحاً، فإن وعد الله بالثواب عليه كالعهد عليه. والمعنى: أن ما ادَّعى أن يؤتاه وتألى عليه، لا يتوصل إليه بأحد هذين الطريقين: إما علم الغيب، وإما عهد من عالم الغيب، فبأيهما توصل إلى ذلك؟

﴿كَلَّآۚ﴾ كلمة زجر أو ردع وتنبيه على أنه مخطئ فيما تصوَّره لنفسه، أي لا يؤتى ذلك ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ نأمر بكتب، أو سنُظهر له أنا كتبنا قوله .﴿وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلۡعَذَابِ مَدًّا﴾ سنطيل له العذاب الذي يستحقه، أو نزيد عذابه ونضاعفه له، لكفره وافترائه واستهزائه على الله، ولذلك أكده بالمصدر ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ نرث منه ما يقول من المال والولد، أي نسلبه منه بموته، ونأخذه أخذ الوارث، والمراد بما يقول: مدلوله ومصداقه: وهو ما أوتيه من المال والولد ﴿وَيَأۡتِينَا فَرۡدًا﴾ ويأتينا يوم القيامة لا يصحبه مال ولا ولد، كان له في الدنيا، فضلاً عن أن يؤتى.

سبب النزول:

أخرج الأئمة منهم أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) والترمذي والطبراني وابن حَبَّان عن خَبَّاب بن الأرتّ قال: كنت رجلاً قيناً - حداداً - وكان لي على العاص بن وائل دَيْن، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا، والله، لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا، والله، لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث، قال: فإني إذا مِتُّ ثم بُعِثْتُ جئتني، ولي ثَمَّ مال وولد، فأعطيك، فأنزل الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الدلائل على صحة البعث، ثم أورد شبهة المنكرين وأجاب عنها، أورد هنا ما قالوه على سبيل الاستهزاء، طعناً في القول بالحشر والبعث.

التفسير والبيان:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ أي ألا أخبرك بقصة هذا الكافر الذي تجرأ على الله وقال: لأُعطين في الآخرة مالاً وولداً. وإيراد هذه القصة على سبيل التعجب للبشر.

ثم فنّد الله تعالى قوله بعدم اعتماده على دليل غيبي أو عهد من الله، فقال: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾ أي إن دعواه تلك تعتمد على أحد أمرين: إما علم الغيب وإما عهد من الله، فهل اطلع على الغيب حتى يعلم أنه في الجنة، أو أخذ العهد الموثق من الله بذلك؟ والعهد عند الله للرحمة: أن يدخل المؤمن الجنة إذا قال: لا إله إلا الله، وعمل الصالحات. وقوله: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ إشارة إلى أن الحصول على علم الغيب أمر صعب شاق؛ لأن الله لا يطلع على غيبه إلا من ارتضى من رسول.

ثم هدده تعالى بقوله:

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ ﴿كَلَّا﴾ كلمة ردع وزجر لما قبلها، وتأكيد لما بعدها، ولم ترد في النصف الأول من القرآن. والإتيان بسين التسويف في قوله: ﴿سَنَكْتُبُ﴾ مع أنه يكتب من غير تأخير لمحض التهديد من المتوعد.

أي ليس الأمر على ما قال، بل سنحفظ ما يقول، فنجازيه به في الآخرة، ونزيده عذاباً فوق عذابه، ونمده بالعذاب مداً في الدار الآخرة على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا، مكان ما يطلبه من المدد بالمال والولد، جزاء عمله، ونميته فنرثه المال والولد الذي يقول: إنه يؤتاه، ونسلبه إياه، ويأتينا يوم القيامة فرداً لا مال له ولا ولد مما كان معه في الدنيا، لأنَّا نسلبه منه، فكيف يطمع أن نعطيه؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه قصة رجل آخر هو العاص بن وائل، وهي من أعاجيب القصص التي تدل على سخف الكافر، وسذاجة تفكيره، وتمنيه الأماني المعسولة، وهو سيجد نقيضها تماماً في عالم الآخرة.

إنه بالرغم من كفره الشديد بآيات الله، وإنكاره البعث واستهزائه به، يتأمل أن يعطى في الآخرة المال الوفير والولد الكثير، وليس لديه برهان أو وثيقة على مايقول. ومثل هذا القول يحتاج إلى أحد أمرين: إما الاطلاع على الغيب أو اتخاذ عهد موثق عند الله.

فهل عَلِمَ الغيب حتى يعلم أنه في الجنة أم لا، أم عاهد الله تعالى بالتوحيد والعمل الصالح والوعد أن يدخله الجنة؟!!

لم يكن كل ذلك، لم يطلع على الغيب، ولم يتخذ عند الرحمن عهداً، وسيحفظ الله عليه قوله، فيجازيه به في الآخرة، وسيزيده عذاباً فوق عذاب، ويسلبه ما أعطاه في الدنيا من مال وولد، ويأتي منفرداً لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره، ثم يزج به في نار جهنم جزاء عمله المنكر وكفره الظاهر.

الرد على عُبَّاد الأصنام بصيرورتهم لهم أعداء واتخاذهم الشياطين أولياء

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ﴿٨٧﴾﴾

الإعراب:

﴿سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ﴾ عبادة: مصدر إما مضاف إلى الفاعل، أي سيكفر المشركون بعبادتهم الأصنام، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣] وإما مضاف إلى المفعول، أي ستكفر الأصنام بعبادة المشركين.

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدًا ﴿٨٥﴾﴾ ﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على الظرف، وعامله إما: ﴿لَّا يَمۡلِكُونَ﴾ وإما ﴿نَعُدُّ﴾. و﴿وَفۡدًا﴾ حال، أي وافدين، ووفد: واحدُهم وافد كصَحْب وصاحب، ورَكْب وراكب، وهو اسم جمع وليس بتكسير.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا﴾ ﴿مَنِ﴾ إما مرفوع على البدل من واو ﴿يَمۡلِكُونَ﴾ وإما منصوب على الاستثناء المنقطع.

البلاغة:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٨٥-٨٦]: بين المتقين الأبرار والمجرمين الأشرار مقابلة.

﴿وَفْدًا﴾ ﴿وِرْدًا﴾: جناس غير تام، لتغير الحرف الثاني.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟﴾ أي كفار مكة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الأوثان ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونهم ﴿عِزًّا﴾ منعة وقوة، أي ليتعززوا بهم حيث يجعلونهم شفعاء عند الله بألا يعذبوا ﴿كَلَّا﴾ ردع وإنكار لتعززهم بالأصنام ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ سيجحد الآلهة عبادتهم، ويقولون: ما عبدتمونا، أي ينفون عبادتهم، كما في آية أخرى: ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٣] ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦] .﴿ضِدًّا﴾ أعداء وأعواناً عليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ سلطناهم عليهم، أو قيضنا لهم قرناء ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ تهيجهم إلى المعاصي وتغريهم بالتسويلات وتحبيب الشهوات. والأزّ والهز والاستفزاز: شدة الإزعاج والإغراء على المعاصي. والمراد: تعجيب رسول الله ﷺ من أقاويل الكفار وتماديهم في الغي، وتصميمهم على الكفر بعد وضوح الحق، على ما نطقت به الآيات المتقدمة.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ لا تطلب العجلة بهلاكهم أو تعذيبهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أيام آجالهم عداً. والمعنى: لا تعجل بهلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام محصورة وأنفاس معدودة. ﴿نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بإيمانهم ﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي إلى دار كرامته وهي الجنة ﴿وَفْدًا﴾ جمع وافد، أي هم كما يفد الوافدون إلى الملوك لطلب الحوائج، مكرّمين مبجّلين ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بكفرهم ﴿وِرْدًا﴾ جمع وارد أي مشاة عطاشى مهانين، يساقون باحتقار وإذلال كما تساق البهائم.

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أي الناس ﴿عَهْدًا﴾ هو شهادة أن لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أي التبري من الحول والقوة وعدم رجاء أحد إلا الله.

المناسبة:

بعد الكلام عن الحشر والنشر والبعث، ردّ الله تعالى على عُبَّاد الأصنام الذين اتخذوا أصنامهم آلهة، ليعتزوا بها يوم القيامة، ويكونوا لهم شفعاء وأنصاراً ينقذونهم من الهلاك، فأبان تعالى أنهم سيكونون لهم أعداء. ثم بيَّن سبب الضلال وهو وسوسة الشياطين، وطلب إلى رسوله ألا يستعجل بطلب عذاب المشركين، فما هي إلا آجال أو أنفاس معدودة ثم يهلكون.

ثم قارن تعالى بين وفد المتقين القادمين إلى الجنة، وورد المشركين المشاة بإهانة إلى النار.

التفسير والبيان:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ أي عجباً لهؤلاء الكفار بآيات الله، يتمنون على الله الأماني، ويتألون على الله تعالى، مع أنهم كفروا وأشركوا بالله، واتخذوا من دون الله آلهة، ليكونوا لهم أنصاراً وأعواناً، وشفعاء عند ربهم يقربونهم إليه.

ولكن ليس الأمر كما زعموا ولا كما طمعوا، فقال تعالى:

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتأملوا في أنها تنقذهم من عذاب الله، بل ستجحد يوم القيامة هذه الأصنام المتخذة آلهة عبادة الكفار لها، يوم ينطقها الله سبحانه؛ لأن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة، ويكونون أعداء لهم، وأعواناً عليهم، بخلاف ما ظنوا فيهم، فيقولون: ما عبدتمونا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ

ﭐلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ [النحل: ١٦/ ٨٦] ، وقال سبحانه: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٣] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦] .

وبعد بيان حال هؤلاء الكفار مع الأصنام في الآخرة، ذكر تعالى حالهم مع الشياطين في الدنيا، فإنهم يسألونهم وينقادون لهم، فقال:

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ﴿٨٣﴾﴾ أي ألم تعلم أننا سلطنا الشياطين على الكفار، وخلينا بينهم وبينهم، ومكناهم من إضلالهم، فهم يحركونهم إلى فعل المعاصي، ويهيجونهم ويغرونهم ويغوونهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم بِخَيۡلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٤] .

وهذا إثارة لعجب الرسول ﷺ من حال الكفار وإصرارهم على الكفر، وتسلية له عن صدودهم وإعراضهم، وتهوين الأمر على نفسه.

﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴿٨٤﴾﴾ أي فلا تعجل يا محمد على هؤلاء بأن تطلب من الله إيقاع العذاب بهم وإهلاكهم وإبادتهم بسبب تصميمهم على الكفر وعنادهم، إنما نعد لهم أوقاتاً معدودة، ونؤخرهم لأجل معدود مضبوط هو انتهاء آجالهم، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، أي فليس بينك وبين عذابهم إلا أوقات محصورة معدودة، وكل آتٍ قريب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٢] الآية، وقال سبحانه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ١٧] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤] .

ثم أبان سبحانه ماسيظهر في يوم القيامة من الفصل بين المتقين وبين المجرمين في كيفية الحشر، فقال:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾ أي واذكر أيها الرسول لقومك، يوم نحشر جماعة المتقين وافدين ركباناً إلى جنة الله ودار كرامته، والوفد: هم القادمون ركباناً، مراكبهم من نور من مراكب الدار الآخرة، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إن المتقين إذا خرجوا من قبورهم، استُقبلوا بنوق بيض، لها أجنحة، عليها رحال الذهب» ثم تلا هذه الآية.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ أي ونحث المجرمين المكذبين على السير طرداً إلى جهنم، مشاةً عطاشاً، كالإبل ترد الماء.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة لغيره، ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٧٨/٣٨]، و﴿مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها، بأن كان صالح الاعتقاد والقول والعمل، وكان في الدنيا هادياً مصلحاً. أما شفاعة الآلهة المزعومة فهي أمانٍ زائفة، وأوهام فارغة، فهي لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضراً.

روى ابن أبي حاتم عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله بن مسعود هذه الآية: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: من كان له عند الله عهد فليقم، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فعلِّمنا، قال: قولوا: اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا ألا تكلني إلى عمل يقربني من الشر، ويباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إلي يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

وهذا مأخوذ من معنى حديث[١] تبين منه أن المراد بالعهد كلمة الشهادة. ودلت الآية على ثبوت الشفاعة لأهل الكبائر.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - اتخذ المشركون بالله آلهة عبدوها من دون الله، ليكونوا لهم أعواناً وأنصاراً وشفعاء، يقربونهم من الله، ويمنعونهم من عذاب الله تعالى.

٢ً - ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا، فستجحد هذه الأصنام عبادة المشركين لها، أو ينكرون هم أنفسهم أنهم عبدوا الأصنام، وستكون هذه الأصنام أعواناً في خصومتهم وتكذيبهم، ويكونون لهم أعداء، فتقول بإنطاق الله لهم: يا ربّ عذب هؤلاء الذين عبدونا من دونك.

٣ً - سلط الله الشياطين على الكافرين بالإغواء والإغراء بالشر، والإخراج من الطاعة إلى المعصية.

٤ً - لا داعي أيها الرسول أن تطلب العذاب لقومك المشركين، فما بينهم وبين العذاب إلا أوقات قصيرة معدودة.

٥ً - يحشر الله المتقين من قبورهم ركباناً معززين مكرَّمين، ويساق المجرمون الكفار المكذبون سوقاً مشاةً حفاةً أفراداً عطاشاً كالإبل التي ترد الماء، وفي هذا مهانة وذلّ، ودليل على أن أهوال يوم القيامة تختص بالمجرمين؛ لأن المتقين من الابتداء يحشرون في حال من التكريم، فهم آمنون من الخوف، فكيف يجوز أن تنالهم الأهوال؟!

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره: ٢١/٢٥٣، والقرطبي أيضاً: ١١/١٥٤، وسيأتي نصه.

٦ - لا يملك أحد عند الله الشفاعة لغيره، إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً فهو يملك الشفاعة[1]، والعهد: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، والقيام بحقها، فقد تظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون، فيشفَّعون، قال ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهداً؟ قيل: يا رسول الله، وما ذاك؟ قال: يقول كل صباح ومساء: اللهم فاطرَ السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمداً عبدك ورسولك، فلا تكلني إلى نفسي، فإنك إن تكلني إلى نفسي تباعدني من الخير، وتقرِّبني من الشر، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً توفينيه يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعاً، ووضعها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: أين الذين لهم عند الله عهد؟ فيقوم فيدخل الجنة».

---

(١) وحينئذٍ يكون الاستثناء متصلاً؛ لأن ﴿مَنِ﴾ في موضع رفع على البدل من واو ﴿يَمْلِكُونَ﴾ أي لا يملك أحد عند الله الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً، فإنه يملك. ويصح جعل الاستثناء منقطعاً، بمعنى لكن، أي لا يملك هؤلاء الكفار الشفاعة لأحد، لكن المسلمون الذين اتخذوا عند الرحمن عهداً، فإنهم يملكون الشفاعة.

الرد على من نسب الولد إلى الله تعالى

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾

القراءات:

﴿جِئْتُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيتم).

﴿تَكَادُ﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (يكاد).

﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾:

قرئ:

١- (يتفطّرن) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وحفص، والكسائي.

٢- (يَنْفَطِرن) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِدًّا، تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا﴾: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾: كاد واسمها وخبرها وصف

منصوب لقوله تعالى: ﴿إِدًّا﴾. و﴿هَدًّا﴾: منصوب على المصدر، و﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾: في موضع نصب على المفعول لأجله، أي: وتخر الجبال هدّاً لأن دعوا للرحمن ولداً. ويصح جعله مرفوعاً بأنه فاعل: ﴿هَدًّا﴾ أو مجروراً بدلاً من هاء ﴿مِنْهُ﴾.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، و﴿آتِي﴾: خبره، ووحّده حملاً على لفظ ﴿كُلُّ﴾. وقد يحمل على المعنى مثل: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٧] . و﴿عَبْدًا﴾: حال من ضمير ﴿آتِي﴾ وهو عامله، وهو اسم فاعل من (أتى) يقال: أتى فهو آتٍ.

البلاغة:

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ التفات إلى الخطاب للمبالغة في الذم، وتسجيل الجرأة على الله عليهم.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوا﴾ أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله .﴿جِئْتُمْ﴾ فعلتم .﴿إِدًّا﴾ منكراً عظيماً. والإدّة: الشدة. يقال: أَدَّني الأمر وآدني: أثقلني وعظم علي .﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى، التفطر: التشقق .﴿وَتَخِرُّ﴾ تسقط وتنهدم .﴿هَدًّا﴾ أي تهدّ هدّاً أو مهدودة. والمعنى: أن هول هذه الكلمة وعظمها بحيث لو تُصوَّر بصورة محسوسة، لم تتحملها هذه الأجرام العظام، وتفتّت من شدتها.

﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أي ما يليق به ذلك .﴿إِن كُلُّ﴾ ما كل .﴿عَبْدًا﴾ منقاداً خاضعاً ذليلاً يوم القيامة .﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ﴾ حصرهم وأحاط بهم، فلا يخرجون عن علمه وقدرته .﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ عدَّ أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم، فإن كل شيء عنده بمقدار .﴿فَرْدًا﴾ منفرداً بلا مال ولا نصير.

المناسبة:

بعد أن ردّ الله تعالى على عبدة الأوثان، عاد إلى الرد على من أثبت له ولداً كاليهود الذين قالوا: عزير ابن الله، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٠] ، وبعض مشركي العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وكل ذلك إفك مفترى.

التفسير والبيان:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ أي وقال الكفار (اليهود والنصارى والمشركون من العرب الذين يزعمون أن الملائكة بنات الله): إن الله اتخذ ولداً، فردّ الله تعالى عليهم: لقد جئتم بهذا القول شيئاً منكراً، وقلتم قولاً عظيم الجرم والإثم. والإدّ: الداهية والأمر المنكر الشنيع الفظيع.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ أي تقارب السماوات أن تتشقق منه، وأن تتصدع وتخسف الأرض، وتسقط بصوت شديد، وتنهدم الجبال هدماً شديداً تتضعضع منه، لشدة نكرانه، إعظاماً للربّ وإجلالاً، لأنهن مخلوقات على توحيده، وأنه لا شريك له ولا نظير ولا ولد ولا صاحبة. قال ابن عباس وكعب: فزعت السماوات والأرض والجبال، وجميع المخلوقات إلا الثقلين (الإنس والجن)، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم، وشاك الشجر، واكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا: اتخذ الله ولداً. وقال محمد بن كعب: لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾.

وهذا تهويل عظيم، وأنه موجب غضب الله وسخطه، ولكن لولا حكمة الله وحلمه وأنه لا يبالي بكفر الكافر، لقامت القيامة، واستؤصل الكفار.

وسبب ذلك:

﴿أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ أي لأجل أنهم نسبوا الولد إلى الله، ولا يصلح له ولا يليق به اتخاذ الولد، لجلاله وعظمته، فإن هذا نقص، يتعالى الله ويتنزه عنه؛ لأن جميع الخلائق عبيد له.

لهذا قال مؤكداً إنكار هذه الفرية:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ أي كل واحد من الخلق من الملائكة والإنس والجن لا بدّ له أن يأتي إلى الله يوم القيامة مقرّاً بالعبودية، خاضعاً ذليلاً، معلناً أنه مملوك لله، فكيف يكون أحد المخلوقات ولداً له؟!

﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي قد علم الله عددهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، وعدّ أشخاصهم وأحوالهم كلها، فهم تحت سلطانه وأمره وتدبيره، وكل شيء عنده بمقدار، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة، لا ناصر له ولا مال معه، ولا مجير له إلا الله وحده لاشريك له، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وقوله: ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ تأكيد لما سبق.

فقه الحياة أو الأحكام:

موضوع هذه الآيات: تقرير التوحيد، وإثبات العبودية الخالصة لله، وإنكار اتخاذ الله ولداً: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٤].

ومع هذا زعم اليهود والنصارى وبعض العرب القائلين بأن الملائكة بنات الله: أن لله ولداً، وحاشا لله أن يتخذ ولداً، إذ لا حاجة به إليه، وهو منزه

عن النقص والشريك والنظير والولد، وتعدّ هذه المقالة منكراً عظيماً، وأمراً فظيعاً، وجرماً شنيعاً.

حتى لتكاد تزول الأكوان، فتنشق السماوات، وتتصدع الأرض، وتسقط الجبال بصوت شديد، رفضاً لهذا القول، وإنكاراً له، وغضباً لله عزّ وجلّ؛ لأنها خلقت وأسست على الإقرار بتوحيد الله؛ ولأن الولد يقتضي الحدوث، ولا ولد إلا من والد، والله سبحانه وتعالى تنزه عن ذلك وتقدس.

وما كل من في السماوات والأرض إلا وهو يأتي يوم القيامة مقرّاً لله بالعبودية، خاضعاً ذليلاً، كما قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٨٧] أي ذليلين صاغرين؛ لأن الخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولداً له عزّ وجلّ؟ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

وهذه الآية: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ دليل على أنه لا يجوز أن يكون الوالد مملوكاً للولد، فإن الله تعالى أبان المنافاة بين الأولاد والملك، فإذا ملك الولد والده بنوع من التصرفات، عتق عليه فوراً. أخرج مسلم في صحيحه: «لا يَجْزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً، فيشتريه، فيعتقه».

ولا يخفى على الله أحد من خلقه، فإنه تعالى علم عددهم، وعدهم عداً دقيقاً، وكل واحد يأتيه يوم القيامة واحداً منفرداً لا ناصر له، ولا مال معه لينفعه؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٨٨-٨٩] فلا ينفعه إلا ما قدَّم من عمل صالح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ إشارة إلى أنكم أيها المشركون لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم، والكل عبيده، فكيف رضيتم له ما لا ترضون لأنفسكم؟! وإذا كنتم أيضاً لا ترضون لأنفسكم البنات، فكيف تنسبون البنات إلى الله؟ في قولكم: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله.

والخلاصة: إن هذه الآيات المقررة لنفي اتخاذ الإله ولداً، تلتقي مع موضوع سورة الإخلاص المتقدمة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ ومع الحديث المتقدم الذي أخرجه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لي كفواً أحد».

محبة المؤمنين
وتيسير الذكر المبين وإهلاك المجرمين

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾﴾

القراءات:

﴿لِتُبَشِّرَ﴾:

وقرأ حمزة (لِتَبْشُر).

المفردات اللغوية:

﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ الودّ: المودة والمحبة، والمعنى: سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تودد منهم، يحبهم الناس، ويتحابون فيما بينهم، ويحبهم الله تعالى، أي يرضى عنهم. ﴿يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ أنزلناه بلغتك العربية، والباء بمعنى على، أو على أصله لتضمن ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ معنى (أنزلنا). ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الصائرين إلى التقوى بالإيمان والعمل الصالح. ﴿وَتُنذِرَ﴾ تخوف.

﴿لُدًّا﴾ جمع ألدّ: وهو الشديد الخصومة، المجادل بالباطل، واللد: هم كفار مكة .﴿وَكَمْ﴾ أي كثيراً .﴿مِّن قَرْنٍ﴾ أي أمة من الأمم الماضية، وهو تخويف للكفرة وتجسير للرسول ﷺ على إنذارهم .﴿هَلْ تُحِسُّ﴾ تجد .﴿رِكْزًا﴾ صوتاً خفياً؟ لا، والمعنى: فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء.

سبب النزول:

أخرج ابن مردويه والديلمي عن البَرَاء قال: قال رسول الله ﷺ لعلي كرم الله وجهه: «اللهم اجعل له عندك عهداً، واجعل له في صدر المؤمنين ودّاً» فأنزل الله سبحانه هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن رد الله تعالى على أصناف الكفار، وأبان أحوالهم في الدنيا والآخرة، ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين، وأوضح أنه سيغرس محبتهم في قلوب العباد، من غير تودد منهم، ولا تعرض لأسباب الوداد من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك.

ثم استأنف تعالى بيان تيسير القرآن بلسان النبي ﷺ، لما تضمنه في هذه السورة من دلائل التوحيد والنبوة والحشر والنشر، وليبشر به وينذر.

ثم ختم السورة بموعظة بليغة وإنذار بإهلاك المشركين كما أهلك من قبلهم من الأمم، فإنهم إذا علموا أنه لا بدّ من زوال الدنيا، والموت، خافوا ذلك، وخافوا أيضاً سوء العاقبة في الآخرة، فكانوا إلى الحذر من المعاصي أقرب.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ أي إن الذين صدقوا بالله ورسله، وعملوا صالح الأعمال من المفروضات

والتطوعات، وأحلوا الحلال وحرموا الحرام، وفعلوا ما يرضي الله، سيغرس الله محبتهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة. والصالحات: هي الأعمال التي ترضي الله عزّ وجلّ، لمتابعتها الشريعة المحمدية.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً نادى جبريل: إني قد أحببت فلاناً فأَحِبَّه، فينادي في السماء، ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض. وإذا أبغض الله عبداً نادى جبريل: إني قد أبغضت فلاناً، فينادي في السماء، ثم ينزل له البغضاء في الأرض» فاتفق الحديث مع الآية في إنزال المحبة في الأرض للعباد الصالحين، وأن هذه المحبة والمودة في القلوب تكون بإحداث الله دون تعرض للأسباب المؤدية إلى إيجاد المودات من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف أو غير ذلك.

ثم استأنف الله تعالى كلامه لبيان موقع هذه السورة، لما فيها من التوحيد والنبوة والحشر والنشر، والرد على الفرق الضالة المضلة، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ أي يسرنا القرآن لك بإنزالنا له على لغتك، وفصلناه وسهلناه، لتبشر به المتصفين بالتقوى، المستجيبين لله، المصدقين لرسوله، بأن لهم الجنة بالطاعة، وتنذر به القوم الألداء، الشديدي الخصومة والجدل، العُوج عن الحق، المائلين إلى الباطل، بأن لهم النار بالكفر والعصيان.

ثم ختم تعالى السورة بموعظة بليغة قائلاً:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾ أي كثيراً ما أهلكنا قبل العرب المشركين من الأمم والجماعات من الناس، لكفرهم بآيات الله وتكذيب رسله، فهل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم صوتاً؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ما يأتي:

١ً - إذا أحب الله عبداً لتقواه، ورضاه عنه باتباعه شرع الله ودينه، كتب له المحبة والمودة في قلوب عباده الصالحين، وعند الملائكة المقربين، وإن كان مكروهاً عند الظلمة والكفار والفساق.

قال هرم بن حَيَّان: ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم.

والنموذج الأول لذاك هو رسول الله ﷺ، والنماذج التي بعده هم كبار صحابته، قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن عوف؛ جعل الله تعالى له في قلوب العباد مودة، لا يلقاه مؤمن إلا وقَّره، ولا مشرك ولا منافق إلا عظَّمه.

ومن كان محبوباً في الدنيا فهو كذلك في الآخرة؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمناً تقياً، ولا يرضى إلا خالصاً نقياً، جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه.

٢ً - نزل القرآن الكريم بلسان العرب ولغتهم، ليسهل عليهم فهمه.

٣ً - عذب الله كثيراً من الأمم والجماعات عذاب الاستئصال؛ لكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله الكرام، وأكرم الله الأمم بالنبي محمد ﷺ، فرفع عنهم عذاب الإبادة والاستئصال.

٤ً - في الآيتين الأخيرتين وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على المشركين العرب من قومه، ووعيد لأولئك الكافرين وأمثالهم بالعقاب والعذاب والذل والهوان.

٥ً - تنحصر مهمة النبي ﷺ في التبشير والإنذار، وفي الآية حث له عليهما، أي تبشير من أطاعه بالجنة، وإنذار من عصاه بالنار.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة طه

مكية، وهي مئة وخمس وثلاثون آية

التسمية:

سميت (سورة طه) لابتداء السورة بالنداء بها ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ وهو اسم من أسماء النبي ﷺ، وفي ذلك تكريم له، وتسلية عما يلقاه من إعراض قومه.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه هي:

أولاً - إن طه نزلت بعد سورة مريم، كما روي عن ابن عباس.

ثانياً - إنه ذكر في سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين (عشرة) مثل زكريا ويحيى وعيسى وإبراهيم، وموسى الذي ذكرت قصته موجزة مجملة، فذكرت في هذه السورة موضحة مفصلة، كما وضحت قصة آدم عليه السلام الذي لم يذكر في سورة مريم إلا مجرد اسمه فقط.

ثالثاً - إنه ذكر في آخر سورة مريم تيسير القرآن باللسان العربي، لسان محمد ﷺ للتبشير والإنذار، وابتدئ ذكر هذه السورة بتأكيد هذا المعنى.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كموضوعات سائر السور المكية وهو إثبات أصول الدين من التوحيد والنبوة والبعث. وكانت بداية السورة ذات إيحاء وتأثير عجيب، من خلال الحديث عن سلطان الله وعظمته وقدرته وشمول علمه، وقد أدرك هذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين تلاوتها في بداية إسلامه، كما هو معروف في قصة إسلامه.

وتضمنت السورة ما يأتي:

١ً - القرآن الكريم تذكرة لمن يخشى رب الأرض والسماوات العلا، وتثبيت لشخصية النبي ﷺ في قيامه بواجب الدعوة والتبليغ، والإنذار والتبشير، وعدم الالتفات لمكائد المشركين [الآيات: ١-٨].

٢ً - البيان الجلي لقصة موسى وتكليم الله له، وإلقائه صغيراً في اليم في صندوق، وإرساله مع أخيه هارون إلى فرعون الطاغية الجبار، وجداله بالحسنى لإثبات ربوبية الله وحده، ومبارزته السحرة، وتأييد الله له وانتصاره المؤزر، وإيمان السحرة بدعوته، ومعجزة انفلاق البحر وعبور بني إسرائيل فيه، وإهلاك فرعون وجنوده، وكفران بني إسرائيل بنعم الله الكثيرة عليهم، وحديث السامري وإضلاله بني إسرائيل باتخاذ العجل إلهاً لهم، وغضب موسى من أخيه هارون، الآيات [٩-٩٨].

٣ً - الإشارة لفائدة القصص القرآني، وتوضيح جزاء من أعرض عن القرآن [٩٩-١٠١].

٤ً - بيان حالة الحشر الرهيبة، وإبادة الجبال، وأوصاف المجرمين يوم القيامة، والحساب العادل [١٠٢-١١٢].

٥ً - عربية القرآن ووعيده وعصمة رسوله من نسيانه [١١٣-١١٤].

٦ً - إيراد قصة آدم عليه السلام مع إبليس في الجنة [١١٥-١٢٢].

٧ً - تأكيد بيان الجزاء في الدنيا والآخرة لمن أعرض عن القرآن، بالعيشة الضنك في الدنيا، والعمى في الآخرة عن الحجة المنقذة من العذاب [١٢٤-١٢٧].

٨ً - العظة والاعتبار بهلاك الأمم السابقة وتأخير عذاب المشركين إلى يوم القيامة [١٢٨-١٢٩].

٩ً - توجيهات ربانية للنبي ﷺ وأمته في الصبر على الأذى، وتنزيه الله تعالى في الليل والنهار، وعدم الافتتان بزهرة الحياة الدنيا لدى الآخرين، وأمر الأهل بإقامة الصلاة ومتابعة التنفيذ [١٣٠-١٣٢].

١٠ً - طلب المشركين إنزال آيات مادية من الله، وإعذارهم بعد إرسال الرسول وإنزال القرآن، ثم وعيدهم بالعذاب المنتظر يوم القيامة [١٣٣-١٣٥].

القرآن سبب السعادة

﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

الإعراب:

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ ما أنزلنا: إما جواب القسم؛ لأن قوله تعالى: ﴿طه ۝١﴾ جارٍ مجرى القسم، وإما أن يكون ﴿طه ۝١﴾ بمعنى: يا رجل، أي يا رجل ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، ولام ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لام النفي، أو لام الجحود. و﴿تَذْكِرَةً﴾ منصوب على الاستثناء المنقطع.

﴿تَنزِيلًا﴾ منصوب على المصدر. ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مبتدأ، أو مرفوع على المدح أي هو الرحمن. و﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ خبران للمبتدأ.

﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي وأخفى من السر، كقولهم: الله أكبر، أي أكبر من كل شيء.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ مرفوع، أو بدل من ضمير ﴿يَعْلَمُ﴾ وخبر المبتدأ: جملة: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾.

البلاغة:

﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ التفات من ضمير التكلم إلى الغيبة، تفنناً في الكلام، وتفخيماً للمنزل من وجهين: إسناد إنزاله إلى ضمير الواحد العظيم الشأن، والتنبيه على أنه واجب الإيمان به.

المفردات اللغوية:

﴿طه ۝١﴾ هذه الحروف المقطعة نزلت للتنبيه والتحدي بإعجاز القرآن البياني، ما دام مركباً من الحروف التي تتكون منها لغة العرب نفسها. أو هو اسم من أسماء النبي ﷺ، أو معناه: يا رجل، كما روي عن ابن عباس وكبار جماعة التابعين.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ يا محمد ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب بما فعلت بعد نزوله من طول قيامك بصلاة الليل، أي خفف عن نفسك. ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ لكن أنزلناه للتذكير والعظة ﴿لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ لمن يخاف الله. ﴿ٱلْعُلَى﴾ جمع عليا، مؤنث الأعلى، كالكبرى مؤنث الأكبر.

﴿ٱلْعَرْشِ﴾ في اللغة: سرير الملك، وهو هنا كناية عن الملك، أو هو مخلوق الله أعلم به، وهذا هو الأصح. ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استولى عليه، بدليل قول الشاعر:

استوى بِشْر على العراق من غير سيف ودم مِهْراق

والأصح أن الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب، كما قال الإمام مالك، فهو استواء يليق بجلال الله تعالى. ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من المخلوقات. ﴿وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ التراب الندي، وهنا يراد مطلق التراب، والمراد: الأرضون السبع؛ لأنها تحت التراب. ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾ في ذكر أو دعاء، فالله غني عن الجهر به. ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر، وهو حديث النفس والخاطر الذي يدور في الذهن، دون التفوه به، فلا تجهد نفسك بالجهر. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ الصفات والأسماء التسعة والتسعون الوارد بها الحديث. والحسنى: مؤنث الأحسن. والذي فُضِّلَت به أسماؤه في الحسن على سائر الأسماء: دلالتها على معاني التقديس والتمجيد والتعظيم والربوبية والأفعال التي هي النهاية في الحسن، كما قال الزمخشري.

سبب النزول:

قال مقاتل: قال أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، ومُطْعِم بن عديّ للنبي ﷺ: إنك لتشقى حيث تركت دين آبائك، فقال ﷺ: «بل بعثت رحمة للعالمين» قالوا: بل أنت تشقى، فأنزل الله الآية رداً عليهم، وتعريفاً لمحمد ﷺ بأن دين الإسلام هو سبب كل سعادة، وما فيه المشركون هو الشقاء بعينه.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان أول ما أنزل الله عليه الوحي يقوم على صدور قدميه إذا صلى، فأنزل الله: ﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ②﴾.

التفسير والبيان:

﴿طه ①﴾ هذه الحروف المقطعة التي يبتدأ بها في أوائل السورة لتنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها، ولتحدي العرب بالإتيان بمثل القرآن، ما دام مركباً من حروف اللغة التي ينطقون بها ويكتبون. وقيل: هو اسم للنبي ﷺ، ومعناه: طأ الأرض يا محمد، قال ابن الأنباري: وذلك أن النبي ﷺ كان يتحمل مشقة الصلاة، حتى كادت قدماه تتورّمان، ويحتاج إلى التروّح، فقيل له: طأ الأرض، أي لا تتعب نفسك في الصلاة جدّاً، حتى تحتاج إلى المراوحة بين قدميك.

﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③﴾ أي لم ننزل القرآن عليك لتتعب نفسك بسبب تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وفرط تحسرك على أن يؤمنوا، فإن إيمانهم ليس إليك، بل أنزلناه لتبلغ وتذكِّر، فحسبك التبليغ والتذكير، ولا تلتفت بعدئذ لإعراض المعاندين، ولا ترهق نفسك وتتعبها بحملهم على قبول دعوتك.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥﴾ [الكهف: ٦/١٨] . فقوله: ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾ لتتعب بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم، وتحسرك على أن يؤمنوا.

روى جويبر عن الضحاك قال، ومعه مقاتل: لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ① مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ② إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ③﴾ فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل

من آتاه الله العلم، فقد أراد به خيراً، كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وما أنزلناه إلا تذكرة لتذكّر به من يخاف عذاب الله، وينتفع بما سمع من كتاب الله الذي جعلناه رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة، وليس عليك جبرهم على الإيمان، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨/٤٢] ، و﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢/٨٨] .

وفي هذا إيناس للنبي ﷺ على إعراض قومه عن دعوته، وضيق نفسه من تصميمهم على الكفر.

روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة، إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده: إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي».

وكلمة ﴿إِلَّا﴾ في الآية: إما استثناء منقطع بمعنى: لكن، أو متصل والتقدير: ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ إلا ليكون تذكرة.

وإنما خصَّ (من يخشى) بالتذكرة؛ لأنهم المنتفعون بها، وإن كان القرآن عاماً في الجميع، وهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢] . ودليل العموم قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١/٢٥] .

ووجه التذكير بالقرآن: أن النبي ﷺ كان يعظهم به وببيانه.

﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾﴾ أي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد نُزِّل عليك تنزيلاً من خالق الأرض والسماوات العليا، والمراد بهما جهة السفل والعلو، الأرض بانخفاضها وكثافتها، والسماوات في ارتفاعها ولطافتها.

والمراد بالآية: إخبار العباد عن كمال عظمة منزل القرآن، ليقدروا القرآن حق قدره.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ أي ومنزل القرآن هو الرحمن المنعم بجلائل النعم ودقائقها، وهو الذي علا وارتفع على العرش، ولا يعلم البشر كيف ذلك، بل نؤمن به على طريقة السلف الصالح الذين يؤمنون بالصفات من دون تحريف ولا تأويل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل ولا تعطيل، فهو استواء يليق بجلال الله وعظمته، بلا كيف ولا انحصار، كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ٤٨/١٠] لأن الله تعالى ليس بجسم ولا يشبه شيئاً من الحوادث، والعرش: شيء مخلوق، لا ندري حقيقته.

ويرى الخلف تأويل الصفات، فيراد بالاستواء: الاستيلاء والقهر والتصرف الكامل، والعرش: هو الملك، واليد: القدرة.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ أي إن الله منزل القرآن هو أيضاً مالك السماوات والأرض وما بينهما من الموجودات، ومالك كل شيء ومدبره، ومتصرف فيه، ومالك ما تحت التراب من شيء. فله الكون كله ملكاً وتدبيراً وتصرفاً.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ أي إن تجهر بدعاء الله وذِكْره، فالله تعالى عالم بالجهر والسر، وما هو أخفى منه مما يخطر بالبال، أو يجري في حديث النفس، فالعلم بكل ذلك سواء بالنسبة إلى الله عز وجل. والمعنى: إن تجهر بذكر الله ودعائه، فاعلم أنه غني عن ذلك، فإنه يعلم السر وما هو أخفى من السر.

وأما إجراء الأدعية والأذكار على اللسان، فلمساعدة القلب على ذلك، ولتصور المعنى، وشغل الحواس بالمطلوب وصرفها عن التفكر في غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٧/٢٠٥].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ إن صفات الكمال المتقدمة هي لله المعبود الحق الذي لا إله غيره ولا رب سواه، وله أحسن الأسماء والصفات الدالة على كل الكمال والتقديس والتمجيد، وهي التسعة والتسعون التي ورد بها الحديث الصحيح، والتي تقدم ذكرها في سورة الأعراف [الآية: ١١٠] وله أيضاً الأفعال الصادرة عن كمال الحكمة والصواب.

وبه يتبين أن هذه الآيات وصفت منزل القرآن على الرسول ﷺ بأنه خالق الأرض والسماء، وأنه الرحمن صاحب النعم، وأنه الذي استوى على العرش وصاحب التصريف في الكون، وأن له الكون كله ملكاً وتدبيراً وتصرفاً، وأنه العالم بكل شيء، سواء عنده السر والجهر، وأنه الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والصفات العليا والأفعال السديدة.

فهل بعد إيراد هذه الصفات من يدعي أن القرآن من عند غير الله، وهل يصح اتخاذ صنم من حجر أو خشب أو معدن شريكاً لله؟

لذلك كله بادر عمر بن الخطاب في جاهليته بعقل متفتح إلى الإسلام والإيمان، لما قرأت عليه أخته هذه الآيات.

وقد نزلت سورة طه قبل إسلام عمر رضي الله عنه.

إسلام عمر:

روى ابن إسحاق في سيرته: إن عمر قبل إسلامه كان شديد العداوة للإسلام، وقد خرج في يوم متوشحاً سيفه، يريد النبي ﷺ، فلقيه نُعيم بن عبد الله. فقال: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر، أتَرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم؟!

فقال: وأي أهل بيتي؟ قال: خَتَنك (زوج أختك) وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خبَّاب بن الأرتّ، معه صحيفة فيها أول سورة ﴿طه ①﴾ يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهما، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر قراءة خباب، فلما دخل قال: ما هذه الهينمة (الكلام الخفي الذي لا يفهم) الذي سمعت؟

قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه. وبطش بختَنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفَّه عن زوجها، فضربها فشجّها.

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

ولما رأى عمر ما صنع، ندم وارعوى، وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤونها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد.

فقالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال لها: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليَرُدّنها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر واغتسل فأعطته الصحيفة وفيها ﴿طه ①﴾ فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فلما سمع خباب خرج إليه، فقال له:

يا عمر، والله، إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته

أمس، وهو يقول: «اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب» فالله الله يا عمر، فقال عمر: دُلَّني يا خباب على محمد حتى آتيه. فأسلم ورضي الله عنه.

هذا ما ذكره ابن إسحاق مطولاً، وروى القصة بإيجاز الدارقطني في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خرج عمر متقلداً بسيف؛ فقيل له: إن خَتَنك وأختك قد صَبَوَا[1]، فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبَّاب، وكانوا يقرؤون ﴿طه ۝١﴾ فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم فأقرؤه - وكان عمر رضي الله عنه يقرأ الكتب - فقالت له أخته: إنك رِجْس ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ، فقام عمر رضي الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ ﴿طه ۝١﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - ليس إنزال القرآن العظيم لإتعاب النفوس وإضناء الأجسام، وإنما هو كتاب تذكرة ينتفع به الذين يخشون ربهم. وفي هذا رد على كفار قريش - كما تقدم في سبب النزول - الذين قالوا: ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى، فأنزل الله تعالى ﴿طه ۝١﴾.

ويوضح ذلك ما قاله الكلبي: لما نزل على النبي ﷺ الوحي بمكة، اجتهد في العبادة، واشتدت عبادته، فجعل يصلي الليل كله زماناً حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن يخفف عن نفسه، فيصلِّي وينام، فنسخت هذه الآيةُ قيامَ الليل، فكان بعد هذه الآية يصلّي وينام.

---

(١) يقال: صبأ: خرج من دين إلى دين، وبابه «خضع».

وهكذا لم يكن إنزال القرآن لإتعاب النفس في العبادة، وإذاقتها المشقة الفادحة، وإنما القرآن كتاب يسر، وما بعث النبي ﷺ إلا بالحنيفية السمحة.

٢ً - الله تعالى منزل القرآن هو خالق الأرض والسماوات العليا، وهو الرحمن المنعم بجلائل النعم ودقائقها الذي اعتلى عرشه، فكان مطلق التصرف في الخلْق والكون، وله جميع ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما من الموجودات وما تحت الأرض من معادن وذخائر وأموال وغير ذلك، والأرضون سبع والسماوات سبع أيضاً، وهو العالم بكل شيء، يستوي عنده السر والجهر وما هو أخفى من السر، قال ابن عباس: السر: ما حدَّث به الإنسان غيره في خفاء، وأخفى منه: ما أضمر في نفسه مما لم يحدِّث به غيره.

وهو سبحانه الإله الوحيد في هذا الكون، لا إله غيره، ولا رب سواه، له الأسماء الحسنى التسع والتسعون، والصفات العليا، والأفعال الحميدة الحكيمة السديدة.

وقد وَحَّد الله نفسه سبحانه؛ وذلك أن رسول الله ﷺ دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لاشريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن، قال للوليد بن المغيرة: محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلهاً آخر، وهو يدعو الله والرحمن؛ فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وأنزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١٧/١١٠] وهو واحد وأسماؤه كثيرة؛ ثم قال ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾.

قصة موسى عليه السلام

-١-

تكليم ربه إياه (أو مناجاة موسى) وابتداء الوحي إليه في الوادي المقدس

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ۝١٦﴾

القراءات:

﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾:

وقرأ حمزة (لأهلِهُ امكثوا).

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أنست).

﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: (لعليَ آتيكم).

﴿إِنِّىٓ أَنَا۠﴾

قرئ:

١- (إنيَ أنا) وهي قراءة نافع.

٢- (أنيَ أنا) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو.

٣- (إنيْ أنا) وهي قراءة الباقين.

﴿طُوًى﴾:

قرئ:

١- (طوًى) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (طوَى) وهي قراءة الباقين.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾:

وقرأ حمزة (وأنَّا اخترناك).

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنِنيَ أنا).

﴿لِذِكْرِىٓ ، إِنَّ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (لذكريَ إن).

الإعراب:

﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ ﴿إِنِّىٓ﴾ بالكسر على الابتداء؛ لأن النداء في معنى القول، وإن: تُكْسر بعد القول؛ لأنها في تقدير الابتداء. وتقرأ بالفتح (أني) لوقوع ﴿نُودِىَ﴾ عليها، أي نودي يا موسى بأني، فحذف الياء تخفيفاً. و﴿أَنَا۠﴾ تأكيد لياء المتكلم.

﴿طُوًى﴾ من قرأ بتنوين، جعله منصرفاً اسماً للمكان غير معدول، كجُعَل وصُرَد، ومن لم ينون جعله ممنوعاً من الصرف إما للتأنيث والتعريف، أو للتعريف والعدل عن (طاوٍ) كعدول عمر عن عامر. وإعرابه: بدل من الوادي في كلا الوجهين.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ بدل مما يوحى.

﴿لِذِكْرِي﴾ إما مضاف إلى المفعول، أي لتذكرني، وإما مضاف إلى الفاعل، أي لأذكرُك.

﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ﴿أُخْفِيهَا﴾ إما أن الهمزة فيه همزة السَّلْب، أي أريد إخفاءها، مثل: أشكيتُ الرجل، إذا أزلتُ شكايته، وإما أن المعنى: أكاد أخفيها عن نفسي، فكيف أظهرُها لكم. ولام ﴿لِتُجْزَى﴾ متعلقة بـ ﴿أُخْفِيهَا﴾.

﴿فَتَرْدَى﴾ إما منصوب جواباً للنهي بالفاء، بتقدير (أن) مثل: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ﴾ [طه: ٢٠/٨١] وإما مرفوع على تقدير: فإذا أنت تردى، مثل ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ﴾ [النساء: ٤/٧٣] .

البلاغة:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾﴾؟ للتشويق والحث على الإصغاء، وهو استفهام تقرير.

﴿لِتَشْقَى﴾ ﴿يَخْشَى﴾ ﴿وَأَخْفَى﴾ ﴿تَسْعَى﴾ سجع حسن.

المفردات اللغوية:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ﴾ تشويق لسماع قصته بقصد التأسي به، والحديث: مايبلغ الإنسان من الكلام، سواء بالسمع أو بالوحي. وهو استفهام تقرير.

﴿إِذۡ رَءَا﴾ ظرف للحديث؛ لأنه حدث، أو مفعول لفعل مقدر وهو اذكر. ﴿لِأَهۡلِهِ﴾ لامرأته. ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ هنا، والمكث: الإقامة، قال ذلك في أثناء مسيره من مدين إلى مصر. ﴿ءَانَسۡتُ﴾ أبصرت. ﴿ءَاتِيكُم﴾ أجيئكم. ﴿بِقَبَسٍ﴾ بشعلة من النار مقتبسة على رأس فتيلة أو عود وقال: ﴿لَّعَلِّيٓ﴾ لعدم الجزم بوفاء الوعد. ﴿هُدٗى﴾ هادياً يدلني على الطريق، وكان أخطأها لظلمة الليل.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ أتى النار، وجد ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء. ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ أي للتواضع والأدب. ﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ المطهر أو المبارك، وهو تعليل للأمر باحترام البقعة. ﴿ٱخۡتَرۡتُكَ﴾ اصطفيتك للنبوة من قومك. ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ إليك مني، أو للوحي، واللام تحتمل التعلق بكل من الفعلين. ﴿أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ دال على أن الأمر مقصور على تقرير التوحيد الذي هو منتهى العلم، والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ لتكون ذاكراً لي، خصها بالذكر، لما فيها من تذكر المعبود، وشغل القلب واللسان بذكره، وقيل: لذكر صلاتي، لما روي أنه ﷺ قال فيما رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي عن أنس: «من نام عن صلاة، أو نسيها، فليصلها إذا ذكرها»، إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ كائنة لا محالة. ﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ أبالغ في إخفائها ولا أظهرها بأن أقول: إنها آتية، أو أريد إخفاء وقتها عن الناس، ويظهر لهم قربها بعلاماتها. ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ أي لتجزى فيها كل نفس بما تسعى من خير أو شر. ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا﴾ لا يصرفنك عن الإيمان بها. ﴿هَوَىٰهُ﴾ ما تهواه نفسه في إنكارها. ﴿فَتَرۡدَىٰ﴾ فتهلك إن صددت عنها.

المناسبة:

لما عظَّم الله تعالى حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه به من التبليغ، أتبع ذلك بما يقوّي قلب رسوله ﷺ في الإبلاغ من ذكر أحوال الأنبياء عليهم

السلام كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١١/١٢٠] . وبدأ بقصة موسى ليأتم به في تحمل أعباء النبوة، وتبليغ الرسالة، والصبر على مقاساة الشدائد، فإن هذه السورة من أوائل ما نزل، وكان موسى أشد الناس صبراً على تحمل مكاره قومه. وفي سياق هذه القصة تسلية للنبي ﷺ لما يلاقيه من مشاق أحكام النبوة.

التفسير والبيان:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩﴾ أي وهل بلغك خبر موسى وقصته مع فرعون وملئه، وكيف كان ابتداء الوحي إليه، وتكليمه إياه؟ وبدئ بالاستفهام لتثبيت الخبر، وتقريره في نفس المخاطب، فذلك أسلوب مؤثر في إلقاء الكلام العربي.

قال المفسرون: استأذن موسى عليه السلام شُعَيْباً في الرجوع إلى والدته، فأذن له، فخرج، فولد له ابن في الطريق في ليلة شاتية مثلجة، وكانت ليلة الجمعة، وقد حاد عن الطريق، فقدح موسى عليه السلام النار، فلم تور المِقْدَحة شيئاً، فبينا هو يزاول ذلك، إذ نظر ناراً من بعيد عن يسار الطريق، فظن أنها نار من نيران الرعاة، من جانب جبل الطور الواقع عن يمينه[١]، كما قال تعالى:

﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠﴾ أي هل أتاك خبر موسى حين رأى ناراً، وكانت رؤيته للنار في ليلة مظلمة لما خرج مسافراً من مدين إلى مصر، والصحيح كما قال الرازي أنه رأى ناراً، لا تخيَّل ناراً، ليكون صادقاً في خبره؛ إذ الكذب لا يجوز على الأنبياء.

(١) تفسير الرازي ٢١/٥١

فقال لزوجه وولده وخادمه مبشراً لهم: أقيموا مكانكم، إني رأيت ناراً من بعيد، لعلني أوافيكم منها بشعلة مضيئة أو بشهاب، أو جذوة كما في آية أخرى، لعلكم تستدفئون (أو تصطلون) بها، مما يدل على وجود البرد، أو أجد عند النار من يهديني إلى الطريق ويدلني عليها، كما قال تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢٩]. والهدى: ما يهتدى به، وهو اسم مصدر، فكأنه قال: أجد على النار ما أهتدي به من دليل أو علامة. ومعنى الاستعلاء على النار: أن أهل النار يستعلون المكان القريب منها، ولأن المصطلين بها إذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢﴾ أي فلما أتى النار التي آنسها، واقترب منها نودي من قبل الرب تبارك وتعالى، كما قال: ﴿نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٠]. وقال هاهنا: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ أي نودي: ياموسى، إن الذي يكلمك ويخاطبك هو ربّك، فاخلع حذاءك؛ لأن ذلك أبلغ في التواضع، وأقرب إلى التشريف والتكريم، وحسن التأدب، إنك بالوادي المطهر المسمى ﴿طُوًى﴾ من أرض سيناء.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣﴾ أي وأنا الله الذي اخترتك للرسالة والنبوة، فاستمع سماع قبول واستعداد ووعي لما ينزل عليك من الوحي، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٤] أي على جميع الناس الموجودين في زمانك.

ثم ذكر الموحى به فقال تعالى:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ أي إن

الذي يناديك هو الله، وهو تأكيد لما سبق، وهذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له. ووحدني وقم بعبادتي من غير شريك؛ لأن اختصاص الألوهية به سبحانه موجب لتخصيصه بالعبادة، والمعنى: أنا الإله الحق الواحد، المستحق للعبادة دون سواي.

وأدّ الصلاة المفروضة على النحو الذي آمرك به، مستكملة الأركان والشروط لتذكرني فيها وتدعوني دعاء خالصاً إلي. وخص الصلاة بالذكر، لكونها أشرف طاعة وأفضل عبادة. أو المعنى: أقم الصلاة عند تذكرك بالواجب وذكرك لي؛ لما رواه الإمام أحمد عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها، فإن الله تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾» وفي الصحيحين عن أنس أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك».

وأخرج الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من نسي صلاة أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها، فإن الله قال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾».

واقتصر الحديث على حالتي النوم أو النسيان؛ لأن شأن المؤمن ألا يقصر في واجبه بأداء الصلاة، فإذا تركها عمداً كان قضاؤها ألزم وأوجب؛ إذ لا كفارة لها إلا أداؤها أو قضاؤها.

ثم أخبر عن الساعة أو مجيء يوم القيامة ومصير الخلائق بعد توحيد الله وعبادته، باعتبارها مقر الحساب على الأعمال، فقال:

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ أي إن الساعة قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها، أكاد أخفيها من نفسي، فكيف يعلمها غيري، فاعمل لها الخير من عبادة الله والصلاة، ولأن مجيء الساعة

أمر حتم لازم لأجزي كل عامل بعمله، ولتجزى كل نفس بما تسعى فيه من أعمالها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ٥٢/١٦] وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨] .

والله أخفى الساعة أي القيامة، وأجل الإنسان، ليعمل الإنسان بجد ونشاط، ولا يؤخر التوبة، ويترقب الموت كل لحظة. وكلمة ﴿أَكَادُ﴾ أي أقارب، وهي زائدة، أي إن الساعة آتية أخفيها.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي فلا يصرفنك ياموسى عن الإيمان بالساعة (القيامة) والتصديق بها، والاستعداد لها من لا يصدق بها من الكَفَرة، واتَّبع أهواءه وتصوراته المغلوطة، بالانهماك في الملذات المحرمة الفانية، فإنك إن تفعل ذلك تهلك.

والخطاب ليس مقصوراً على موسى الرسول عليه السلام، وإنما بدئ به لتعليم غيره، فهو شامل جميع الناس البالغين العقلاء.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات مايأتي:

أ - ضرورة تعلم قصص الأنبياء والاطلاع عليها للعبرة والعظة، وقد حث القرآن على ذلك في مطلع الإخبار عن قصة موسى عليه السلام، بصيغة الاستفهام الذي هو استفهام إثبات وإيجاب. ولفظ الاستفهام ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ وإن كان لا يجوز على الله تعالى، لأنه ليس بحاجة إليه، لكن المقصود به كما تقدم تقرير الجواب في قلب النبي ﷺ، وهذه الصيغة أبلغ في ذلك، كما يقول المرء لصاحبه على سبيل التشويق ولفت النظر والانتباه: هل بلغك خبر كذا؟ فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر.

٢ً - على الزوج واجب الإنفاق على الأهل (المرأة) من غذاء وكساء ومسكن ووسائل تدفئة وقت البرد، لذا بادر موسى عليه السلام إلى الذهاب في الليلة المظلمة الشاتية لإحضار شعلة نار أو جذوة (جمر من النار) للدفء، وللحاجة الشديدة إليه، وبخاصة حالة النفساء.

٣ً - كان ذهاب موسى عليه السلام من أجل استحضار النار سبباً في تكليم الله له، وابتداء الوحي عليه، وإيتائه النبوة والرسالة.

٤ً - اقتضى أدب الخطاب الإلهي تكليفه بخلع نعليه، ففعل فوراً. جاء في الخبر: إن موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادي.

لذا وجب خلع النعال في أثناء الصلاة أو عند دخول المسجد إذا كان فيها نجاسة أو قذر، فإن كانت طاهرة جازت الصلاة فيها، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة في النعلين أفضل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٧/٣١] .

وكيفية تطهير النعلين من النجاسة على التفصيل الآتي: إن تحقق فيهما نجاسة مُجْمَعاً على تنجيسها كالدم والعذِرة (الغائط) أو من بول بني آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء عند مالك والشافعي وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفاً فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة، فيطهرها المسح بالتراب عند الأوزاعي وأبي ثور، وقال أبو حنيفة: يزيل النجاسة اليابسة الحكّ والفَرْك، ولا يزيل الرطبة إلا الغسل، أما البول فلا يجزئ فيه إلا الغسل. وعند المالكية قولان، أرجحهما أن المسح يطهر، وقال الشافعي: لا يطهّر شيئاً من ذلك كله إلا الماء.

٥ً - حسن الاستماع واجب مطلوب في الأمور المهمة، وأهمها الوحي المنزل من عند الله. وقد مدح الله من يحسن استماع كلام الله، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٩/١٨]

وذم من يعرض عن الاستماع فقال: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٧] فمدح المنصت لاستماع كلام الله مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/٢٠٤] وقال هاهنا: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى.

قال وَهْب بن مُنبِّه: من أدب الاستماع: سكون الجوارح وغضّ البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى، وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولايشغلها، فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغضّ طرفه، فلايلهو قلبه بما يرى، ويحصر عقله، فلا يُحدِّث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم.

٦ - اشتمل أول الوحي على موسى على أصلين في العقيدة وهما الإقرار بتوحيد الله، والإيمان بالساعة (القيامة) وعلى أهم فريضة بعد الإيمان وهي الصلاة.

وكان إخفاء الساعة للتهويل والتخويف، وترك المماطلة والتسويف في الإقبال على التوبة والعمل الصالح، فإن الإنسان إذا جهل وقت الساعة كان منها على حذر وخوف، وهذا أيضاً سبب إخفاء الله وقت الموت.

وإقامة الصلاة واجب في الوقت المخصص لها، ويجب قضاؤها كما دلَّت الأحاديث النبوية المتقدمة في حالتي النوم والنسيان، وأما من ترك الصلاة متعمداً، فالجمهور أيضاً على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصياً آثماً بتأخيرها عن وقتها، فالمتعمد آثم، والناسي والنائم غير آثمَيْن. وحجة الجمهور قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢/٤٣] ولم يفرق بين أن يكون في وقتها أو بعده، وهو أمر يقتضي الوجوب. وأيضاً فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسي، مع أنهما غير آثمَيْن، فالعامد أولى. ثم إن النسيان هو الترك، قال الله

تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧/٩] و﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩/٥٩] سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن الله تعالى لا ينسى، وإنما معناه تركهم. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره، قال الله تعالى في الحديث القدسي المتفق عليه عن أبي هريرة: «إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي» وهو تعالى لا ينسى، فيكون ذكره بعد نسيان، وإنما معناه: علمت، فكذلك يكون معنى قوله ﷺ: «إذا ذكرها» أي علمها.

وأيضاً فإن ديون الآدميين إذا كانت متعلقة بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها، وهي مما يسقطها الإبراء، فإذا شغلت الذمة بدين وجب إبراء الذمة منه، أداء أو قضاء، وديون الله أحق بالوفاء.

ثم إن تَرْكَ يوم من رمضان متعمداً بغير عذر يوجب القضاء، فكذلك الصلاة[1].

ومذهب المالكية: أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى، بدأ بالتي نسي إذا كان خمس صلوات فأدنى، وإن فات وقت هذه. وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتي حضر وقتها.

وهذا هو مذهب الحنفية إلا أنهم قالوا: الترتيب عندنا واجب في اليوم والليلة إذا كان في الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت. فإن خشي فوات الوقت بدأ بها، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عندهم.

وقال الشافعي: الاختيار أن يبدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه.

وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب في صلاة ستين سنة فأكثر وقال: لا ينبغي لأحد أن يصلي صلاة، وهو ذاكر لما قبلها؛ لأنها تفسد عليه.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧٨/١١.

ودليل تقديم الفائتة قبل الحاضرة: ما روي في الصحيح عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ فاتته العصر يوم الخندق، حتى غربت الشمس، فصلى العصر بعد غروب الشمس، ثم صلى بعدها المغرب.

وروى الترمذي عن ابن مسعود: إن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله تعالى، فأمر بلالاً بالأذان فقام فأذَّن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء.

واختلف العلماء إذا ذكر فائتة في مضيَّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال.

- فذهب مالك والليث والزهري: إلى أنه يبدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة.

وذهب الحسن البصري والشافعي وفقهاء الحديث والمحاسبي وابن وهب من المالكية: إلى أنه يبدأ بالحاضرة.

- وقال أشهب: يتخير فيقدم أيتهما شاء.

وأما من ذكر صلاة وهو في صلاة: فإن كان وراء الإمام، فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به يقول: يتمادى مع الإمام حتى يكمل صلاته. ثم اختلفوا فقال أبو حنيفة وأحمد: يصلِّي التي ذكر، ثم يصلِّي التي صلى مع الإمام، إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات.

وقال مالك: من ذكر صلاة وهو في صلاة قد صلَّى منها ركعتين، سلَّم من ركعتين، فإن كان إماماً انهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت. ولو ذكرها في صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات، أضاف إليها رابعة وسلَّم، نافلة غير فاسدة.

والفائتة بسبب النوم يبدأ عقد الصحو بصلاتها، لحديث مسلم والدارقطني

عن أبي قتادة: «ليس في النوم تفريط، وإنما التفريط على من لم يصلِّ الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى، فمن فعل ذلك فليصلِّها حين ينتبه لها، فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها» والصحيح ترك العمل بإعادة الصلاة في الجملة الأخيرة؛ لحديث الدارقطني عن عمران بن حصين: «أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم».

- ٢ -

انقلاب عصا موسى حية (المعجزة الأولى)

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

القراءات:

﴿وَلِىَ فِيهَا﴾:

وهي قراءة ورش، وحفص وقرأ الباقون (وليْ فيها).

الإعراب:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ (ما): مبتدأ، و﴿تِلْكَ﴾: خبره، و﴿بِيَمِينِكَ﴾: في موضع نصب على الحال، أي ما تلك كائنةً بيمينك، مثل: ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِۦ﴾ أي سار غير منفرد.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ﴿سِيرَتَهَا﴾ منصوب بـ ﴿سَنُعِيدُهَا﴾ بتقدير حذف حرف جرّ، أي: سنعيدها إلى سيرتها، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به فنصبه، أي منصوب بنزع الخافض.

البلاغة:

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ إطناب، وكان مقتضى الجواب: هي عصاي، ولكنه استرسل في الجواب، تلذذاً بالخطاب.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَا تِلْكَ﴾؟ استفهام يتضمن تنبيهاً لما يريه فيها من العجائب ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرار لزيادة الاستئناس والتنبيه ﴿أَتَوَكَّؤُاْ﴾ أعتمد عليها في المشي إذا عييت، أو عند الوقوف على رأس القطيع ونحو ذلك ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ وأخبط ورق الشجر بها على رؤوس غنمي، ليسقط، فتأكله ﴿مَـَٔارِبُ﴾ منافع وحاجات أخر، جمع مأرَبة، كحمل الزاد والسقاء وطرد الهوام.

﴿حَيَّةٌ﴾ ثعبان عظيم لآية أخرى، والحية في الأصل: تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى. والثعبان: العظيم من الحيات، والجانّ: الصغير منها ﴿تَسْعَىٰ﴾ تمشي على بطنها سريعاً ﴿خُذْهَا﴾ بأن يدخل يده في فمها فتعود عصا ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ لما رآها حية تسرع وتبتلع الحجر والشجر، خاف وهرب منها ﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ أي إلى حالتها الأولى وهي كونها عصا.

المناسبة:

بعد مناجاة الله لموسى، بدأ تعالى بذكر براهين نبوته، لتصديق رسالته، وأولها انقلاب العصا حية، أي انقلاب الجماد حيواناً، وبالعكس، وتلك آيات باهرات ومعجزات قاهرات أحدثها الله فيها لأجله، وليست من خواصها.

التفسير والبيان:

معجزة العصا لموسى هي البرهان الأول الخارق للعادة الدال على أنه لا

يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتي به إلا نبي مرسل، قال تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ هذا السؤال عن العصا سؤال تقرير، سأله الله تعالى لموسى عليه السلام وهو العليم به، للتنبيه على كمال قدرة الله، والتأمل بما يحدثه من خوارق العادات، والتأكد من أنها هي عصاه الحقيقية التي يعرفها، وأنها هي التي ستتحول حية تسعى، وإلا فقد علم الله ماهي. والمعنى: أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن؟!

فأجابه موسى بالمطلوب وزاد عليه؛ لأنه استمتع بخطاب الله تعالى، فقال: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ﴾ قال موسى: هي عصاي، وبه تم المراد، ولكن موسى عليه السلام ذكر فائدتين لها، وأجمل الكلام في الجملة الثالثة، ليسأله ربه: وما هذه المآرب.

﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ هذه عصاي أعتمد عليها في حال المشي، وأخبط بها الشجر وأهزه ليسقط منه الورق لتأكله الغنم، ولي فيها مصالح ومنافع وحوائج أخرى غير ذلك، كحمل الزاد والسقي وطرد السباع عن الغنم، وغير ذلك، فمنافع العصا كثيرة معروفة.

فأمره الله بإلقائها لتظهر المعجزة:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ قال تعالى لموسى عليه السلام: ألق هذه العصا التي في يدك ياموسى.

﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ فألقاها موسى على الأرض، فإذا هي قد صارت في الحال حية عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، وفي آية أخرى: فإذا هي تهتز كأنها جانّ، وهو أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٠] لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة، لا لصغرها، فتبين أن هذه الحية في غاية الكبر وفي غاية سرعة الحركة. وقوله ﴿تَسْعَىٰ﴾ تمشي وتضطرب.

ثم أمره تعالى بالعودة إلى مكانه، فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال:

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ قال له ربه: خذها بيمينك، ولا تخف منها، سنعيدها بعد أخذك لها إلى حالتها الأولى التي تعرفها قبل ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ خطاب من الله تعالى لموسى وحياً؛ لأنه قال: ﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾. ولابد للنبي في نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوة نفسه، فأراه في العصا وفي نفسه ما أراه لذلك.

٢ - في جواب موسى في هذه الآية دليل على جواز كون الجواب عن السؤال بأكثر مما سئل. جاء في الحديث الذي أخرجه أصحاب السنن الأربعة وابن أبي شيبة عن أبي هريرة: سئل النبي ﷺ عن ماء البحر للتوضؤ به، فقال: «هو الطهور ماؤه، الحلُّ ميتته». وسألته ﷺ امرأة عن الصغير حين رفعته إليه، فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر» أخرجه مسلم عن ابن عباس.

٣ - قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ خطاب من الله تعالى لموسى بلا واسطة، لا يلزم منه أن يكون موسى أفضل من محمد؛ لأن الله تعالى خاطب أيضاً محمداً عليه الصلاة والسلام ليلة المعراج في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٥٣/١٠] إلا أن الفرق بينهما أن الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الله إلى الخلْق، والذي ذكره مع محمد ﷺ كان سراً لم يطلع عليه أحداً من الخلق.

٤ - قال ابن عباس: إمساك العصا سنة للأنبياء وعلامة للمؤمن. وقال الحسن البصري: فيها ست خصال: سنة للأنبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغم للمنافقين، وزيادة في الطاعات.

ومنافع العصا كثيرة، منها اتخاذها قبلة في الصحراء، وقد كان للنبي ﷺ عَنَزة[١] تُركز له فيصلي إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحربة، فتوضع بين يديه، فيصلّي إليها، وذلك ثابت في الصحيح. وفي الصحيحين: أنه ﷺ كان له مِخْصَرة[٢].

والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكئاً على سيف أو عصا. وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي ﷺ وعَنَزته؛ وكان يخطب بالقضيب، وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء؛ وعادة العرب العرباء الفصحاء اللسن البلغاء: أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفي المحافل والخطب.

٥ً - لقد تحولت العصا الملقاة من يد موسى حية كبيرة سريعة الحركة بفعل الله عز وجل القادر على خرق العوائد، فقلب الله أوصافها وأعراضها وكذلك عادت الحية عصا إلى حالتها الأولى بفعل الله تعالى، وكل ذلك كان معجزة لموسى عليه السلام وبرهاناً حسياً قطعياً على نبوته.

وإنما أظهر الله هذه الآية لموسى، لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون.

وكان خوف موسى عند انقلابها لأول مرة حية - بعد أن علم أنه مبعوث من عند الله إلى الخلق - بمقتضى الطبع الإنساني الذي يخاف من الحيات لسميتها وخطرها؛ لأنه عليه السلام ماشاهد مثل ذلك قط. وعند الفزع الشديد قد يذهل الإنسان عن بعض خواصه. قال الشيخ أبو القاسم الأنصاري رحمه الله تعالى: وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة؛ لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه، فلا يخافه ألبتة.

---

(١) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئاً، وفيها سنان مثل سنان الرمح. والعنزة والحربة والنَّيْزَك والآلة بمعنى واحد.

(٢) المخصرة: ما يختصره الإنسان بيده، فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكئ عليها.

- ٣ -

اليد البيضاء (المعجزة الثانية)

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِيَ أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾

القراءات:

﴿وَيَسِّرْ لِيَ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ويسر ليَ).

﴿أَخِي، اشْدُدْ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (أخيَ اشدد).

﴿وَأَشْرِكْهُ﴾:

وقرأ ابن عامر (وأُشركه).

الإعراب:

﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾ بيضاء: حال من ضمير ﴿تَخْرُجْ﴾ و﴿ءَايَةً﴾ إما منصوبة على الحال بدلاً من ﴿بَيْضَاءَ﴾ أي تخرج مُبيِّنة عن قدرة الله تعالى، وإما منصوبة بتقدير فعل، أي آتيناك آية أخرى.

﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا﴾ ﴿لِّي﴾ في موضع نصب ظرف لـ (اجعل) أو صفة لـ ﴿وَزِيرٗا﴾ فلما تقدم صار منصوباً على الحال.

﴿هَٰرُونَ أَخِي ٣٠﴾ ﴿هَٰرُونَ﴾ منصوب على البدل من قوله: ﴿وَزِيرٗا﴾ وهو ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والعجمة، و﴿أَخِي﴾ عطف بيان، أو بدل.

﴿كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣﴾ ﴿كَثِيرٗا﴾ منصوب لأنه صفة لمصدر محذوف، أي نسبحك تسبيحاً كثيراً.

﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١﴾ يقرأ بوصل الهمزة وقطعها، فالوصل دعاء وطلب وهو كالأمر، والقطع فعل مضارع مجزوم؛ لأنه جواب ﴿وَٱجۡعَل﴾ على تقدير شرط مقدر، فهو مجزوم بجواب الطلب.

البلاغة:

﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ استعارة، استعار جناح الطير بجنب الإنسان.

﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ فيه احتراس: وهو أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد، فلو اقتصر على ﴿بَيۡضَآءَ﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق، فاحترس بقوله ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱضۡمُمۡ﴾ الضم: الجمع ﴿يَدَكَ﴾ اليمنى بمعنى الكف ﴿إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ إلى جنبك الأيسر تحت العضد، علماً بأن أصل الجناح للطائر، ثم أطلق على اليد والعضد والجنب، وهذا هو المراد هنا ﴿تَخۡرُجۡ﴾ خلاف ما كانت عليه من الأدمة ﴿بَيۡضَآءَ﴾ مشعة كشعاع الشمس تعشي البصر ﴿مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ من غير عاهة أو قبح كالبرص الذي تنفر الطباع منه ﴿ءَايَةً أُخۡرَىٰ﴾ معجزة ثانية غير العصا.

﴿لِنُرِيَكَ﴾ أي فعلنا ذلك لنريك بها ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ هي صفة: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أي من آياتنا العظمى الدالة على قدرتنا وعلى رسالتك. وإذا أراد عودها إلى حالتها الأولى، ضمها إلى جناحه كما تقدم، ثم أخرجها ﴿ٱذْهَبْ﴾ رسولاً ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ ومن معه بهاتين الآيتين وادعه إلى العبادة ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوز الحد في كفره، وعتوه وتجبره، حتى ادعى الألوهية ﴿ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ أي وسّعه لتحمُّل أعباء الرسالة والصبر على مشاقها ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ سهّل لي ما أمرتني به من تبليغ الرسالة ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾﴾ أزل تلك العقدة التي في لساني، حدثت في احتراقه بجمرة وضعها بفيه وهو صغير، لئلا ينفر مني الناس ويستخفوا بي ﴿يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ يفهموا قولي عند تبليغ الرسالة.

﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا﴾ مُعيناً، والأَزْر: القوة أو الظهر، يقال: آزره: أي قواه وأعانه ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ أي اجعله شريكاً معي في النبوة والرسالة ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ أي تسبيحاً كثيراً ﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي ونذكرك ذكراً كثيراً ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ عالماً بأحوالنا، فأنعمت بالرسالة، ولا نريد بالطاعة إلا رضاك.

المناسبة:

بعد أن ذكر تعالى معجزة العصا الدالة على صدق رسالة موسى عليه السلام، وهي المعجزة الأولى، ذكر المعجزة الثانية وهي معجزة اليد البيضاء التي تنقلب مشعة كشعاع الشمس، تُعشِي البصر.

وبعد هاتين الآيتين أمره الله بالذهاب إلى فرعون، لتبليغ رسالة ربه ودعوته إلى عبادة الله، فدعا موسى عليه السلام ربه بأربعة أمور: شرح صدره، وتيسير أمره، وحل عقدة لسانه، وجعل أخيه هارون نبياً وزيراً له، لتقويته، وتعاونه معه في أداء مهمة التبليغ، وذكر الله وعبادته، فصار مطلوب موسى ثمانية أمور، أربع منها وسائل، وأربع أخرى هي غايات.

التفسير والبيان:

هذا برهان ثانٍ لموسى عليه السلام على نبوته، وهو أن الله أمره أن يدخل يده في جيبه أو في جناحه (جنبه) معبراً عن الجنب بالجناح، فقال:

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ أي واضمم ياموسى يدك اليمنى أو كفك إلى جناحك (وهو جنبك تحت العضد) واجعلها تحت الإبط الأيسر، تخرج بيضاء لامعة ذات نور ساطع يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر، من غير عيب كبرص أو أذى أو شين - علماً بأن جلد موسى كان أسمر - معجزة أخرى غير العصا، ثم ردها فعادت كما كانت بلونها. وإذا حاول السحرة إبطال معجزة العصا، فإنه لم يحاول أحد إبطال معجزة اليد.

وذلك أن موسى عليه السلام كان إذا أدخل يده في جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ، كأنها فلقة قمر. قال الحسن البصري: أخرجها والله كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقي ربه عزّ وجلّ.

قال الله تعالى في مكان آخر: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٢]، وعبّر تعالى عن الجناح أيضاً بالجيب، فقال: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ٢٧/ ١٢]، ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [القصص: ٢٨/ ٣٢].

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ فعلنا هذا لنريك بهاتين الآيتين بعض دلائل قدرتنا على كل شيء في السماوات والأرض والمخلوقات الموجودات.

وبعد أن أظهر تعالى له هذه الآية أمره بالذهاب إلى فرعون، وبيّن العلة في ذلك، وهي أنه طغى، فقال:

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ أي اذهب رسولاً إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فارّاً منه، ومعك ما رأيته من آياتنا الكبرى، وادعه إلى توحيد الله وعبادته، ومُرْه بأن يحسن إلى بني إسرائيل، فإنه كفر وتجاوز قدره والحدود كلها، فآثر الحياة الدنيا وادعى أنه الرّب الأعلى.

ولما أمر الله تعالى موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون، وكان ذلك تكليفاً شاقاً، سأل ربه أموراً ثمانية، ثم ختمها بعلة سؤال تلك الأشياء، فقال:

أً - ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾﴾ قال موسى: ربّ وسّع لي صدري وأزل عنه الضيق فيما بعثتني به، فإنه أمر عظيم وخطب جسيم، وسبب هذا السؤال قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ٢٦/١٣] ، فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة، ليحتمل أذى الناس وأعباء الرسالة.

٢ً - ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾﴾ أي سهِّل علي القيام بما كلفتني به من تبليغ الرسالة، وقوِّني على مهمتي، فإن لم تكن أنت عوني ونصيري وإلا فلا طاقة لي بذلك.

٣ً - ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾﴾ أي وأطلق لساني بالنطق، وأزل ما فيه من العقدة والعي ليفهموا قولي وكلامي بتبليغ الرسالة. وقد كان في لسانه رُتّة (حبسة) أو لثغة حين عرض عليه وهو صغير التمرة والجمرة، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، فكان فيه لكنة، وذلك حين نتف شعرة من ذقن فرعون وهو صغير، فغضب، وتوجس منه شراً، فقالت امرأته: إنه صغير لا يدري شيئاً، فأتت له بجمرة وبلحة، فوضع الجمرة على لسانه.

وروي أن الحسين رضي الله عنه كان في لسانه رُتّة، فقال النبي ﷺ: «إن هذه ورثها من عمه موسى».

٤ - ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ أي واجعل لي عوناً ومساعداً لي في بعض أموري، من أهل بيتي هارون أخي، اجعله رسولاً، ليتحمل معي أعباء الرسالة. ودعم الأنبياء تقتضيه حاجة نشر الدين، لذا قال عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣/٥٢].

٥ - ٦: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ أي يا رب أحكم به قوّتي، واجعله شريكي في أمر الرسالة، حتى نؤدي المطلوب على الوجه الأكمل ونحقق أفضل الغايات. والحاصل أنه شفع له كي يكون نبياً مثله ليعينه، ويشدّ به أزره (قوته) ويجعله ناصراً له؛ لأنه لا اعتماد على القرابة.

٧ - ٨: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ أي لكي ننزهك كثيراً عما لا يليق بك من الصفات والأفعال، ونذكرك كثيراً وحدك دون أن نشرك معك غيرك. قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ أي إنك يا رب كنت عليماً بأحوالنا وأحوال غيرنا، في اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون الطاغية الجبار الذي ادعى الألوهية، فنمتثل أمرك، ولك الحمد على ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - إن إخراج موسى عليه السلام يده من جيبه أو جناحه بيضاء لامعة تضيء كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءاً: هي المعجزة الثانية بعد معجزة العصا.

٢ - أرسل الله موسى رسولاً إلى فرعون الطاغية الذي ادعى الألوهية،

وآزرته فئته الباغية في ذلك الادعاء، وأيد الله موسى بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول.

٣ - دعا موسى ربه، والدعاء نوع من العبادة، لتيسير القيام بمهمته وتحقيقه أحسن الغايات، وقد أجابه ربه لكل ما طلب لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، فشرح صدره وأزال عنه الضيق والغم، ويسّر أمره وقواه، وانحلّ أكثر العقد من لسانه، وإن بقي منها شيء قليل، لقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٢] وجعل له أخاه هارون نبياً ليعاونه في أداء الرسالة، والتعاون ضروري لإنجاح المقصود، وآزره وأحكم قوته به، وشاركه في مهمته، وكانا كثيراً ما يسبّحان الله وينزهانه عما لا يليق به من نقص كادعاء ولد أو شريك معه، ويذكرانه وحده لا شريك له، عملاً بما دعا به موسى عليه السلام.

٤ - إن الله تعالى عالم بخفيات الأمور، عالم بموسى وأخيه وبأحوال فرعون وغير ذلك، مدرك ما تعرض له موسى في الصغر، فأحسن إليه، ونصره على فرعون وملئه.

- ٤ -

نعم الله الثماني على موسى قبل النبوة

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾

القراءات:

﴿سُؤْلَكَ﴾:

وقرأ السوسي (سُوْلك).

﴿عَيْنِيٓ ، إِذْ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (عينيَ إذ).

﴿جِئْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جِيت).

الإعراب:

﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ﴾ ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ في موضع نصب على البدل من ﴿مَا﴾. وهاء ﴿ٱقْذِفِيهِ﴾ لموسى، وهاء ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ للتابوت.

﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ ﴿فُتُونًا﴾ إما منصوب على المصدر (مفعول مطلق) مثل: ضربت ضرباً، وإما منصوب بحذف حرف الجر، أي فتنّاك بفُتُون، ومعناه: وفتناك بأنواع من الفتن.

البلاغة:

﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ استعارة تبعية، شبّه اختياره للمحبة والرسالة والتكريم والتكليم بمن يختاره الملك للمهام الجليلة، لما يرى فيه من المقومات والخصال الحميدة، لئلا يكون أحد أقرب منزلة منه إليه.

المفردات اللغوية:

﴿سُؤْلَكَ﴾ مسؤولك، أي مطلوبك ﴿مَنَنَّا﴾ أنعمنا ﴿إِذْ﴾ للتعليل ﴿أَوْحَيْنَآ

﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ ألهمنا أو في المنام، لما ولدتك وخافت أن يقتلك فرعون في جملة من يولد، كما أوحى إلى مريم، وإلى النحل، وإلى الحواريين وليس وحياً على جهة النبوة ﴿مَا يُوحَىٰٓ﴾ في أمرك ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ ألقيه واطرحيه أي ألقي موسى الصغير في التابوت ﴿فَٱقْذِفِيهِ﴾ فألقي التابوت ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ البحر، والمراد هنا نهر النيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ الشاطئ، والأمر هنا بمعنى الخبر ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ وهو فرعون ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي محبة كائنة مني، لتصبح محبوباً بين الناس، فأحبك فرعون وكل من رآك ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ وتربى على رعايتي وحفظي لك بمرأى مني.

﴿إِذْ تَمْشِىٓ﴾ إذ للتعليل ﴿أُخْتُكَ﴾ مريم، لتتعرف خبرك، وقد أحضروا مراضع وأنت لا تقبل ثدي واحدة منهن ﴿يَكْفُلُهُۥ﴾ يضمه إلى نفسه ويصبح كافلاً له، فأجيبت، فجاءت بأمه، فقبل ثديها ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ تسرّ بلقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقك وأنت بفراقها وفقد شفقتها ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هو القبطي بمصر الذي استغاثه عليه الإسرائيلي، فاغتممت لقتله خوفاً من فرعون ﴿ٱلْغَمِّ﴾ غم قتله، خوفاً من عقاب الله تعالى، والغم: الكدر الحادث من خوف شيء أو فوات مقصود ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ اختبرناك بأنواع من الابتلاء، فخلصناك مرة بعد أخرى. والفتون: الابتلاء والاختبار بالمحن، ثم تخليصه منها. وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن، وترك الأصحاب، والمشي راجلاً على حذر، وفقد الزاد، وأجر نفسه، وغير ذلك أثناء مسيره من مصر إلى مدين، ومدين: على ثماني مراحل من مصر، وهي جنوب فلسطين[1].

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ أقمت في أهل مدين عشر سنين، بعد مجيئك إليها من مصر

---

(١) خرج موسى عليه السلام من مصر إلى أرض مدين وهو شاب، بعد قتل القبطي في مصر، وفي هذه الرحلة أقام بمدين وتزوج بابنة شعيب عليه السلام، وقضى عشر سنين فأكثر. ثم بعد بعثته عليه السلام عاد إلى مصر لإخراج بني إسرائيل من ذل العبودية ودعوة فرعون إلى دينه.

عند شعيب النبي وتزوجك بابنته ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قدرته في علمي لأن أكلمك وأكلفك بالرسالة، وهو أربعون سنة ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ اخترتك بالرسالة والمحبة. وكرر: ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ للتنبيه على غاية القصة وهي التكليم.

المناسبة:

بعد أن سأل موسى ربه أموراً ثمانية، ذكر تعالى هنا أنه أجابه إليها، ليتمكن من تبليغ رسالته، ثم ذكّره بنعمه السالفة عليه قبل النبوة، وعدّ له ثماني نعم عظام وهي: إلهام أمه صنع صندوق وإلقاؤه وهو رضيع في النيل: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ﴾. وإلقاء محبة الله عليه بحيث لا يراه أحد إلا أحبه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾. وحفظ الله له ورعايته: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾. وعودته إلى أمه للرضاع والحضانة: ﴿فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾. ونجاته من القصاص بقتل القبطي: ﴿فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾. وابتلاؤه بالفتن: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾. ومقاساته الفقر والغربة مع أهل مدين: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾. وتكليم الله له واختياره للنبوة والرسالة والهداية: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ، وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾.

التفسير والبيان:

أجاب الله تعالى في هذه الآيات دعاء موسى عليه السلام، وذكّره بنعمه السالفة عليه، فقال:

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي قال الله عز وجل لموسى: قد أعطيتك ما سألته من الأمور الثمانية، من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وحل العقدة، ونبوة هارون، وشد أزره به، وإشراكه في أمر الرسالة، والتمكين من التسبيح الكثير، والتذكر الكثير لله عز وجل.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ٣٧﴾ أي ولقد أحسنا وتفضلنا عليك بنعم سابقة كثيرة قبل النبوة وهي:

أ - ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ٣٨ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ أي مننا عليك حين ألهمنا أمك لإنقاذك من فرعون، أن تضعك في تابوت (صُنْدوق من خشب أو غيره) ثم تطرح هذا التابوت في البحر (اليم) وهو هنا نهر النيل، وأمرنا النيل بإلقائك على الشط قبالة منزل فرعون، فأخذك فرعون عدو الله وسيصير عدواً لك في المستقبل. فبينا فرعون جالس على رأس بركة بالساحل إذ بالصندوق، فأمر به، فأخرج، ففتح، فإذا صبي جميل صبيح الوجه، فأحبه حباً شديداً هو وزوجته، كما قال تعالى:

٢ - ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ أي ألقيت عليك محبة كائنة مني في قلوب العباد، لا يراك أحد إلا أحبك، فأحبك فرعون وزوجه التي قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٢٨/ ٩] .

٣ - ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ أي ولتتربّى بمرأى مني وفي ظل رعايتي.

٤ - ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ أي خرجت أختك تمشي على الشاطئ، تسير بسير التابوت، تتابعه بنظراتها لترى في أي مكان يستقر، فوجدت فرعون وامرأته يطلبان له مرضعة، فقالت: هل أدلكم على من يربيه ويحفظه؟ فجاءت بالأم، فقبل ثديها، وكان لا يقبل ثدي مرضعة أخرى غيرها، فرددناك إلى أمك بألطافنا، ليحصل لها السرور برجوع ولدها إليها، بعد أن طرحته في البحر، وعظم عليها فراقه.

٥ - ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ أي قتلت القبطي الذي وَكَزْته حين استغاث بك الإسرائيلي، وكان قتلاً خطأ، فنجيناك من الغم الحاصل عندك

من قتله خوفاً من العقوبة، بالفرار إلى مدين، فنجوت من الحبس والقتل والتعذيب.

٦ - ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي اختبرناك مرة بعد مرة بما أوقعناك فيه من المحن المذكورة، قبل أن يصطفيك الله لرسالته، حتى صلحت للقيام بالرسالة لفرعون ولبني إسرائيل.

٧ - ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ أي فأقمت ومكثت سنين مع أهل مدين بأرض العرب على ثماني مراحل من مصر، عانيت فيها من الفقر والغربة الشيء الكثير، حتى آجرت نفسك لشعيب لترعى غنمه مدة عشر سنين كانت مهر امرأتك.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾ أي أتيت في وقت سبق في قضائي وقدري أن أكلمك وأجعلك نبياً.

٨ - ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾ أي اخترتك برسالاتي وبكلامي لإقامة حجتي، وجعلتك رسولاً بيني وبين خلقي لتبليغ الدين، والهداية إلى التوحيد والشرع القويم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - لما سأل موسى عليه السلام ربه الأمور الثمانية، أجاب سؤله، وحقق مطلوبه ومرغوبه، فضلاً من الله ونعمة، ورحمة ومنّة.

٢ - وبعد إجابة دعائه، ذكَّره الله بما أنعم عليه من النعم الثماني التي أنعم بها عليه، قبل سؤاله، وتتلخص في حفظه سبحانه له من شر الأعداء والقتل من ابتداء حياته، وحين شبابه.

٣ً - كان الإيحاء من الله لأم موسى بصنع الصندوق وقذفه في البحر إلهاماً أو رؤيا رأتها في المنام، فقد اتفق الأكثرون على أن أم موسى عليه السلام ما كانت من الأنبياء والرسل، فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحي هو الوحي الواصل إلى الأنبياء؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/٧] .

وأيضاً جاء في القرآن الوحي لا بمعنى النبوة، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ١٦/٦٨] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ [المائدة: ٥/١١١] .

٤ً - من عجائب فعل الله وتدبيره وصنعه أن ينجي الله موسى الرضيع من قتل فرعون، وأن يتربى في بيت فرعون على مائدته، وأن يكون سبباً في هلاك فرعون وإغراقه في البحر مع ملئه وقومه.

٥ً - معنى محبة الله تعالى لموسى: إيصال النفع إلى عباده، بتهيئته للرسالة منذ الصغر، واستمرار ذلك حال الكبر إلى آخر عمره.

٦ً - ومن تدبير الله الخفي أن موسى الرضيع لم يقبل ثدي أحد من المراضع، حتى أقبلت أخته المتجاهلة أمره، فأخذته ووضعته في حجرها وناولته ثديها، فمصه وفرح به، فقالوا لها: تقيمين عندنا؟ فقالت: إنه لا لبن لي، ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون، قالوا: ومن هي؟ قالت: أمي، فقالوا: لها لبن؟ قالت: لبن أخي هارون، وكان هارون أكبر من موسى بسنة، وقيل: بثلاث، وقيل: بأربع. وذلك أن فرعون رحم بني إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين، فولد هارون فيها، كما قال ابن عباس. فجاءت الأم فقبل ثديها.

٧ً - ليس هناك في الدنيا بعد النبي أشد عاطفة من عاطفة الأم على ولدها، بخلق الله وتقديره بإفرازها الحنان على ولدها من خلايا خاصة بها، لذا حزنت

أم موسى وقلقت على ابنها بعد إلقائه في البحر، ولكن الله الرحيم بعباده ردّ إليها ابنها، وأقرّ عينها، وأزال حزنها وغمها.

٨ً - لم يكن قتل موسى قبطياً كافراً عمداً، وإنما كان خطأً، وقبل النبوة حال الصغر، قال كعب كما روى مسلم في صحيحه: وكان إذ ذاك ابن اثنتي عشرة سنة.

٩ً - آمن الله موسى من الخوف والقتل والحبس، واختبره اختباراً عسيراً شاقاً في مراحل حياته أثناء الشباب، حتى صلح للرسالة.

١٠ً - أتم موسى عليه السلام عشر سنوات في رعي غنم شعيب الرجل الصالح مهراً لامرأته، وهو أتم الأجلين. وقال وهب: لبث موسى عند شعيب ثمانياً وعشرين سنة، منها عشر مهر امرأته «صفورا» ابنة شعيب، وثماني عشرة إقامة عنده حتى ولد له عنده.

١١ً - بعد مرور موسى بمحن كثيرة حان وقت نبوته، فجاء في وقت مقدر سابقاً في علم الله وقضائه، موافقاً للنبوة والرسالة؛ لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة.

فاصطفاه الله واختاره لوحيه ورسالته، وأرسله إلى فرعون وملئه. وتتمة القصة في الآيات التالية.

أخرج البخاري ومسلم في تفسير الاصطفاء عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم من الجنة، فقال آدم: وأنت الذي اصطفاك الله برسالته، واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم، قال: فوجدته مكتوباً علي قبل أن يخلقني، قال: نعم، فحج آدم موسى».

- ٥ -

التوجيهات لموسى وهارون في دعوة فرعون

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾

القراءات:

﴿جِئْنَاكَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيناك).

المفردات اللغوية:

﴿بِآيَاتِي﴾ بمعجزاتي التسع كالعصا واليد البيضاء، فإن فرعون لما قال لموسى: فأت بآية، ألقى العصا ونزع اليد، وقال: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ﴾. ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ لا تفترا ولا تُقصِّرا ﴿فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تنسياني حيثما تقلبتما بتسبيح وغيره، واتخذا ذكري عوناً ومدداً وتأييداً مني إليكما. قال الزمخشري: ويجوز أن يريد بالذكر: تبليغ الرسالة، فإن الذكر يقع على سائر العبادات، وتبليغ الرسالة من أجلها وأعظمها.

وأما وقت نبوة هارون: فروي أن الله تعالى أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقى موسى، وقيل: سمع بمقبله، وقيل: ألهم ذلك، وخوطب مع أخيه موسى لأنه كان تابعاً، وموسى متبوعاً.

﴿طَغَىٰ﴾ تجاوز الحد بادعائه الربوبية ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فيه تلطف وبعد عن الغلظة والشدة، نحو قوله تعالى: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٨-١٩] . ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يتأمل ويتعظ فيؤمن. وقوله: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ متعلق باذهبا، أو قولا، أي باشرا الأمر على رجاء وطمع منكما أنه يثمر. والفائدة في إرسالهما مع علمه تعالى بأنه - أي فرعون - لا يؤمن: إلزام الحجة وقطع المعذرة ﴿يَخْشَىٰ﴾ أي يخاف من بطش الله وعذابه. وقدم التذكر على الخشية؛ لأن التذكر للمتحقق، والخشية للمتوهم، أي إن لم يتحقق صدقكما، ولم يتذكر، فلا أقل من أن يتوهمه، فيخشى .﴿يَفْرُطَ﴾ يعجل بالعقوبة ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ علينا، أي يتكبر ويزداد طغياناً ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ بالعون والحفظ والنصرة ﴿أَسْمَعُ﴾ ما يقول ﴿وَأَرَىٰ﴾ ما يفعل، بل أسمع وأرى ما يجري بينكما من قول أو فعل، فأصرف شرّه عنكما.

﴿فَأْتِيَاهُ﴾ قابلاه مواجهة ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أطلقهم من الأسر، ودعهم يذهبون معنا إلى الشام ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ ولا تبقهم عندك معذبين بالتكاليف الصعبة والأشغال الشاقة كالحفر والبناء وحمل الأثقال، وقتْل الوِلْدان، وهذا دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي بحجة على صدقنا بالرسالة. وهي جملة مقررة لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة. وإنما وحّد الآية وكان معه آيتان؛ لأن المراد إثبات الدعوى ببرهانها، فالمراد: جنس الآية، لا الإشارة إلى وحدة الحجة وتعددها.

﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي السلامة من العذاب في الدارين، لمن صدّق بآيات الله الدالة على الحق ﴿كَذَّبَ﴾ ما جئنا به ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ أعرض عنه. ويلاحظ أنه قدم البشارة بالسلام للترغيب وعملاً بسياسة اللين المأمور بها، ثم جاء التصريح بالوعيد والتوكيد فيه؛ لأن العقاب مؤيد والتهديد مهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى النعم الثماني على موسى في مقابل طلباته الثمانية، ذكر هنا الأوامر والنواهي أو التوجيهات التي ينفذها هو وأخوه هارون، كالتعليمات التي تعطى للرسل والسفراء والقناصل لدى الذهاب في مهمة إلى دولة أخرى، للتوصل إلى نجاح المهمة، وأداء الرسالة على أكمل وجه، والخلاصة: إنه لما قال تعالى: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ﴿٤١﴾﴾ عقبه بذكر ما لأجله اصطنعه، وهو الإبلاغ والأداء.

التفسير والبيان:

هذه هي الأوامر والنواهي الصادرة من الله لموسى وأخيه، فقال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ﴿٤٢﴾﴾ أي اذهب يا موسى مع أخيك إلى فرعون وقومه بحججي وبراهيني ومعجزاتي التي جعلتها لك آية وعلامة على النبوة، وهي تسع الآيات التي أنزلت عليك، ولا تضعفا، ولا تفترا عن ذكر الله، ولا عن تبليغ الرسالة إليهم، فإن ذكر الله عون وقوة وسلطان، كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن عمارة بن دسكرة: «إن عبدي كل عبدي: الذي يذكرني وهو مناجز قِرْنه» أي نظيره في الشجاعة والحرب. والذكر يقع على كل العبادات، وتبليغ الرسالة من أعظمها، وذلك بأن يبِّينا لهم أن الله أرسلهما مبشرين ومنذرين، وأنه لا يرضى منهم بالكفر، ويذكرا لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ اذهبا إلى فرعون، وأبطلا دعواه الألوهية بالحجة والبرهان؛ لأنه جاوز الحد في الكفر والتمرد، وتجبر على الله وعصاه، حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٧٩/٢٤].

وبدأ بفرعون لأنه الحاكم، فإذا آمن تبعه الرعية، ثم بين الله تعالى أسلوب الدعوة، فقال:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ أي فكلماه كلاماً رقيقاً لطيفاً لا خشونة فيه، وخاطباه بالقول اللين، فذلك أدعى به وأحرى أن يفكر فيما تبلغانه، ويخشى عقاب الله الموعود به على لسانكما. والمراد تركهما التعنيف، كقولهما: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ، وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/١٨-١٩] لأن نفس الحاكم مستعلية قاسية، لا تقبل القسر والقسوة، وتلين للمديح والاستعطاف. وكلمة (لعل) هنا لتوقع حصول ما بعدها، واحتمال تحققه، فالتوقع فيها من البشر، أي على أن تكونا راجيين لأن يتذكر أو يخشى. والخطاب وإن كان مع موسى، فإن هارون تابع له، فجعل الخطاب معه خطاباً مع هارون.

وفي هذه الآية عبرة وعظة وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] .

فأجاب موسى وهارون بقولهما:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ أي قال موسى وهارون: يا ربنا، إننا نخاف من فرعون إن دعوناه إلى التوحيد وعبادتك، أن يعجّل ويبادر بعقوبتنا، ويشتط في أذيتنا ويعتدي علينا، لتجبره وعتوه وقساوته.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي قال الله لموسى وهارون: لا تخافا من فرعون، فإنني معكما بالنصر والتأييد، والحفظ والعون عليه، وإنني سميع لما يجري بينكما وبينه، ولست بغافل عنكما، وأرى كل ما يقع، فأصرف شره عنكما. والمراد أنه تعالى حثهما على التبليغ بجرأة وحكمة، وتكفل لهما بالحفظ والمعونة والنصرة والوقاية من شر فرعون وغضبه. وتدل

هذه الآية على أن كونه تعالى سميعاً بصيراً صفتان زائدتان على العلم؛ لأن قوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ دل على العلم، و﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ على السمع والبصر.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي فأتياه في مجلسه وقابلاه وقولا له: إن الله أرسلنا إليك. وقوله ﴿رَبِّكَ﴾ إشارة إلى أن الرب الحقيقي هو الله، وأن دعواك الربوبية لنفسك لا معنى لها.

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل من الأسر، وخلِّ عنهم، ولا تعذبهم بتذبيح أبنائهم، واستحياء نسائهم، وتكليفهم مالا يطيقون من السخرة في أعمال البناء والحفر ونقل الأحجار. وإنما بدأ موسى وهارون بهذا الطلب لأنه أخف وأسهل من الدعوة المباشرة إلى الإيمان بالله تعالى.

﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي قد أتيناك بمعجزة ودلالة وعلامة من ربك على أنَّا مرسلون لك، والسلامة والأمن من سخط الله ومن عذابه على من اتبع هدى ربه، فآمن برسله، واسترشد بآياته الداعية إلى الحق والخير وترك الظلم والضلال. وهذا ليس بتحية. والعبارة الأخيرة كانت تكتب في مكاتبات النبي ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام.

مثل كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، ونصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين».

ولما كتب مسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ كتاباً صورته:

من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك، أما بعد: فإني قد أشركتك في الأمر، فلك المدر، ولي الوبر، ولكن قريش قوم يعتدون.

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي إننا وجهنا لك النصح والإرشاد؛ لأن الله أخبرنا فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم: أن العذاب متمحض خالص لمن كذب بآيات الله وبما ندعو إليه من توحيده، وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٣٧-٣٩] ، وقال سبحانه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ٩٢/ ١٤-١٦] ، وقال عزّ وجلّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣١-٣٢] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - ربط الله تعالى بين اصطناع موسى لنفسه، أي اختياره لوحيه ورسالته، وبين ما اختاره له، وهو إبلاغ الرسالة، وأداء الوحي إلى الناس.

٢ً - أيّد الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام بتسع آيات أنزلت على موسى، لتكون دليلاً وآية على النبوة، ومعجزة تثبت الصدق، وبرهاناً لفرعون وقومه على أن موسى وأخاه هارون أرسلهما الله إليهم.

٣ً - أمر الله تعالى موسى وهارون بالذهاب إلى دعوة فرعون إلى عبادة الله

والإقرار بربوبيته وألوهيته وحده لا شريك له، وقد خاطب أولاً موسى وحده تشريفاً له، ثم كرر الخطاب له مع أخيه للتأكيد.

٤ - قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوّة، وضمنت له العصمة، فنحن أولى بذلك، وحينئذٍ يحصل الآمر أو الناهي على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه.

والقول الليِّن: هو القول الذي لا خشونة فيه.

٥ - الخوف من عدوان الظلمة العتاة الجبابرة كفرعون من طبيعة البشر، لذا لم يكن مستغرباً أن يقول موسى وهارون: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ أي أن يشطط في أذيتنا أو يعتدي علينا.

٦ - قال العلماء: لما لحقهما - أي موسى وهارون - ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما، عرَّفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه. وهذه الآية رد على من قال: إنه لا يخاف؛ والخوف من الأعداء سنة الله في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم.

لذا حكى القرآن عن موسى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٢١] ، وقال: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢٨/ ١٨] ، وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٢٠/ ٦٧-٦٨] ، وقال في الآيات المتقدمة في هذه السورة: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

ومنه حفر النبي ﷺ الخندق حول المدينة تحصيناً للمسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربّه بمحل لم يبلغه أحد. ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرّة إلى الحبشة، ومرّة إلى المدينة، تخوّفاً على أنفسهم من مشركي مكة، وهرباً بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم.

قال العلماء: فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بني آدم عليه كاذب، وقد طبعهم على الهرب مما يضرّها ويؤلمها أو يتلفها.

٧ً - العصمة للأنبياء من الله تعالى وحده، لذا قال لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أي إنه معهما بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون. والسماع والبصر: عبارة عن الإدراك الذي لا تخفى معه خافية.

والآية دليل كما تقدم على العلم الإلهي، وعلى كونه تعالى سميعاً وبصيراً.

٨ً - كان أول مطلب موسى وهارون من فرعون إطلاق سراح بني إسرائيل من الأسر، وإنقاذهم من السّخرة والتعب في العمل؛ لأن بني إسرائيل كانوا عند فرعون في عذاب شديد، يذبّح أبناءهم، ويستخدم نساءهم، ويكلفهم من العمل في الطين واللَّبِن وبناء المدائن ما لا يطيقونه.

٩ً - كان خطاب موسى وهارون في غاية اللطف واستعمال المنطق، فقالا له: قد جئناك بآية دالة على نبوتنا ورسالتنا إليك، ومن اتَّبع الهدى سلم من سخط الله عزّ وجلّ وعذابه، وليس هذا بتحية، بدليل أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب.

وأضافا أيضاً في كلامهما: إنا قد أوحي إلينا أن العذاب أي الهلاك والدمار في الدنيا، والخلود في جهنم في الآخرة على من كذَّب أنبياء الله، وتولى، أي أعرض عن الإيمان. قال ابن عباس: هذه أرجى آية للموحِّدين؛ لأنهم لم يكذِّبوا ولم يتولوا.

- ٦ -

الحوار بين فرعون وموسى حول الربوبية

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

القراءات:

﴿مَهْدًا﴾ :

قرئ:

١- (مَهْداً) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (مِهَاداً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ : ﴿عِلْمُهَا﴾ : مبتدأ، و﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ : خبره، و﴿عِندَ رَبِّى﴾ : ظرف يتعلق بالخبر، وتقديره: علمها كائن في كتاب عند ربي. ويحتمل أن يكون ﴿عِندَ رَبِّى﴾ في موضع نصب على الحال؛ لأنه في الأصل صفة لكتاب وهو نكرة، فلما تقدمت صفة النكرة عليها، وجب النصب على الحال. ويحتمل أن يكون ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ بدلاً من قوله: ﴿عِندَ رَبِّى﴾ ويكون ﴿عِندَ رَبِّى﴾ خبر المبتدأ.

و ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي لا يضل ربي عنه، فحذف الجار والمجرور، كما حذفا في آية ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٧٩/٤١] أي المأوى له.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أو صفة لربي، أو منصوب على المدح.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟﴾ حال من ضمير أخرجنا، أي مبيحين لكم الأكل ورعي الأغنام.

البلاغة:

﴿نُعِيدُكُمْ﴾ و﴿نُخْرِجُكُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ التفات من الغيبة إلى التكلم.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ مقابلة، قابل بين ﴿مِنْهَا﴾ و﴿وَفِيهَا﴾ وبين الخلق والإعادة.

المفردات اللغوية:

﴿قَالَ﴾: فرعون .﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟ إنما خاطب الاثنين، وخص موسى بالنداء؛ لأنه الأصل، وهارون وزيره وتابعه .﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ أي منح كل نوع من المخلوقات صورته وشكله الذي يطابق كماله، ويناسب خواصه ومنافعه، ومميزاته التي يتميز بها من غيره .﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثم عرفه كيف يرتفق بما أُعطي له.

﴿قَالَ﴾ فرعون .﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فما حالهم بعد موتهم من السعادة والشقاوة. والبال في الأصل: الفكر، يقال: خطر ببالي كذا، ثم أطلق هنا على الحال المعني بها. و﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم، مثل قوم نوح وهود ولوط وصالح في عبادتهم الأوثان.

﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي علم حالهم محفوظ عند ربي في اللوح المحفوظ، يجازيهم عليها يوم القيامة. والمراد أن حالهم غيب لا يعلمه إلا الله، وقصد بذلك كمال علم الله الذي لا يضيع منه شيء. ﴿لَّا يَضِلُّ﴾ لا يخطئ مكان الشيء، والضلال: أن تخطئ الشيء في مكانه، فلم تهتد إليه. ﴿وَلَا يَنسَى﴾ ربي شيئاً، والنسيان: عدم تذكر الشيء بحيث لا يخطر ببالك. وهما محالان على الله العالم بالذات.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ أي هو الذي جعل للناس في جملة الخلق. ﴿مَهْدًا﴾ وقرئ: مهاداً، أي فراشاً، أي جعل الأرض كالمهد تتمهدونها. والمهد: مصدر سمي به، والمهاد: اسم ما يمهد كالفراش، أو جمع مهد.

﴿وَسَلَكَ﴾ سهّل. ﴿سُبُلًا﴾ طرقاً، أي جعل لكم فيها طرقاً بين الجبال والأودية والبراري، تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها. ﴿مَاءً﴾ مطراً. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أصنافاً وفيه التفات من لفظ الغيبة إلى صيغة المتكلم، على الحكاية لكلام الله تعالى، للتنبيه على ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة، وللإشعار بأنه تعالى مطاع تنقاد الأشياء المختلفة لمشيئته. ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ شتى صفة. ﴿أَزْوَاجًا﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم، و﴿شَتَّىٰ﴾ جمع شتيت، كمريض ومرضى، من شت الأمر: تفرق.

﴿كُلُوا﴾ منها. ﴿وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ فيها، والأنعام جمع نَعَم: وهي الإبل والبقر والغنم. والأمر للإباحة وتذكير النعمة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور هنا. ﴿لَآيَاتٍ﴾ لدلالات. ﴿لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أصحاب العقول، جمع نُهية، كغُرفة وغرف، سمي به العقل؛ لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ من الأرض، فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول مواد أبدانكم. ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ بالموت، وتفكيك الأجزاء. ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عند البعث. ﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ مرة أخرى، كما أخرجناكم عند ابتداء خلقكم.

المناسبة:

بعد مبادرة موسى وهارون بالذهاب إلى فرعون امتثالاً لأمر الله، ووصولهما إلى قصر فرعون، والإذن لهما بالدخول بعد انتظار طويل، وصف الله تعالى الحوار الذي دار بينه وبينهما، فسألهما سؤال إنكار للرّب تكبراً وتجبراً، بعد أن أثبت نفسه ربّاً في قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾. فاستدل موسى على إثبات الصانع بأحوال المخلوقات.

التفسير والبيان:

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ (٤٩)﴾ أي إذا كنتما رسولي ربّكما إلي، فأخبراني: من ربّكما الذي أرسلكما؟ ويلاحظ أنه أضاف الرب إليهما، ولم يضفه إلى نفسه، لعدم تصديقه لهما، ولجحده للربوبية الحقة، ثم إنه خص موسى بالنداء بعد خطابهما مراعاة لرؤوس الآي، ولما ظهر له أنه الأصل المتبوع، وهارون وزيره وأخوه. وأراد أن يقول: من هذا الرّب الذي بعثك يا موسى وأرسلك؟ فإني لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيري.

فأجابه موسى:

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠)﴾ أي قال موسى: ربنا هو الذي أعطى كل شيء صورته وشكله الذي يليق به، ويطابق المنفعة المنوطة به، كاليد للبطش، والرجل للمشي، واللسان للنطق، والعين للنظر، والأذن للسمع.

ثم أرشدهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم، فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له، إما اختياراً كالإنسان والحيوان، وإما طبعاً كالنبات والجماد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣)﴾ [الأعلى: ٨٧/٣] أي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه، أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق، ثم مشى الخلائق على ذلك، لا

يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. والآية لإثبات الصانع بأحوال المخلوقات.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ بعد أن أخبر موسى فرعون بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق، وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، قائلاً: إذا كان الأمر كذلك، فما حال وما شأن الأمم الماضية، لم يعبدوا ربك، بل عبدوا غيره من الأوثان وغيرها من المخلوقات؟

فأجاب موسى:

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ قال موسى: إن كل أعمالهم محفوظة عند الله، مثبّتة عنده في اللوح المحفوظ، يجازي بها، لا يخطئ في علم شيء من الأشياء، ولا ينسى ما علمه منها، فعلم الله محيط بكل شيء. أما علم المخلوق فيعتريه الأمران: عدم الإحاطة بالشيء، ونسيانه بعد علمه، والله منزه عن ذلك.

وقصد فرعون بالسؤال عن الأمم الماضية أن يصرف موسى عن البراهين القوية، فيتبين للناس صدقه، ويشغله بالتواريخ والحكايات، لكن موسى تنبه لهذا، فأجاب عن إثبات الإله بأوجز عبارة وأحسن معنى، وفوض أمر الماضي إلى علام الغيوب.

وبعد أن ذكر موسى الدليل الأول العام الذي يتناول جميع المخلوقات من الإنسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات، ذكر بعدئذ أدلة خاصة وهي ثلاثة:

أولها - قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي ربي الذي جعل الأرض ممهدة كالفراش، تعيشون فيها بيسر وسهولة، وقراراً تستقرون عليها وتقومون وتنامون عليها وتسافرون على ظهرها.

ثانيها - ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعل لكم فيها طرقاً تسلكونها وسهلها لكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١/٢١]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الزخرف: ١٠/٤٣]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ [نوح: ٧١/ ١٩-٢٠].

ثالثها - ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ أي وأنزل من السحاب مطراً، أخرجنا به أنواعاً من أصناف النبات المختلفة، من زروع وثمار حامضة وحلوة ومرة، وذات ألوان وروائح وأشكال مختلفة، بعضها صالح للإنسان، وبعضها للحيوان، لذا قال:

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أي خلقنا أصناف النبات، بعضه للإنسان، وبعضه لطعام الحيوان، فكلوا وتفكهوا مما يناسبكم، وارعوا أنعامكم (الإبل والبقر والغنم) في الأخضر واليابس، إن فيما ذكرت لكم لدلالات وحججاً وبراهين لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أن الخالق لا إله إلا هو، ولا ربّ سواه.

وبعد أن ذكر الله تعالى منافع الأرض والسماء، بيَّن أنها غير مطلوبة لذاتها، بل هي وسائل إلى منافع الآخرة، فقال:

﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب، والنطفة المتولدة من الغذاء مرجعها إلى الأرض، لأن الغذاء الحيواني من النبات، والنبات من امتزاج الماء والتراب.

وإلى الأرض مصيركم بعد موتكم، فتدفنون فيها، وتتفرق أجزاؤكم حتى تصير من جنس الأرض تراباً.

وسوف نخرجكم من قبوركم في الأرض مرة أخرى بالبعث والنشور، والمعنى: من الأرض أخرجناكم، ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى. والغرض من الآية هنا تنزيه الرّب نفسه وتذكير فرعون بأصله وأنه من تراب عائد إليه، فلا يغتر بدنياه وملكه، وليعلم أن أمامه يوماً شديد الأهوال، يسأل فيه عن كل شيء، ويحاسب على أعماله.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٥] ، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٢] .

وجاء في الحديث المروي عند أصحاب السنن: «إن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب، فألقاها في القبر، وقال: منها خلقناكم، ثم أخذ أخرى وقال: وفيها نعيدكم؟ ثم أخرى وقال: ومنها نخرجكم تارة أخرى».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - لم يؤمن فرعون بدعوة موسى وهارون، وظل على كفره، وتساءل تكبراً وتجبراً وزوراً وبهتاناً، مع كونه عارفاً بالله تعالى، وقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾؟

٢ً - تدل الآية المذكورة على أنه يجوز حكاية كلام المبطل؛ لأنه تعالى حكى كلام فرعون في إنكاره الإله، وحكى شبهات منكري النبوة، وشبهات منكري الحشر، لكن يجب قرن الجواب بالسؤال، لئلا يبقى الشك.

٣ً - وتدل الآية أيضاً على أن المحق يجب عليه استماع كلام المبطل، والجواب عنه من غير إيذاء ولا إيحاش، كما فعل موسى بفرعون هنا، وكما

أمر الله تعالى رسوله في قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] ، وقال سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/٦] .

٤ً - كان جواب موسى لفرعون: إن الله تعالى يعرف بصفاته، فهو خالق العالم، وهو الذي خصّ كل مخلوق بهيئة وصورة معينة. قال مجاهد: أعطى كل شيء صورة؛ لم يجعل خلق الإنسان في خلق البهائم، ولا خلق البهائم في خلق الإنسان، ولكن خلق كل شيء فقدَّره تقديراً. وقال الشاعر:

وله في كل شيء خِلْقةٌ وكذاك الله ما شاء فعل

أراد بالخلقة: الصورة.

٥ً - الله هو المختص بعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل، فلما سأل فرعون عن حال وشأن الأمم الغابرة، أجابه موسى وأعلمه أن علمها عند الله تعالى، أي إن هذا من علم الغيب الذي سألت عنه، وهو مما استأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوبة عند الله تعالى في اللوح المحفوظ.

٦ً- هذه الآية: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ﴾ ونظائرها تدل على تدوين العلوم وكتْبها لئلا تُنْسى، فإن الحفظ قد تعتريه الآفات من الغلط والنسيان. وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع، فيقيده لئلا يذهب عنه. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه، فهو موضوع عنده: إن رحمتي تغلِب غضبي». وفي صحيح مسلم أيضاً أن النبي ﷺ أمر بكتب الخطبة التي خطب بها في الحج لأبي شاه - رجل من اليمن - لما سأله كتْبها. وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «قيِّدُوا العلم بالكتابة». وأسند الخطيب عن أبي هريرة إن النبي ﷺ قال لرجل من الأنصار لا يحفظ الحديث: «استعن بيمينك».

وأما النهي عن كتابة الأحاديث، فكان ذلك متقدماً، فهو منسوخ بأمره ﷺ بالكتابة، وإباحتها لأبي شاه وغيره.

قال أبو بكر الخطيب: ينبغي أن يكتب الحديث بالسواد، ثم الحبر خاصة، دون المداد[١]؛ لأن السواد أصبغ الألوان، والحبر أبقاها على مرّ الدهور، وهو آلة ذوي العلم، وعُدّة أهل المعرفة.

٧ً - دل قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ على أن الله عالم بكل المعلومات، وهو اللفظ الأول، وعلى بقاء ذلك العلم أبد الآباد، وهو إشارة إلى نفي التغير، وهو اللفظ الثاني.

٨ً - من نعم الله تعالى أن جعل الأرض رغم كرويتها الكلية ممهدة كالفراش، وقراراً للاستقرار عليها، لتصلح للعيش عليها.

٩ً - ظاهر آية ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ﴾ يدل على أنه سبحانه إنما يخرج النبات من الأرض بواسطة إنزال الماء، فيكون للماء فيه أثر، وهذا التأثير على تقدير أن الله تعالى هو الذي أعطى الماء هذه الخواص والطبائع، فيكون الماء المنزل سبب خروج النبات في الظاهر.

١٠ً- إن إخراج أصناف من النبات المختلفة الأنواع والألوان من الأرض دليل واضح على قدرة الله تعالى ووجود الصانع. وإن جعل بعض النبات صالحاً للإنسان وآخر للحيوان: ﴿كُلُواْ وَٱرْعَوْاْ أَنْعَـٰمَكُمْ﴾ من أجل النعم على الإنسان، ومما يقتضي التأمل والتفكير عند ذوي العقول الصحيحة.

١١ً- ما أعظم خيرات الأرض، وما أحوج الناس إليها! فالله خلقنا منها، ويعيدنا إليها بعد الموت، ويخرجنا منها للبعث والحساب. أما كيفية الإخراج

(١) الحبر والمداد في اللغة سواء. ولعل المراد به المداد الذي لا لون له أو لونه باهت.

من الأرض فهو أن الله تعالى خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب، فكنا تبعاً له، وأما استمرار الخلق فهو أن تولد الإنسان من النطفة ودم الطمث، وهما يتولدان من الأغذية، والغذاء إما حيواني أو نباتي، والحيواني ينتهي إلى النبات، والنبات إنما يحدث من امتزاج الماء والتراب.

- ٧ -

اتهام موسى بالسحر

﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَجِئْتَنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (أجيتنا).

﴿سُوًى﴾:

قرئ:

١- (سِوًى) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، والكسائي.

٢- (سُوًى) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿مَكَانًا﴾ بدل منصوب من ﴿مَوْعِدًا﴾ ولا يجوز نصبه بقوله:

﴿مَوۡعِدًا﴾؛ لأن ﴿مَوۡعِدًا﴾ قد وصف بقوله: ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ﴾ والمصدر إذا وُصف لا يعمل. ويجوز أن يجعل ﴿مَكَانًا﴾ منصوباً بنزع الخافض: في.

﴿سُوًى﴾: يقرأ بكسر السين وبضمها، فمن قرأ بالكسر، فلأن «فِعَل» لم يأت في الوصف إلا نادراً نحو: قوم عِدَى، ولحم زِيَم. والضم أكثر؛ لأن «فُعَل» في الوصف كثير، نحو: لُكَع وحُطَم.

﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ﴾ ﴿يَوۡمُ﴾: خبر ﴿مَوۡعِدُكُمۡ﴾ على تقدير حذف مضاف، أي موعدكم وقت يوم الزينة، ولا يجوز أن يكون ﴿يَوۡمُ﴾ ظرفاً؛ لأن العرب لم تستعملْه مع الظرف استعمال سائر المصادر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ [هود: ٨١/١١] بالرفع إذ يراد به هنا المصدر، ولو قلت: إن خروجكم الصبحَ، لم يجز فيه إلا النصب، أي وقت الصبح.

و ﴿مَوۡعِدًا﴾ مصدر بمعنى الوعد في الأظهر.

والموعد: يكون مصدراً وزماناً ومكاناً بلفظ واحد، ﴿وَأَن يُحۡشَرَ﴾ معطوف بالرفع على ﴿يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ أي موعدكم وقت يوم الزينة، وموعدكم وقت حشر الناس، فحذف المضاف أيضاً.

البلاغة:

﴿سُوًى﴾ ﴿ضُحًى﴾ سجع حسن.

المفردات اللغوية:

﴿أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ بصّرنا فرعون آيات معهودة هي الآيات التسع المختصة بموسى .﴿فَكَذَّبَ﴾ بها وزعم أنها سحر .﴿وَأَبَىٰ﴾ امتنع أن يوحد الله تعالى أو أبى الإيمان والطاعة، لعتوه .﴿لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا﴾ مصر، ليصبح لك الملك فيها .﴿بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ يعارضه .﴿مَوۡعِدًا﴾ ميعاداً معيناً لذلك .﴿لَّا

﴿نُخۡلِفُهُۥ﴾ لا نخلف ذلك الوقت في الاجتماع فيه، إذا جعل (موعد) هنا هو الزمان، وإذا جعل مصدراً أي لا نخلف ذلك الموعد. ﴿سُوًى﴾ أي وسطاً، تستوي إليه مسافة الجائي من الطرفين.

﴿قَالَ﴾ موسى. ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾ يوم عيد كان لهم، يتزينون فيه ويجتمعون. ويوم: بضم الميم، وقرأ الحسن بالنصب، فمن رفع فعلى أنه خبر المبتدأ، والمعنى: وقت موعدكم يوم الزينة، ومن نصب فعلى الظرف، معناه: موعدكم يقع يوم الزينة. والسؤال وقع عن مكان الموعد، وطابقه من حيث المعنى ذكر الزمان، وإن لم يطابق لفظاً؛ لأنهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهود باجتماع الناس في ذلك اليوم، فبذكر الزمان علم المكان.

﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ﴾ يجمعون. ﴿ضُحًى﴾ وقت ارتفاع شمس النهار.

المناسبة:

بعد سؤال فرعون عن رب موسى، ذكر الله تعالى أنه بصره بالآيات الدالة على توحيد الله، مثل ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا﴾ والدالة على نبوة موسى مثل العصا واليد البيضاء، فكذب بكل هذا، واتهم موسى بالسحر، وطلب المبارزة مع السحرة، وتحديد مكان اللقاء وموعد الاجتماع.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ٥٦﴾ أي وتالله لقد بصرنا فرعون وعرفناه آياتنا الدالة على قدرتنا وتوحيدنا وعلى نبوة موسى، كالآيات التسع[1]

---

(١) وهي العصا، واليد، وفلق البحر، والحجر، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم، ونتق الجبل.

وغيرها من الحجج والبراهين، فعاين ذلك وأبصره، ولكنه كذب بها، وأبى الاستجابة للإيمان والحق، كفراً وعناداً وبغياً، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤] وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٠٢].

ثم ذكر الله تعالى شبهة فرعون وصفة تكذيبه، فقال:

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧)﴾ أي قال فرعون لموسى مستنكراً معجزة العصا واليد: هل جئت يا موسى من أرض مدين لتخرجنا من أرضنا مصر بما أظهرته من السحر، وهو قلب العصا حية؟ توهم الناس بأنك نبي يجب عليهم اتباعك، حتى تتوصل بذلك إلى أن تغلب على أرضنا وتخرجنا منها. وإنما ذكر فرعون الإخراج من الأرض لتنفير قومه عن إجابة موسى، وحملهم على السخط على موسى والغضب منه، والعمل على طرده وإخراجه من مصر.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ أي لنعارضنك بمثل ما جئت به من السحر، فإن عندنا سحراً مثل سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه.

﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي حدد لنا يوماً معلوماً ومكاناً معلوماً، نجتمع فيه نحن وأنت، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر، لا نخلف ذلك الوعد من قبل كل منا. وقد فوض فرعون تعيين الموعد إلى موسى إظهاراً لكمال اقتداره.

وليكن المكان مكاناً مستوياً ظاهراً لا ارتفاع فيه ولا انخفاض، ليظهر فيه الحق، أو مكاناً وسطاً بين الفريقين، حتى لا يكون عذر في التخلف.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾ أي قال موسى عليه

السلام: موعد الاجتماع يوم العيد (عيد النيروز) الذي يتزين فيه الناس، وفي وقت الضحى، ليكون الاجتماع عاماً في يوم يفرغ فيه الناس من أعمالهم، ويجتمعون جميعاً، ويتحدثون بنتيجة المبارزة، فتظهر الدعوة، وتعلو كلمة الحق، ويزهق الباطل، وليكون الضوء غالباً، وفي نشاط أول النهار، فلا يشكّوا في المعجزة، ويشاهدوا قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية.

واختيار هذا الوعد دليل على الثقة بالنصر، وسبيل لإيضاح الحجة.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - لم يبق عذر لفرعون في كفره، بعد إرسال موسى وهارون رسولين إليه، وتأييدهما بالمعجزات الدالة على نبوة موسى، وإبدائهما البراهين والدلائل والحجج على وحدانية الله وقدرته، وهذا يدل على أنه كفر عناداً؛ لأنه رأى الآيات عياناً لا خبراً، واقتنع بها في أعماق نفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ٢٧/ ١٤] .

٢ً - حاول فرعون تأليب قومه وتحريضهم على معاداة موسى وطرده، باتهامه بأنه بحسب عقلية الحاكم يريد إخراج الناس من مصر، والاستيلاء على السلطة.

٣ً - وحاول أيضاً إبطال المعجزات النبوية بالسحر، ظناً منه أن ما جاء به موسى من الآيات سحر يوهم الناس به لاتباعه والإيمان به، فإذا عورض السحر بمثله، تبين للناس أن ما أتى به موسى ليس من عند الله.

٤ً - طلب فرعون من موسى تعيين يوم معلوم ومكان معروف لا يخلف فيه أحد الطرفين الوعد، إيهاماً للناس بمدى الثقة به، وبكمال اقتداره، وإنهاء دعاوى موسى في يوم مشهود للجميع.

وكان اقتراحه أن يكون المكان مكاناً سوى أي مكاناً مستوياً متوسطاً بين الطرفين، حتى لا يكون عذر في التخلف.

٥ً - اختار موسى يوم العيد (يوم الزينة) لتعلو كلمة الله، ويظهر دينه، ويكبت الكفر، ويزهق الباطل، أمام الناس قاطبة في المجمع العام، ليشيع الخبر، ويتناقل جميع أهل المدن والقرى والحضر والأعراب قصة الأمر العجيب، ونبأ المعجزة الكبرى. ثم عين موسى عليه السلام من اليوم وقتاً معيناً بقوله: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ أي في ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، حيث تكون الرؤية واضحة، والنفوس مستعدة نشيطة، ولأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيما بينهم كان في النهار متسع. وكان ذلك بالمصادفة مناسباً للسحرة، لتسخين الحبال والأدوات المعبأة بالزئبق.

- ٨ -

جمع فرعون السحرة وتحذير موسى لهم

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾

القراءات:

﴿فَيُسْحِتَكُم﴾:

قرئ:

١- (فَيُسحِتَكم) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (فيَسحَتَكم) وهي قراءة الباقين.

﴿إِنْ هَٰذَٰنِ﴾:

قرئ:

١- (إنْ هذانِّ) وهي قراءة ابن كثير.

٢- (إنَّ هذين) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (إنْ هذانِ) وهي قراءة حفص.

٤- (إنَّ هذانِ) وهي قراءة الباقين.

﴿فَأَجْمِعُواْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (فأجْمَعُوا).

الإعراب:

﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ ﴿إِنْ﴾ إما مخففة من الثقيلة لم تعمل، وإما بمعنى «ما» واللام بمعنى «إلا» أي ماهذان إلا ساحران. وهذان الوجهان على مذهب الكوفيين. ومن قرأ بالتشديد (إنَّ) أتى به على لغة بني الحارث بن كعب، فإنهم يقولون: مررت برجلان، وقبض منه درهمان، وهي لغة من يأتي في المثنى بالألف في أحواله الثلاث.

وقيل: إنَّ بمعنى «نعم» أي نعم هذان لساحران، لكن فيه ضعف، لدخول اللام في الخبر، وهو قليل في كلامهم. وقرئ «إنَّ هذين لساحران» .﴿فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ﴾ قرئ: (أجمعوا) نينيني بقطع الهمزة ووصلها، ففي قراءة القطع نصب ﴿كَيْدَكُمْ﴾ بـ (أجمعوا) على تقدير حذف حرف الجر، أي فأجمعوا على كيدكم. فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به فنصبه، يقال: أجمع على كذا:

إذا عزم عليه، فحذف الجار من الآية، كما في آية: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٥] أي على عُقدة النكاح.

وعلى قراءة (فاجْمِعوا) بوصلها، لم يفتقر إلى تقدير حذف حرف الجر؛ لأنه يتعدى بنفسه.

﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ مصدر في موضع الحال، أي ائتوا مصطفين، أو مفعول به، أي ائتوا إلى صف، والأول أوجه.

المفردات اللغوية:

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾ أدبر وانصرف عن المجلس. ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي جمع ذوي كيده من السحرة، والكيد: ما يكاد به من السحرة وأدواتهم. ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ أي أتى بالموعد بهم. ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى﴾ وهم اثنان وسبعون مع كل واحد حبل وعصا. ﴿وَيْلَكُمْ﴾ أي هلاك لكم. ﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدعوا آياته سحراً، وتشركوا أحداً مع الله. والافتراء: الاختلاق والكذب، ﴿فَيُسْحِتَكُمْ﴾ يهلككم. ﴿بِعَذَابٍ﴾ شديد من عنده. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خسر. ﴿مَنِ افْتَرَى﴾ كذب على الله، كما خاب فرعون، فإنه افترى واحتال ليبقى المُلْك معه، فلم ينفعه.

﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ فتفاوض السحرة وتشاوروا في أمر موسى، حين سمعوا كلامه، ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ بالغوا في إخفاء الكلام بينهم. ﴿قَالُوا﴾ لأنفسهم. ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ المثلى: مؤنث أمثل بمعنى أشرف، أي يذهبا بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، بإظهار مذهبه وإعلاء دينه، لقوله تعالى حكاية لقول فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/ ٢٦].

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ بهمزة القطع من أجمع أي أحكموا كيدكم الذي يكاد به، وبهمزة الوصل من جمع، أي لَمَّ ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ أي مصطفين؛ لأنه أهيب في صدور الرائين. ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ فاز اليوم من غلب.

المناسبة:

بعد اتفاق موسى وفرعون على موعد المبارزة وهو يوم عيد لهم، ذكر الله تعالى ما قام به فرعون من تدبير أمره بجمع السحرة وآلاتهم، ثم ذكر ما حذَّرهم به موسى من عذاب شديد إن أقدموا على إبطال آيات الله، فأوقع الخلاف بينهم، وعقدوا المشاورات في خطتهم، فاتفقوا على وحدة الصف أمام موسى وهارون اللذين يريدان الغلبة والتفوق على دينهم الذي هو في زعمهم أفضل الأديان.

التفسير والبيان:

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ أي انصرف فرعون وشرع في جمع السحرة من مدائن مملكته، فجمع ما يكيد به من سحره وحيله وآلاته وأنصاره، وقد كان السحر شائعاً عندهم، ثم أقبل في الموعد المعين، وجلس في مكان خاص به مع كبار أعوانه، كجناح العروض العسكرية المخصص اليوم لرئيس الدولة، وجاء موسى مع أخيه هارون، وجاءت السحرة ووقفوا صفوفاً، وبدأ فرعون يحرضهم ويستحثهم ويعدهم، فتجرؤوا أن يطلبوا منه الأجر، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ، قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٤١-٤٢] ، وعدهم فرعون بالجزاء المادي والأدبي ليتفانوا في إجادة عملهم، ويتغلبوا على موسى عليه السلام.

وشرع موسى في الإعلان عن رسالته، فقال:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾﴾ أي قال موسى لفرعون والسحرة: الهلاك والعذاب لكم إن اختلقتم على الله كذباً وزوراً، بأن تزعموا أن الذي جئت به ليس بحق، وأنه سحر، فيستأصلكم الله بعذاب شديد من عنده، وقد خسر وهلك من افترى على الله أيَّ كذب كان.

فأعرضوا عن قوله:

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾ أي لما سمع السحرة كلام موسى تناظروا وتشاوروا وتفاوضوا فيما بينهم في ذلك، وتناجوا فيما بينهم سرّاً عن موسى وأخيه، وقرروا ما يأتي:

﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ أي قالت السحرة: إن موسى وهارون لساحران يريدان إخراجكم أيها المصريون من أرضكم بمصر بصناعة السحر، كما يريدان التغلب للاستيلاء على جميع المناصب، ولتكون لهما الرياسة في كل شيء، ومآل ذلك أن تنقضي سنتكم في الحياة، ويعصف بمنهجكم في العيش الحر العزيز الكريم، وتسلب خيراتكم، ويزول مذهبكم الأمثل الحسن.

قالوا ذلك متأثرين بما قاله فرعون، ومرددين ما يشيعه، مستخدمين أساليب ثلاثة للتنفير منهما، وهي تكذيب نبوتهما ووصفهما بالسحرة، والكشف عن نواياهما البعيدة بطرد السكان الأصليين من أرضهم مصر، والاستيلاء على جميع المناصب والرياسات.

فيجب علينا الوقوف صفاً واحداً أمام هذا الخطر، فقالوا:

﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ أي فاعزموا على تقديم خبراتكم ومهاراتكم، ولا تتركوا أقصى ما تستطيعون عليه من الكيد والحيلة، وقفوا صفاً واحداً، وألقوا ما لديكم دفعة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتعظم هيبتكم، وتغلبوا هذين الرجلين، فإنه قد فاز اليوم بالمطلوب من غلب منا ومنهما.

وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض، بقصد التحريض وشد العزائم، لبذل أقصى الجهود للفوز بالمطلوب.

فقد الحياة أو الأحكام:

دلَّت الآيات على ما يأتي:

١ - بدأت استعدادات فرعون في جمع السحرة، وإعداد الحيل كما هي عادة التهيؤ للمبارزة، قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً، مع كل ساحر منهم حبال وعصي.

٢ - لما أتى فرعون وسحرته في الموعد المعين قال موسى لفرعون والسحرة: الهلاك والعذاب لمن اختلق الكذب على الله، وأشرك به، ووصف المعجزات بأنها سحر، فيستأصلكم الله بعذاب شديد من عنده، وقد خسر وهلك، وخاب من الرحمة والثواب من ادعى على الله ما لم يأذن به. وهذا شعار الأنبياء، وهو الصدق في الدعوة، وانتهاز الفرص المناسبة لإعلان دعوتهم.

٣ - تشاور السحرة سرّاً فيما بينهم، وقالوا: إن كان ما جاء به سحراً، فسنغلبه، وإن كان من عند الله فسيكون له أمر. وهذا حق وصدق لا شيء فيه.

٤ - ثم أعلنوا قرارهم بأن موسى وأخاه هارون ساحران عظيمان، يريدان إخراج الناس من مصر بسحرهما، وإفساد دينهم، وإزالة مذهبهم الحسن، كما قال فرعون عن موسى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦/٤٠] . وهذا كله من دعاية فرعون وتحريضه.

٥ - ثم حرضوا بعضهم قائلين: اعزموا وجدّوا في تجميع أنواع الكيد والحيلة، وأقصى فنون السحر، وأحكموا أمركم، وقفوا صفاً واحداً، ليكون أشدَّ لهيبتكم، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا موسى وأخاه، وقد فاز اليوم من غلب. وهذا شأن كل من الفريقين المتبارزين، يحرص كل منهما على الفوز والانتصار، ويتأثران بالتأييد الشعبي وبحماس المتفرجين واللاعبين أنفسهم، كما هو معروف.

- ٩ -

المبارزة بين موسى والسحرة وإعلان إيمانهم بالله تعالى

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَـٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾

القراءات:

﴿يُخَيَّلُ﴾ :

وقرأ ابن ذكوان (تُخيل).

﴿تَلْقَفْ﴾ :

قرئ:

١- (تَلَقَّف) وهي قراءة ابن ذكوان.

٢- (تَلْقَفْ) وهي قراءة حفص.

٣- (تَلَقَّفْ) وهي قراءة الباقين.

﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (كيدُ سِحْر).

﴿نُّؤْثِرَكَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (نوْثرك).

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ﴾ :

وقرأ السوسي (من ياتِهْ).

الإعراب:

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ ﴿مُّوسَىٰ﴾ فاعل أوجس، وهاء ﴿نَفْسِهِۦ﴾ تعود إلى موسى؛ لأنه في تقدير التقديم، و﴿نَفْسِهِۦ﴾ في تقدير التأخير. ﴿خِيفَةً﴾ مفعول أوجس. وأصل ﴿خِيفَةً﴾ «خِوْفة» لأنها من الخوف، فانقلبت الواو ياء لسكونها، وانكسار ما قبلها.

﴿تَلْقَفْ﴾ التاء إما لتأنيث ﴿مَا﴾ وهي العصا، حملاً على المعنى، كأنه قال: ألق العصا تلقف ما صنعوا، وإما أن تكون التاء للمخاطب، أي تلقف أنت. وهو مجزوم بجواب الأمر، بتقدير حذف حرف الشرط. ومن قرأ بالرفع، كان حالاً من ﴿مَا﴾ أو من ضمير ﴿فِي يَمِينِكَ﴾. وما في قوله ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ إما اسم موصول بمعنى الذين اسم إن، والعائد محذوف، أي إن الذي صنعوه، و﴿كَيْدُ﴾ خبر إن، وإما أن تكون (ما) كافة، و(كيد) عند من قرأ

بالنصب منصوب بـ ﴿صَنَعُوٓاْ﴾. ومن قرأ (كَيْدَ سِحر) أي كيد ذي سحر، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. «من خلاف» حال.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾: إما مجرور بالعطف على ﴿مَا جَآءَنَا﴾ أي «على الذي جاءنا وعلى الذي فطرنا» وإما مجرور بالقسم، وجوابه محذوف، لدلالة ما تقدم عليه.

وما في ﴿إِنَّمَا تَقۡضِى﴾ إما بمعنى الذي في موضع نصب اسم «إن» والعائد محذوف، أي: إن الذي تقضيه. وهذه: خبر «إن» . وإما أن تكون «ما» كافة، وهذه: في موضع نصب على الظرف، أي إنما تقضي في هذه الحياة الدنيا. والحياة الدنيا صفة ﴿هَٰذِهِ﴾ في كلا الوجهين.

﴿وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ (ما) إما في موضع نصب بالعطف على ﴿خَطَٰيَٰنَا﴾ وإما مبتدأ مرفوع، وخبره محذوف، تقديره: ما أكرهتنا عليه مغفور لنا. و﴿مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ﴾ متعلق بـ ﴿أَكۡرَهۡتَنَا﴾.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰ ، جَنَّٰتُ﴾ ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾ مرفوع بالظرف؛ لأنه جرى خبراً عن المبتدأ، وهو أولئك، و﴿جَنَّٰتُ﴾ بدل مرفوع من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾ أي أولئك لهم جنات عدن. و﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال من الهاء والميم في ﴿لَهُمُ﴾ والعامل فيه: اللام، أي الاستقرار، أو معنى الإشارة.

البلاغة:

﴿بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي فألقوا فإذا حبالهم .﴿وَأَلۡقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ ثم قال: ﴿فَأُلۡقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا﴾ فيه إيجاز بالحذف، وهو: فألقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا من السحر، فألقي السحرة سجداً. وحسن الحذف في الموضعين لدلالة المعنى عليه.

﴿يَمُوتُ﴾ و﴿يَحۡيَىٰ﴾ بينهما طباق.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ و﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بينهما مقابلة: وهي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فيه مؤكدات هي: إن، وأنت، وتعريف الخبر: ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة، وصيغة التفضيل ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قال السحرة ذلك مراعاة للأدب، بين أن يلقي عصاه أو يلقوا عصيهم. وأن وما بعده: منصوب بفعل مضمر، أو مرفوع بخبر محذوف، أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا، أو الأمر إلقاؤك، أو إلقاءنا. ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾ مقابلة أدب بأدب، وعدم مبالاة بسحرهم، وليستنفدوا أقصى وسعهم، ثم يظهر الله سلطانه، فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ أي فألقوا، وكلمة ﴿فَإِذَا﴾ التحقيق أنها ظرفية متعلقة بفعل المفاجأة، والجملة ابتدائية، والمعنى: فألقوا ففاجأ موسى وقت تخيل سعي حبالهم وعصيهم من سحرهم، وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق، فلما ضربت عليها الشمس، اضطربت، فخيل إليه أنها تتحرك. و﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بدل اشتمال، أي إنها حيات تسعى على بطونها.

﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً﴾ أحس بشيء من الخوف، من جهة أن سحرهم من جنس معجزته، أن يلتبس أمره على الناس، فلا يؤمنوا به.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ قلنا له: لا تخف ما توهمت فإنك أنت الأعلى عليهم بالغلبة، وهذا الأخير تعليل للنهي وتقرير لغلبته، مؤكداً بالاستئناف وحرف التحقيق: «إن» وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ وهي العصا، ولم يقل: عصاك، تحقيراً لها، أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم، أو تعظيماً لها، أي لا تحتفل بكثرة هذه الأشياء وعظمها، فإن في يمينك ما هو أعظم منها أثراً، فألقه. ﴿تَلْقَفْ﴾ تبتلع بقوة وسرعة وبقدرة الله تعالى، والخطاب على إسناد الفعل إلى السبب ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾ إن الذي زوَّروا وافتعلوا ﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ أي كيد سحري لا حقيقة له، أي ذي سحر، أو إضافة قصد بها البيان مثل: علم فقه، وإنما وحد الساحر؛ لأن المراد به الجنس المطلق. ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ أي هذا الجنس: ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ بسحره، أي أينما كان، وأينما أقبل.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ خرّوا ساجدين لله تعالى، أي فألقى فتلقفت، فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر، وإنما هو من آيات الله، ومعجزة من معجزاته، فألقاهم ذلك على وجوههم سجداً لله، توبة عما صنعوا وتعظيماً لما رأوا ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ قدم هارون لكبر سنه، أو لروي الآية، روي أنهم رأوا في سجودهم الجنة ومنازلهم فيها. ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ﴾ قال فرعون: آمنتم لموسى. واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع. ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أنا في الإيمان له. ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ﴾ إن موسى لمعلمكم أو لأستاذكم الذي علمكم السحر، وأنتم تواطأتم على ما فعلتم. ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ في موضع النصب على الحال أي لأقطعنها من حال مختلفة: اليد اليمنى والرجل اليسرى. ومن: ابتدائية. ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي عليها، شبه تمكن المصلوب بالجذوع بتمكن المظروف بالظرف، وهو أول من صلب. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا﴾ يريد نفسه ورب موسى لقوله: ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾. ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أدوم عذاباً. وهل نفذ فيهم تهديده؟

الآيات لم تذكر ذلك، لكن ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده، فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، فماتوا على الإيمان، فقال ابن عباس: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ قال السحرة: لن نختارك .﴿عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ على ما جاءنا موسى به من المعجزات الواضحات الدالة على صدقه .﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ خلقنا وأوجدنا من العدم. وهذا عطف على ما جاءنا، أو قسم ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ اصنع ما أنت قاضيه، أي صانعه، أو ما قلته أو احكم .﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا، فالنصب على الاتساع، أي فيها، ثم تجزى عليه في الآخرة، والآخرة خير وأبقى، فهو كالتعليل لما قبله، والتمهيد لما بعده.

﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾ من الكفر والمعاصي .﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ تعلماً وعملاً في معارضة موسى والمعجزة .﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ منك ثواباً إذا أطيع. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأشد منك عذاباً إذا عُصي.

﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ إن الأمر من يأت ربَّه كافراً، بأن يموت على كفره وعصيانه .﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريح .﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة هنيئة فتنفعه. ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الفرائض والنوافل .﴿لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ المنازل الرفيعة، جمع علياء مؤنث أعلى.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي جنات أعدت للإقامة .﴿مِن تَحْتِهَا﴾ من تحت غرفها ﴿جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهر من الذنوب والكفر.

قال البيضاوي: والآيات الثلاث - أي الأخيرة - يحتمل أن تكون من كلام السحرة، وأن تكون ابتداء كلام الله.

المناسبة:

بعد ذكر الموعد وهو يوم الزينة وذكر مجيئهم صفاً، حدثت المبارزة بين السحرة وموسى، فخيروه بين بدئه بالإلقاء، وبدئهم به، وكان ذلك أدباً منهم وتواضعاً، رزقوا الإيمان ببركته، فقابلهم موسى أدباً بأدب، وقدمهم في

الإلقاء؛ لأنه الطريق إلى إزالة الشبهة، فما كان منهم إلا الإيمان، لمعرفتهم بأن فعل موسى معجزة وليس سحراً، وصمدوا على إيمانهم هازئين بتهديد فرعون بالتقطيع والصلب.

التفسير والبيان:

لما بدأت المبارزة، والتقى الفريقان، قالت السحرة لموسى:

﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾﴾ أي قالت السحرة لموسى حين تقابلوا معه: اختر أحد الأمرين: إما أن تلقي أنت أولاً ما تريد، وإما أن نُلقي نحن ما معنا من العصي والحبال على الأرض. وهذا التخيير مع تقديمه في الكلام أدب وحسن تواضع له، ألهمهم الله به، ورزقوا الإيمان ببركته، فقابل موسى عليه السلام أدبهم بأدب، فقال:

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ﴾ قال لهم موسى: بل ألقوا أنتم أولاً، لنرى سحركم وتظهر حقيقة أمركم، ولتكون معجزته أظهر إذا ألقوا هم ما معهم، ثم إذا ألقى عصاه فتبتلع ما ألقوه كله، وليظهر عدم المبالاة بسحرهم.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ أي فألقوا ما معهم من الحبال والعصي، فتوهم موسى ومن رآهم من الناس أنها تتحرك بسرعة كالأفاعي. ففي بدء الكلام حذف، أي فألقوا، وقوله: ﴿فَإِذَا﴾ في رأي الزمخشري أنها إذا المفاجأة، وتعقبه الرازي فقال: والتحقيق فيها أنها إذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصباً لها وجملة تضاف إليها.

وجاء في آية أخرى أنهم لما ألقوا ﴿وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٤٤] ونظير الآية هنا: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧/١١٦] . وذلك أنهم حشوها بالزئبق الذي يتأثر بحرارة الشمس، أو بمادة أخرى تتأثر بالحرارة، فيخيل للناظر أنها تسعى باختيارها، وكأن الوادي امتلأ حيات يركب بعضها بعضاً.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ أي أحسَّ موسى بالخوف من أن يُغْلَب، تأثُّراً بالطبيعة البشرية، وابتهج فرعون وقومه، وظنوا أنهم قد نجحوا، وأن السحرة فازوا على موسى وهارون.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ أي قال الله لموسى: فإنك أنت المستعلي عليهم بالظفر والغلبة.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ أي وألق يا موسى العصا التي في يمينك، تبتلع بعد أن تصير حية جمع ما صنعوه من الحبال والعصي، وسحروا بها أعين الناس، إن الذي صنعوه ليس إلا سحراً خيالاً لا حقيقة له ولا بقاء، ولا يفوز الساحر حيث أتى من الأرض، أو حيث احتال، وأنه لا يحصل مقصوده بالسحر، خيراً كان أو شراً. وإنما أبهم العصا تهويلاً لأمرها، وأنها ليست من جنس العصيّ المعروفة.

فقامت المعجزة: واتضح البرهان، وظهر الحق، وبطل السحر، ودهش الناس الذين ينظرون، وأدرك السحرة أن السحر لا يفعل هذا أبداً، وأن هذا خارج عن طاقة البشر، وأنه من فعل الإله خالق الكون، فآمنوا كما قال تعالى:

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ أي فلما ألقى موسى عصاه، وابتلعت عصيهم وحبالهم، علموا أن فعل موسى ليس من قبيل السحر والحيل، بل هو عن أمر الله القادر على كل شيء، فسجدوا لله وآمنوا برسالة موسى، قائلين: آمنا بربِّ العالمين، ربِّ هارون وموسى، مفضلين الآخرة على الدنيا، والحق على الباطل. قال ابن عباس وعبيد بن عمير: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة. وروى عكرمة عن ابن عباس

أيضاً أنه قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة، وأمسَوْا شهداء. قال الأوزاعي: لما خرَّ السحرةُ سجَّداً، رفعت لهم الجنة، حتى نظروا إليها.

الله أكبر! ففعل الله أعجب وأدهش، والإيمان البسيط سبب للمجد العظيم، والفضل الكبير، والنعم الخالدة في جنان الله. وليس المراد بقوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ أنهم أجبروا على السجود، وإلا لما كانوا محمودين، بل إنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا، قال صاحب الكشاف: ما أعجب أمرهم، قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين!!

وإنما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ ولم يقولوا برب العالمين فقط: لأن فرعون ادعى الربوبية في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤/٧٩] وادعى الألوهية في قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨/٢٨] فلو أنهم قالوا: آمنا بربِّ العالمين فحسب، لقال فرعون: إنهم آمنوا بي، لا بغيري، فاختاروا هذه العبارة لإبطال قوله، والدليل عليه: أنهم قدموا ذكر هارون على موسى؛ لأن فرعون كان يدعي ربوبيته لموسى؛ لأنه ربّاه في صغره كما حكى تعالى عنه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨/٢٦] .

ثم إن فرعون لما شاهد السجود والإقرار بالله تعالى، خاف متابعة الناس لهم واقتداءهم بهم في الإيمان بالله وبرسوله، فألقى شبهة أخرى في النبي ونبوته، فقال:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ﴾ أي قال فرعون الذي أصر على كفره وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل حين رأى المعجزة الباهرة، وإيمان من استنصر بهم من السحرة، وهزيمته الساحقة: هل صدقتموه أو صدقتم قوله واتبعتموه على دينه من غير إذن مني لكم بذلك؟ فلم تؤمنوا عن بصيرة وتفكير، إنما أنتم أخذتم السحر عن موسى، فهو معلمكم

وأستاذكم، وأنتم تلاميذه، واتفقتم وتواطأتم وإياه عليّ وعلى رعيَّتي لتظهروه وتروجوا لدعوته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٣] .

أراد فرعون بهذا القول أن يدخل الشبهة على الناس، حتى لا يؤمنوا، وإلا فإنه قد علم أنهم لم يتعلموا من موسى، ولا كان رئيساً لهم، ولا بينه وبينهم صلة أو مواصلة.

ثم لجأ فرعون إلى التهديد والتنفير عن الإيمان قائلاً:

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أي أقسم إني لأُمثِّلن بكم، فأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، أي بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو عكسه. قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك، وهذا تعطيل للمنفعة، وأيضاً لأصلبنكم على جذوع النخل، زيادة في الإيلام والتشهير، وإنما اختارها لخشونتها وأذاها، ولتعلمن هل أنا أشد عذاباً لكم أو ربّ موسى؟

وفي هذا تحدٍّ لقدرة الله، وتحقير لشأن موسى، وإيماء إلى ماله من سلطة وقهر واقتدار.

ولما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ﴾ أي لن نختارك على ما جاءنا به موسى من البينات الواضحة من عند الله تعالى، والمعجزات الظاهرة كاليد والعصا، وعلى ما حصل لنا من الهدى واليقين، ولن نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، فهو المستحق للعبادة والخضوع، لا أنت.

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي فافعل ما شئت،

واصنع ما أنت صانع، إنما لك تسلط ونفوذ في هذه الدنيا التي هي دار الزوال، بما تريد من أنواع القتل، ولا سبيل لك علينا فيما بعدها، ونحن قد رغبنا في دار القرار.

- ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ أي إننا صدقنا بالله ربنا المحسن إلينا، ليتجاوز ويستر ويعفو عن سيئاتنا وآثامنا وذنوبنا، خصوصاً ما أجبرتنا عليه من عمل السحر، لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه، والله خير لنا منك جزاء وأدوم ثواباً، مما كنت وعدتنا، وأبقى منك عقاباً.

ذكر أن رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط، والباقي من بني إسرائيل، فقالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بساحر، الساحر إذا نام بطل سحره، فأبى إلا أن يعارضوه.

ولم تدل الآيات على تنفيذ فرعون ما هدد به السحرة، ولكن الظاهر أنه نفَّذ ذلك، لقول ابن عباس المتقدم: أصبحوا سحرة، وأمسوا شهداء بررة.

وتابع السحرة وعظ فرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم، ويرَغِّبونه في ثوابه الأبدي الخالد، فقالوا:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ أي إن من يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، فعذابه في جهنم، لا يموت فيها ميتة مريحة، ولا يحيا حياة ممتعة، فهو يألم كما يألم الحي. وهذا من قول السحرة لما آمنوا، وقيل: ابتداء كلام من الله عز وجل.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦] وقوله سبحانه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾

[الأعلى: ٨٧/ ١١-١٣] وقوله عز وجل: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧٧] .

وأخرج أحمد ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ خطب، فأتى على هذه الآية، فقال: «أما أهلها الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا بأهلها، فإن النار تميتهم إماتة، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فيؤتى بهم ضبائر[1] على نهر، يقال له: نهر الحياة أو الحيوان، فينبتون كما ينبت الغثاء في حميل السيل» . وفي الخبر الصحيح: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان» .

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ أي ومن يلقى ربَّه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، فعل الطاعات، فأولئك لهم بإيمانهم وعملهم الصالح الجنة ذات الدرجات والمنازل العالية الرفيعة، والغرف الآمنة، والمساكن الطيبة.

أخرج الإمام أحمد والترمذي عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله تعالى، فاسألوه الفردوس» .

وفي الصحيحين: «إن أهل عِلِّيين لَيَرَوْن من فوقَهم، كما تَرَون الكوكب الغابر في أفق السماء، لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» وفي السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما» .

﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ أي

(١) الضَّبْر: الجماعة، جمع ضبور، وضبائر: جمع الجمع.

تلك الدرجات العلا في جنات إقامة تجري من تحت غرفها الأنهار، ماكثين فيها أبداً، وذلك الفوز الذي أحرزوه جزاء من طهر نفسه من دنس الكفر والمعاصي الموجبة للنار، واتبع المرسلين فيما جاؤوا به من عند الله العلي القدير.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - الأدب الحسن يفيد في الدنيا والآخرة، فلما خيَّر السحرة موسى بين أن يلقي أولاً أو يلقوا هم، أفادهم ذلك في التوفيق للإيمان. ولما قدمهم موسى في الإلقاء وهم الجمع الكثير، نصره ربه، فالتقمت عصاه التي تحولت حية جميع ما ألقوه من الحبال والعصي، وكان ظهور المعجزة أوقع وأتم وأوضح.

وليس أمر موسى بالإلقاء رضىً منه بما هو سحر وكفر؛ إذ لا يقصد منه ظاهر الأمر؛ فلا يكون نفس الإلقاء كفراً ومعصية، وإنما هو وسيلة لما بعده، ليظهر الفرق بين ذلك الإلقاء وبين معجزة الرسول موسى عليه السلام، ولأن الأمر مشروط بتقدير محذوف هو: ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين. ثم إنه قدمهم في الإلقاء على نفسه، مع أن تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة غير جائز؛ ليكون إظهار المعجزة سبباً لإزالة الشبهة.

٢ً - خاف موسى عليه السلام من الحيات، حسبما يعرض لطباع البشر، كما خاف لأول مرة حينما كلَّمه الله بإلقاء عصاه فصارت حية عظيمة. وقيل: خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلقي عصاه.

٣ً - أزال الله الخوف عن قلب موسى بقوله له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا، وأنت في الدرجات العلا في الجنة، للنبوة والاصطفاء الذي آتاك الله به. وبقوله أيضاً: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ

مَا صَنَعُوٓاْ﴾ أي لا تبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العصا بيمينك، فإنها بقدرة الله تلتهم كل ما ألقوا، وهي أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء فإنها تبتلع بإذن الله ما معهم وتمحقه.

٤ - اختلف الرواة في عدد السحرة، والظاهر كما نقل عن ابن عباس وغيره كالكلبي: أنهم كانوا اثنين وسبعين ساحراً، اثنان منهم من القبط، وسبعون من بني إسرائيل أكرههم فرعون على ذلك. هذا مع العلم بأن ظاهر القرآن لا يدل على شيء من العدد، والمهم أنه لا يفوز ولا ينجو الساحر حيث أتى من الأرض؛ أو حيث احتال، ولا يحصل مقصوده بالسحر خيراً كان أو شراً، وذلك يقتضي نفي السحر بالكلية.

٥ - خرَّ السحرة ساجدين لله، لما رأوا عظيم الأمر وخرق العادة في العصا؛ فإنها ابتلعت جميع ما احتالوا به من الحبال والعصي، وكانت حمل ثلاث مئة بعير، ثم عادت عصاً، لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصي إلا الله تعالى[١].

وفي قوله: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ دلالة على أنه ألقى العصا، وصارت حية، وتلقفت ما صنعوه، وفي التلقف دلالة على أن جميع ما ألقوه تلقفته، وذلك لا يكون إلا مع عظيم جسدها وشدة قوتها.

وقد حكي عن السحرة أنهم عند التلقف أيقنوا بأن ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه:

أحدها - ظهور حركة العصا على وجه لا يمكن بالحيلة.

وثانيها - زيادة عظمها على وجه لا يتم بالحيلة.

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٢٢٤.

وثالثها - ظهور الأعضاء عليها من العين والمنخرين والفم وغيرها، ولا يتم ذلك بالحيلة.

ورابعها - تلقف جميع ما ألقوه على كثرته، وذلك لا يتم بالحيلة.

وخامسها - عودها خشبة صغيرة كما كانت، ولا يتم شيء من ذلك بالحيلة[١].

٦ً - قوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ فيه دلالة على أن ما مع موسى معجزة إلهية، والذي معهم تمويهات باطلة.

٧ً - آمن السحرة بما رأوه من المعجزة، وعرفوا أن رب موسى وهارون هو الرب الحقيقي المستحق للعبادة، وكان إيمانهم أرسخ من الجبال، فهان عليهم عذاب الدنيا، ولم يأبهوا بتهديد فرعون.

٨ً - لم يملك فرعون إلا أن يعلن بأن موسى كبير السحرة ورئيسهم في التعليم، وأنه إنما غلبهم لأنه أحذق منهم؛ ليشبِّه على الناس، حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم، وإلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته.

٩ً - ولجأ أخيراً إلى التهديد بالتقطيع للأيدي والأرجل من خلاف، لتعطيل المنفعة، وضم إليه التصليب للإذلال والإهانة، وزاد في غيه وكفره وعناده أنه أشد عذاباً وأدوم أثراً من عذاب ربِّ موسى. وهذا إفك شديد.

١٠ً - لم يتراجع السحرة عن إيمانهم بالرغم من شدة التهديد والوعيد وقالوا لفرعون: لن نختارك على ما جاءنا من اليقين والعلم، ولا على الذي فطرنا، أي خلقنا، فافعل ما شئت، إنما ينفذ أمرك في هذه الدنيا.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٢/ ٨٥.

إننا صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ليغفر الله لنا خطايانا، أي الشرك الذي كانوا عليه، ويغفر لنا ما أكرهتنا عليه من السحر، وثواب الله خير وأبقى.

قال عكرمة وغيره: لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة؛ فلهذا قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ﴾.

وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب؟ فقيل لها: غلب موسى وهارون؛ فقالت: آمنت برب موسى وهارون. فأرسل إليها فرعون فقال: انظروا أعظم صخرة، فإن مضت على قولها فألقوها عليها؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء، فأبصرت منزلها في الجنة، فمضت على قولها فانتُزعت روحها، وألقيت الصخرة على جسدها، وليس في جسدها روح.

١١ً - استمر السحرة في وعظ فرعون وغيره وتحذيره من عذاب الآخرة وترغيبه في العمل للجنة، فقالوا: إن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة، والمجرم: هو الكافر بدليل مقابلته بالمؤمن في الآية التالية: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا﴾ وصفة الكافر المكذب الجاحد أنه في جهنم لا يموت فيها ولا يحيا. وإذا كان هذا كلام السحرة، فلعلهم سمعوه من موسى أو من بني إسرائيل، إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضاً المؤمن من آل فرعون. ويحتمل أن يكون ذلك إلهاماً من الله لهم، أنطقهم بذلك لما آمنوا.

وقد استدل المعتزلة بهذه الآية على وعيد أصحاب الكبائر، وقالوا: صاحب الكبيرة مجرم، وكل مجرم فإن له جهنم لقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ ومن الشرطية تفيد العموم، والجواب أن كلمة المجرم كما بيّنا يراد بها الكافر، بدليل مقابلتها بالمؤمن فيما بعد.

وأما من يموت على الإيمان، ويلقى ربَّه مصدقاً به وبرسله وبالبعث، ويعمل الصالحات، أي الطاعات وما أمر به وما نهى عنه، فله الدرجة الرفيعة التي

عجز الوصف عن إدراكها والإحاطة بها. والدرجات العلا هي جنان الخلد والإقامة التي تجري من تحت غرفها وسررها الأنهار من الخمر والعسل واللبن والماء، ماكثين دائمين، وذلك جزاء من تطهَّر من الكفر والمعاصي.

- ١٠ -

إغراق فرعون وجنوده في البحر ونعم اللَّه على بني إسرائيل

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾

القراءات:

﴿أَنْ أَسْرِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (أنِ اسْرِ).

﴿لَّا تَخَٰفُ﴾:

وقرأ حمزة (لاتَخَفْ).

﴿أَنجَيْنَٰكُم﴾، ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾، ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

قرئ:

١- (أنجيتُكم، وواعدتُكم، رزقتكم) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (أنجيناكم، ووعدناكم، رزقناكم) وهي قراءة أبي عمرو.

٣- (أنجيناكم، وواعدناكم، رزقناكم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿فَيَحِلَّ﴾، ﴿وَمَن يَحْلِلْ﴾:

وقرأ الكسائي (فَيَحُلَّ، ومن يَحْلُلْ).

الإعراب:

﴿طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ﴿يَبَسًا﴾ صفة ﴿طَرِيقًا﴾ وهو مصدر، فهو إما أن يكون بمعنى: ذا يَبْس، فحذف المضاف، أو جَعَل الطريق اليَبْس نفسه.

﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال، أي غير خائف، مثل ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ [المدثر: ٧٤/٦] أي مستكثراً. ومن قرأ (لا تَخَفْ) جزمه جواباً لقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ الجار والمجرور في موضع نصب على الحال، والمفعول الثاني محذوف، أي فأتبعهم فرعون عقوبته بجنوده، أي معه جنوده.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ أي من ماء اليم، و﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾: في موضع رفع فاعل، وكان حق الكلام: فغشيهم من ماء اليم شدَّته، فعدل إلى لفظة ﴿مَا﴾ لما فيها من الإبهام، تهويلاً للأمر، وتعظيماً للشأن؛ لأنه أبلغ من التعيين، فيكون أبلغ تخويفاً وتهديداً.

﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ مفعول ثان لواعدناكم، والتقدير: واعدناكم إتيان جانب الطور الأيمن، ثم حذف المضاف. و﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ صفة جانب.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ صفة لموصوف محذوف، أي: وعمل عملاً صالحاً، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه.

البلاغة:

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ تهويل.

﴿وَأَضَلَّ﴾ ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ طباق بينهما.

﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ استعارة، استعار لفظ الهوي: وهو السقوط من علو إلى سفل للهلاك والدمار.

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة، أي كثير المغفرة للذنوب.

المفردات اللغوية:

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ ليلاً من مصر، والسرى والإسراء: السير ليلاً ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ﴾ اجعل لهم بعصاك ﴿يَبَسًا﴾ أي طريقاً يابساً، لا ماء فيه، فامتثل ما أمر به وأيبس الله الأرض في قاع البحر، فمروا فيها ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ أو دَرْكاً، أي إدراكاً ولحوقاً ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ ولا تخاف غرقاً ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ حذف المفعول الثاني، أي فأتبعهم فرعون نفسه ومعه جنوده.

﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ فغمرهم وعلاهم من ماء البحر ما علاهم، فأغرقهم، والضمير: له ولهم. وفيه مبالغة وتهويل وإيجاز، أي غشيهم ما سمعت قصته ولا يعرف كنهه إلا الله ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ أي أضلهم في الدين وما هداهم بدعوتهم إلى عبادته، وإيقاعهم في الهلاك، خلافاً لقوله: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٤٠/٢٩] فمعنى (أضلهم): سلك بهم طريقاً إلى الخسران في دينهم ودنياهم، إذ أغرقوا فأدخلوا ناراً. ومعنى ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾: وما أرشدهم طريقاً يؤدي بهم إلى السعادة.

﴿أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون وإغراقه ﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ أي عن يمين من يأتي من الشام إلى مصر، لإنزال التوراة، للعمل بها، وقرئ الأيمن بالجر على الجوار ﴿ٱلْمَنَّ﴾ نوع من الحلوى يسمى الترنجبين ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ طائر هو السُّمانَى، وكلاهما في التيه ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ لذائذه أو حلالاته مما أنعمنا به عليكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ بأن تكفروا النعمة به، وتخلوا بشكره، وتتعدوا لما حد الله لكم فيه، كالسرف والبطر والمنع عن المستحق ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ بكسر الحاء: أي فيجب ويلزمكم عذابي، وبضمها: أي ينزل ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ﴾ بكسر الحاء وضمها ﴿فَقَدْ هَوَىٰ﴾ سقط في النار وهلك.

(غفار) كثير المغفرة وستر الذنوب ﴿لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك ﴿وَءَامَنَ﴾ وحّد الله وآمن بما يجب الإيمان به ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عمل الفرائض والنوافل ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ ثم استقام على الهدى المذكور إلى موته.

المناسبة:

بعد بيان الانتصار الساحق لموسى عليه السلام على السحرة، أبان الله تعالى طريق الخلاص بين فرعون الطاغية وقومه وبين بني إسرائيل، فأغرق الله فرعون وجنوده في البحر، حين تبعوا موسى وقومه، لما خرج من مصر إلى الطور، وذلك بمعجزة العصا التي ضرب بها موسى البحر، فأحدث فيه بقدرة الله طريقاً يبساً، بالرغم من الآيات المفصلة التي حدثت على يد موسى في مدى عشرين سنة حسبما ذكر في سورة الأعراف.

وأنقذ الله بني إسرائيل الذين أنعم الله عليهم بأنواع من النعم الدينية والدنيوية وأهمها إزالة المضرة، فاقتضى تذكيرهم إياها، وابتدأ بالمنفعة الدنيوية بقوله: ﴿أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ وهو إشارة إلى إزالة الضرر، ثم ثنى بالذكر المنفعة الدينية بقوله: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ وهو إنزال التوراة كتاب دينهم ومنهاج شريعتهم، ثم ثلَّث بذكر المنفعة الدنيوية بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ

﴿وَٱلسَّلْوَىٰ ، كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ ثم زجرهم عن العصيان بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ ثم بيان قبول توبة العاصي بقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾.

التفسير والبيان:

أمر الله موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل أن يسري بهم في الليل، وينقذهم من قبضة فرعون، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ أي ولقد أوحينا إلى النبي موسى أن يسير ببني إسرائيل من مصر ليلاً، دون أن يشعر بهم أحد، وأمرنا أن يتخذ أو يجعل لهم طريقاً يابساً في وسط البحر (بحر القلزم أو البحر الأحمر) وذلك أن الله تعالى أيبس لهم تلك الطريق حتى لم يكن فيها ماء ولا طين.

وأشعرناه بالأمان والنجاة، فقلنا له: أنت آمن لا تخاف أن يدركك وقومك فرعون وقومه، ولا تخشى أن يغرق البحر قومك، أو لا تخاف إدراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء.

والتعبير عن بني إسرائيل بكلمة ﴿بِعِبَادِى﴾ دليل على العناية بهم، وأنهم كانوا حينئذ قوماً صالحين، وإيماء بقبح صنع فرعون بهم من الاستعباد والظلم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾﴾ أي تبعهم فرعون ومعه جنوده، فغشيهم من البحر ما غشيهم مما هو معروف ومشهور، فغرقوا جميعاً. وتكرار ﴿غَشِيَهُمْ﴾ للتعظيم والتهويل.

وأما تورُّط فرعون الداهية الذكي في متابعة موسى فكان بسبب أنه أمر مقدمة عسكره بالدخول، فدخلوا وما غرقوا، فغلب على ظنه السلامة، فلما

دخل الكل أغرقهم الله تعالى. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ أي أضل فرعون قومه عن سبيل الرشاد، وما هداهم إلى طريق النجاة حينما سلك بهم في الطريق الذي سلكه بنو إسرائيل في وسط البحر.

ثم بدأ الله تعالى يعدِّد نعمه على بني إسرائيل، مقدِّماً إزالة المضرَّة على جلب المنفعة، وهو ترتيب حسن معقول؛ لأن «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» فقال:

١ - ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ أي قلنا لهم بعد إنجائهم: يا بني إسرائيل، قد أنجيناكم من عدوكم: فرعون، الذي كان يذبح أبناءكم ويستحيي نساءكم، وأقررنا أعينكم منهم، حين أغرقتهم وأنتم تنظرون إليهم، فقد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما في آية أخرى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٥٠] وهو إشارة إلى إزالة الضرر.

٢ - ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ أي جعلنا لكم ميقاتاً وهو موعد تكليم موسى بحضرتكم، وإنزال التوراة ذات الشريعة المفصلة، وأنتم تسمعون الكلام الذي يخاطبه به رب العزة. وكان مكان الموعد جانب جبل الطور الأيمن، وهو جبل في سيناء. قال المفسرون: ليس للجبل يمين ولا يسار، بل المراد أن طور سيناء عن يمين من انطلق من مدين إلى مصر.

٣ - ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ أي وأنزلنا عليكم المن والسلوى، وأنتم في التيه، أما المن: فهو حلوى كانت تنزل عليهم من الندى من السماء، من الفجر إلى طلوع الشمس، على الحجارة وورق الشجر. وأما السلوى: فهو طائر السُّمانى الذي تسوقه ريح الجنوب، فيأخذ كل واحد منكم ما يكفيه.

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي وقلنا لهم: انعموا بالأكل من تلك الطيبات المستلذات من الأطعمة الحلال.

﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِيۖ﴾ أي ولا تتجاوزوا ما هو جائز إلى مالا يجوز، ولا تجحدوا نعمة الله فتكونوا طاغين، ولا تأخذوا من الرزق من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به من البعد عن السرف والبطر وارتكاب المعاصي والاعتداء على الحقوق، فينزل بكم غضبي، وعقوبتي.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ أي ومن نزل به غضبي فقد شَقِيَ وهلك.

﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ أي وإني لستّار وذو مغفرة شاملة لمن تاب من الذنوب، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل عملاً صالحاً مما ندب إليه الشرع وحسَّنه، ثم استقام على ذلك حتى يموت. وفي التعبير بـ ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ دلالة على وجوب الاستمرار على تلك الطريقة؛ إذ المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة، حتى يستمر عليه في المستقبل، ويموت عليه، ويؤكده في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠] وكلمة ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخي، وليست لتباين المرتبتين، بل لتباين الوقتين، فكأنه تعالى قال: الإتيان بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، مما قد يحدث أحياناً لكل أحد، ولا صعوبة في ذلك، إنما الصعوبة في المداومة والاستمرار على المطلوب.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت هذه الآيات إلى ما يأتي:

١ً - تفضل الله على بني إسرائيل بإنقاذهم وإنجائهم من ظلم فرعون وقومه، فأوحى الله إليه أن يتخذ لهم طريقاً يابساً في البحر لا طين فيه ولا ماء، بأن ضربه بعصاه، فانشق، وجفَّ بما هيّأ الله له من الأسباب كالرياح، فأضحى لا يخاف لحاقاً من فرعون وجنوده، ولا يخشى غرقاً من البحر.

٢ً - تورُّط فرعون بعد أن أرسل فريقاً من عسكره وراء بني إسرائيل في البحر، فلما لم يغرقوا، أمر جنوده بالمسير بقيادته، فتبعهم ليلحقهم مع جنوده، فأطبق عليهم البحر، ولم ينج أحد.

٣ً - كان فرعون شؤماً على نفسه وعلى قومه، فإنه أضلَّهم عن الرشد، وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدَّر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر.

فلما ضرب موسى البحر بعصاه انفلق منه اثنا عشر طريقاً، وكان الماء بين الطرق قائماً كالجبال، كما قال تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٢٦/٦٣] أي الجبل الكبير، فأخذ كل سِبْط من أسباط بني إسرائيل طريقاً.

وأوحى الله إلى طود الماء بالتشبُّك، فصارت شبكات يرى بعضهم بعضاً، ويسمع بعضهم كلام بعض، فكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات. فلما أقبل فرعون، ورأى الطرق في البحر، والماءَ قائماً، أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابه، فانطبق البحر عليهم. وهذا كله يحتاج إلى إيمان بقدرة الله.

٤ً - أنعم الله على بني إسرائيل بنعم كثيرة، ذكر منها هنا ثلاثاً، وهي الإنجاء من آل فرعون، والمواعدة: إتيان جانب الطور، وإنزال المن والسلوى في التِّيه.

٥ً - إن النعم تقتضي الحفظ والشكر، فقد يسر الله لهم الأكل من طيبات الرزق الحلال ولذيذه الذي لا شبهة فيه، فما عليهم إلا حفظ النعمة، فلا يؤخذ منها أكثر من الحاجة، وشكرها، فلا تؤدي إلى السرف والبطر والمعصية، وهذا هو الطغيان، أي التجاوز إلى مالا يجوز.

٦ً - إن جحود النعمة يوجب حلول غضب الله ونزوله، ومن نزل به غضب الله وعقابه ونقمته وعذابه؛ فقد شقي وهلك وهوى، أي صار إلى الهاوية وهي قعر النار.

٧ً - الله غفور على الدوام لمن تاب من الشرك والكفر والمعصية، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالح الأعمال بأداء الفرائض والطاعات، واجتنب المعاصي، ثم أقام على إيمانه حتى مات عليه.

- ١١ -

تكليم الله موسى في الميقات وفتنة السامري بصناعة العجل إلهاً

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾﴾

القراءات:

﴿بِمَلۡكِنَا﴾:

قرئ:

١- (بِمَلْكِنا) وهي قراءة نافع، وعاصم.

٢- (بِمُلْكِنا) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (بِمِلْكِنا) وهي قراءة الباقين.

﴿حُمِّلْنَآ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف (حَمَلْنَا).

الإعراب:

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ﴾ (ما) مبتدأ، و﴿أَعْجَلَكَ﴾ خبره، وفيه ضمير يعود إلى (ما) وتقديره: أي شيء أعجلك؟

﴿يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ ﴿وَعْدًا﴾ إما منصوب على المصدر، تقول: وعدته وعداً، كضربته ضرباً، وإما أن يكون الوعد بمعنى الموعود، كالخلق بمعنى المخلوق، فيكون مفعولاً به ثانياً لـ ﴿يَعِدْكُمْ﴾ على تقدير حذف مضاف، أي تمامَ وعد حسن.

﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ بالفتح: هو اسم أي بإصلاح مِلْكنا ورعايته، ومن ضم الميم جعله مصدر «مَلِك» يقال: مَلِكٌ بيِّن المُلْك، ومن كسر الميم جعله مصدر «مالك» يقال: مالكٌ بيِّن المِلْك، والمصدر هنا مضاف إلى الفاعل.

﴿فَنَسِىَ﴾ الفاعل إما ﴿ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي نسي طاعتنا وتركها، والنسيان بمعنى الترك، قال تعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٧] أي تركوا طاعة الله فتركهم في النار، وإما الفاعل ﴿مُوسَىٰ﴾ أي ترك موسى ذلك وأعرض عنه، والأول أوجه.

﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾ ﴿أَلَّا﴾ مخففة من الثقيلة، واسمها محذوف: أنه.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ﴾ لمجيء ميعاد أخذ التوراة، وهو يدل على تقدم قومه في المسير إلى المكان، وهو سؤال عن سبب العجلة، يتضمن إنكارها، من حيث إنها نقيصة في نفسها، انضم إليها إغفال القوم، وإيهام التعظم عليهم، فأجاب موسى عن الأمرين، وقدم جواب الإنكار؛ لأنه أهم فقال: ﴿هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي ما تقدمتهم إلا بخطاً يسيرة لا يعتد بها عادة، وهم قادمون ورائي، ليس بيني وبينهم إلا مسافة قريبة، يتقدم الرفقة بها بعضهم بعضاً. ثم قال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ عني، أي زيادة على رضاك، فإن المسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك يوجب مرضاتك. وقبل الجواب أتى بالاعتذار بحسب ظنه، يقال: جاء على أثره: أي لحقه بلا تأخير.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي ابتليناهم واختبرناهم بعبادة العجل، بعد فراقك لهم، وأضلهم موسى السامري: أي أوقعهم في الضلال والخسران، باتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته. وهم الذين خلفهم مع هارون، وكانوا ست مئة ألف، ما نجا من عبادة العجل منهم إلا اثنا عشر ألفاً. وقرئ: (وأضلُّهم السامري)، أي أشدهم ضلالة؛ لأنه كان ضالاً مضلاً. والسامري: منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها السامرة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعدما استوفى للأربعين ليلة وأخذ التوراة ﴿غَضْبَٰنَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًا﴾ شديد الحزن بما فعلوا ﴿وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي صدقاً أنه يعطيكم التوراة فيها هدى ونور ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي زمان الإنجاز، يعني زمان مفارقته لهم ﴿أَن يَحِلَّ﴾ يجب عليكم ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بعبادتكم العجل ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ وعدكم إياي بالثبات على الإيمان بالله، والقيام بما أمرتكم به، وتركتم المجيء بعدي.

﴿بِمَلْكِنَا﴾ مثلث الميم أي بقدرتنا واختيارنا وأمرنا، إذ لو خلينا وأمرنا ولم يسول علينا السامري، لما أخلفنا موعدك ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ وقرئ: وحَمَلنا، و﴿أَوْزَارًا﴾ أثقالاً، وزينة القوم أي حلي قوم فرعون، أي حملنا أحمالاً من حلي القبط التي استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر، باسم العروس ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ طرحناها في النار بأمر السامري ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي كما ألقينا فكذلك ألقى السامري ما كان معه منها من حليهم ومن التراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي صاغ من تلك الحلي المذابة عجلاً جثة لا روح فيها ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ الخوار: صوت العجل، والمراد هنا صوت يسمع بسبب التراب الذي يكون أثره الحياة فيما يوضع فيه، وقد وضعه في فم العجل بعد صوغه.

﴿فَقَالُواْ﴾ أي السامري وأتباعه ﴿فَنَسِيَ﴾ أي نسي السامري وترك ما كان عليه من إظهار الإيمان، وقيل في زعم السامري: نسي موسى ربه هنا، وذهب يطلبه عند الطور.

﴿أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ ألا يردّ العجل لهم جواباً ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنهم ولا جلب نفع لهم، فكيف يتخذ إلهاً؟!

المناسبة:

بعد تعداد النعم على بني إسرائيل، أردف هذا بقصة الكلام الذي جرى بينه تعالى وبين موسى في الميقات بحسب المواعدة التي واعده بها ربه سابقاً، ثم أعقبه ببيان فتنة السامري لبني إسرائيل باختراع العجل من الذهب، وجعله إلهاً، يصدر صوتاً حينما تهب رياح معينة، فتحرك التراب الذي في فمه، فوبخهم الله بأن هذا العجل لايجيب سائله، ولايملك لهم ضراً ولانفعاً.

وتجاوب بني إسرائيل في تأليه العجل وعبادته نابع من ميلهم إلى الوثنية أثناء مخالطة المصريين، بدليل أنه لما نجاهم الله من طغيان فرعون، طلبوا من موسى نفسه عليه السلام أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه، كما قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/١٣٨] .

التفسير والبيان:

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ أي ما حملك على أن تسبقهم، والقوم: هم بنو إسرائيل، والمراد بهم هنا النقباء السبعون، أي ما الذي حملك على العجلة حتى تركت النقباء وخرجت من بينهم.

وذلك أن الله وعد موسى باللقاء في جبل الطور بعد هلاك فرعون، ليعطيه الألواح التي فيها الوصايا الدستورية لبني إسرائيل. فلما أهلك الله فرعون سأل موسى ربه الكتاب، فأمره أن يصوم ثلاثين يوماً، ثم زيدت إلى أربعين يوماً: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٢] .

وكانت المواعدة أن يوافي موسى وجماعة من وجوه قومه، فاختار موسى منهم سبعين رجلاً: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٥] وهم النقباء السبعون الذين اختارهم، فسار موسى بهم، ثم عجّل من بينهم شوقاً إلى ربه، أي لما قرب من الطور سبقهم شوقاً إلى سماع كلام الله، فقال الله له: ما أعجلك؟ أي ما الذي حملك على العجلة حتى تركت قومك وخرجت من بينهم؟.

وهذا الإنكار إنكار للعجلة في ذاتها؛ لما فيها من عدم العناية بصحبه؛ لأن من شرط المرافقة الموافقة، وهو تعليم للأدب الحسن الرفيع في المصاحبة.

﴿قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ أي قال موسى مجيباً ربه: هم بالقرب مني، واصلون بعدي، وما تقدمتهم إلا بخطأ يسيرة، وسارعت إليك ربّ لتزداد عني رضا بمسارعتي إلى الوصول إلى مكان الموعد، امتثالاً لأمرك، وشوقاً إلى لقائك. فهو عليه السلام يعتذر بالخطأ في الاجتهاد.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ أي قال الله تعالى: إنا قد اختبرنا قومك بني إسرائيل من بعد فراقك لهم، وهم الذين تركهم مع أخيه هارون، وجعلهم موسى السامري في ضلالة عن الحق، باتخاذهم عبادة العجل من ذهب.

والسامري من قبيلة السامرة، أو من قوم يعبدون البقر، والأكثرون أنه كان من عظماء بني إسرائيل من قبيلة السامرة، قال لمن معه من بني إسرائيل: إنما تخلف موسى عن الميعاد الذي بينكم وبينه وهو عشر ليال، لما صار معكم من الحلي، وهي حرام عليكم، وأمرهم بإلقائها في النار، وكان منها العجل، الذي يصدر منه صوت أحياناً بفعل تأثير الرياح.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ﴾ أي فعاد موسى إلى قومه بني إسرائيل بعد انقضاء الليالي الأربعين، شديد الغضب والحنق، والأسف والحزن والجزع.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ﴾ أي قال موسى: يا قوم أما وعدكم ربكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة، من إنزال الكتاب التشريعي العظيم لتعملوا به، والنصر على عدوكم، وتملككم أرض الجبارين وديارهم، والثواب الجزيل في الآخرة بقوله المتقدم: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ أي هل طال عليكم الزمان في انتظار وعد الله ونسيان ما سلف من

نعمه، ولم يمض على ذلك من العهد غير شهر وأيام، ﴿أَمْ﴾ (أيْ بل[1]) أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم غضب ونقمة وعقوبة من ربكم؟ فأخلفتم وعدي، إذ وعدتموني أن تقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن أرجع إليكم من الطور. يعني هل طال العهد عليكم فنسيتم أو أردتم المعصية فأخلفتم؟.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي أجابوه قائلين: ما أخلفنا عهدك ووعدك باختيارنا وقدرتنا، بل كنا مضطرين إلى الخطأ. وهذا إقرار منهم بالمعصية والوقوع في الفتنة بتسويل السامري وغلبته على عقولهم، كما قال تعالى:

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي ولكن حملنا أثقالاً من زينة القوم أي القبط المصريين، حين خرجنا من مصر معك، وأوهمناهم أننا نجتمع في عيد لنا أو وليمة. وسميت أوزاراً أي آثاماً؛ لأنه لا يحل لهم أخذها. وقال السامري لهم: إنما حُبس موسى عنكم بشؤم حرمتها، ثم أمرنا أن نحفر حفرة، ونملأها ناراً، وأن نقذف الحلي فيها، فقذفناها، أي فطرحناها في النار طلباً للخلاص من إثمها، فمثل ذلك قذف السامري ما معه، وصاغ من الحلي عجلاً، ثم ألقى عليه قبضة من أثر الرسول جبريل.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي فأخرج السامري لبني إسرائيل من الذهب الملقى في النار (الأوزار) جسد عجل لا روح ولا حياة فيه، له خوار العجول؛ لأنه صنعه بطريقة معينة، عمل فيه خروقاً، وألقى فيه رملاً من أثر جبريل، فكان إذا دخلت الريح في جوفه خار. والخوار: صوت البقر.

﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي قال السامري ومن فتن به:

(١) بل: للإضراب عن الكلام الأول وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم.. إلخ.

هذا هو إلهكم وإله موسى، فاعبدوه، ولكن موسى نسي أن يخبركم أن هذا إلهكم.

فرد الله تعالى عليهم مقرعاً لهم ومسفهاً عقولهم، فقال:

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾أي أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يرد عليهم جواباً، ولا يكلمهم إذا كلموه، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، أو يجلب لهم نفعاً، فكيف يتوهمون أنه إله؟!.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

١ً - تعجل موسى عليه السلام سابقاً قومه النقباء السبعين شوقاً للقاء ربه وسماع كلامه، باجتهاد منه، ولكنه أخطأ في ذلك الاجتهاد، فاستوجب العتاب.

ثم إن العجلة وإن كانت في الجملة مذمومة، فهي ممدوحة في الدين، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣] .

وكنى موسى عن ذكر الشوق وصدقه بابتغاء الرضا، قائلاً: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي عجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمصير إليه لترضى عني.

٢ً - اختبر الله بني إسرائيل في غيبة موسى عليه السلام، ليتبين القائمين على أمر الله عز وجل، واعتقاد توحيده، والتزام شريعته، تبين انكشاف وظهور لأن الله عالم بالجميع.

٣ً - لقد أضلهم السامري، أي دعاهم إلى الضلالة، أو هو سببها.

٤ً - حقَّ لموسى عليه السلام أن يعود إلى قومه شديد الغضب والأسى بسبب ما أحدثوا بعده من عبادة العجل.

٥ً - بادر موسى إلى عتاب قومه بتذكيرهم بنعم الله عز وجل عليهم، ومنها إنجاؤهم من فرعون وجنوده، ووعدهم بالجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه في التوراة على لسان موسى، ليعملوا بما فيها، فيستحقوا ثواب عملهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ﴾ يدل على أنهم كانوا معترفين بالإله، لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذي يذكره عبدة الأصنام.

٦ً - لا عذر لهم في نقض العهد الذي لم يطل أمره، ولكنهم أرادوا العصيان وإحداث الأعمال التي تكون سبب حلول غضب الله بهم، وأخلفوا الوعد مع موسى أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطور.

٧ً - اعتذروا لموسى عليه السلام بأنهم كانوا مضطرين إلى خلف الموعد، ونقض العهد، وذلك للتخلص من آثام الحلي التي كانوا قد أخذوها من القبط المصريين، حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام، وأوهموهم أنهم يجتمعون في عيد لهم أو وليمة، فألقوها في النار لتذوب.

٨ً - لَمَّا ذابتْ الحلي في النار، أخذها السامري، وصاغ لهم منها عجلاً، ثم ألقى عليه قبضته من أثر فرس جبريل عليه السلام، فصار عجلاً جسداً له خوار.

٩ً - زيَّف السامري الحقائق، ودلّس على بني إسرائيل، وقال لهم مع أتباعه الذين كانوا ميّالين إلى التجسيم والتشبيه؛ إذ قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٨]: هذا إلهكم وإله موسى الذي نسي أن يذكر لكم أنه إلهه.

١٠ً - سفَّه الحق تعالى أحلامهم وعاب تفكيرهم، وقال لهم: أفلا يعتبرون ويتفكرون في أن هذا العجل لا يكلمهم، ولا يملك لهم ضراً يدفعه عنهم ولا نفعاً يجلبه لهم، فكيف يكون إلهاً؟!.

أما الذي يعبده موسى عليه السلام فهو يضر وينفع ويعطي ويمنع.

١١ً - دل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ على وجوب النظر في معرفة الله تعالى، كما في آية أخرى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٨] . وهو قريب في المعنى من قوله تعالى في ذم عبدة الأصنام: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ٧/١٩٥] .

- ١٢ -

معاتبة موسى لهارون على تأليه العجل وإلقائه في البحر وتوحيد الإله الحق

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾

القراءات:

﴿يَبْنَؤُمَّ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف (يا ابن أومِّ).

﴿بِرَأْسِيٓ إِنِّي﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (برأسيَ إني).

﴿يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (تبصروا به).

﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لن تُخْلِفَه).

الإعراب:

﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ بالفتح أراد (يا بن أُمِّيَ) بفتح الياء، فأبدل من الكسرة فتحة، ومن الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ثم حذف الألف تخفيفاً؛ لأن الفتحة تدل عليها. ومن قرأ بالكسر (يا بن أمِّ) أراد (يا بن أمِّي) إلا أنه حذف الياء؛ لأن الكسرة قبلها تدل عليها، والأصل إثباتها؛ لأن الياء إنما تحذف من المنادى المضاف، نحو: يا قومِ، ويا عبادِ، والأم ليست بمناداة هنا، وإنما المنادى هو (الابن).

﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ فعل مبني للمجهول، وضمير المخاطب نائب الفاعل، وهاء ﴿تُخْلَفَهُۥ﴾ مفعول ثانٍ منصوب. ومن قرأ بكسر اللام (لن تُخلِفَه) كان مضارع (أخلفتُ الموعدَ) والمفعول الثاني حينئذ محذوف، أي (لن تُخْلِفَهُ) أي الموعد؛ لأن أخلف: يتعدى إلى مفعولين.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ تمييز محول عن الفاعل، أي وسع علمه كل شيء.

البلاغة:

﴿أَمۡرِي﴾ ﴿قَوۡلِي﴾ ﴿نَفۡسِي﴾ وكذا ﴿نَفۡعٗا﴾ ﴿نَسۡفٗا﴾ ﴿عِلۡمٗا﴾ سجع حسن غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿مِن قَبۡلُ﴾ من قبل رجوع موسى ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ إنما وقعتم في الفتنة والضلال بالعجل ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ في الثبات على الحق وعبادة الرحمن ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي﴾ في تلك العبادة ﴿لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ﴾ لن نزال على العجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ مقيمين ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾ قال موسى بعد رجوعه ﴿ضَلُّوٓاْ﴾ بعبادة العجل ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ لا: زائدة، أي أن تتبعني في الغضب لله ومقاتلة من كفر بالله ﴿أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي﴾ بالصلابة في الدين، والمحاماة عنه، وعصيانك بإقامتك بين قوم لا يعبدون الله تعالى.

﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ﴾ أراد أمي، وخص الأم استعطافاً لقلبه ﴿لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ﴾ لا تأخذ بشعر لحيتي ولا بشعر رأسي، وكان أخذ بلحيته بشماله، وبشعره بيمينه، يجرّه إليه، من شدة غضبه لله، ومن المعلوم أن موسى عليه السلام كان حديداً خشناً متصلباً في كل شيء، فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل، ففعل ما فعل. ﴿خَشِيتُ﴾ خفت لو اتبعتك ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي﴾ ولم تراعِ قولي فيما رأيته في ذلك.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾ أي ثم أقبل عليه وقال منكراً: ما شأنك الداعي إلى ما صنعت، وما الذي حملك على هذا الأمر الخطير؟ ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ أي علمت بما لم يعلموه ﴿فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ فقبضت قبضة من تربة موطئ جبريل عليه السلام، فهو

الرسول، وقيل: موسى عليه السلام، والقبضة: الأخذ بجميع الكف ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ ألقيتها وطرحتها في صورة العجل المصاغ ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أي ومثل ذلك زينت وحَسَّنت لي نفسي.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ﴾ قال موسى له: ﴿فَاذْهَبْ﴾ من بيننا ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ مدة حياتك ﴿أَن تَقُولَ﴾ لمن رأيته، عقوبة على ما فعلت ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أي لا تقربني، ولا مخالطة، فلا يقربه ولا يخالطه أحد، ولا يخالط أحداً، فعاش وحيداً طريداً، وإذا حدث مساس مع أحد، أخذته الحمى ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ في الآخرة لعذابك ﴿لَّن تُخْلَفَهُ﴾ أي سيأتيك الله به حتماً، وتبعث إليه، وبكسر اللام: لن تغيب عنه ﴿ظَلْتَ﴾ أصله: ظَلِلْت، فحذفت الأولى تخفيفاً، أي دمت ﴿عَاكِفًا﴾ مقيماً تعبده ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ أي بالنار ﴿لَنَنسِفَنَّهُ﴾ لنذرينه ﴿فِي الْيَمِّ﴾ في البحر ﴿نَسْفًا﴾ نذراً، فلا يصادف منه شيء، وقام موسى فعلاً بإلقاء العجل في البحر.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ وسع علمه كل شيء وأحاط به.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى مخالفة عبادة العجل لأبسط مبادئ العقل؛ لأنه لا يجيب سائله ولا يدفع عنه ضراً ولا يجلب له نفعاً، ذكر أن بني إسرائيل أيضاً عصوا الرسول الذي نبههم إلى خطأ فعلهم، ثم أوضح معاتبة موسى لأخيه هارون على سكوته على بني إسرائيل في عبادتهم العجل، ثم أردف به مناقشة موسى للسامري وعقابه من الله في الدنيا والآخرة، وإلقاء موسى العجل في البحر، وإعلان موسى صراحة: من هو الإله الحق، وهو الذي وسع علمه السماوات والأرض، لا الجماد ولا الحيوان الذي لا يضر ولا ينفع.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام قومه عن عبادتهم العجل وتحذيرهم منه، وإخباره إياهم بأنه فتنة، فيقول:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ أي لقد قال هارون عليه السلام لقومه عبدة العجل من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم: إنما وقعتم في الفتنة والاختبار لإيمانكم وحفظكم دينكم بسبب العجل، وضللتم عن طريق الحق لأجله، ليعرف صحيح الإيمان من عليله.

وإن ربكم الله الذي خلقكم وخلق كل شيء فقدَّره تقديراً، لا العجل، فاتبعوني في عبادة الله، ولا تتبعوا السامري في أمره لكم بعبادة العجل، وأطيعوا أمري لا أمره، واتركوا ما أنهاكم عنه.

ويلاحظ أن هارون عليه السلام وعظهم بأحسن الوجوه؛ لأنه زجرهم عن الباطل أولاً بقوله: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ ثم دعاهم إلى معرفة الله تعالى ثانياً بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ثم دعاهم ثالثاً إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ ثم دعاهم إلى الشرائع رابعاً بقوله: ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

وقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ تذكير لهم بربوبية الله وقدرته التي أنجتهم من فرعون وجنوده، وتذكير برحمة الله التي تدل على أنهم متى تابوا، قبل الله توبتهم؛ لأنه هو الرحمن الرحيم، ومن رحمته تخليصهم من آفات فرعون وعذابه.

ولكنهم قابلوا الوعظ والنصح بالتقليد والجحود، فقالوا:

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ أي قالوا: لا نقبل حجتك، ولكن نقبل قول موسى، فلا نترك عبادة العجل، حتى نسمع كلام موسى فيه. وكادوا أن يقتلوا هارون عليه السلام. وما قصدهم إلا التسويف.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ أي قال موسى لهارون حين رجع إلى قومه بعد تكليم ربه في الميقات: ما

الذي منعك من اتباعي إلى جبل الطور، واللحوق بي مع من بقي مؤمناً، فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع، حين وقعوا في هذه الضلالة ودخلوا في الفتنة؟ ففي مفارقتهم زجر لهم، ودليل على الغضب والإنكار عليهم. و(لا) في قوله ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ زائدة، أي أن تتبع أمري ووصيتي.

أفعصيت أمري؟ أي كيف خالفت أمري لك بالقيام لله، ومنابذة من خالف دينه، وأقمت بين هؤلاء الذين اتخذوا العجل إلهاً؟ ألم أقل لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢/٧] .

فقال هارون معتذراً عن تأخره عنه وإخباره بما حدث، مستعطفاً إياه: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ أي قال هارون لموسى: يا ابن أمّ، مترققاً له بذكر الأم التي هي عنوان الحنو والعطف، مع أنه شقيقه لأبويه، لا تفعل هذا عقوبة منك لي، وكان موسى قد أخذ برأس أخيه يجره إليه، فإن لي عذراً هو:

﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أي إني خشيت إن خرجت عنهم وتركتهم أن يقتتلوا ويتفرقوا، فتقول: إني فرقت جماعتهم؛ لأنه لو خرج لتبعه جماعة منهم، وتخلف مع السامري عند العجل آخرون، وربما أفضى ذلك إلى القتال بينهم، وحينئذ تقول: لم تعمل بوصيتي لك فيهم وتحفظها، وهي قوله المتقدم: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ﴾ ولم تراع ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم، واعتذر إليه أيضاً بقوله في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ [الأعراف: ١٥٠/٧] .

ثم كلم موسى كبير الفتنة وهو السامري قائلاً:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾﴾؟ أي قال موسى للسامري: ما شأنك، وما الذي حملك على ما صنعت؟ سأله ليتخذ من جوابه وإقراره حجة للناس ببطلان فعله وقوله.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أي قال السامري: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون على فرس، فأخذت قبضة من أثر فرسه - والقبضة: ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع، وذلك الأثر لا يقع على جماد إلا صار حياً - فطرحتها في الحلي المذابة المسبوكة على صورة العجل، فصنعت لهم تمثال إله، حينما رأيتهم يطلبون منك أن تجعل لهم إلهاً كآلهة المصريين عبدة الأصنام.

قال مجاهد: نبذ السامري، أي ألقى ما كان في يده على حلية بني إسرائيل، فانسبك عجلاً جسداً له خوار: وهو حفيف الريح فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ أي كما زينت لي نفسي السوء، زينت لي أيضاً وحَسَّنت هذا الفعل بمحض الهوى، أو حدثتني نفسي، لا بإلهام إلهي أو ببرهان نقلي أو عقلي.

فأخبره موسى بجزائه في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ أي قال موسى للسامري: فعقوبتك في الدنيا أن تذهب من بيننا وتخرج عنا، وأن تقول ما دمت حياً: لا يمسك أحد، ولا تمس أحداً، وأمر موسى بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له، وهذه هي عقوبة النبذ من المجتمع أو العزل المدني.

وعقوبتك في الآخرة: أن لك موعداً فيها للعذاب لا يخلفه الله، بل سينجزه، وهو يوم القيامة، وهو آتٍ لا ريب فيه ولا مفر منه.

وأما إلهك المزعوم فمصيره كما قال تعالى:

﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ أي وانظر إلى معبودك الذي أقمت على عبادته، يعني العجل

لنحرقنّه تحريقاً بالنار، ثم لنذرينه في البحر لتذهب به الريح. قال قتادة: فحرقه بالنار، ثم ألقى رماده في البحر. وهذا موقف حازم من موسى عليه السلام أحد الأنبياء أولي العزم؛ لأن مثل هذا المعبود في زعم السامري ومن اتبعه يجب استئصال آثاره، حفاظاً على توحيد الله عز وجل وعبادته وحده لاشريك له، لذا أتبعه بقوله:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ أي قال موسى: إن هذا العجل الذي فتنكم به السامري ليس بإله، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو، أي فهو المستحق للعبادة، ولا تنبغي العبادة إلا له، فكل شيء فقير إليه، عبد له. وهو عالم بكل شيء، أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين. وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرَّها ومستودعَها، كل في كتاب مبين.

وهكذا بدأت قصة موسى بالتوحيد الخالص: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ وختمت به: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ شأن رسالة كل نبي.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات مايأتي:

١ - أنكر هاورن عليه السلام على السامري وتابعيه عبادة العجل إنكاراً شديداً قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم، فعصوه وكادوا أن يقتلوه، وسوّفوا وماطلوا حتى يرجع موسى عليه السلام، لينظروا هل يقرهم على ما فعلوا أم لا.

٢ - لقد توهموا أن موسى يعبد العجل، فاعتزلهم هارون مع اثني عشر ألفاً

لم يعبدوا العجل، فلما رجع موسى سمع الصياح والضجيج، وكانوا يرقصون حول العجل، فقال للسبعين الذين معه: هذا صوت الفتنة.

٣ - قوله تعالى: ﴿قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ دليل على أن السكوت على المنكر ضلال، والمعنى: حين رأيتهم أخطؤوا الطريق وكفروا، ما منعك عن اتباعي والإنكار عليهم، إن مقامك بينهم - وقد عبدوا غير الله - عصيان منك لي.

قال القرطبي: وهذا كله أصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله، وأن المقيم بينهم ولاسيما إذا كان راضياً حكمه كحكمهم. وسئل الإمام أبو بكر الطُّرْطُرشي رحمه الله:

ما يقول سيدنا الفقيه في مذهب الصوفية؟ وهم جماعة يجتمعون، فيكثرون من ذكر الله تعالى، وذكر محمد ﷺ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شيء من الأديم، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشياً عليه، ويُحضرون شيئاً يأكلونه، هل الحضور معهم جائز أم لا؟

فأجاب: يرحمك الله، مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامريّ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خُوار، قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعُبَّاد العجل؛ وأما القضيب: فأول من اتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى؛ وإنما كان يجلس النبي ﷺ مع أصحابه، كأنما على رؤوسهم الطير من الوقار؛ فينبغي للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور في المساجد وغيرها؛ ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم، ولا يعينهم على باطلهم؛ هذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين، وبالله التوفيق[١].

---

(١) تفسير القرطبي: ١١/٢٣٧ - ٢٣٨

٤ً - أجاب هارون معتذراً مبيناً وجهة اجتهاده: وهي أنه خشي إذا خرج وتركهم - وقد أمره موسى بالبقاء معهم - أن تقع الفرقة بين بني إسرائيل، وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء، وخشي إن زجرهم أن يقع قتال، فيلومه موسى عليه، وقد أوضح ذلك هنا بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وفي الأعراف قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ لأنك أمرتني أن أكون معهم.

٥ً - بعد عتاب هارون اتجه موسى للسامري سائلاً: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أي ما أمرك وما شأنك، وما الذي حملك على ما صنعت؟ وقصده من سؤاله: انتزاع اعتراف منه بباطله.

قال قتادة: كان السامري عظيماً في بني إسرائيل من قبيلة يقال لها (سامرة) ولكن عدو الله نافق بعدما قطع البحر مع موسى، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة، وهم يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ فاغتنمها السامري، وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل، فاتخذ العجل.

فقال السامري مجيباً لموسى: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ يعني رأيت مالم يروا؛ رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة، فأُلقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضته، فما ألقيته على شيء، إلا صار له روح ولحم ودم؛ فلما سألوك أن تجعل لهم إلهاً، زيَّنت لي نفسي ذلك.

٦ً - عاقب موسى عليه السلام ذلك السامري الذي اعترف بأنه صنع العجل لهوى في نفسه، فنفاه عن قومه، وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قال الحسن البصري: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه، عقوبة له ولما كان منه إلى يوم القيامة؛ وكأن الله عز وجل شدّد عليه المحنة، بأن جعله لا يماس أحداً، ولا يمكّن من أن يمسَّه أحد، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا.

ويقال: لما قال له موسى: فاذهب، فإن لك في الحياة أن تقول: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ خاف فهرب، فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش، لا يجد أحداً من الناس يمسه، حتى صار كالقائل: لا مساس؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه.

٧ً - قال القرطبي: هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا، وقد فعل النبي ﷺ ذلك بكعب بن مالك وصاحبيه الذين خُلِّفوا.

ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتل لا يُقتل عند بعض الفقهاء، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى، ليضطر إلى الخروج. ومن هذا القبيل: التغريب في حدّ الزنى.

٨ً - وهناك عقاب آخر للسامري يوم القيامة، وموعد لعذابه لابد من مجيئه، والصيرورة إليه، ولا خلف فيه.

٩ً - حرّق موسى عليه السلام بالنار العجل الذي اتخذه السامري. ثم ألقى رماده في البحر، وهذا هو الواجب المتعين في استئصال المنكر وتصفية جميع آثاره.

١٠ً - طوى موسى عليه السلام من تاريخ بني إسرائيل واقعة عبادة العجل التي طرأت في فترة زمنية قصيرة الأمد، وقرر إلى الأبد مبدأ التوحيد، وأوجب عبادة الله الذي لا إله إلا هو، العليم بكل شيء، وسع كل شيءٍ علمه، الخبير بأحوال المخلوقات الظاهرة والباطنة، وهذه هي صفات الإله الحق المستحق للعبادة دون سواه.

١١ً - لم يكن أخذ موسى برأس أخيه وبلحيته معصية قادحة بعصمة الأنبياء عليهم السلام، كما زعم بعض الطاعين، وإنما كان هذا تعبيراً قوياً عن

إنكاره، وغضباً لله لا لنفسه، وهكذا كان رسول الله ﷺ لا يغضب لنفسه، وإنما يغضب إذا انتهكت محارم الله. والغضب في هذا الموضع محمود غير مذموم، ولا يستنكر ولا يستغرب ظهور أمارات الغضب على النفس، وقد أجرى موسى عليه السلام أخاه هارون مجرى نفسه؛ لأنه كان أخاه وشريكه، فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه في حال الفكر والغضب، فإن الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه، ويفتل أصابعه، ويقبض لحيته(١).

والدليل على ذلك أن هارون عليه السلام عذر أخاه موسى عليه السلام فيما فعل، وكل ما في الأمر أنه استمهله وهدَّأ أعصابه، ليبين له وجهة نظره، ووجه اجتهاده.

العبرة من القصص القرآني وجزاء المعرض عن القرآن

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾

القراءات:

﴿يُنفَخُ﴾:

وقرأ أبو عمرو (نَنْفُخ).

---

(١) تفسير الرازي: ١٠٨/٢٢

الإعراب:

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ أفرد ضمير ﴿أَعْرَضَ﴾ حملاً على لفظ ﴿مَّنْ﴾، وجمع الضمير في قوله ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حملاً على معناه. و﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حال من ضمير ﴿يَحْمِلُ﴾.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ تمييز مفسر للضمير في ﴿وَسَآءَ﴾، والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وزرهم.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدل من يوم القيامة السابق.

البلاغة:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ حِمْلًا﴾ استعارة تصريحية، شبَّه الوزر بالحمل الثقيل، مصرحاً بلفظ المشبه به.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي مثل ذلك الاقتصاص اقتصاص موسى والسامري - نقص عليك يا محمد من أخبار الأمم الماضية. ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ وقد أعطيناك من عندنا قرآناً، فالذكر: القرآن، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [الحجر: ١٥/٦] وسمي بذلك؛ لأن فيه ذكر كل ما يحتاج إليه الناس في الدين والدنيا، والقصص والأخبار، والتنكير فيه للتعظيم.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن الذكر الذي هو القرآن الجامع لأسباب السعادة والنجاة، فلم يؤمن به. ﴿وِزْرًا﴾ حملاً ثقيلاً من الإثم، والمراد به: العقوبة الشديدة التي تثقل صاحبها. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهِ﴾ في عذاب الوزر. ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ

﴿الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أي ساء أو بئس وزرهم، واللام للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾[يوسف: ١٢/ ٢٣].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يوم ينفخ في القرن النفخة الثانية .﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ نجمع الكافرين .﴿زُرْقًا﴾ أي زرق الأبدان والعيون، مع سواد وجوههم، لاشتماله على الشدائد والأهوال .﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يتسارون ويخفضون أصواتهم، لشدة الرعب والهول .﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ أي ما لبثتم في الدنيا إلا عشراً من الليالي بأيامها، يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ في ذلك أي في مدة لبثهم .﴿أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أعدلهم رأياً أو عملاً .﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ أي يستقلون لبثهم في الدنيا جداً، لما يشاهدونه من أهوال الآخرة. وحكاية اختلافهم في مدة اللبث: ﴿عَشْرًا﴾ أو ﴿يَوْمًا﴾ أو (ساعة) ليس على سبيل الحقيقة أو الشك في التعيين، بل المراد تقرير سرعة زواله.

المناسبة:

بعد بيان قصص موسى والسامري، أبان الله تعالى لنبيه إيناساً له أن إعلامك بأخبارالأمم الماضية وأحوالهم كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، هو زيادة في معجزاتك، وحث على الاعتبار والاتعاظ من قبل المكلفين في الدين.

وناسب بعده أن يذكر جزاء المعرضين عن أحكام القرآن، ذلك الجزاء الرهيب الذي تشيب منه الولدان.

التفسير والبيان:

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ أي كما قصصنا عليك أيها الرسول خبر موسى مع فرعون وجنوده وخبره مع بني إسرائيل في الحقيقة

والواقع، كذلك نقص عليك أخبار الحوادث التي جرت مع الأمم الماضية، كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، لتكون سلوة لك عما تكره، وبياناً لسيرة الأنبياء السابقين في مكابدتهم الشدائد مع أقوامهم لتتأسَى بهم، ودلالة على صدقك ونبوتك، مما يجعل في القصص عبرة وعظة، ودرساً وفائدة.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ أي هذا.. وقد أعطيناك من عندنا ذِكْراً، وهو القرآن العظيم، للتذكر به على الدوام؛ لأنه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ولأنه لم يُعْطَ نبي من الأنبياء قبلك مثله، ولا أكمل منه ولا أجمع لخبر ما سبق، وخبر ما هو كائن، وفيه حكم الفصل بين الناس، وكل ما هو صلاح للبشر في الدين والدنيا والآخرة، وجميع مكارم الأخلاق، ومناهج الحياة الفاضلة.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي كل من كذب به، وأعرض عن اتباعه، فلم يؤمن به، ولا عمل بما فيه، وابتغى الهدى في غيره، يحمل إثماً عظيماً، وعقوبة ثقيلة يوم القيامة بسبب إعراضه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١١/١٧] .

وهذا عام في كل من بَلَغه القرآن من العرب والعجم أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى في بيان مهمة رسوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩/٦] ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له، وداع للإيمان به، فمن اتبعه هُدِي، ومن خالفه وأعرض عنه، ضل وشقي في الدنيا، والنار موعده يوم القيامة.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾﴾ أي ماكثين مقيمين على الدوام في جزائه ووزره، وهو النار، لا محيد لهم عنه ولا انفكاك، وبئس الحمل حملهم الذي حملوه من الأوزار، جزاء إعراضهم.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ أي إن يوم القيامة هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور النفخة الثانية، نفخة البعث التي يحشر

الناس بعدها للحساب، وفي هذا اليوم بالذات يحشر المجرمون أيضاً وهم المشركون والعصاة المأخوذون بذنوبهم التي لم يغفرها الله لهم، زُرْق العيون والوجوه من شدة ما هم فيه من الأهوال، والغيظ والندامة.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ أي يتسارّون بينهم، فيقول بعضهم لبعض سرّاً: ما لبثتم في الدنيا إلا قليلاً بمقدار عشرة أيام أو نحوها أو عشر ليال، يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا أو في القبور، بمقارنتها بأيام الآخرة الطويلة الأمد وبأعمار الآخرة.

وإنما خص العشرة واليوم الواحد بالذكر؛ لأن القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه إلا بالعشرة والواحد.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون وبما يقولون في مدة لبثهم، حين يقول أعدلهم قولاً، وأكملهم رأياً وعقلاً، وأعلمهم عند نفسه: ما لبثتم إلا يوماً واحداً؛ لأن دار الدنيا كلها، وإن طالت في أنظار الناس، كأنها يوم واحد، وغرضهم من ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٣٠/٥٥] وقال سبحانه: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٢-١١٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن في قصص القرآن من أخبار الأمم وأحوالهم عبرة وعظة، يستعبر بها أو يتعظ العقلاء المكلفون، وسلوة للنبي، ودليلاً على صدقه، وزيادة في معجزاته.

٢ً - والقرآن العظيم كله تذكير ومواعظ للأمم والشعوب والأفراد، وشرف وفخر للإنسانية وللعرب خاصة، ونعمة عظمى لكل إنسان.

٣ً - وكما أن القرآن نعمة، ففيه أيضاً وعيد شديد لمن أعرض عنه، ولم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه، فهو - أي المُعْرِض - يتحمل الإثم العظيم والحمل الثقيل يوم القيامة، حيث يقيم في جزائه، وجزاؤه جهنم، وبئس الحمل الذي حملوه يوم القيامة.

والوزر: هو العقوبة الثقيلة، سميت وزراً، تشبيهاً في ثقلها على المعاقب بثقل حمل الحامل، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم.

وصفة ذلك الوزر كما تبين شيئان: أحدهما - أنه مخلد مؤبد، وثانيهما - أنه ما أسوأ هذا الوزر حملاً، أي محمولاً.

٤ً - إن يوم القيامة هو اليوم الذي ينفخ في الصور النفخة الثانية للبعث والحشر والحساب. والصور: قرن ينفخ فيه يدعى به الناس إلى المحشر.

٥ً - يكون النفخ في الصور سبباً لحشر المجرمين، أي المشركين، زرق العيون والأبدان من شدة العطش وشدة الأهوال التي يكابدونها.

٦ً - يتسارر المجرمون يوم القيامة قائلين: ما لبثتم في الدنيا إلا عشر ليال، يستقصرون مدة مقامهم في الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة، ويخيل إلى أمثلهم أي أعدلهم قولاً، وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه: أنهم ما لبثوا في الدنيا إلا يوماً واحداً أي مثل يوم أو أقل.

أحوال الأرض والجبال والناس يوم القيامة

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾

القراءات:

﴿فَلَا يَخَافُ﴾:

وقرأ ابن كثير (فلا يخفْ).

البلاغة:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ كناية عن أمر الدنيا والآخرة.

﴿عِلْمًا﴾ ﴿ظُلْمًا﴾ ﴿هَضْمًا﴾ سجع مؤثر غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ عن حال أمرها وكيف تكون يوم القيامة، وقد سأل عنها رجل من ثقيف. ﴿فَقُلْ﴾ لهم. ﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ يفتتها ذرات ويجعلها كالرمل السائل، ثم يطيرها كالريح. ﴿فَيَذَرُهَا﴾ فيتركها ويذر مقارّها أو يذر الأرض. ﴿قَاعًا﴾ أرضاً منبسطة لا بناء ولا نبات. ﴿صَفْصَفًا﴾ أرضاً ملساء مستوية. ﴿عِوَجًا﴾ انخفاضاً. ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ ارتفاعاً.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم نسف الجبال، على إضافة اليوم إلى وقت النسف، ويجوز أن يكون بدلاً ثانياً من يوم القيامة. ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يتبع الناس بعد القيام من القبور. ﴿الدَّاعِيَ﴾ داعي الله إلى المحشر، بصوته، وهو إسرافيل يقول: هلموا إلى عرض الرحمن. ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يعوجّ له مدعو ولا يعدل عنه، أي لا يقدر ألا يتبع، أو لا عوج لدعائه، فلا يميل إلى ناس دون ناس. ﴿وَخَشَعَتِ﴾ سكنت وذلت. ﴿إِلَّا هَمْسًا﴾ الهمس: الصوت الخفي، أو صوت وطء الأقدام في نقلها إلى المحشر.

﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ الاستثناء من الشفاعة، أي إلا شفاعة من أذن له، فمن: مرفوع على البدلية بتقدير حذف المضاف إليه، أي لا تنفع الشفاعة إلا شفاعة من أذن له الرحمن، وهذا هو المتبادر إلى الذهن، أو إن الاستثناء من أعم المفاعيل، أي إلا من أذن في أن يشفع له، فإن الشفاعة تنفعه، فتكون ﴿مَنْ﴾: منصوباً على المفعولية، ورجح الرازي الاحتمال الثاني، أي لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شخصاً مرضياً. ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي ورضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع في شأنه. والخلاصة: إن الإذن إما أن يكون للشافع دون تعيين، وإما أن يكون للشافع من أجل المشفوع له، ورضي قوله لأجله، أي رضي للمشفوع له قولاً. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يعلم كل أمر من أمور الآخرة والدنيا، أو يعلم كل شؤون عباده في الدنيا والآخرة. فالمراد من قوله: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ إما أمور الدنيا على رأي، وإما أمور الآخرة وما يستقبلونه، على رأي الأكثرين. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ أي لا يحيط علمهم بمعلوماته.

﴿وَعَنَتِ﴾ خضعت وانقادت، ومنه العاني: الأسير. ﴿الْقَيُّومِ﴾ القائم بتدبير عباده ومجازاتهم. ﴿خَابَ﴾ خسر. ﴿مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ شركاً. ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ الطاعات. ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ منع الثواب عن المستحق بالوعد. ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ ولا نقصاً من حسناته.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠٥):

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾: أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: قالت قريش: يا محمد، كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة؟ فنزلت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى أهوال يوم القيامة، حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر عن مصير الجبال، ثم ضم إليه بيان حالة الأرض حينئذٍ، وحالة الناس الذين يسرعون إلى إجابة الداعي إلى المحشر مع خشوع وخضوع، دون أن تنفع الشفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضي للشافع قولاً لمكانه عند الله، أو رضي للمشفوع له قولاً.

التفسير والبيان:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾﴾ أي ويسألك المشركون أيها الرسول عن حال الجبال يوم القيامة، هل تبقى أو تزول؟ فقل: يزيلها الله ويذهبها عن أماكنها، ويدكها دكّاً، ويجعلها هباءً منثوراً.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي فيترك مواضعها بعد نسفها أرضاً ملساء مستوية، بلا نبات ولا بناء، ولا انخفاض ولا ارتفاع، فلا تجد مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، ولا وادياً ولا تلة أو رابية.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي حينئذٍ يتبع الناس داعي الله إلى المحشر، مسارعين إلى الداعي، حيثما أمروا بادروا إليه، لا معدل لهم عن دعائه، فلا يقدرون أن يميلوا عنه أو ينحرفوا منه، بل يسرعون إليه، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٥٤/٨] .

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي سكتت الأصوات رهبة وخشية وإنصاتاً لسماع قول الله تعالى، فلا تسمع إلا همساً، أي صوتاً خفياً.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ أي في ذلك اليوم لا تنفع شفاعة أحد إلا من أذن له الرحمن أن يشفع، ورضي قوله في الشفاعة؛ لأن الله تعالى هو المالك المتصرف في الخلق جميعاً في الدنيا والآخرة. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] ، وقوله سبحانه: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٦] ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٧٨/ ٣٨] .

وعلة تقييد الشفاعة بالإذن والرضا هي:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ أي يعلم ما بين أيدي عباده من أمر القيامة وأحوالها، وما خلفهم من أمور الدنيا، وقيل بالعكس: يعلم ما بين أيديهم من أمر الدنيا والأعمال، وما خلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب، والمراد أنه تعالى يحيط علماً بالخلائق كلهم، ولا تحيط علوم الخلائق بذاته ولا بصفاته ولا بمعلوماته.

ورجح الرازي معنى أن العباد لا يحيطون بما بين أيديهم وما خلفهم علماً؛ لأن الضمير يعود إلى أقرب المذكورات وهو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ولأنه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم أن سائر ما يقدمون عليه وما يستحقون به المجازاة معلوم لله تعالى[1].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٢/ ١١٩

﴿۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾﴾ أي ذلت وخضعت واستسلمت جميع النفوس والخلائق لجبارها الحيّ الذي لا يموت، القيُّوم الذي لا ينام، وهو قيّم على كل شيء يدبره ويحفظه، أي قائم بتدبير شؤون خلقه وتصريف أمورهم، وقد خسر من حمل شيئاً من الظلم والشرك. وخص الوجوه بالذكر؛ لأن الخضوع بها يبين وفيها يظهر. جاء في الحديث الصحيح: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، والخيبة كل الخيبة من لقي الله، وهو به مشرك، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ٣١/١٣] ».

وبعد ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم، فقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ أي ومن يعمل الأعمال الصالحة (أي الفرائض) مقروناً عمله بالإيمان بربه ورسله وكتبه واليوم الآخر، فلا يظلم ولا يهضم حقه، أي لا يزاد في سيئاته بأن يعاقب بغير ذنب، ولا ينقص من ثواب حسناته.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - تتبدد الجبال يوم القيامة بأمر الله تعالى، فتقلع قلعاً من أصولها، ثم تصير كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا، ويذر مواضعها أرضاً ملساء بلا نبات ولا بناء، لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، وعليه فإنه تعالى وصف الأرض بصفات ثلاث: كونها قاعاً أي مستوية ملساء، وصفصفاً أي لا نبات عليها، ولا عوج فيها ولا أمتاً، أي لا منخفض ولا مرتفع.

٢ - يسير الناس يوم القيامة وراء قائد المحشر، ويتبعون إسرافيل عليه السلام إذا نفخ في الصور، لا معدل لهم عن دعائه، لا يزيغون ولا ينحرفون، بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه.

وتذل الأصوات وتسكن من أجل الرحمن، فلا تسمع إلا صوتاً خفياً، أو حساً خفياً.

٣ - لا تنفع الشفاعة أحداً إلا شفاعة من أذن له الرحمن، ورضي قوله في الشفاعة.

٤ - يعلم الله جميع أمور الخلائق وما يتعرضون له من أمر الساعة (القيامة) ومن أمر الدنيا، ولا أحد يحيط علماً بذات الله وصفاته ومعلوماته.

والخلاصة: وصف الله تعالى يوم القيامة بست صفات هي:

نسف الجبال نسفاً تاماً، واتباع الناس داعي الله إلى المحشر وهو إسرافيل الذي ينفخ في الصور، وخشوع الأصوات من شدة الفزع وخضوعها فلا تسمع إلا الصوت الخفي، وعدم قبول الشفاعة من الملائكة والأنبياء وغيرهم عند الله إلا شفاعة من أذن له الرحمن ورضي قوله في الشفاعة، وإحاطة علم الله بجميع أحوال الخلائق وأمورهم في الدنيا والآخرة، فيعلم تعالى ما بين أيدي العباد وما خلفهم، ولا يحيطون بالله علماً، وتذل الوجوه أي النفوس ويصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره.

عربية القرآن ووعيده

وعدم التعجل بقراءته قبل إتمام الوحي

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾

القراءات:

﴿قُرْءَانًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قراناً).

المفردات اللغوية:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ معطوف على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾ في الآية [٩٩] أي مثل إنزال ما ذكر، أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمنة للوعيد. ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ كله على هذه الوتيرة. ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ كررنا وفصلنا فيه آيات الوعيد ويشمل بيان الفرائض والمحارم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي ومنها الشرك، فتصير التقوى لهم ملكة. والتقوى: اتقاء المحارم وترك الواجبات. ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ القرآن ﴿لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عظة وعبرة حين يسمعونها، فيثبطهم عنها، ولهذا أسند التقوى إليهم، والإحداث إلى القرآن.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ تعاظم وتنزه وتقدس في ذاته وصفاته عن مماثلة المخلوقين، فلا يماثل كلامه كلامهم، كما لا يماثل ذاته ذاتهم. ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ النافذ أمره ونهيه. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت في ذاته وصفاته. ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي لا تستعجل في قراءة القرآن حتى يتم وحيه. ﴿مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي حتى يفرغ جبريل من إبلاغه لك. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ أي سل الله زيادة العلم بدل الاستعجال، فإن ما أوحي إليك يثبت في قلبك لا محالة.

سبب النزول:

نزول الآية (١١٤):

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه جبريل بالقرآن، أتعب نفسه في حفظه، حتى يشق على نفسه، فيخاف أن يصعد جبريل، ولم يحفظه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ الآية. وثبت في الصحيح عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة، فكان مما يحرك به لسانه، فأنزل الله هذه الآية. يعني أنه ﷺ كان

إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن، فأرشده الله تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه.

المناسبة:

كما أنزل الله آيات الوعيد من أهوال يوم القيامة، أنزل القرآن كله بلغة عربية مبينة، ليفهمه العرب، ثم أبان تعالى نفع هذا القرآن للناس بالتحصن بالتقوى والاتعاظ والاعتبار بهلاك الأمم المتقدمة، وأنه سبحانه متصف بصفات الكمال ومنزه عن صفات النقصان، وأنه ضامن غرس القرآن في صدر نبيه، وصونه عن النسيان والسهو.

التفسير والبيان:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل ذلك الإنزال لآيات الوعد والوعيد وأحوال يوم القيامة، أنزلنا القرآن كله بلغة العرب ليفهموه، فهو بلسان عربي مبين فصيح، لا لبس فيه ولا عي.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي وبينا فيه أنواع الوعيد تخويفاً وتهديداً، كي يخافوا الله، فيتجنبوا معاصيه، ويحذروا عقابه، أو يحدث لهم في قلوبهم عبرة وعظة يعتبرون بها ويتعظون، ويقبلون على فعل الطاعات.

وبعد تعظيم القرآن عظم تعالى نفسه، فقال:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ أي تقدس وتنزه الله الملك المتصرف بالأمر والنهي، الثابت الذي لا يزول ولا يتغير عن إلحاد الملحدين، وعما يقول المشركون، فإنه الملك حقاً الذي بيده الثواب والعقاب، وحقه وعدله: ألا يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه، لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ أي ولا تتعجل أو تبادر إلى قراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من الوحي، حرصاً منه على ما كان ينزل عليه منه، بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده. ومثله قوله تبارك وتعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [١٦-١٩] أي أن نجمعه في صدرك ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سل ربك زيادة العلم، روى الترمذي وابن ماجه والبزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ - نزل القرآن بلغة العرب، فهو فخر وشرف لهم إلى الأبد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٤٤].

٢ - اشتمل القرآن على ما فيه كفاية لجميع مستويات البشر، الأخيار والأشرار، من التخويف والتهديد، والثواب والعقاب، والعبرة والعظة، حتى يخاف الناس ربهم، فيجتنبوا معاصيه، ويحذروا عقابه.

٣ - عظّم الله القرآن وعظم ذاته، فلما عرَّف تعالى العباد عظيم نعمه، وإنزال القرآن، نزَّه نفسه عن الأولاد والأنداد، جلَّ الله عن ذلك، فهو الملك المتصرف في الأكوان، الحقّ، أي ذو الحق، وتقدس لأنه هو حق ثابت دائم لا يتغير، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، وكل شيء منه حق.

٤ - علّم الله نبيه كيف يتلقى القرآن، قال ابن عباس: كان ﷺ يبادر جبريل، فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي، حرصاً على الحفظ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان، فنهاه الله عن ذلك، وأنزل: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾. وهذا كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ١٦].

٥ - أمر الله نبيه بأن يدعو بقوله: ﴿رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي فهماً. قال الحسن البصري: نزلت في رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلى النبي ﷺ تطلب القصاص، فجعل النبي ﷺ لها القصاص، فنزل ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] ولهذا قال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي فهماً ومعرفة؛ لأنه ﷺ حكم بالقصاص وأبى الله ذلك، لكن قال الرازي: وهذا بعيد، أما قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ فالمعنى أنه سبحانه وتعالى أمره بالفزع إلى الله سبحانه في زيادة العلم التي تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه.

وفي الآية: الترغيب في تحصيل العلم والترقي فيه إلى ما شاء الله؛ لأن رتبة العلم أعلى الرتب، وبحره واسع لا يحيط به إنسان.

قصة آدم في الجنة وإخراجه منها وإلزامه بالهداية الربانية

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَـٰنُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟﴾:

وقرأ نافع (وإنك لا تظمؤ).

﴿حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (حشرتنيَ أعمى).

الإعراب:

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا﴾ المصدر المؤول في موضع نصب؛ لأنه اسم ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا﴾ المصدر المؤول إما موضعه النصب بالعطف على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ أي: إن لك عدمَ الجوع وعدم الظمأ في الجنة، وإما موضعه الرفع بالعطف على الموضع، مثل: إن زيداً قائم، وعمرو، بالعطف على موضع ﴿إِنَّ﴾. ومن كسر (وإنك) فعلى الابتداء والاستئناف، مثل ﴿إِنَّ﴾ الأولى.

البلاغة:

﴿أَعْمَىٰ﴾ و﴿بَصِيرًا﴾ بينهما طباق.

﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾، ﴿تَعْرَىٰ﴾، ﴿تَضْحَىٰ﴾ سجع حسن غير متكلف.

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ فيه ما يسمى قطع النظير عن النظير، ففصل بين الظمأ والجوع، وبين الضحو والكسوة بقصد تحقيق تعداد هذه النعم، ومراعاة فواصل الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ أي وصيناه وأمرناه ألا يأكل من هذه الشجرة، يقال: عهد إليه: إذا أمره وأوصاه به، ولام ﴿وَلَقَدْ﴾ جواب قسم محذوف، وإنما عطف قصة آدم على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ للدلالة على أن أساس بني آدم على العصيان، وأنهم متأصلون في النسيان .﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل هذا الزمان وقبل أكله من الشجرة وقبل وجود هؤلاء المخالفين .﴿فَنَسِىَ﴾ العهد وتركه ولم يعن به حتى غفل عنه .﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ ولم نعلم له تصميماً على الذنب؛ لأنه أخطأ ولم يتعمده. و﴿نَجِدْ﴾ من الوجود بمعنى العلم، له مفعولان، والعزم: التصميم على الشيء والثبات عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي اذكر حاله في مثل ذلك الوقت، ليتبين لك أنه نسي ولم يكن من أولي العزيمة والثبات .﴿إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن، كان يصحب الملائكة، ويعبد الله معهم .﴿أَبَىٰ﴾ امتنع عن السجود لآدم، قائلاً: أنا خير منه، وهي جملة مستأنفة لبيان ما منعه من السجود، وهو الاستكبار.

﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ تتعب بمتاعب الدنيا الكثيرة، واقتصر على نسبة الشقاء لآدم؛ لأن الرجل هو المسؤول عن كفاية زوجته، وهو الذي يسعى .﴿تَظْمَؤُاْ﴾ تعطش .﴿تَضْحَىٰ﴾ تصيبك الشمس، يقال: ضحا وضحِي: إذا أصابته الشمس بحرها، والمراد: لا يحصل لك شمس الضحى لانتفاء الشمس في الجنة. والمقصود من الآية: ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ بيان وتذكير لما في الجنة من أسباب الكفاية، وأساسيات الكفاية هي الشبع والري والكسوة والسكنى.

﴿شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أي التي يخلد من يأكل منها، فلا يموت أصلاً .﴿لَّا يَبْلَىٰ﴾ لا يفنى ولا يضعف، وهو لازم الخلد .﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ أي آدم وحواء. ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ظهرت لهما عوراتهما من القبُل والدبر، وسمي كل منهما سوءة؛ لأن انكشافه يسوء صاحبه .﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي شرعا وأخذا يلزقان ورق التين على سوآتهما ليسترا به .﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بالأكل من الشجرة .﴿فَغَوَىٰ﴾ فضلَّ عن الرشد حيث اغتر بقول عدوه .﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ﴾ اصطفاه وقربه إليه بالتوفيق للتوبة .﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقبل توبته لما تاب .﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثبات على التوبة والأخذ بأسباب العصمة.

﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا﴾ أي آدم وحواء من الجنة .﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي بعض الذرية عدو لبعضها الآخر بالظلم والتحارب والتنافس الشديد على أمر المعاش .﴿فَإِمَّا﴾ فيه إدغام نون (إن) الشرطية في (ما) المزيدة .﴿هُدًى﴾ كتاب ورسول .﴿هُدَايَ﴾ هدى الوحي الإلهي .﴿فَلَا يَضِلُّ﴾ في الدنيا .﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ الهداية بكتبي السماوية المذكرة بي والداعية إلى عبادتي. وأعرض: أي امتنع فلم يؤمن بالذكر .﴿ضَنكًا﴾ مصدر وهو الضيق الشديد، والمعنى هنا: ضيقة .﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ أي المعرض عن الذكر الإلهي ومنه القرآن .﴿أَعْمَىٰ﴾ أي أعمى البصر أو القلب فلم ينظر في البراهين الإلهية،

ويؤيد الأول: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ أي في الدنيا وعند البعث. ﴿قَالَ﴾ أي الأمر ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك فعلت، ثم فسره بقوله: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ تركتها ولم تؤمن بها. ﴿وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي ومثل تركك إياها - أي الآيات - تترك اليوم في العمى والعذاب. والآيات: الأدلة والبراهين الإلهية.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل جزائنا من أعرض عن الذكر. ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ نعاقب من أشرك وأسرف في الانهماك في الشهوات، والإعراض عن الآيات. ﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ بل كذبها وخالفها. ﴿أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا وعذاب القبر وضنك العيش والعمى. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ أدوم. وذلك كقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٤].

المناسبة:

هذه هي المرة السادسة التي يذكر فيها قصة آدم في القرآن، بعد البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف.

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه بعد أن عظم الله أمر القرآن، وأبان ما فيه من الوعيد لتربية التقوى والعظة والعبرة، أردفه بقصة آدم، للدلالة على أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم، وأنهم ينسون الأوامر الإلهية، كما نسي أبوهم آدم. ثم ذكر إباء إبليس السجود لآدم للتحذير من هذا العدو الذي أخرج بوساوسه آدم من الجنة، ثم بيّن جزاء المطيع للهدي الإلهي، وجزاء المعرض عنه، وأنه سيحشر أعمى عن الحجة التي تنقذه من العذاب، بسبب إعراضه في الدنيا عن الآيات البينات التي تهديه إلى سبيل الرشاد.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ أي ووالله

لقد وصينا آدم بألا يأكل من الشجرة، فنسي ما عهد الله به إليه، وترك العمل بمقتضى العهد، فأكل من تلك الشجرة، ولم يكن عنده قبل ذلك عزم وتصميم على ذلك؛ إذ كان قد صمم على ترك الأكل، ثم فتر عزمه، عندما وسوس إليه إبليس بالأكل، فلم يصبر عن أكل الشجرة.

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنما سمي الإنسان؛ لأنه عهد إليه، فنسي. والمراد بالعهد: أمر من الله تعالى أو نهي منه، والمراد هنا: عهدنا إليه ألا يأكل من الشجرة ولا يقربها. والآية دليل على أن النسيان وعدم العزم هما سبب العصيان، وأن التذكر وقوة العزم هما سبب الخير والرشد.

ثم ذكر الله تعالى خلق آدم وتكريمه وتشريفه، فقال:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ أي واذكر أيها النبي لقومك حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تشريف وتكريم وتفضيل على كثير من خلق الله، فسجدوا إلا إبليس امتنع واستكبر ورفض المشاركة في السجود؛ لأنه كان حسوداً، فلما رأى آثار نعم الله تعالى في حق آدم عليه السلام حسده، فصار عدواً له، كما قال تعالى:

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ أي فقلنا له عقب إبائه السجود: يا آدم، إن إبليس عدو لك ولزوجك، فلم يسجد لك وعصاني، فلا تطيعاه، ولا يكوننَّ سبباً لإخراجكما من الجنة، فتتعب في حياتك الدنيا في الأرض في تحصيل وسائل المعاش كالحرث والزرع، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء، بلا كُلْفة ولا مشقة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ أي إن لك في الجنة تمتعاً بأنواع المعايش، وتنعماً بأصناف النعم من المآكل الشهية والملابس البهية، فلا تجوع ولا تعرى، ولا تعطش في الجنة، ولا يؤذيك الحرّ، كما يكون لسكان الأرض، فإن أصول

المتاعب في الدنيا: هي تحصيل الشبع (ضد الجوع) والكسوة (ضد العري) والريّ (ضد الظمأ) والسكن (ضد العيش في العراء أو تحت حرّ الشمس).

ويلاحظ أن نعم الجنة كما جاء في الآية لا عناء فيها في هذه الأصول الأربعة، فلا جوع فيها ولا عُرْي ولا ظمأ ولا إصابة بحرّ الشمس. فأيهما يفضل العقلاء: ما فيه تعب وعناء أو ما ليس فيه تعب؟!

وبعد بيان مدى تكريم آدم وتعظيمه وتحذيره من عدوه، أبان تعالى تورطه في وسوسة الشيطان، فقال:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ أي قال الشيطان لآدم بنوع من الخفية: ألا أرشدك إلى شجرة الخلد: وهي الشجرة التي من أكل منها لم يمت أصلاً، وإلى ملك دائم لا يزول ولا ينقضي. وكان ذلك كذباً من إبليس ليستدرجهما إلى معصية الله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٢١] ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٢].

جاء في الحديث ذكر شجرة الخلد، أخرج الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام، ما يقطعها، وهي شجرة الخلد».

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ أي فأكل آدم وحواء من الشجرة التي منعا من الأكل منها، فانكشفت عورتهما وسقط عنهما لباسهما، فشرعا يُلْصقان عليهما ويُلْزِقان ورق التين، فيجعلانه على سوآتهما، وعصى آدم ربه أو خالف أمر ربه بالأكل من الشجرة المنهي عن الأكل منها، فضلّ عن الصواب، وفسد عليه عيشه.

ولا شك بأن مخالفة الأمر الواجب معصية، وأن الجزاء حق وعدل بسبب المعصية، لكنها معصية من نوع خاص بترتيب وتدبير وإرادة الله عز وجل، وفي حال نسيان آدم عهد الله إليه بألا يأكل من الشجرة، أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «حاجّ موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر كتبه الله علي، قبل أن يخلقني، أو قدره الله علي قبل أن يخلقني؟ قال رسول الله ﷺ: فحجّ آدم موسى».

لهذا تاب الله تعالى على آدم من معصيته، فقال:

﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ أي ثم اصطفاه ربه وقرّبه إليه، بعد أن تاب من المعصية واستغفر ربه منها، وأنه قد ظلم نفسه، فتاب الله عليه من معصيته، وهداه إلى التوبة وإلى سواء السبيل، كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٣٧] وقال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢٣].

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ أي قال الله تعالى لآدم وحواء: انزلا من الجنة إلى الأرض معاً، بعضكم يا معشر البشر في الدنيا عدو لبعض في أمر المعاش ونحوه، مما يؤدي ذلك إلى وقوع الخصام والنزاع والاقتتال.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي فإن يأتكم أيها البشر مني هدى بواسطة الأنبياء والرسل وإنزال الكتب، فمن اتبع الهدى، فلا يضل عن الصواب في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. قال ابن عباس: «ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه، ألا يضلّ في الدنيا،

ولا يشقى في الآخرة، وتلا الآية». وقال أيضاً: «من قرأ القرآن، واتّبع ما فيه، هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية».

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي ومن أدبر عن ديني وتلاوة كتابي والعمل بما فيه، فإن له في هذه الدنيا عيشاً ضيقاً، ومعيشة شديدة منغصة، إما بشح المادة وإما بالقلق والهموم والأمراض.

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي ونحشره ونبعثه في الآخرة مسلوب البصر، أو أعمى عن الجنة وطريق النجاة، أو أعمى البصر والبصيرة، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [الإسراء: ١٧/٩٧] .

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؟ أي قال المعرض عن دين الله: يا ربّ، لم حشرتني أعمى، وقد كنت مبصراً في دار الدنيا؟

فأجابه الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أي مثل ذلك فعلت أنت، فكما تركت آياتنا وأعرضت عنها ولم تنظر فيها، تترك في العمى والعذاب في النار، ونعاملك معاملة المنسي، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا﴾ [الأعراف: ٧/٥١] فإن الجزاء من جنس العمل.

قال ابن كثير: فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد في ذلك. أخرج الإمام أحمد عن سعد بن عبادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما من رجل قرأ القرآن، فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه، وهو أجذم»[١].

(١) تفسير ابن كثير: ٣/١٦٩

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ أي وهكذا نجازي ونعاقب المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة، ولعذاب الآخرة في النار أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه. قال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٤] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت قصة آدم عليه السلام على ما يلي:

١ً - قد يرتكب الإنسان معصية مخالفاً أمر الله في حال النسيان والسهو عن عهد الله بطاعته، والنسيان مرفوع عنا الحرج والإثم فيه. قال ابن زيد: نسي آدم ما عهد الله إليه في ذلك اليوم، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس.

٢ً - أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتشريف وتكريم، لا سجود عبادة، وأبى إبليس السجود مع الملائكة تكبراً واستعلاء وحسداً.

٣ً - لا شك بأن الجنة ذات نعيم مطلق، فلا تعب ولا عناء في الحصول على الملذات والرغبات، ومن أهمها الشبع والكساء والري والسكن أو المأوى، على عكس حال الدنيا التي ترتبط أصول المعايش هذه فيها بالجهد والمشقة.

٤ً - كانت وسوسة الشيطان لآدم بالأكل من الشجرة سبباً في المخالفة والإخراج من الجنة والهبوط إلى الأرض.

٥ً - لا يجوز الحديث عن ذنوب الأنبياء إلا بالقدر المذكور في القرآن الكريم أو السنة النبوية الثابتة، قال بعض العلماء من المالكية: إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم (أي بعض الأنبياء) ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصّلوا منها، واستغفروا منها وتابوا، وكل

ذلك ورد في مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزري بمناصبهم، وإنما تلك الأمور التي وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفي حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة.

ولقد أحسن الجنيد حين قال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين» فهم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم، وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح في رتبتهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكّاهم واختارهم واصطفاهم، صلوات الله على نبينا وعليهم وسلامه(١).

٦ً - أما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء أجمعوا على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول: تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت، وقد قدَّر الله علي ذلك. والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه(٢).

٧ً - لقد اجتبى الله تعالى آدم وهداه بعد العصيان، فإن وقع هذا قبل النبوة فجائز عليهم الذنوب؛ لأن قبل النبوة لا شرع علينا في تصديقهم، وإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه، لم يضر ما سلف منهم من الذنوب.

٨ً - أمر الله تعالى آدم وزوجه حواء بالهبوط إلى دار الدنيا، والدنيا دار تكليف وتنافس وتزاحم ومعاداة، وسبيل التقويم والتميز: الالتزام بهداية

(١) تفسير القرطبي: ١١/ ٢٥٥

(٢) المصدر السابق: ١١/ ٢٥٧

الله، فمن اهتدى بهداية الرسل والكتب الإلهية فقد رشد، ولا يضل عن الصواب، ولا يشقى في الآخرة.

ومن أعرض عن دين الله، وتلاوة كتابه، والعمل بما فيه، كان له عيش ضيق مشحون بالعذاب النفسي والجسدي والعقلي، ويحشر يوم القيامة أعمى البصر والبصيرة، لا يدرك طريق النجاة، ويزج به في عذاب جهنم.

٩ - لا عذر للكافر يوم القيامة بعد أن أتته الآيات والدلائل على إثبات وحدانية الله وقدرته ووجوب العمل بشرعه، فإذا ما تركها ولم ينظر فيها، ترك في العذاب في جهنم.

وهكذا يعاقب كل من أعرض عن القرآن، وعن النظر في مصنوعات الله، والتفكر فيها، وجاوز الحد في المعصية، ولم يصدق بآيات ربه، علماً بأن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا حال الحياة أو في القبر، وأدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضي.

الاعتبار بهلاك الأمم الماضية والصبر على أذى المشركين وعدم الالتفات إلى متعهم وأمر الأهل بالصلاة

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿تَرْضَىٰ﴾:

وقرأ الكسائي (تُرْضى).

﴿وَأْمُرْ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وامُرْ).

الإعراب:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ فاعل ﴿يَهْدِ﴾ مقدر، وهو المصدر، أي: أفلم يهد لهم الهدى أو الأمر. و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ وهو مفعول مقدم، أي كم قريةٍ. و﴿كَمْ﴾ خبرية. و﴿يَمْشُونَ﴾ جملة حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾.

﴿وَأَجَلٌ﴾ معطوف بالرفع على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي: ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى، لكان العذاب لزاماً، أي لازماً لهم، ففصل بين المعطوف والمعطوف عليه بجواب ﴿وَلَوْلَا﴾: وهو كان واسمها وخبرها.

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ معطوف على محل ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ﴾.

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ منصوب لثلاثة أوجه: الأول - بتقدير فعل دل عليه ﴿مَتَّعْنَا﴾ الذي هو بمنزلة (جعلنا) فكأنه قال: وجعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا. والثاني - النصب على الحال، وحذف التنوين لالتقاء الساكنين، مثل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١١٢/١-٢] و﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ بدل من ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا مَتَّعْنَا بِهِۦ﴾ أي: ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرة، أي في حال زهرتها. والثالث - النصب على البدل من هاء ﴿بِهِۦ﴾ على الموضع، كما يقال: مررت به أباك.

البلاغة:

﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ تشبيه تمثيلي، شبه متاع الحياة الدنيا ونعيمها بالزهر الجميل الذي يذبل وييبس.

المفردات اللغوية:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ أي أفلم يتبين لهم - لكفار مكة - العِبَر. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ أي كثيراً إهلاكنا. ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ الأمم الماضية، لتكذيب الرسل. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يسيرون فيها، ويشاهدون آثار إهلاكهم أثناء سفرهم إلى الشام وغيرها، فيعتبروا ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ لعبراً. ﴿لِّأُوْلِى ٱلنُّهَىٰ﴾ لذوي العقول.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي هي العِدَةُ بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة. ﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾ لكان الإهلاك لازماً لهم في الدنيا، لا يتأخر عنهم. ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾ أي ولولا الوعد بتأخير العذاب وأجل مسمى لأعمارهم أو لعذابهم، وهو يوم القيامة، أو يوم القتل في المعركة في الدنيا كبدر، لكان العذاب لازماً. ويجوز عطف ﴿وَأَجَلٌ﴾ على ضمير ﴿لَكَانَ﴾ المستتر، أي لكان الأخذ العاجل والأجل المسمى لازمين لهم.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه مقترناً بحمده، أو: صلِّ وأنت حامد لربك على هدايته وتوفيقه. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ صلاة الصبح. ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صلاة الظهر والعصر أو العصر وحده. ﴿وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاته، جمع إِنْي وإِنْو. ﴿فَسَبِّحْ﴾ صل المغرب والعشاء. ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي صل الظهر؛ لأن وقتها يدخل بزوال الشمس، فهو طرف النصف الأول وطرف النصف الثاني. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ متعلق بسبح، أي سبّح في هذه الأوقات، طمعاً أن تنال عند الله ما به ترضى نفسك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أي لا تطيلن نظر عينيك رغبة واستحساناً إلى ما في

أيدي الآخرين من مُتَع الدنيا، وتتمنى أن يكون لك مثله. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً وأشكالاً. ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ زينتها وبهجتها. ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنبتليهم ونختبرهم فيه. ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ أي ما ادّخره لك في الآخرة، أو ما رزقك من الهدى والنبوة. ﴿خَيْرٌ﴾ مما منحهم في الدنيا. ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ أدوم لا ينقطع. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ اصبر وداوم عليه. ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك. ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ وإياهم، ففرِّغ بالك لأمر الآخرة. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة وهي الجنة. ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ لأهل التقوى أو لذويها.

سبب نزول الآية (١٣١)

نزلت آية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ﴾ حينما أبى يهودي أن يسلط النبي ﷺ شعيراً إلا برهن، فقال: «إني لأمين في السماء أمين في الأرض». فنزلت الآية في ذلك.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى حال من أعرض عن ذكر الله، في الآخرة، أتبعه بما هو عبرة للناس من أحوال المكذبين بالرسل في الدنيا، كقوم عاد وثمود، ثم أبان فضله تعالى بتأخير العذاب عن الكافرين والعصاة إلى الآخرة، ثم أمر الله نبيه بالصبر على أذى المشركين، وبمداومة الصلاة والتسبيح ليلاً نهاراً، ونهاه عن تمني ما عند الكفار من متع الدنيا، ثم أمره بأن يأمر أهل بيته أو التابعين له من أمته بالصلاة، روي أنه ﷺ كان إذا أصاب أهله ضر، أمرهم بالصلاة، وتلا هذه الآية.

التفسير والبيان:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ أي أفلم يتبين لهؤلاء المكذبين أهل مكة بما جئتهم به يا محمد إهلاكنا كثيراً من الأمم الماضية المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا ولم

يبق لهم أثر، كعاد وثمود وأصحاب الحجر وقرى قوم لوط الذين يتقلبون في ديارهم أو يمشون في مساكنهم، ويشاهدون آثارهم المدمرة، فإن في ذلك لعبراً وعظات توجب الاعتبار لذوي العقول الصحيحة التي تنهى أصحابها عن القبيح، وتدرك احتمال أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)﴾ [الحج: ٢٢/٤٦] وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)﴾ [السجدة: ٣٢/٢٦].

ثم بيَّن الله تعالى سبب تأخير العذاب عنهم، فقال: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩)﴾ أي ولولا الكلمة السابقة النافذة من الله في الأزل، وهي وعد الله سبحانه بتأخير عذاب أمة النبي ﷺ إلى الدار الآخرة، لكان عقاب ذنوبهم لازماً لهم، لا ينفك عنهم بحال، ولا يتأخر، ولولا الأجل المسمى عندنا لكان الأخذ العاجل.

لهذا قال الله لنبيه مؤانساً له وآمراً له بالصبر:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)﴾ أي فاصبر أيها الرسول على ما يقول هؤلاء المكذبون بآيات الله، من أنك ساحر كذاب، أو مجنون، أو شاعر، ونحو ذلك من أباطيلهم ومطاعنهم، لا تأبه بهم، فإن لعذابهم وقتاً معيناً لا يتقدم، واشتغل بتنزيه ربك وحمده وشكره وأداء الصلوات الخمس المفروضة قبل طلوع الشمس، أي صلاة الفجر، وقبل غروبها، أي صلاة العصر والظهر، ومن ساعات الليل أي صلاة العشاء والمغرب والتهجد أواخر الليل، وفي أطراف النهار، أي صلاة الفجر والمغرب تأكيداً لهاتين

الصلاتين الواقعتين في طرفي النهار، كالتأكيد على (الصلاة الوسطى) وهي العصر، سبّحه رجاء أن تنال عند الله سبحانه ما ترضى به نفسك من الثواب، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى: ٩٣/ ٥] .

أخرج الإمام أحمد ومسلم عن عمارة بن رُؤَيبة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها».

وفي الصحيحين عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغْلَبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا، وقرأ هذه الآية».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا أهل الجنة فيقولون: لبَّيْك ربنا وسَعْديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربّنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إني أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

دلت الآية على أن سبيل التغلب على تكذيب المكذبين الكافرين المعاندين هو الصبر لما فيه من قوة الإرادة، ثم التسبيح والتحميد والصلاة والتكبير باعتبارها مقوية للروح والصلة بالله تعالى، فتزول عن النفس والجسد المتاعب والآلام والهموم.

والاستعلاء بالروح يستتبع الانصراف عن متع الحياة الدنيا، لذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ أي ولا تنظر أو لا تطل النظر إلى ما عند هؤلاء المترفين من النعيم ومتع الدنيا من زينة وبهجة من مال وبناء ورياش ومراكب، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، ونتعرف على من يؤدي واجب شكر النعمة، واجعل همتك فيما عند الله، فقد آتاك ربك

خيراً مما آتاهم، فقد يسر لك رزقك في الدنيا، وثواب الله وما ادخر لك في الآخرة خير مما رزقهم في الدنيا على كل حال، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر: ١٥/٨٧-٨٨] وليس المقصود بالآيتين التكاسل عن طلب الرزق، ولكن النهي عن تمني مثل ما في يد الكفار والعصاة من حطام الدنيا، والانشغال بها، وترك العمل للآخرة، بل إننا نعمل للآخرة والدنيا معاً.

ثم أمره الله بأن يأمر أهله بالصلاة، فقال:

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ أي وأمر أيها الرسول أهل بيتك واستنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة، واصبر أنت على فعلها وحافظ عليها، لا نطلب منك رزقاً ترزق نفسك وأهلك ولا نكلفك الطلب، بل تفرغ للعبادة والتقوى، فنحن نرزقك ونرزقهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٨]، والعاقبة المحمودة، وهي الجنة لأهل التقوى والطاعة.

فإذا أقمت الصلاة مع أهلك، أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/٢-٣]. وأمر النبي ﷺ وأهله بالصلاة أمر للأمة قاطبة.

أخرج مالك والبيهقي عن أسلم قال: كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله تعالى أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل، أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم: الصلاةَ الصلاةَ، ويتلو هذه الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله ابن سلام قال: كان النبي ﷺ إذا نزلت بأهله شدة أو ضيق، أمرهم بالصلاة وتلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾.

وروى الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأت صدرك شُغْلاً، ولم أسدّ فقرك».

وروى ابن ماجه عن ابن مسعود، سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم هماً واحداً هم المعاد، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي أوديته هلك».

وروى أيضاً عن زيد بن ثابت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته، جمع له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - يعظ الله تعالى الكفار بأن يعتبروا بأحوال الأمم الماضية الذين أهلكهم لتكذيبهم الرسل، فلربما حل بهم من العذاب مثلما حل بالكفار قبلهم.

٢ً - لولا الحكم السابق من الله في الأزل بتأخير عذاب أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، لكان العذاب لازماً في الحال لمن كفر وأعرض عن آيات الله تعالى.

٣ً - الصبر علاج حاسم على أذى الكفار المناوئين دعوة الرسول ﷺ، لذا أمر الله تعالى نبيه بالصبر على أقوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كذاب، ونحو ذلك، وألا يحفل بهم؛ فإن لعذابهم وقتاً محدداً معيناً لا يتقدم ولا يتأخر.

٤ً - قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يراد به في رأي الأكثرين الصلوات

الخمس المفروضة، فصلاة الصبح قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل الغروب، ومعها الظهر لأنها تجمع معها، وصلاة العشاء في ساعات الليل، وكذا صلاة المغرب. ويرى آخرون أن قوله تعالى: ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ إشارة إلى المغرب والظهر؛ لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول، وأول طرف النهار الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث: غروب الشمس وهو وقت المغرب.

٥ً - إن أداء الصلوات في أوقاتها من رضوان الله، وسبب للثواب العظيم، وقد جعل تعالى الثواب واسعاً غير محدود على فعل الصلوات، فقال مخاطباً نبيه، وأمته مثله: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ أي لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به.

٦ً - إن هم المؤمن أصالة هو العمل للآخرة، وأما الدنيا فهي تبع لهذا المقصد الأصلي، على عكس الحال بالنسبة إلى الكفار، فلا هم لهم إلا الدنيا، لذا نهى الله نبيه عن تمني مثل ما لدى الكفار من زهرة الحياة الدنيا من المال والمباني والأثاث والمراكب وغيرها، فهذا ابتلاء واختبار لهم، ليكون جحودهم ونكرانهم نعم الله سبباً لعذابهم في الآخرة.

ويلاحظ التسلسل المنطقي في هذه الأحكام والآيات الدالة عليها، فقد وبخ الله تعالى الكفار على ترك الاعتبار بالأمم السابقة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه باحتقار شأنهم، والصبر على أقوالهم، والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا، إذ ذلك زائل عنهم، صائر إلى خزي.

وختم ذلك بتسلية النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ أي ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى.

٧ً - أمر الله نبيه بأن يأمر أهله بالصلاة وبالمحافظة عليها وملازمتها، ويدخل في عموم خطاب النبي ﷺ جميع أمته وأهل بيته على التخصيص. وكان

ﷺ بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلي رضوان الله عليهما فيقول: «الصلاة». وكان عروة بن الزبير إذا رأى شيئاً من أحوال السلاطين بادر إلى منزله فدخله، وهو يقرأ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ الآية، ثم ينادي بالصلاة: الصلاة يرحمكم الله.

٨ - نهى الله تعالى نبيه أن يشتغل عن الصلاة بسبب الرزق، بل تكفل له برزقه ورزق أهله، فكان عليه الصلاة والسلام إذا نزل بأهله ضيقٌ، أمرهم بالصلاة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦-٥٨].

٩ - إن العاقبة الجميلة المحمودة وهي الجنة لأهل التقوى. وأما عاقبة غيرهم فهي مذمومة كالمعدومة.

اقتراح المشركين الإتيان بمعجزة أو إرسال رسول وتهديدهم بمآل المستقبل

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾

القراءات:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾:

قرئ:

١- (أو لم تأتهِم) وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (أو لم يأتهِم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (السراط).

الإعراب:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ﴾ بغير تنوين مضاف إلى ﴿مَا﴾. ومن قرأ بتنوين، جعل ﴿مَا﴾ في موضع نصب بدلاً من ﴿بَيِّنَةُ﴾.

﴿مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ﴿مَنْ﴾ استفهامية مبتدأ، و﴿أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ﴾ خبره. ولا يجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ اسماً موصولاً بمعنى الذي؛ لأنه ليس في الكلام الذي بعدها عائد يعود إليه، والجملة في موضع نصب بـ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾.

البلاغة:

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ وعيد وتهديد.

﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُواْ﴾ أي المشركون. ﴿لَوْلَا﴾ هلا. ﴿يَأْتِينَا﴾ محمد ﴿بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ بمعجزة يقترحونها تدل على صدقه في ادعاء النبوة، كناقة صالح، وعصا موسى، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص، فألزمهم بإتيانه بالقرآن الذي هو أم المعجزات وأعظمها وأتقنها؛ لأن حقيقة المعجزة: اختصاص مدّعي النبوة بنوع من العلم أو العمل، على وجه خارق للعادة، ولا شك أن العلم أصل العمل وأعلى منه قدراً، وأبقى أثراً، والقرآن محقق لذلك.

ونبههم أيضاً على وجه أبين من وجوه إعجاز القرآن: وهو الإخبار عن الأمم السابقة، فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتماله على خلاصة ما فيها من العقائد والأحكام الكلية، مع أن الآتي بها أمي، لم يرها ولم يتعلم من علمائها، إعجاز بين؛ وفيه إشعار بأنه كما يدل على نبوته، برهان لما تقدمه من الكتب، من حيث إنه معجز، وهي ليست كذلك، بل هي مفتقرة إلى ما يشهد بصحتها.

فقوله: ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي بيان ما اشتملت عليه، وأخبار الأمم الماضية التي أهلكت بتكذيب الرسل، في القرآن.

﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ قبل محمد الرسول .﴿لَقَالُواْ﴾ يوم القيامة .﴿لَوْلَآ﴾ هلا. ﴿ءَايَٰتِكَ﴾ المرسل بها .﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ نهان في الدنيا بالقتل والسبي. أو في القيامة .﴿وَنَخْزَىٰ﴾ نفتضح بدخول النار ﴿جَهَنَّمَ﴾ يوم القيامة.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾ قل لهم: كل واحد منا ومنكم .﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾ منتظر ما يؤول إليه الأمر .﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ في القيامة .﴿ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ الطريق المستقيم. ﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ من الضلالة، أنحن أم أنتم؟!

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون، وأمره بأن يعدل إلى التسبيح والتحميد، وأتبع ذلك بنهيه عن مدّ عينيه إلى ما متع به القوم، ذكر هنا بعض أقاويلهم الباطلة، ومنها ادعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ، ثم أوضح لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بيِّنة، وأنه لو أهلكناهم لطلبوا إرسال رسول، ثم هددهم وأوعدهم بما سيؤول إليه الأمر في المستقبل، ويتميز المحق من المبطل.

التفسير والبيان:

كان المشركون يكثرون من اقتراح الآيات على النبي للتعجيز والعناد والمضايقة بسبب عدم إيمانهم، وعدم الاكتفاء بالمعجزات التي يرونها، فقال تعالى واصفاً تعنتهم:

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾ أي وقال الكفار المشركون: هلا يأتينا محمد بآية من ربه دالة على صدقه في أنه رسول الله، كما كان يأتي بها من قبله من الأنبياء، من الآيات التي اقترحناها عليه؟ مثل ناقة صالح وعصا موسى، وإحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فأجابهم الله: ألم يأتهم القرآن المعجزة الباقية الخالدة، وهو البينة والشاهد على صحة ما في الكتب المتقدمة، كالتوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب المنزلة المشتملة على العقيدة والأحكام التشريعية، وفيها التصريح بنبوته والتبشير به، فإن هذه الكتب المنزلة هم معترفون بصدقها وصحتها، وفيها ما يدفع إنكارهم لنبوته، ويبطل تعنتاتهم وتعسفاتهم؟!

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٥٠-٥١].

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة».

وقد ذكر ههنا أعظم الآيات التي أعطيها ﷺ وهو القرآن وإلا فله ﷺ من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر.

وسيعترف المشركون يوم القيامة بأن القرآن آية بينة كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ أي ولو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل بعثة هذا الرسول محمد ﷺ وإنزال هذا الكتاب العظيم، لقالوا يوم القيامة: يا ربنا هلا كنت أرسلت إلينا رسولاً في الدنيا، حتى نتبع آياتك التي يأتي بها الرسول من قبل أن نذل بالعذاب في الدنيا ونخزى بدخول النار؟ والآية دليل على أن التكليف والعقاب لا يكون قبل مجيء الشرع.

والحق أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون، لا يؤمنون ولو جاءتهم الآيات تترى، كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/١٠٩-١١٠].

﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين كذبوك وخالفوك واستمروا على كفرهم وعنادهم: كل واحد منا ومنكم منتظر لما يؤول إليه الأمر، فانتظروا أنتم، فستعلمون عن قريب في عاقبة الأمر، من هو على الطريق الحق المستقيم، أنحن أم أنتم؟ وستعلمون من المهتدي من الضلالة، البعيد عن الغواية، السائر على منهج الحق والرشاد؟

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٤٢] وقوله سبحانه: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ [القمر: ٥٤/٢٦].

والآية التي ختمت بها السورة مشتملة على وعيد وتهديد وزجر للكفار، وهي مناسبة لبدء السورة المتضمن قيام النبي ﷺ بتبليغ رسالته حتى أتعب

نفسه، وما على أهل البلاغ إلا الطاعة، فإن أطاعوا نجوا، وإن أعرضوا هلكوا، وسيتبين لهم الحق من الباطل، وقد تبين لجماعات كثيرة من الكفار في التاريخ خطؤهم وسوء حالهم وعاقبة كفرهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - تكاثرت اقتراحات الكافرين من أهل مكة بأن يأتيهم محمد بآية تدل عياناً على الإيمان، أو علامة ظاهرة حساً كالناقة والعصا، أو آيات يقترحونها هم كما أتى الأنبياء من قبله.

٢ - كان الرد القرآني الحاسم عليهم أنه يكفيهم هذا القرآن العظيم المعجزة الخالدة، وهو المهيمن على الكتب السماوية السابقة، والمعبر عما كان فيها من عقائد وحِكَم وأحكام وآداب. بل إن تلك الكتب الماضية تضمنت العلامة الدالة على نبوة محمد ﷺ بما وجدوه في الكتب المتقدمة من البشارة.

٣ - لو أهلك الله الكفار قبل بعثة محمد ﷺ ونزول القرآن، لقالوا يوم القيامة: ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً، حتى نتبع آياتك من قبل هذا الذل بالعذاب في الدنيا والخزي بدخول النار؟! وكون القول يوم القيامة؛ لأن الهالك لا يصح أن يقول، ولذلك قال: ﴿مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ وهو لا يليق إلا بعذاب الآخرة. والآية دليل على أنه لا عقاب قبل الشرع.

٤ - هدد الله الكفار بما ينتظرهم من العذاب وما يؤول إليه أمرهم، فإن كان كل فريق من المؤمنين والكافرين منتظراً دوائر الزمان ولمن يكون النصر، فسيعلم الكفار أن النصر سيكون لمن اهتدى إلى دين الحق.

تم الجزء السادس عشر ولله الحمد

فهرس المجلد الثامن

فهرس الجزء الخامس عشر

الموضوع	الصفحة



فهرس الجزء السادس عشر

الموضوع	الصفحة

* * *